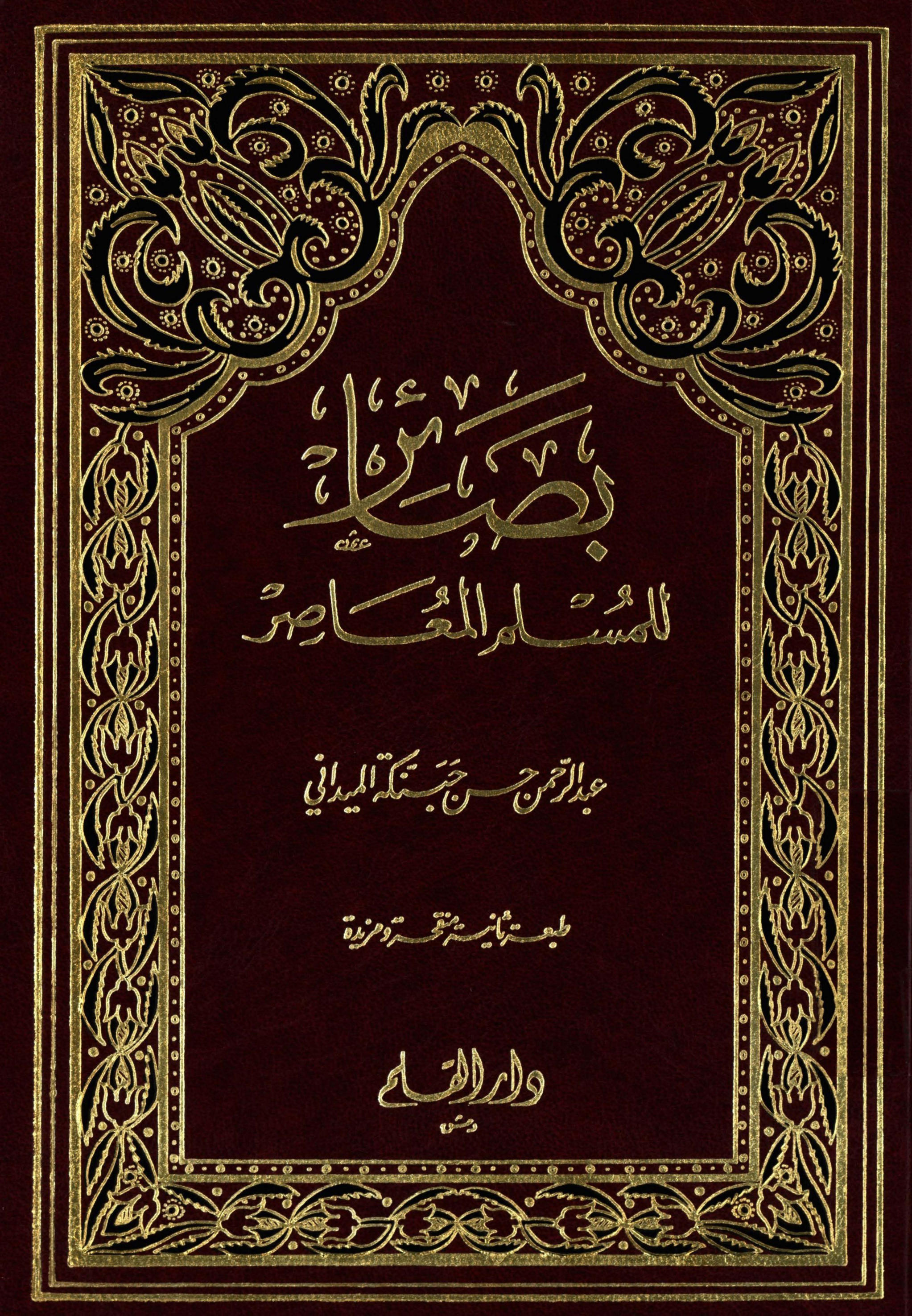
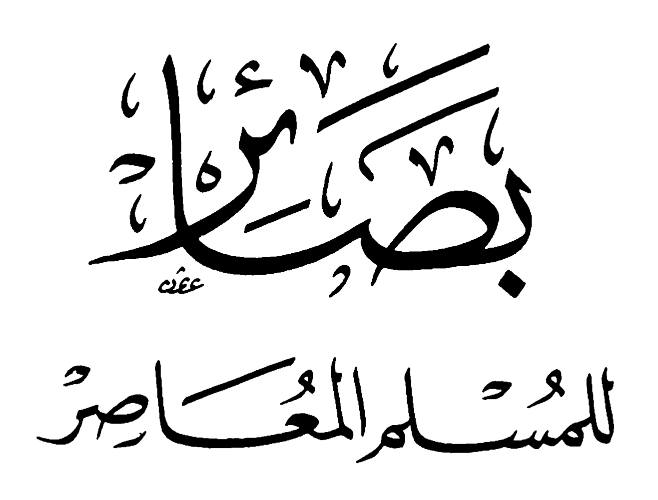

بصائر
للمسلم المعاصر
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
طبعة ثانية منقحة ومزيدة
دار القلم
دمشق


بسم الله الرحمن الرحيم


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني

طبعة ثانية منقحة ومزيدة

دار القلم
دمشق

الطبعة الثانية
١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

الإهداء

أحبَّتي وإخوَتي إلَيْكُمُو هَدِيّتي إلَيْكُمُو نَصِيحَتي
إليكُمُو وَصِيَّتي إليكُمُو مَحَبَّتِي مضمومَةً في بَاقَتِي

* * *

هَدِيَّتِي. بَصَائِرْ لِلْمُسْلِمِ الْمُعَاصِرْ عَلَىٰ طَرِيقِ الصَّحْوَةِ

* * *

نَصِيحَتِي. زَوَاجِرْ لِلْمُسْلِمِ الْمُخَاطِرْ فِي غَفْلَةِ الْبَصِيرَةِ

* * *

وَصِيَّتي. خَوَاطِرْ لِلْمُسْلِمِ الْمُصَابِرْ بِمُدْلَهِمِّ النَّكْبَةِ

* * *

وَبَاقَتِي. أَزَاهِرْ تَزْدَانُ بِالْجَوَاهِرْ مِنْ سُورَةٍ وخِبْرَةِ

* * *

تَسِيرُ لِلضَّمَائِرْ وَالأَنْفُسِ الْحَرَائِرْ مَقْرُونَةً بِمُهْجَتِي

حَامِلَةً هَدِيَّتِي
حَامِلَةً نَصِيحَتِي
حَامِلَةً وَصِيَّتِي
حَامِلَةً مَحَبَّتِي
مضْمُومَةً فِي باقَتِي

مكة المكرمة
في ١٢ ربيع الأول ١٤٠٣ هجرية

عبد الرحمن حسن حَبَنَّكَة الميداني

نداء قلب حزين

يا شباب الإسلام، ويا طلائع البناء الجديد، ويا حبّات قلوب الأمّة الإسلامية المجيدة.

ليكن في علمكم أنّ دهاة الكيد العالميّين قد بالغوا في الكلام على الصحوة الإسلامية المعاصرة في العالم الإسلامي، وهوّلوا أمرها لهدفين:

- ليورِّطوا شباب الإسلام وطلائع البناء الجديد، في رُعونات تسحق هذه الصحوة، وتُعيد المسلمين إلى سُباتهم.
- وليدقُّوا ناقوس الخطر في آذان دول العالم الغربي، وسائر الدول التي تخشىٰ عودة الإسلام إلى الظهور والقوة في الأرض، تحذيراً لهم من ظهور الكيان العظيم الذي يخوّفهم منه أحبار يهود وقادتهم تخويفاً كبيراً، ألاَ وهو ظهور كيان الأمّة الإسلامية الواحدة من جديد.

فاعرفوا كيف تصحون، إن كنتم حقًّا حريصين على صحوة حقيقيّة يقظة ناضجة، غير غبيّةٍ ولا رعناء، ولا فَجَّةٍ ولا مراهقة.

لا تغترّوا بمن يخادعكم ليستدرجكم ، ولا يقودَنّكم أحداث الأحلام، ولا المراهقون في فهم الإسلام، ولا تعتبروا كلّ من يخالفكم في الرأي خصماً لكم، ولا كل من يوافقكم في الرأي صديقاً لكم، فقد يكون المخالف في الرأي من أكثر الناس ودّاً لكم، وحرصاً عليكم، ورغبة بتحقيق غايتكم، وقد يكون الموافق لكم في الرأي، المصفِّق لأعمالكم، والمؤيد الممدّ لكم من أكثر الناس عداءً لكم، وحرصاً على

توريطكُم، ورغبة بفشلكم وعدم تحقيق غايتكم.

لا تشتروا الثمار على أشجارها قبل أن يبدوَ صلاحها، فريح باردة أو شديدة تُسقطها وهي غير صالحة للانتفاع بها.

ولا تحاولوا أن تقطفوا ثمار زرعكم قبل نضجه، فإنكم إن فعلتم ذلك أتلفتم ثماركم، وأضعتم جهودكم، وجلبتم اليأس إلى نفوسكم، وأيأستم مَنْ وراءكم، ورجعتم من الحقل تَمْضَغُون مرارة الخيبة والندم.

واعلموا أنّ من استعجَل الشيء قبل أوانه عُوقب بحرمانه.

لِيكُنْ بُستانيُّكم زَرَّاعاً ماهراً مُجرِّباً محنَّكاً، وعليماً أيضاً بأصول الزراعة الحديثة.

واتقوا الله في أعمالكم، إنّ الله مع المتقين، وأتقنوا وأحسنوا وسائلكم وأسبابكم وخططكم، إنّ الله مع المحسنين.





فَاتِحَةُ لِقَـاءٍ مَعَ الإِخْوَة

الحمد لله الذي فضّل هذه الأمّة الإسلامية الخاتمة للأمم بأمور:

الأول: استمرار العدالة فيها حتّى يأتي أمر الله، وهـذه العدالـة ستظلّ في مجموع هذه الأمّة بشكل عامّ، لا في جميعها.

فهي لا تجتمع على ضلالة، ولا تزال تبرز هذه العدالة في طائفة منها، يكونون ظاهـرين على الخَلْق، يقـولون الحق، ويهـدون به، وبـه يعدلون، لا يضرّهم من خالفهم، حتى يأتي أمرُ الله.

الثاني: أنّها أمّةُ دعوةٍ بالحكمة والموعظة الحسنة، تبلّغ دين الله للناس أجمعين، بألسنتهم، وفي مواطنهم.

وهذه الوظيفة هي الوظيفة الأساسية والرئيسيّة لهذه الأمّة، والتي كلّفها الله أن تقوم بها، وهي وظيفة تحمل فيها مجتمعةً الرسالة التي حملها الرسول محمد ﷺ لمن بلّغه مباشرة من الناس في زمانه.

الثالث: أنّها أمّةُ أمرٍ بالمعروف ونَهْيٍ عن المنكر، داخل المجتمع الإسلامي، على اختلاف دوائره، ومؤسّساته وأُسره وشعوبه.

فهي في مجموعها لا تسكت عن إحقاق الحق، وإبطال الباطل، ولا تهمل واجبات الإصلاح والتقويم والرّدع، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

الرابع: أنّها أُمّةُ شَهَادة، تشهد على الناس جميعاً يوم القيامة، بأنّها بلّغتهم دين الله، ودعتهم إلى اتّباعه والعمل بأحكامه، وأقامت عليهم

الحجّة. وتشهد على الجاهلين والمنحرفين والعصاة من المنتمين إلى الإسلام، بأنّها علّمتهم أحكام الله، ونصحتهم، وأمرتهم بالمعروف ونهتهم عن المنكر.

الخامس: أنها أمّةُ جهاد في سبيل الله لالتزام دين الله في أنفسها، ولتحقيق التبليغ الواجب والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وللقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولتحمّل الشهادة التي ستشهد بها يوم الدين. ثمّ لإعلاء كلمة الله، وإقامة العدل، والحكم بالقسط، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، فإذا علم الله أنها صارت مؤهلة لذلك استخلفها ومكّن لها في الأرض، وملّكها عروش الظالمين.

وقد دلّ على هذه الأمور الخمسة نصوص إسلامية كثيرة، منها النصوص التالية:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿ وكذلك جعلناكم أمّةً وَسَطاً لتكونوا شهداءَ على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﴾ (١٤٣).

وسطاً: أي عدولاً.

لتكونوا شهداء على الناس: أي لتبلّغوا دين الله للناس كما بلّغ الرسول، ولتدعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة كما دعا الرسول، فتكونوا يوم القيامة شهداء على الناس بأنكم بلّغتموهم الرسالة وأدّيتم إليهم الأمانة، كما يكون الرسول ﷺ شهيداً على من بلّغه مشافهة أو مراسلة في حياته.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران ٣):

﴿ كنتم خير أُمّةٍ أُخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهَوْن عن المنكر، وتؤمنون بالله ﴾ (١١٠).

أي: كنتم إذِ اجْتباكم الله واختاركم واصطفاكم خير أمّةٍ أُخْرجت للناس. فالاجتباء للرسول بالنبوة والرسالة، والاجتباء لأمّةِ الإجابة

المسلمين الذين آمنوا بمحمد ﷺ قد كان لحمل رسالته، يبلّغون الناس جميعاً، ويدعون إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وقد أخرجهم الله من بين الناس لحمل هذه الوظيفة الرّبّانيـة، وأعطاهم الله هذه الخيريّة بعد أن بيَّن لهم ما يجب أن يتصفوا به ليكونوا حقًّا خير أُمّةٍ أخرجت للناس، وذلك في آيات سابقة لهذه الآية من سورة (آل عمران) نفسها، وهي قول الله تعالى:

﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تقاته، ولا تموتُنّ إلاّ وأنتم مسلمون * واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقُوا، واذكروا نِعمتَ الله عليكم إذْ كنتم أعداءً فألَّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شَفَا حُفْرةٍ من النار فأنقذكم منها، كـذلك يبيّن اللهُ لكم آياتِه لعلكم تهتدون * وَلْتَكُنْ منكم أُمَّةٌ يدعون إلى الخير، ويأمـرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وأولئـك هم المفلحون * ولا تكـونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيِّناتُ وأولئك لهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ (١٠٢ ـ ١٠٥).

فاشتمل هذا النصّ على الصفات الكبرى التي تجعل أمّة محمد ﷺ خير أمّةٍ أُخرجت للناس، وهي الصفات المبينة في التكاليف التالية للذين آمنوا:

أ ـ **اتّقوا الله حقّ تقاته**: وذلك بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

ب ـ **ولا تموتُنَّ إلاّ وأنتم مسلمون**: وهذا يفيد المحافظة الـدائمة عـلى مقتضيات الإسلام.

جـ ـ **واعتصموا بحبل الله جميعاً**: وهذا يدلّ على وجـوب وحدة جمـاعة المسلمين معتصمين بالله.

د ـ **ولا تفرّقوا**: وهذا يفيد النهي عن كلّ صور التفرّق ما دام الإسلام قائماً.

هـ ـ **ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير**: وذلك بالقيام بتبليغ دين الله، والدعوة إلى سبيله الذي هو سبيل الخير، ومنهج هذه الدعوة مبيّن في قوله الله لرسوله: ﴿ ادعُ إلى سبيل ربّك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾.

و ـ **ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**: وهذه هي وظيفة العمل الإسلامي الدائم داخل المجتمع الإسلامي، لصيانته من الانحراف.

ز ـ **ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات**: وفي هذا نهي عن التفرق المذهبي أو الحزبي الذي يولّد شقاقاً وصراعاً.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ ٢٢):

﴿ يا أيّها الذين آمنوا اركعوا، واسجدوا، واعبدوا ربّكم، وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا في الله حقّ جهاده، هو اجتباكم، وما جعل عليكم في الدين مِنْ حَرَج، مِلّةَ أبيكم إبراهيم، هو سمّاكم المسلمين مِنْ قَبْلُ، وفي هذا، ليكون الرسول شهيداً عليكم، وتكونوا شهداء على الناس، فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، واعتصموا بالله، هو مولاكم، فنعم المولى، ونعم النصير ﴾ (٧٧ ـ ٧٨).

فقد أمر الله المؤمنين بأن يجاهدوا في الله حقّ جهاده، أي جهاده الحق، والجهاد الحقّ هو الجهاد الصادق المخلص، المطابق لمنهج الله، ولحدوده التي حدّها، وأبان لهم أنّه قد اجتباهم أي اصطفاهم واختارهم لهذه الوظيفة الجهادية، وأشار أنّ المضمون الأساسيَّ لهذه الوظيفة هو تبليغ رسالة الرسول ﷺ كما بلّغها الرسول، والدعوة إلى سبيل ربّهم بالحكمة والموعظة الحسنة، كما دعا الرسول إلى سبيل ربّه، بقوله تعالى: ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم، وتكونوا شهداء على الناس ﴾.

وحدّد الله الصفات الأساسية الكبرى للمؤمنين المجتبين للقيام بالوظيفة المذكورة بالأوامر التي جاءت في النصّ وهي:

أ - **اركعوا واسجدوا**: وهو أمر بالصلاة بوجه عام.

ب - **واعبدوا ربكم**: وهو أمر بالعبادة في أية صورة من صور العبادة المشروعة.

جـ - **وافعلوا الخير**: وهو أمر بفعل الخير كلّ الخير.

د - **وجاهدوا في الله حقّ جهاده**: وهو يشمل كل أنواع الجهاد وصوره.

هـ - **فأقيموا الصلاة**: أي المفروضة.

و - **وآتوا الزكاة**: أي المفروضة.

ز - **واعتصموا بالله، هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير**: أي الجؤا إلى الله ليعصمكم بحفظه وحمايته، ويكون ذلك بالاستمساك بدينه واتباع شريعته، والتوكل عليه، والاجتماع على التزام كتابه والوقوف عند حدوده.

٤ - وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النور ٢٤):

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفّنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ولَيُمِكّنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم، وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمْناً، يعبدونني لا يُشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون * وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون * لا تَحْسَبنَّ الذين كفروا مُعْجِزين في الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير ﴾ (٥٥ - ٥٧).

إنّ وعد الاستخلاف للمؤمنين الذي تضمنه هذا النصّ، مشروط بأهلية قسمٍ كافٍ منهم عقيدةً وعملاً لهذا الاستخلاف، وحين يسلُبهم الله السلطان والتمكين، ثم يؤخّر عنهم عودة استخلافهم، فليعلموا أنّ الله

عليم حكيم، وأنهم ما زالوا غير مؤهَّلين للاستخلاف حتىٰ يحقّق الله لهم وعده.

وعلى المسلمين دائماً أن يراجعوا حساباتهم، ويقيسوا واقع حالهم على منهاج الله لعباده المؤمنين، حتى يعرفوا ما بين واقعهم ومنهاج الله لهم من تخالف، ليقوّموا أمرهم، ويُصلحوا أحوالهم، ويقتربوا من مطابقة المنهاج اقتراباً يؤهلهم للاستخلاف الذي وعدهم الله به.

وعليهم أن لا يظنّوا بالله غير الحقّ ظنّ الجاهلية، ومهما تخلّف عنهم النّصر والفتح فليتّهموا أنفسهم، فإنّهم هم المذنبون أو المقصرون، أو المخالفون لمنهج الله.

٥ ـ وما جاء في الصحيح من كلام الرسول ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمّتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة».

رواه مسلم عن جابر

* * *

ثم الصلاة والسلام على الرسول المجتبىٰ محمّد الذي جعله الله الأسوة الحسنة في عدالته، ودعوته، وتبليغه، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وجهاده في الله حق جهاده. حتّى إذا اجتمع حوله من هم مؤهلون لإعلاء كلمة الله، والحكم بالقسط، في ظروف المجتمع العربيّ والدولي يومئذٍ، استخلفهم الله في الأرض، فوضع السلطان في أيديهم، وأعطاهم مفاتيح الممالك، ومكّن لهم في الأرض دينهم الذي ارتضى لهم، وحقّق لهم وعده الذي وعدهم به في سورة النور.

ثم لمّا أخلّ المسلمون الخلَف بشروط بقاء الاستخلاف السلطانيّ الممكّن له في الأرض، سلبهم الله هذا الاستخلاف، وسلّط عليهم أعداءهم، عقوبة لهم، وتأديباً وتربية.

والبصيرة الإيمانية تفرض عليهم أن يدركوا دائماً أنّ عودة هذا

الاستخلاف إليهم مشروطة بعودة أهليتهم للقيام بواجباته الربّانية، ولا يكونون مؤهّلين له إلّا بأن يرجعوا ظاهراً وباطناً وبنسبة بشريّة كافية، رجوعاً حقيقيّاً، لمثل ما كانوا عليه يوم استخلفهم، أو لمثل ما كانوا عليه أيام استبقى لهم استخلافهم، فيلتزموا دين الله ومنهاجه لعباده المؤمنين التزاماً كافياً في حكمة الله لهذا الاستخلاف.

* * *

إخوتي الأحبّة: كلّ بني آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون، والنقد التقويمي البنّاء والمصلح هو أحد خصائص الإسلام الكبرى، وهو وظيفة اجتماعية واجبة لكشف جوانب الخطأ، فالإنسان بذاته قد لا يكتشف أخطاء نفسه أو جماعته وعصبته، وكثيراً ما يصعُب عليه الاعتراف بالخطأ إذا اكتشفه، ويتهرّب من الاعتراف ملقياً التبعة على غيره، وقد ينقسم رفقاء الطريق الواحد، فيتقاذفون المسؤوليّة، ويُحمّل كلُّ قسم منهم تبعة الفشل على القسم الآخر، ويُقبِلُ بعضُهم على بعض يتلاومون.

إنّه ليس عيباً أن يخطىء الإنسان أو يقصّر أو يخالف، فهذه طبيعة العجز البشري، في قصور النظر وضعف الإرادة. وقبل أن أوجّه النقد لأحد أوجّه النقد لنفسي، فكم من أخطاء وتقصيرات ومخالفات وقعتُ بها في حياتي، وكم من تجاربَ أخطأت فيها بحسن نِيَّة، وكنت أحسب أني أحسن فيها صنعاً، ثمّ علمتني النتائج أني كنت مخطئاً فيها، وأنّي كنتُ مجانباً فيها منهج الصواب، وربّما تقاذفتني فيها أوهام أبعدتني عن الحقّ، ثمّ نوّر الله بصيرتي، فقذفتُ أوهامي السابقة، ولزمتُ بتوفيق الله ومعونته فكرة الحقّ، وأسأل الله أن يسدّدني لالتزام الحقّ سلوكاً وعملاً ظاهراً وباطناً، وما توفيقي إلّا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

إنَّ الخطأ مع الاعتراف والاستغفار يُغْتَفَر وإن كان فادحاً، ولكنّ الأمر الذي لا يُغتَفر مطلقاً، والكبيرةَ التي لا يُتَجاوز عنها، هُو خلُق المكابرةِ بالباطل، والإصرارِ على الخطأ، والاستكبارِ عن الاعتراف به وعن

الرجوع إلى الحقّ، والغضبِ من توجيه النقد التقويميّ البنّاء، والمصلح، ومعاداةِ الناصحين، ومحاولةِ تبرير الخطأ بالمعاذير التلفيقية المجانبة للحقيقة، فهذا هو الإثم المركّب، وعقوبته عند الله عظيمة جدّاً، أدناها الخيبةُ بعدَ الخيبة، والفشلُ بعد الفشل، مع إحباط ثواب العمل، وإن كان بنيّة صالحة.

ومن أعظم فضائل المؤمنين استفادتهم من تجاربهم، ومن تجارب الآخرين، ورجوعُهم عن أخطائهم التي وقعوا فيها، وعدمُ مكابرتهم وإصرارهم على الخطأ، متعلّلين بأعذار تُلبّس على الأتباع الحقيقة، وتسمح لهم بأن يكرّروا أخطاء قادتهم، ظنًّا منهم بأنّ أعذار قادتهم أعذار حقيقية.

* * *

لقد علّمنا ربّنا عزّ وجلّ متابعة أعمال أوليائه أفراداً وجماعات:

أ - بالنقد، عتاباً، أو تلويماً، أو توبيخاً، أو تحذيراً وتهديداً.

ب - وبكشف أخطاء مخطئيهم، ومعاصي مذنبيهم.

فبيّن ربّنا عزّ وجل الأعمال، وكشف الأخطاء، وحدّد وجه الصواب، وكشف المعاصي ولو كانت حركات نفسية، وأفكاراً تقع تحت طائلة المسؤولية، وأعمالاً متوارية خفية، ولم يجامل ربّنا عزّ وجلّ أحداً على حساب الحقيقة، أو على حساب المنهج العامّ الذي يجب بيانه، وأنزل في كثير منها آيات تتلىٰ في كتابه المجيد.

وفيما يلي شواهد هذا المنهج الرّبّاني، الذي أعطانا الله فيه قواعد النقد التقويميّ البنّاء والمصلح:

١ - عاتب الله رسوله في قصة إعراضه عن الأعمى ابن أم مكتوم، واشتغاله بكبراء قومه يدعوهم إلى الإسلام، عتاب تلويم وتحذير، وأنزل في ذلك قرآناً يتلى، فقال عزّ وجلّ في سورة (عبس ٨٠):

﴿ عبس وتولّى * أن جاءه الأعمى * وما يُدريك لعلّه يزّكّىٰ * أو يذّكّر فتنفعه الذكرى * أمّا من استغنىٰ * فأنت له تصدّى * وما عليكَ ألّا يزّكّىٰ * وأمّا من جاءك يَسعىٰ * وهو يخشىٰ * فأنت عنه تلهّىٰ * كلّا. إنّها تذكرة ﴾ (١ ـ ١١).

٢ ـ وعاتب الله رسوله كذلك في قصة تحريمه على نفسه باليمين أمته مارية القبطية أمّ ولده إبراهيم، إرضاءً لبعض أزواجه وهما حفصة وعائشة، وفي هذا الامتناع باليمين عن معاشرة أمته التي أحلّ الله له، حرمانٌ لنفسه من الاستمتاع بما أحلّ الله له، وهو أمر قد يقلق نفسه صلوات الله عليه، لما عند مارية ممّا يجذبه إليها، ويحرم ماريةَ وإن كانت أمةً، من التنفيس عن غريزتها بالمعاشرة التي أباحها الله لها، فيكسر ذلك قلبها.

وفي هذا العتاب أنزل الله عزّ وجل على رسوله قوله في أول سورة (التحريم ٦٦):

﴿ يا أيّها النبيّ لِمَ تُحرِّمُ ما أحلَّ الله لكَ؟؟. تبتغي مرضاة أزواجك، والله غفور رحيم * قد فرض اللهُ لكم تَحلّةَ أيمانكم. والله مولاكم. وهو العليم الحكيم * وإذْ أسرّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثاً، فلمّا نبّأَتْ به وأظْهرهُ الله عليه عرَّفَ بعضه وأعرضَ عن بعض، فلمّا نبّأها به قالت: من أنبأك هذا؟. قال: نبّأني العليم الخبير ﴾ (١ ـ ٣).

ثمّ وجّه الله تحذيره لزوجتيه اللّتين تظاهراتا عليه ﷺ في هذه القصة، بدافع من غَيْرتهما، فخاطبهما الله بقوله بعد النصّ السابق:

﴿ إنْ تتوبا إلى الله فقد صَغَتْ قلوبكما، وإنْ تظاهرا عليه فإنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكةُ بعد ذلك ظهير * عسَىٰ ربُّه إن طلّقكُنَّ أن يُبدِلَهُ أزواجاً خيراً منكُنَّ، مُسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ،

تائباتٍ، عابدات، سائحاتٍ، ثيّباتٍ وأبكاراً ﴾ (٤ ـ ٥).

إلى سائر ما عاتب الله به رسوله محمّداً ﷺ، وأنزل فيه قرآناً يتلى[1].

٣ ـ وتابع الله عزّ وجلّ الصدّيق أبا بكر بالنهي والتلويم الضمني، إذْ حلف أن يمنع عطاءه الذي كان من عَادتِه رضي الله عنه أن يعطيه لِمِسْطح بن أثاثة، لأنّه كان من الذي شاركوا في حديث الإِفْك عن عائِشة رضي الله عنها، ونشروا شائعة السوء، فمسطح قد أساء وآذى أم المؤمنين الطاهرة العفيفة التي برّأها الله بعد ذلك، وأساء إلى أبيها الذي يحسن إليه بالعطايا والصدقات، كما آذى رسول الله ﷺ في زوجته.

وقد أغضب عمل مسطح أبا بكر الصديق، فحلف أن لا ينفعه بنافعة أبداً، وكان ابن خالته رضي الله عنه، ولمّا نزلت الآيات من سورة النور ببراءة عائشة رضي الله عنها، وطابت النفوس المؤمنة، وأقيم الحدّ على القاذفين، الذين ثبتت عليهم المشاركة في القذف، وتاب الله على المؤمنين الذين تكلموا في حادثة الإفك بخلاف ما يقتضيه الإيمان، أنزل الله عزّ وجل توجيهاً عامّاً، سببه ما كان من أبي بكر من حلف أن يحجب عطاءه عن مسطح، فقال تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ ولا يـأْتَلِ أولـوا الفضل منكم والسَّعَـة أن يؤتوا أولي القـربىٰ والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، ولْيَعفوا ولْيصفَحُوا. ألا تحبّونَ أن يغفر اللهُ لكم؟ والله غفور رحيم ﴾ (٢٢).

ولا يأتَلِ: أي ولا يَحْلِف، والأَلِيَّةُ: الْحَلِف.

---

(١) انظر كتاب «آيات عتاب المصطفى ﷺ في ضوء العصمة والاجتهاد» تأليف أخينا وصديقنا الدكتور عويّد بن عياد المطرفي. وهو رسالة ماجستير حائزة على درجة ممتاز.

٤ ـ وتابع الله عزّ وجلّ بدقَّةٍ بالغة ما كان من المؤمنين في معركة أحد، فأدّبَ، وعاتَبَ، ولاَم، وحــذَّرَ، وأَنْذر، وحــدَّد المسؤولية، وكشف معصية الذين عَصَوْا، ومخالفةَ المخالفين، وتخاذل المتخاذلين، وفــرار الفارّين، وبيّن أسباب الهزيمة التي نزلت بهم، بعــد أن أيّدهم الله بنصره، وَأنَّ مَا نَزَل بهم قد كان عقوبةً من الله لهم، بسبب ما كان منهم، وأزاح الستار عن البواعث النفسية التي أدّت إلى الظاهرات التي كانت منهم فجلبت لهم عقوبة الهزيمة والغمّ الذي رافقهـا أو جاء بعدها.

أ ـ فقد اتجهت نفوس بعض المسلمين في أحد بعد إقبال رياح النّصر، لجمعِ الغنائم دون الإذن بذلك من الرسول ﷺ، وكان ذلك منهم إرادةً للدنيا، مصحوبة بمخالفة أوامر القيادة النبوية.

ب ـ وعصىٰ معظم الرماة، فتركـوا موقعهم الـذي أمرهم الـرسول ﷺ بملازمته وعدم تركـه، حتى يأتيهم الإذن بمغـادرته، طمعـاً بجمع الغنائم.

جـ ـ وتنازع المسلمون في أحد واختلفوا، وتمزّقت وحدتهم، فاضطربوا، واختل نظامهم.

د ـ واستغل العدو الأمر فدارت كتيبة فرسانه من ورائهم، فأحاطوا بهم، فرأى المسلمون أنّهم محاطون محصورون، فأصابهم الفزع، وجَبُنوا، وعدَوْا فارّين هاربين.

وكان ذلك هو الفشل الذي حلّ بهم.

ولم ينتقدهم الله سرّاً، ولم يجاملهم، بل أنزل فيهم قرآناً يتلىٰ، يتلوه المؤمنون ويتّعظون به، ويستمع إليه الكافرون أعداؤهم ويرون كيف يؤدّب الله أولياءه ويشتد عليهم، لأنّ الحدَثَ لم يكن من المعاصي الخاصّة، التي يُحبُّ الله فيها السِّتر، بل هو أمـر يتعلّق به مصـير جماعـةِ المسلمين.

فالأعمال الإسلامية العامّة التي تمسُّ مصالح المسلمين بشكل عام، لا تحتمل المجاملات الشخصية.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران ٣) تعقيباً على أحداث غزوة أحد:

﴿ولقد صدقكم الله وعده، إذْ تَحسُّونهم بإذْنه، حتّىٰ إذا فشلتم، وتنازعتم في الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكمْ ما تحبّون. منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة، ثمّ صرفكم عنهم ليبتليكُمْ. ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين * إذْ تُصعدون ولا تلوُون على أحد، والرسول يدعوكم في أخراكم، فأثابكم غمًّا بغَمٍّ، لكيلا تحْزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم، والله خبير بما تعملون * ثمّ أنزل عليكم من بعد الغمّ أَمَنَةً نُعاساً، يغشَىٰ طائفة منكم، وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم، يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهلية. يقولون: هل لنا من الأمر من شيء؟ قُلْ: إنّ الأمر كلّه لله. يُخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك. يقولون: لو كان لنا من الأمر شيءٌ ما قُتلنا ها هنا. قل: لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كُتب عليهم القتلُ إلى مضاجعهم، وليبتليَ اللهُ ما في صدوركم، وليمحّصَ ما في قلوبكم. والله عليم بذات الصدور * إنّ الذين تولَّـوْا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا، ولقد عفا الله عنهم، إنّ الله غفور حليم * يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالـذين كفروا وقـالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزّىً: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا؛ ليجعلَ الله ذلك حسرَةً في قلوبهم، والله يحيي ويميت، والله بما تعملون بصير * ولئن قُتلتم في سبيل الله أو مُتُّم لمغفرة من الله ورحمة خير ممّا يجمعون * ولئن مُتُّمْ أو قُتِلْتُم لإلَىٰ الله تُحشَرون ﴾ (١٥٢ ـ ١٥٨).

وحسب هذا النصّ نقداً كاملاً للمؤمنين فيما كان منهم في غزوة أحد، وليس الغرض التشهير بهم، إنّما الغرض التربية والتأديب، والتقويم والإصلاح، وكشف جوانب الخطأ والنقص والمخالفة لتلافيها وعدم الوقوع

فيها مرّة أخرى، هم، أو من يأتي بعدهم من المؤمنين.

وفي كشف الحساب هذا بيان للحقائق، وبيان الحق لا مجاملة فيه مطلقاً، لا سيما والحادثة تجربة إنسانية يجب الاستفادة منها، فالصواب يُستمسك به، والخطأ يُجتنب في الأحداث القادمة.

٥ ـ وتابع الله عزّ وجل ما كان من المؤمنين أصحاب الرسول ﷺ في غزوة (حُنَين)، بالنقد التقويمي المؤدّب المصلح، فبيّن لهم أنّهم لما اغتروا بكثرتهم، فأعجبوا بأنفسهم ـ كان ذلك سبباً في هزيمتهم وإدبار العدد الكثير منهم، لكنّ الله بعدئذٍ تدارك رسوله والمؤمنين الصادقين معه، فأيّدهم بنصره، وأنزل جنوداً تقاتل أعداء الله وتنصر أولياءه، حتى كان النصر والفتح المبين، لمن بقي من المؤمنين مع الرسول ﷺ ولمن رجع بعد أن ولّى مدبراً.

ونلاحظ هنا أنّه رغم تحقق النصر للمؤمنين في آخر الأمر، فإنّ الله عزّ وجل قد كشف ما كان منهم من خطأ تسبب لهم بالهزيمة في الجولة الأولى من المعركة، وسجّل ذلك في كتابه، وأنزل فيه قرآناً يُتلى، فقال عزّ وجل في سورة (التوبة ٩):

﴿ لقد نَصَركم الله في مواطنَ كثيرة، ويومَ حُنَينٍ إذْ أعجبتكم كثرتكم، فلم تُغْنِ عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ، ثمّ ولّيتُمْ مُدْبرين * ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنوداً لم تروْها، وعذّب الذينَ كفروا، وذلك جزاء الكافرين ﴾ (٢٥ ـ ٢٦).

٦ ـ وتابع الله عزّ وجلّ أحداث غزوة الأحزاب بدقّة بالغة، فكشف حالة المؤمنين النفسية والظاهرة فيها، مع أنّ النتيجة قد اقترنت بعودة المشركين خائبين لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال.

لكنّ الذي يلفت النظر هو أنّ حشود المشركين لم تجمع أكثر من

عشرة آلاف مقاتل، مع تعدّد الأهداف، وتعدّد القيادات.

أمّا المسلمون فقد كانوا قُرابة ثلاثة آلاف، وهم في بلدهم وأرضهم، وبينهم وبين عدوهم خندق لا يستطيع المشركون اقتحامه.

ومع ذلك فقد وصفهم الله بأنهم قد زاغت أبصارهم، وبلغت قلوبهم الحناجر من شدّة الخوف، وبأنّهم زُلْزِلُوا زلزالاً شديداً، وبأنّ بعضهم صاروا يظنون بالله الظنون التي لا تليق بالمؤمنين.

فخاطب الله المؤمنين في سورة (الأحزاب ٣٣) بقوله:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذْ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تَرَوْها، وكان الله بما تعملون بصيراً * إذْ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنُّون بالله الظنونا * هنالك ابتُلي المؤمنون وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً ﴾ (٩ ـ ١١).

وبهذا الكشف أعطىٰ الله المسلمين في كلّ عصر مثلاً عن ضرورة مراعاة تكافؤ القوى، أو تقاربها بين المسلمين وأعدائهم، فإذا تعرّض المسلمون في غزوة الأحزاب، وهم بقيادة الرسول ﷺ، ورعاية الوحي الذي يتنزّل عليه، لهذا الزلزال الشديد في قلوبهم ونفوسهم، حتى زاغتْ أبصارهم، وبلغت قلوبُهم الحناجر، وصار بعضهم يظنّ بالله الظنون، وهم في أرضهم وبلدهم، ووراء خندقهم، وعدوّهم نحو ثلاثة أضعافهم أو يزيدون قليلاً، ولم يكن المشركون على وعي شامل، ولا تخوّف عظيم من امتداد المسلمين، وظهور قوتهم، ولم تكن الدول الكبرى يومئذ تعير المسلمين ولا العرب كلّهم ولو اجتمعوا أي اهتمامٍ جادّ.

فكيف يكون حال المسلمين إذا كانوا قلّة متفرّقين، لا جامعة تجمعهم، ولا كلمة توحّد صفوفهم، وهم غرباء، وقواهم المادّية ليست ذات وزن مطلقاً بالإضافة إلى قوىٰ أعدائهم الكثيرين في شرق الأرض

وغربها، وفي كلّ موقع منها، والدول الكبرى كلّها تحذر من ظهور الإسلام ظهوراً جديداً، واليهودية العالمية والصليبية والإلحاد كلّها تخوّف شعوب الأرض من انطلاقة ما قد يطلقون عليه اسم المارد الإسلاميّ الجبار.

إنّ الدور دور الكلمة، دورة الفكرة القوية، دور الدعوة إلى الله، دور الحجة والبرهان، دور الحيلة والذكاء، دور المجاهدة بالقرآن، دور القلم واللسان، دور العلم والعمل البنَّاء في كلّ مجال من مجالات الحياة، دور اقتناص المعارف المادّية العليا مع الصمت والسكينة، دور تطبيق الإسلام خُلُقاً ومعاملة وعفّة، لجذب الناس إليه بالأمثلة الحيّة، ومن هنا يأتي النصر المبين، ثمّ الفتح والتمكين إن شاء الله، وقد يأتي النصر على أيدي من كانوا بالأمس أعداءً، أو على أيدي أولادهم أو أحفادهم.

إنّ الفكرة أقوى قوة تملك لبّ الإنسان وقلبه، فتسيّرُه طائعاً مختاراً متى آمن بها، وفكرة الحقّ هي أقوى الأفكار، والمسلمون هم وحدهم الذين يملكون الدين الحقّ، وباستطاعتهم أن يملكوا به قلوب الناس لو أحسنوا الدعوة إليه.

فما علينا في عصر القوى الجبارة في العالم إلاّ أن نحسن استخدام سلاحنا الذي هو أمضى سلاح، وأقدره على مَلْك قلوب الناس، إنّه سلاح الفكر الإسلامي الحقّ، الذي يجب أن ننقله إلى الناس على جناح الكلمة المؤثرة.

أيُّها الإخوة الأحبّة، أيّها المفكرون والعاملون للإسلام، يا جنود العمل الإسلامي، لقد مررنا جميعاً في أخطاء وتقصيرات ومخالفات، وعلينا جميعاً أن نتعظ من نتائج التجارب، وأن نراجع تدبّرنا لكتاب الله ولسنة نبيه ﷺ، ولسيرته المليئة بالعظات.

وفي هذه البصائر أسجل رؤيتي لعظات الماضي، وإنّي أوجهها لنفسي أوّلاً، ثم إلى كلّ من يثق بتجربتي، وملاحظتي، وإخلاصي، وصدقي،

وحسن تدبّري لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

وإنّي لا أتهم أحداً، ولا أوجّه التجريح لأحد، فكلّ العاملين الإسلاميين عندي محترمون ومشكورون، ولكنّنا جميعاً خطّاؤون، وخير الخطّائين التوابون الرجّاعون إلى الحقّ والصّواب. وما أبرّىء نفسي، ولا أبرىء أيّة جهة لي بها صلة، أوْ لي معها تعاون، ولا أزعم العصمة والكمال لأحد بعد الرسل.

وإنّ إخلاص النية مع الاجتهاد في ابتغاء الحق من قبل أهلٍ للاجتهاد يشفع عند الله للمخطىء، ولكنّ الإصرار على الخطأ بعد التجربة خطأ مقصود، وهو مكابرة وتعصّب، ويؤاخذ الله عليه مؤاخذة كبرى، وباعثه في النفوس الكبر والأنانية واتباعُ الهوىٰ.

وإنّ السكوت عن كشف الخطأ بعد التجارب المرّة، ومحاولاتِ الإصرار على الموقف الخاطىء، وصرفَ النظر إلى أمور أخرى، تضليلٌ عن الحقيقة لا يرضاه الله، ومن شأن هذا التضليل أن يسمح بتورُّطات أخرى تُكرَّرُ فيها الأخطاء السابقة، وتتكرّر معها النتائج المرّة، فسنّة الله لا تبديل لها. وبتكرار النتائج المرّة مع ظنّ العمل بما يرضي الله في تصوّر خاطىء يفتن الناس عن دينهم كلّه، وتكون مصيبة الإسلام بالمسلمين أكثر من مصيبته بأعدائه.

* * *

يا جنود العمل الإسلامي المجيد، اعقلوا، واضبطوا أنفسكم، وتريّثوا، واعملوا للآخرة، ولا تكن الدنيا أكبر همّكم.

الناس جميعاً في كلّ بقاع الأرض يراقبون أعمالكم وتحرّكاتكم بحذر بالغ، ويُعِدُّون المخطّطات الكبرى الشيطانية لإحباطها، فلا تتورّطوا، ولا تستجيبوا للموسوسين الذين يريدون دفعكم لورطات تتفجّر فيها متفجّراتكم على رؤوسكم، فتكون سبباً في هلاككم، وسبباً في إجهاض العمل الإسلاميّ كلّه.

لا تطلُبوا الحكم والسلطان، ولكن اعملوا لنشر الإسلام والإقناع به، فمتى علم الله أنكم صرتم أهلاً للحكم والسلطان استخلفكم كما استخلف الذين من قبلكم.

لا بأس أن تكونوا كإبراهيم عليه السلام مع نمروذ العراق، ومع فرعون مصر، ومع وثنيّي الكنعانيين، دعاةً موجهين، وهداةً مرشدين. أو تكونوا كيوسف في قصر فرعون. أو كعيسىٰ بين أخباث اليهود، وامبراطورية الروم. أو تكونوا كمحمّد ﷺ في مكّة قبل الهجرة، حتى تكون للمسلمين قاعدة عريضة صادقة، نسبتها كمًّا وكيفاً كنسبة المسلمين بقيادة الرسول ﷺ في عرب مشركين، ليس لهم دولة نظامية، وكلّ ما استطاعوا أن يجمعوه لقتال المسلمين في جيش واحد غير متّحد القيادة ولا الهدف، والمكر اليهودي معهم، هو عشرة آلاف مقاتل، وذلك في غزوة الأحزاب، وكان المسلمون ـ كما سبق بيان ذلك ـ قرابة ثلاثة آلاف محصَّنين في المدينة. ولم يكن مشركو العرب على وعي شامل، ولا تخوّف عظيم من امتداد المسلمين وظهور قوّتهم، ولم تكن الدول الكبرى يومئذٍ تعير المسلمين ولا العرب كلّهم ولو اجتمعوا أيّ اهتمام جادّ.

فإذا صار للمسلمين مثل هذه النسبة، وسمحت لهم الأنظمة السببيّة بالتحرّك لاحتلال مركز الاستخلاف، وصدقوا الله، وجاهدوا في الله حقّ جهاده، أتاهم نصر الله والفتح، ومكّن الله لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم.

لا تنقصوا طبختكم شيئاً حتى الملح ودرجة الحرارة المناسبة، ولا تخلّوا بشرط من الشروط اللازمة لها، فإذا نقصتم منها شيئاً، أو أخللتم بشرط من شروطها، فلوموا أنفسكم، ولا تقولوا: ما بال طبختنا لم تأتِ طيبة؟! أو ما بالها احترقت؟!. ولا تقولوا: ما بال القدر لم يساعدنا، ونحن إنما طبخنا طبختنا هذه لنتقوّىٰ بها على طاعة الله والقيام بمراضيه؟!.

لا تقولوا شيئاً من ذلك، فقد أبان الله لكم سننه، لتعملوا بموجبها

وتطيعوه في التزام قوانينها وشروطها، حتى يعطيكم ما تحبّون من نتائج.

لا تحاولوا أن تكسروا الصاروخ بالسيف، فلله في كونه سنن يجب اتباعها، أما المعجزات والخوارق فلا ينزّلها الله إلاّ بقدر، وفي أحوال نادرة، وللمعونة وتثبيت القلوب.

وإنّ خطط الذكاء والدهاء العالمية، التي يرسمها أذكياء عالميون من أمثال مخترعي الذرة ومخترعي الآلات الصناعية الألكترونية المتقدمة جدّاً، لا تقاوم إلاّ بمثلها، فلا ينفع معها الارتجال، ولا التحرّكات الانفعالية الغبية، مهما كانت صادقة الإيمان حسنة النيّة.

موسىٰ عليه السلام ومعه الآية الكبرى، ولديه في التوراة الحث على القتال في سبيل الله، لم يؤذن له بأن يقاتل جيوش فرعون، لأنّه لا يملك هو وبنو إسرائيل معه ما يستطيعون به تحقيق النصر على جيوش فرعون، ضمن سنن الله الثابتة مع معوناته الإضافية الخاضعة أيضاً لسنن ذات نسبة لا تتجاوزها.

* * *

يا جنود العمل الإسلامي المجيد، افتحوا مغاليق أفكار الناس بمفاتيح الفكر الإسلامي، وافتحوا قلوبهم بمفاتيح الإيمان واليقين، وافتحوا نفوسهم بمفاتيح الرحمة والإحسان والمعاملات الإسلامية القائمة على العدل والخير والبرّ والإحسان وصادق الأخوّة الإسلامية.

كفانا تجربةً، ولنتعظ من أخطاء أنفسنا ونتائج هذه الأخطاء، إنّ رعونات الشباب تدفع إلى التهوّر المدمّر، ونتائجها أسوأ من نتائج تباطؤ الشيوخ وضعف حركاتهم.

نحن في عالم مليء بالوحوش الضارية الكاسرة، التي تمتلك الصواريخ والقنابل الذرّية، وأجهزة التجسّس والتصنت المذهلة، فعلينا أن نعرف في أيّة غابة نحن.

* * *

أيّها الإخوة الأحبّة، أيّها المفكرون والعاملون للإسلام، يا جنود العمل الإسلامي المجيد.

دعوا الغوغاء والضجيج، والدعايات، والإعلانات، ومطالب المجد الفارغ، ولا تنفخوا في كُرات الغرور أهواء النفوس، فالغرور ورطة، والغرور قتّال.

دعوا التظاهر بأعمالكم، فالله هو الذي يعلم العامل المصلح المخلص، ويعلم المتظاهر طالب الدنيا، ويعطي كلّ عاملٍ من عباده الثواب الذي يستحقه.

اعملوا على تجميع صفوف المسلمين، ولا تفرّقوها، ولا تشقُّوا العصا، لا تجرّحوا متباطئاً ولا كسولاً ولا من له رأي على خلاف رأيكم، إذا كان له عليه دليل يعذر به عند الله.

لا تُخْرِجوا من الصفّ الإسلاميّ إلاّ مُداناً بالولاء لأعداء الله، ومن رأيتموه على خطأ من المسلمين فانصحوه ولا تخرجوه من الصفّ الإسلامي العامّ، وارفقوا به ولا تشاقّوه، ومن رأيتموه على خطأ من جماعتكم فعظوه ولا تطردوه من الصف الإسلامي الخاصّ بالجماعة المتعاونة على عمل خاصّ.

يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا، واجمعوا ولا تفرّقوا، تسامحوا ولا تشاحّوا، وابتغوا الآخرة، وابتغوا مرضاة الله والجنة، وإيّاكم ومطامع الدنيا، واحذروا أنفسكم أن تفتنكم.

دعوا الأنانيات ومطالب المجد العاجل، وإيّاكم وحبّ السلطان، فإنّه فتنة، وهو داء، إذا استولى على النفوس سبب الفرقة والشقاق، وجاء بالفشل وأذهب القوة.

إيّاكم والأنانيات الحزبية المقيتة، فالشقاق الذي تحدثه في صفوف

المسلمين شقاق يمقتُهُ الله. إنّ الله لا يرضىٰ أن يقوم عمل إسلامي فرديّ أو جماعي والشقاق بعض عناصره وأحد أركانه، أو الشقاق مصاحب له لا ينفكّ عنه. إنّه دليل على أن العمل مدخول بابتغاء الدنيا وزينتها وتفاخرها وتكاثرها، وهو مبطل للأعمال، وشأنه كشأن المنّ والأذى والعمل رئاء الناس في الصدقات، والله تعالى قال بشأن الصدقات في سورة (البقرة ٢):

﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى، كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثله كمثل صفوان عليه تراب، فأصابه وابل فتركه صلداً، لا يقدرون على شيءٍ ممّا كسبُوا. والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ (٢٦٤).

إنّ الشقاق الفردي أو الحزبي والصراع الذي ينشأ عنه، قد جعله الله عنصراً من عناصر عقوباته للكافرين، فقال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو يَلْبسَكُمْ شِيَعاً، ويذيق بعضكم بأسَ بعض. انظر كيف نصرّف الآيات لعلّهم يفقهون ﴾ (٦٥).

أو يَلبسكم شِيَعاً: أي أو يخلطكم شيعاً متفرّقة متشاقة متصارعة، وبذلك يُذيق بعضكم بأس بعض.

وأبان الرسول ﷺ في الحديث أنّ من عقوبات الله أن يضرب القلوب بعضها ببعض.

فإيّاكم والشقاق، وإياكم والأنانيات الحزبية المقيتة، فلن تظفروا عن طريقها بما تحبّون من نتائج، وإنْ غنمتم شيئاً من متاع الدنيا وزينتها.

دعوا تجريح العاملين الإسلاميين في غاياتهم وأهدافهم، وحاسبوهم

على أعمالهم فقط، وعلى مدى التزامهم فيها بمنهج الله. ولا تجعلوا أنفسكم قضاة على القلوب، فهذه قضية اختص الله بها نفسه.

إنّ من العاملين الإسلاميين من يتصوّر خطأً أنّه هو وحده المحقّ المهتدي بهدي رسول الله ﷺ، لذلك فهو يعمل على محاربة كلّ العاملين الآخرين في خدمة الإسلام، ويعمل على مطاردتهم، وإفساد أعمالهم، والتقطيع عنها، ومنزع هذا السلوك المنافي للإسلام الأنانية الفرديّة أو الحزبية، وابتغاء مجد الدنيا ومتاعها، وهو بعيد كلّ البعد عن الإخلاص لله عزّ وجل، فَلْنتقِ الله جميعاً، ولنجتنب هذا اجتناباً كلّياً.

لِتكُنْ تنظيماتنا للعمل الإسلامي أشبه بالأسر والقبائل والشعوب المتآخية المتحابة في داخل الأمة الإسلامية الواحدة، وأشبه بالأعضاء ذات الوظائف المختلفة، في جسد الأمة الإسلامية الواحدة.

ولنصرف عن نفوسنا وأعمالنا استغلال التنظيمات للوصول إلى مطامع الحياة الدنيا، ومفاخرها، وتكاثرها، ومتاعها، وعلينا أن نضع نُصْبَ أعيننا دائماً، أنَّ كلَّ تنظيم إسلامي يشبه الجهاز الممغنط الذي يجذب إليه الطامحين، والطامعين، والمتطلّعين للمال أو للمجد والسلطان، هو تنظيم محكوم عليه بالفشل والخيبة ابتداءً. ولن يحقّق آماله في الوصول إلى طموحاته ومطامعه، فالعمل الإسلامي شرطه الأساسي ابتغاء مرضاة الله، والتقيّد بمنهجه، والاعتصام بحبله مع كلّ جماعة المسلمين، وطرح الأنانيات الفردية والحزبية.

أيها الإخوة الأحبّة، اعملوا بصمت وهدوء، وعقل واتّزان، ولا تستدرجنّكم رغبات العلوّ في الأرض، ولا أهواء التفاخر والتكاثر، ولو كان ذلك باسم العمل الإسلامي.

ساعدوا كلّ ذي خير بمقدار ما عنده من خير، وآزروا كلّ عامل للإسلام وإن قصّر في بعض الجوانب، فهو في عمله مهما قلّ شأنه يضع

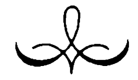
لبنة في بنَاء صرح الأمّة الإسلامية.

وإياكم والمنافقين المندسين فيكم، فإنّهم أسُّ البلاء، وأشنع الداء، وهم العدوّ فاحذروهم.

كم من عصابة صالحة أفسدها المنافقون فيها، ودفعوا بها إلى صراعات غير شريفة مع عصابات أخرى من المسلمين، فتبدّدت طاقات الجميع لمصلحة عدوّ الإسلام والمسلمين، أو دفعوا بها إلى صراعات داخلية، فشقُّوا صفوفهم، ودفعوا بهم إلى التشتيت، والتمزيق، فالإبادة.

سيدخل المنافقون حتماً في كلّ تنظيم وفي كلّ جماعة إسلامية، ولكن الإخلاص لله تعالى، مع اليقظة، وشدّة الحذر، وعدم اتّخاذ بطانة منهم، أمور كفيلة بأن يكفيهم الله شرّهم، ويكشفهم لهم، ويمكّنهم من دفع أخطارهم وأضرارهم، وَرَدِّ كيدهم إلى نحورهم.

هذه بصائر أقدّمها لنفسي أوّلاً، ثمّ إلى إخوتي وأحبتي العاملين لمجد الإسلام ونصرة المسلمين. والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.



الباب الأوّل

نظرات
حَوْل أسباب الأخطاء وصُوَر الجنوح الفِكري
عَنْ إدراكِ الحَقيقَة

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول : حدود حقائق الأشياء ومقاديرها.

الفصل الثاني : مكانة الحقّ في مفهوم الدين.

الفصل الثالث : صور الإدراك بين الصواب والخطأ.

الفصل الرابع : أسباب الخطأ أو الجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفصل الأول

حُدُودُ حَقائِقِ الأشياء وَمَقَادِيرِهَا

(١)

أوّلاً:

لكلّ أمرٍ حقيقة، ولكلّ حقيقة حدود ومقادير، وكلُّ إدراك أو تعبير عنه يهدف إلى إصابة الحقيقة ولو ادّعاءً، له أحد الوجوه التالية:

الوجه الأول: أن يطابقها مطابقة كاملة، وذلك تمام الحقّ بالنسبة إليها.

الوجه الثاني: أن يزيد عليها من غيرها، وذلك تجاوز وغلوّ، وفيه من الباطل بمقدار التجاوز.

الوجه الثالث: أن ينقص منها، وذلك تقصير أو قصور، فإن كان مع ادّعاء المطابقة ففيه من الباطل بمقدار النقص.

الوجه الرابع: أن ينحرف عن مطابقتها، وذلك تجاوز من جهة وتقصير من جهة، وفيه من الباطل بمقدار التجاوز، وبمقدار التقصير أيضاً إن كان مع ادّعاء المطابقة.

الوجه الخامس: أن يخرج عن حدود الحقيقة خروجاً كلّيّاً، فلا يطابق منها شيئاً، وهو إدراك أو تعبير كلُّه باطل.

(٢)

ثانياً:

والحقائق تنقسم بين الوجود الإدراكي والواقع إلى قسمين:

القسم الأول: ما له وجود في الواقع مع وجوده في الصورة الذهنية، وفي الأجهزة المدركة لدى الأحياء ذوات الإدراك العلمي.

القسم الثاني: ما ليس له وجود في الواقع، وإنما هو ذو حقيقة علمية فقط.

(٣)

ثالثاً:

والحقائق أزلية ومجعولة بجعل جاعل، فهي تنقسم أيضاً بهذا الاعتبار إلى قسمين آخرين:

القسم الأوّل: حقائق أزلية، وهذه لها حدود مفاهيم، لا يصح تجاوزها، ولا الزيادة في بعضها حتى يطغى على بعضها الآخر ويأخذ من حقه. وما يُدركُ منها لا يصحّ النقص منه. وكلّ زيادة، أو نقص، أو انحراف، أو مجانبة للحقيقة، مع ادّعاء المطابقة، فتصوّر أو تعبير فيه من الباطل بمقدار مخالفة الادّعاء للحقيقة.

القسم الثاني: حقائق مجعولة بجعل جاعل وتقدير مقدّر، وهذه لها أيضاً حدود مفاهيم ضمن خريطة الحقائق العلمية وأبعادها، وهذه الحدود العلمية لا تختلف مع الواقع، إذا كان للحقيقة وجود في الواقع، وكان العلم صحيحاً كاملاً.

وقد جعل الله لكلّ شيء قدراً، سواء أكان ذلك الشيء بسيطاً أو

مركَّباً، له وجود في الواقع، أو له وجود إدراكي فقط.

وقد أبان الله أنّه قد جعل لكلّ شيء قدراً في كلّ ما خلق، وفي كلّ ما أنزل من أحكام وتكاليف، في ثلاث عشرة سورة، وهي بحسب ترتيب نزولها كما يلي:

١ ـ بدأ الله عزّ وجلّ بيان هذه الحقيقة، من خلال ظاهرة خلق الإنسان من النطفة المقدّرة العناصر والصفات والأخلاط تقديراً تامّ الإحكام، فقال تعالى في سورة (عبس ٨٠):

﴿ قُتل الإنسان ما أكفَرَهْ! * مِنْ أيّ شيءٍ خَلَقَهْ؟ * مِنْ نُطْفة خلقه فقدّرهْ ﴾ (١٧ ـ ١٩).

ويقص علينا الاكتشاف العلميّ الإنسانيّ عجائب مذهلة، في تقدير عناصر وصفات وأخلاط الخليّة الأولى، التي يتكوّن منها وينمو بناء الإنسان وكلّ مخلوق حيّ.

٢ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (القمر ٥٤):

﴿ إنّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقَدَر ﴾ (٤٩).

فأبان سبحانه في هذه الآية سنّتهُ العامّة الشاملة لكلّ ما خلق، فنظام تحديد مقادير العناصر والصفات نظام مطّرد في كلّ ما خلق الله، وهو نظام لا استثناء فيه.

٣ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (يس ٣٦):

﴿ والشمس تجري لمستقرٍّ لها، ذلك تقدير العزيز العليم * والقمرَ قدّرناه منازل حتّىٰ عاد كالعُرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر، ولا الليل سابق النهار، وكلٌّ في فلك يسجون ﴾ (٣٨ ـ ٤٠).

فضرب سبحانه في هذا النصّ أمثلة من تقديره المحكم المشاهد في

بعض ما خلق، وذلك في حركة الشمس والقمر، ونظام اللّيل والنهار، وسبح النجوم والكواكب في أفلاكها، دون تصادم ولا خلل.

٤ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وخلق كلَّ شيءٍ فقدّره تقديراً ﴾ (٢).

فأكّد بيان سنته العامّة في الخلق، وهي التي سبق أن أعلنها في سورة (القمر). وأضاف هنا الإشارة إلى الإحكام والدّقة التامّة في التقدير، إذ قال هنا ﴿ فقدّره تقديراً ﴾. وأضاف أنّ عمليات الخلق مُلاحَقةٌ بإحكام التقدير، كما هي مبدوءة بإحكام التقدير.

فآية القمر تشير إلى إحكام المقادير مع بدء الخلق، وآية الفرقان تشير إلى إحكام المقادير مع حركة أطوار الخلق.

فما في سورة (القمر): ﴿ إنّا كلَّ شيءٍ خلقناه بقَدَر ﴾ أي مصحوباً خلقه بإحكام المقادير، دلّ على هذا الباء في «بقدر».

وما في سورة (الفرقان): ﴿ وخلق كلَّ شيءٍ فقدّره تقديراً ﴾ أي خلق كلّ شيء وأتبعه بإحكام مقاديره، مع حركة أطوار خلقه زيادة أو نقصاناً. دلّ على هذا الفاء في: «فقدّره تقديراً».

فتكامل النّصان في بيان الحقيقة.

٥ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (يونس ١٠):

﴿ هو الذي جعل الشمس ضياءً، والقمر نوراً، وقدّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلّا بالحقّ. يفصّل الآيات لقوم يعلمون ﴾ (٥).

فذكر سبحانه في هذه الآية جوانب تفصيليّة لما أجمله في سورة (يس).

فما جاء في سورة (يس) قد جاء مجملاً، إذْ تحدّث عن ظاهـرة التقدير، لحركة الشمس وحركة القمر.

وما جاء في آية (يونس) أضاف تفصيلات لم تذكر في سورة (يس)، والتفصيلات المضافة هنا هي ما يلي:

أ ـ فالشمس هنا: ضياء، أي: كتلة نارية ملتهبة.

ب ـ والقمر هنا: نـور، أي: جرم يبعث نـوراً، وكشف العلم أنه عاكس لضياء الشمس، والنور قد يَحدث انعكاساً من المرآة، دون أن تكون المرآة مصباحاً ملتهباً، بخلاف الضياء.

جـ ـ والقمر قدره الله منازل عناية من الله بعباده، وذلك ليعلم الناس في الأرض عدد السنين والحساب.

وليلفت الله نظر العلماء إلى هذه التفصيلات، قال عزّ وجلّ في آخر الآية: ﴿ يفصّل الآيات لقوم يعلمون ﴾.

٦ ـ ثم أنزل الله عزّ وجل قوله في سورة (الحجر ١٥):

﴿ والأرض مَدَدناها، وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كلّ شيء موزون * وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين * وإنْ من شيءٍ إلّا عندنا خزائِنهُ وما ننزّله إلّا بقَدَرٍ معلوم ﴾ (١٩ ـ ٢١).

في هذا النص ضرب مثل لإحكام مقادير الأشياء في الأرض، أمّا المثل السابق فقد كان لبيان إحكام مقادير الأشياء في السماء.

فالأرض مدّها الله بقدر، فأودع فيها أرزاق الناس وأقواتهم، فهو ينبتها ويخرجها لهم بقدر حاجاتهم.

وأنبت الله في الأرض من كلّ شيءٍ موزون، والموزون هو المقدّر بالموازين، والموازين الربّانية ذات دقة بالغة.

وجعـل الله للناس في الأرض معـايش، وهي الأشياء التي بهـا يعيشون، وبها يحافظ الله على حياتهم إلى آجالهم المقدّرة لهم، وكذلك جعل فيها معايش لمخلوقات أخرى وهم الجن فيما علمنا، فالله يرزقهم من الأرض.

وظاهرة الأرزاق تخضع لنظام التقدير الربّاني المحكم، أمّا خزائن الأرزاق فهي عند الله لا تنفد، ولكنّه سبحانه لا ينزّل من خزائنه إلاّ بقدَر معلوم، يراعي فيه الله كمال الحكمة.

وقضية الأرزاق جزئية من كلّية عامّةٍ تشمل كلّ شيء، هذه الكلية أبانها الله بقوله:

﴿ وإنْ من شيءٍ إلاّ عندنا خزائنه، وما ننزله إلاّ بقَدَر معلوم ﴾.

ولّما كانت قضية الأرزاق من القضايا التي تُهمّ الناس، ضرب الله منها مثلاً لنظامه العام، الذي أخضع له كلّ ما خلق.

٧ ـ ثم أنزل الله قوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وجعل الليل سَكَناً، والشمس والقمر حسباناً. ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ (٩٦).

فأضاف هذا النص بعض تفصيل لما أُجمل في سورة (يس)، فتقدير الليل بمقاديره في مجموع النظام هو لحكمة السَكَن، وهو من عناية الله بعباده. وتقدير جريان الشمس والقمر وسباحتهما في أفلاكهما، وحركة القمر في منازله، لم يتم كلّ ذلك إلاّ بحساب دقيق، إنّ هذا الجعل التكويني هو حسبان، أي حساب دقيق تـامّ للمواقـع في الأفلاك، وللحركات فيها، ولولا ذلك لاختلّت حركة الساعة الكونية، واضطرب حساب الزمن.

ذلك تقدير العزيز القادر على ما يشاء، العليم بما يختار.

وقد جاء هنا التنبيه على صفتي العزيز العليم، كما جاء في سورة (يس): ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ لأن المضمون يتطلب قدرة غالبة، وهي للعزيز، فالعزيز هو القوي الغالب، ويتطلب علماً محيطاً شاملاً، وهو للعليم عزّ وجل.

٨ ـ ثم أنزل الله عزّ وجل قوله في سورة (فُصِّلت ٤١):

﴿قل: أئنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين، وتجعلون له أنداداً؟! ذلك ربّ العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها. وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سَوَاءً للسائلين﴾ (٩ ـ ١٠).

فجاء في هذا تفصيل لبعض ما أجمل في سورة (الحجر) حول قضية الأرزاق، ومنها الأقوات.

فالأرض قد بارك الله فيها، إذْ جعل في خزائنها وفرة عظيمة، ولكن قدّر فيها أقواتها، فجعلها بمقادير محدّدة، مساوية لسعي السائلين في استخراجها وطلبها، ومساوية لحاجاتهم فيما لو طلبوها من أبوابها، ووفق أنظمتها المقدّرة بإحكام.

٩ ـ ثم أنزل الله عزّ وجل قوله في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغَوْا في الأرض، ولكن ينزّل بقدر ما يشاء. إنه بعباده خبير بصير﴾ (٢٧).

فأبان الله في هذه الآية حكمته في تقدير الأرزاق، وكان هذا جواباً على التساؤلات التي أثارها في النفوس النص الذي سبق إنزاله في سورة (الحجر ١٥): ﴿وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما نُنَزّله إلاّ بقَدَر معلوم﴾، والنص الذي سبق إنزاله في سورة (فُصِّلَت): ﴿وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين﴾.

فالنفوس التي لا تدرك حكمة الله تقول: لماذا يُنزّل الله من خزائنه

التي لا تنفد بقَدَرٍ معلوم، ويجعله سواءً للسائلين؟. ولماذا لا يبسط الله الرّزق لعبـاده؟.

والجواب: ما دمتم في حياة الابتلاء، وفيكم النفوس المستعدّة للبغي والطغيان، فالحكمة تقضي بأن لا ينزّل الله من خزائنه لعباده إلّا بقدر معلوم، ولو بسط الله الرزق لعباده كلّهم لبغَوْا في الأرض، ولكن ينزل ما يشاء تنزيله بقدر، ويجعل عباده في ذلك متفاضلين ليمتحنهم فيما آتاهم، ويعطي كلاًّ منهم بحسب علمه به، إنّه بعباده خبير بصير.

١٠ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ والذي نزّل من السماء ماءً بقَدَر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تُخرجون ﴾ (١١).

فأبان الله في هذه الآية ظاهرة أخرى من ظواهر سنته العامّة في الخلق، وهي تقديره الأشياء كلّها، وهذه الظاهرة هنا هي ظاهرة إنزال الأمطار بقدَر معلوم له سبحانه، وجاء في النصّ بيان الحكمة من إنزال المطر، وهي بعث الحياة في الأرض بالنبات بعد مـوتها بانتهاء دورة النبات السابقة.

١١ ـ ثم أنزل الله قوله في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ وأنزلنا من السماء ماءً بقَدَر فأسكنّاه في الأرض، وإنا على ذهاب به لقادرون ﴾ (١٨).

فأضافت هذه الآية إلى آية الزخـرف بيان حكمـة تخزين ميـاه الأمطار الحلوة، في مستودعاتها من تجاويف الأرض.

فتكامل النّصان في بيان إتقان صنع الله، وعنايته بعباده في ظاهرة الأمطار، وما يتصل بها من قـوانين وأنـظمة، ففي الأمـطار حياة الأرض بالنباتات والزروع والجنات، ونزولُها على الجبـال والسهول

والوديان يهيىء لها الشروط اللازمة لتخزينها في مستودعاتها في تجاويف الأرض، لتتفجر عيوناً وينابيع، وتجري أنهاراً، إلى غير ذلك، لينتفع الناس وسائر أحياء الأرض بالماء الذي فيه الحياة، وفيه منافع جليلة أخرى.

١٢ ـ ثم أنزل الله قوله في سورة (الرعد ١٣):

﴿ الله يعلم ما تحمل كلّ أنثى وما تَغِيض الأرحام، وما تزداد. وكلٌّ شيء عنده بمقدار ﴾ (٨).

فأبان الله في هذه الآية ظاهرة أخرى من ظواهر سنته العامّة في الخلق، وهي تقدير الأشياء كلّها، وهذه الظاهرة هنا هي تقدير كلّ نقص وكلّ زيادة في الأرحام جميعها، من كلّ ما خلق الله من ذوات أرحام تحمل وتلد.

وهذه الظاهرة هي جزئية من القضية الكليّة العامّة المطردة التي لا استثناء فيها: ﴿ وكلّ شيء عنده بمقدار ﴾.

١٣ ـ ثم أنزل الله عزّ وجل قوله في سورة (الطلاق ٦٥) بعد بيانه لحدود شريعته سبحانه في أحكام الطلاق:

﴿ إنّ الله بالغُ أمرِه، قد جعل الله لكلّ شيء قَدْراً ﴾ (٣).

فأبان سبحانه في هذه الآية قانونه الكليّ في أحكامه التشريعية، وأوامره ونواهيه التكليفية، في معرض بيانه لنموذج منها يتعلّق بأحكام الطلاق، وحدود الله فيها.

فأحكام الله وشرائعهُ وأوامره ونواهيه ذات حدود ومقادير، فأوامر التكليف مثل أوامر الخلق، ينطبق عليها القانون الربّاني العام، المنضبط بسنّة الحدود والمقادير.

﴿ قد جعل الله لكلّ شيء قَدْراً ﴾ الطلاق.

﴿ وكلُّ شيء عنده بمقدار ﴾ الرعد.
﴿ وإن من شيء إلّا عندنا خزائنه وما نُنَزّله إلّا بقَدَر معلوم ﴾ الحجر.
﴿ وخَلَقَ كلَّ شيءٍ فقدَّره تقديراً ﴾ الفرقان.
﴿ إنّا كلَّ شيءٍ خلقناه بِقَدر ﴾ القمر.

فإذا كان الله عزّ وجل قد ألزم نفسه بقانون مقادير الأشياء المقرّرة في سننه، فهي عنده مطّردة لا استثناء فيها، إلا بموجبات حكمة عظيمة. أفيملك عباده عقلاً أو شرعاً أن يخالفوا قانونه في مقادير الأشياء، ثمّ يسألوه أن يحقّق لهم ما يحبّون من نتائج، لم يلتزموا في أسبابها بسنته عزّ وجلّ، ولا بما كلفهم أن يعملوه أو يتركوه.

إنّه سبحانه لم يرضَ ذلك لنفسه، وهو القادر على أن يفعل ما يشاء، حتى يرضاه من عباده، وقد عصَوْهُ في سنته وفيما كلّفهم إياه.

(٤)

رابعاً:

والحقائق منها حقائق بسيطة، ومنها حقائق مركّبة، والحقائق البسيطة في الوجود الخارجي، وفي التصوّر الفكري قليلة جدّاً، حتى لا تكاد تدرك أمثلة لها.

ومعظم الحقائق في الوجود الخارجي وفي التصوّر الفكري هي من قبيل المركَّبات، وضمنها حقائق هي أجزاء منها، ولهذه الأجزاء حدود ومقادير[١].

وأكثر أخطاء المفكرين والعاملين تأتي من النظرات الناقصات، التي تنظر إلى بعض أجزاء الحقيقة المركّبة، فتجعل أفكارهم تزحف بغير وعي،

(١) انظر شرح هذه الفكرة مع أمثلتها في الفصل الأول من الباب الثاني من هذه البصائر.

حتّى تنزلق فتوسّع حدود الجزء الذي نظروا إليه، وبذلك يأخذ هذا الجزء في تصوّرهم مواقع ليست له، ولا يكون ذلك إلّا عدواناً على حقّ جزءٍ أو أجزاء أخرى من الحقيقة المركّبة.

ونكاد لا نجد فيما خلق الله في كونه، وفيما أنزل من شرائعه من أحكام، إلّا مركبات. أمّا الأمور البسيطة غير المركبة فلا نكاد نلاحظها إلّا ذهناً.

فعلينا أن نوجّه عنايتنا العظمى في كلّ ما نبحث فيه، وفي كلّ ما نعمله، لمعرفة مقادير عناصر الأشياء، والتقيّد بها، على ما خلقها الله، أو وضع مقاديرها التي بها تعطي نتائجها، سواء أكان ذلك في التكوين القدريّ الشامل لكلّ شيء، حتى حركات الأنفس، وقوانين الاجتماع البشري، أو كان ذلك في الحكم التشريعي، الشامل لأركان المطلوب في التكليف ولعناصره، أو لشروطه السابقة له أو المرافقة.

وإذْ كان كلّ شيء عند الله بمقدار، وقد جعل لكلّ شيء قَدْراً، وخلق كلّ شيء فقدّره تقديراً، فأيُّ تغيير في مقادير الأجزاء والعناصر والشروط لشيءٍ ما، عمّا هي عليه عند الله، وفي سنته التي أبانها لنا، أو مّا خلق الله أو جعل - ينتج عنه تغيير في صفات ذلك الشيء وآثاره.

ومن رحمة الله بعباده، ومن رعايته لضعفهم وعجزهم، وعدم إحاطتهم بكلّ شيء، جعل لبعض ما سخّر لهم ووضع بين أيديهم أسبابه قابلية لبعض الزيادة أو النقص في الأجزاء والعناصر والشروط، دون أن يفسد المطلوب منها، ولكنّ ذلك التغيير له أثر في تغيير صفات ذلك الشيء وآثاره، ضمن درجات لها حدٌّ أدنى وحدّ أعلى، فما نقص عن حدّها الأدنى كان مُخلًّا مفسداً، وما زاد على حدّها الأعلى كان مُخلًّا مفسداً.

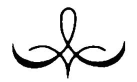
وحدها الأدنىٰ هي درجة المقبول، وحدّها الأعلى هي درجة الكمال، وبينهما درجات متفاوتات.

ونسمّي النقص عن أدنى الدرجات منها، وهي درجة المقبول، تفريطاً مُخلاًّ مفسداً.

ونسمّي الزيادة على أعلى الدرجات منها، وهي درجة الكمال، غُلوّاً مُخلاًّ مفسداً.

وبعض الأشياء تقلّ فيها القابلية لأيّة زيادة أو نقص، فأيّ تغيير في عناصرها وأجزائها وشروطها قد يكون مفسداً لها، إمّا بالتفريط وإمّا بالغلو.

ومن أمثلة ذلك في الطب الهرمونات ذات النسب والشروط الدقيقة جدّاً. وفي الدين أركان الإيمان ذات المفاهيم المحدّدة التي لا تقبل الزيادة على ما لها من حدود فلا يجوز تجاوزها، ولا تقبل النقصان منها أيضاً، فلا يجوز التفريط بشيء منها.



الفصل الثاني

مكانة الحقّ في مفهوم الدّين

- الله هو الحقّ.
- وقولُهُ الحقّ.
- ويُحِقُّ الحقَّ بكلماته.
- ويَقُصُّ الْحَقَّ.
- ويقضي بِالْحَقّ.
- ويَخْلُقُ بالحقّ.
- ووَعْدُهُ الْحَقّ.
- وأنزل كتابه بالحقّ.
- وبعث رسُلَه بالحقّ، وبدين الحقّ.
- فالدينُ الصّادِقُ، والعمل الصَّالِحُ المثمرُ، ومَرْضَاةُ اللهِ عزّ وجلّ إنّما يكونُ كلُّ ذَلِكَ بالتزام الحقّ إيماناً ونِيَّةً وعَملاً ظاهراً وباطناً.

ولمبلغ قيمة الحقّ في دين اللهِ للناس جاء في القرآن العظيم استعمال كلمة (الحقّ) بمناسبات مختلفات (٢٢٧) مرّة، واستعمال كلمة (حقّاً) بمناسبات مختلفات أيضاً (١٧) مرّة، وصيغ أخرى مشتقة من الحقّ (٢٥) مرّة.

وتدبّر النصوص القرآنية التي وردت فيها هذه الكلمات لجمع المفاهيم الإسلاميّة حول الحقّ يتطلّبُ سفراً كاملاً.

وأوجز أصول هذه المفاهيم بالفقرات التاليات:

(١)
بين الحق والباطل

من المنطلقات الفكرية الأولى أمران متقابلان في الفكر لا ثالث لهما، هما الحق، والباطل.

أوّلاً: فالمفهوم لأيّ شيءٍ ولأيٍّ لَا شيء، إذا كان مفهوماً جزئيّاً واحداً غير مركّبٍ من عناصرَ قابلةٍ للتجزئةِ في الفكر، فهو: إمّا حقٌّ، وإمّا باطل. واللّاشيء هو المعدوم سواء أكان مستحيل الوجود أو جائز الوجود.

- فإن وافق واقع حال ذلك الشيء، أو ذلك اللّاشيء فهو حقّ.
- وإن خالفه فهو باطل.

ومطابقة المفهوم للواقع ليس لها إلّا صورة واحدة، لأنّ الواقع لأيٍّ جزئيٍّ في الوجود أو في العدم ليس له إلّا حقيقةٌ واحدة، وهويّة واحدة، فالحقُّ واحد.

أمّا مخالفة المفهوم للواقع فله صُوَرٌ لا تتناهىٰ، ولا يمكن حصرها أبداً، ومن أمثلة ذلك في الأعداد أن نقول: إنّ الحقّ في ناتج ضرب (٤ × ٤) هو (١٦) وهذا الحقّ صورة واحدة فقط، أمّا الباطل في هذا المثال فكلُّ ناتج يُدَّعَىٰ غير (١٦) من الأعداد التي لا تتناهَىٰ، وكذلك ما يُدَّعَىٰ من غير الأعداد، من أيّ جواب سخيف، وأيّ كلام لا صلة له بالموضوع.

إذن، فمن ترك الحقّ ضلّ، ووجـد نفسه في متاهات من صُوَر الباطل التي لا تتناهى.

ثانياً: والمفاهيم المركّبة بتداخل، أو المجتمعة في مفهومٍ مؤلَّفٍ من أجزاء أو من جزئيات، قد يختلط فيها الحقُّ بالباطل، فيكون بعضها حقّاً، وبعضها باطلاً.

وقد تكفي عناصر الباطل فيها وإن قلّت لإفساد عناصر الحق فيها

وإن كثرت، كما تُفْسِدُ قطرات من السمّ خَزّان ماءٍ طهور مُنزَّلٍ من السماء.

فإذا جزّأنا هذه المفاهيم إلى عناصرها البسيطة وجدنا أنّ كُلَّ مفهومٍ منها إمَّا أن يكون حقّاً، وإمَّا أن يكون باطلاً. وبالفَصْلِ والتمييز الدقيق ينحاز فريق منها إلى جانب الحق، وينحاز فريق آخر إلى جانب الباطل. لكنَّها لمّا اجتمعت في مفهوم جامع أعطت هذه الصورة المختلطة.

وبسبب اختلاط الحقّ بالباطل في بعض المفاهيم المركّبة يلتبس على كثيرٍ من الناس أمرها، فينظر بعض الناس إلى العناصر التي يراها فيها حقّاً، فيحكم على كلّ العناصر بأنها حقّ، وينظر بعض الناس إلى العناصر التي يراها باطلاً فيحكم على كلّ العناصر بأنها باطل، ويشتبه الأمر على فريق ثالث فيحتار ويتوقف.

وحين تكثر في المفهوم المركب عناصر الحق، دون إمكان التمييز، ولا تكون عناصر الباطل ذات فساد مساوٍ أو راجح على المصالح التي تجلُبها منه عناصر الحقّ، يمكن أن يقال فيه: هو أقرب إلى الحقّ، أي: إلى كمال الحقّ، أو هو أحقُّ أن يتّبع، أو نحو ذلك من العبارات.

وحين تكثر في المفهوم المركّب عناصر الباطل دون إمكان التمييز، أو تكون عناصر الباطل ذات فساد مساوٍ أو راجح على المصالح التي تجلُبُهَا منه عناصر الحق، فيمكن أن يُقالَ فيه، هو أقرب إلى الباطل، أو أدنى إليه، أو هو أحقُّ أن لا يُتّبَع، أو هو أحقّ أن يجتنب، أو نحو ذلك من العبارات.

ثالثاً: ويقصد المضلّون إلى دسّ عناصر من الباطل، ممّا لهم فيه هوى، أو مصالح خاصة وشهوات، في ضمْن عناصر من الحقّ، وتقديمها في مفهومٍ واحدٍ جامع، بقصد تلبيس الحقّ بالباطل، والإغراء بأنّ الجميع حقّ.

وتنطلي الحيلة على جماهير كثيرة من الناس، ويبتَلِعُون طُعْمَ شياطين

الإنس والجنّ، بما أبرزوا لهم من عناصر الحقّ تمويهاً، وبما قرنوا بها من بعضِ محابِّ النفوس ومغرياتها، فيضلُّون وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، وأنَّهم ينصرون الحقّ، مع أنّهم يُسِيئون ولا يحسنون، وينصرون الباطل المندسّ، المفسد لعناصر الحقّ بمكر خبيث مدروس من قبل شياطين الإنس والجنّ.

رابعاً: ويدخل في مفهوم (الحق) أن يعمل العامل عملاً، أو يصنع الصانع صنعاً، أو يخلُق الخالق خلقاً، إذا كان يهدف منه إلى إحقاق الحقّ وإبطال الباطل، أو إلى تحقيق أمرٍ نافعٍ هو من الخير بحقّ.

ويدخل في مفهوم (الباطل) أن يعمل العامل عملاً أو يصنع الصانع صنعاً أو يُدبّر المدبّر أمراً، إذا كان يهدف منه إلى إبطال الحق وجعل الباطل في مفهوم الناس حقّاً، بالزور والكذب والخداع. أو إلىٰ جلب أمرٍ فاسدٍ أو ضارٍ بمقدّمات توهم جلب النفع والخير، مقترنة بما يُمْتع بلذاتٍ عاجلات تعقبهُنَّ العواقب الوخيمة، والندامة والحسرة.

ويدخل في مفهوم (الباطل) العبث الذي ليس وراءه هدف نافع يقصده العقلاء وأهل الكمال، وذلك لأنه يُبَدِّد جهداً ذا قيمة، وقوّةً ذات قيمة، بدون فائدة ترجىٰ، فهذا التبديد إنّما هو تبديد وتضييع وإتلاف لشيءٍ هو حقٌّ في ذاته، بزعم أنّ العبث أمرٌ يُقْصَد، وتُبْذَلُ فيه أشياء ذاتُ قيمة، ومن الباطل حتماً تبديدُ وتضييعُ وإتْلافُ ما هو حقٌّ في ذاته، استجابةً لمفهوم هو باطل، يقدّم نفسه للفكر في صورة أمرٍ نافع مفيد.

إنّ المفهوم الذي يشتمل على أنّ العبث نافع ومفيد هو مفهوم باطل، فالعبث العملي الذي يدفع إليه هذا المفهوم الباطل هو باطل أيضاً، وكلّ تطبيق عملي ناتج عن مفهومٍ باطل هو باطل باعتبار الغاية المدَّعاةِ من مفهومه، وكلُّ عمل لا يحقق الثمرة المرجوّة فهو عمل باطل بهذا الاعتبار، لأنه مبنيٌّ على مفهوم باطل.

وبهذا التحقيق للفكرة يُطْلَقُ على كُلِّ ما يُبْنَىٰ على المفاهيم الباطلة،

والعقائد الباطلة، والتصوّرات الباطلة، من أقوال وأعمال ونيّات وغير ذلك اسم «الباطل».

خامساً: حول هذه الأسس الفكريّة الكليّة دارت مفاهيم النصوص القرآنية للحقّ والباطل.

وفيما يلي نماذجُ منها:

(٢)
الله هو الحقّ

الحقّ الأزليّ الثابت دون بداية ودون نهاية والذي لم يكن معه في جانب الوجود حقٌّ غيره، هو الله عزّ وجلّ، وصفاتُهُ، ومنها علمه، وكلُّ ما في علمه سبحانَه حقٌّ، فاللهُ يعلَمُ كلَّ موجود وكلّ معدوم علماً مطابقاً لحاله، واجب الوجود، أو جائزَ الوجود، أو مستحيلَ الوجود، وما يعلمه عما سَيُوجد أو لا يُوجَد هو حقٌّ مطابق لحاله تماماً.

دلّ على هذه الحقيقة نصوص من القرآن العظيم، منها:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ ٢٢):
﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير (٦) ﴾.

فاللهُ وحدَهُ هو الحقّ الأزليّ الأبديّ في ذاته وفي صفاته.

٢ ـ وقول الله عزّ وجل في سورة (الكهف ١٨):
﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً (٤٤) ﴾.
أي: هُنَالِكَ في الدار الآخرة يومَ القيامة النُّصرةُ والرُّبُوبيَّةُ والحكُمُ للهِ الْحَقِّ أزلاً وأبداً، هُو خيرٌ ثواباً لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالحاً، وخَيْرٌ عاقِبةً تُرجَىٰ له.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام ٦):
﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) ﴾.

٤ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس ١٠):

﴿ فَذَلِكُم اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) ﴾.

(٣)

الله لا يقول إلّا الحقّ

من كان هُو الحقّ، وكان علمُهُ لكلّ صغيرة وكبيرة حقًّا كاملاً، وهو الخالق لكلّ شيء، والقدير على ما يريد، وله السلطان كُلُّه في الوجود فهو لا يقول إلّا الحقّ، إذ لا يُتصَوَّرُ في العقل أن يكون لديه أيُّ داعٍ يدعوه لأن يقول غير الحقّ، وقول غير الحقّ نقص ينافي كمال الله عزّ وجلّ، وهذا النقص لا يكون إلّا من ذي جهل، أو ذي هوى، أو ذي عجز، وقد تنزّه الله تبارك وتعالى عن ذلك، وتعالى عُلُوّاً كبيراً.

دلّ على هذه الحقيقة نصوص من القرآن الكريم، منها:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بالْحَقِّ ويَوْمَ يَقُولُ: كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ ولَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصور عَالِمُ الْغَيْبِ والشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الخَبِيرُ (٧٣) ﴾.

قَوْلُهُ الْحَقُّ: أي: الحق الكامل الذي لا باطل فيه هو قولُهُ تبارك وتَعَالى.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ص ٣٨) حكايةً لِمَا أَجابَ اللهُ به إبليسَ إذْ أَعلَنَ تَصَدِّيَهُ لإغواء الناس:

﴿ قَالَ: فَالْحَقُّ ـ والْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) ﴾.

والْحَقَّ أَقُولُ: أي: لا أقولُ إلاَّ الْحَقّ.

(٤)

اللهُ يُحِقُّ الْحَقَّ بكلِماته

ولمّا كان اللهُ لا يقولُ إلّا الحقّ، وكان ممَّنْ خلق من إنس وجنّ من يجادلون بالباطل ليُدْحضوا به الحقّ، ومن يصطنعون زُخْرُفَ القوْلِ ليجعلوا الباطل حقّاً، ومن يتوهَّمُون باطلاً ويؤمنون به، ويكفرون بما جاءهم من الحق من عند ربهم، فإنّ الله عزّ وجلّ بوصف أنّه الحق، يريد أن يحقّ بكلماته التكوينية، والبيانية، والحُكْمِيَّة، والجزائيّة، ويُحقُّ بَعْدَ مُدَّةِ امتحان الناس الحقّ حتى لا يبقىٰ به كافر، ولا يبقى له منازع، ولا يبقى في الوجود غيره.

دلّ على هذه الحقيقة نصوص من القرآن العظيم، منها:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) ﴾.

فهو سبحانه يُريدُ أن يُحِقَّ الْحَقَّ بكماته التكليفيَّةِ والتكوينيّة، فيقولُها لِيُحِقَّ الْحَقَّ ويُبطلَ الباطِلَ ولَو كَرِهَ المجرمون الذي يريدون ويَسْعَوْنَ لإِبطال الحقّ وإخفاقِ الباطل.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يونس ١٠) في حكاية ما قاله موسى لسحرة فرعون ساعة المباراة وإلقائهم أدوات سحْرهم:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ: أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ: مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) ﴾.

(٥)

اللهُ يَقُصُّ الحَقَّ

والله عزّ وجل إذا أراد أن يحكم بأمر، ويُحدّد الحقوق، تتَبَّعَ عناصر

الحقّ حتى غايتها وأقصاها، فيفصل بالحق، وهو خير الفاصلين، ويحكم بالحق وهو خير الحاكمين.

دلّ على هذه الحقيقة نصوصٌ من القرآن العظيم، منها:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الأنعام ٦) يُعَلِّمه كيف يخاطب الذين يستعجلون عقاب الله لهم، منكرين ضمناً صدق رسالته، وصدق إنذاراته:

﴿ قُلْ: إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) ﴾.

(٦)

اللهُ يقضي بالْحَقِّ

والله يقضي بالحقّ في كلِّ أمرٍ يستدعي قضاءً فاصلاً بين الحقّ والباطل، لأنّه هو الذي له الحكْمُ، ولا معقِّب لحكمه إذا حكم بين عباده، وفي مدّة امتحان الناس يتحاكم الناس فيما بينهم، فمنهم من يحكُمُ بما أنزل الله، ومنهم من يحكم بغير ما أنزل الله، ثم إنّ اللهَ عزّ وجلّ، يحكم بين العباد بتمام العدل، يوم الفصل، ويومئذٍ لا رادّ لحكمه، ولا معقب له.

دلّ على هذه الحقيقة نصوص من القرآن العظيم، منها:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر ٤٠):

﴿ وَاللهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠) ﴾.

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (٧٨) ﴾.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمَر ٣٩) في وصف نتائج قضاء الله بين العباد يوم الدين:

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥) ﴾.

(٧)
اللهُ يَخْلُقُ بالْحَقِّ

إنّ الله عزّ وجلّ لم يخلق خلقه عبثاً، ولم يضع عباده في ظروف الآمال والآلام، والتظالم والتراحم، وفعل الخير وفعل الشرّ، وتمكين الجبابرة والمحتالين وأهل البغي والطغيان من التسلّط على الضعفاء والذين لا يملكون قدرة ولا حيلة، لهواً ولعباً، بل خلق الله خلقه بالحقّ، والحقّ في الخلق غاية حكيمة يجري فيها الامتحان، ثمّ تحقيق العدل الذي هو الحكم بالحقّ، وتحقيق الفضل الذي هو صفة من صفات الله الحقّ.

أمّا العبث واللّهو واللّعب فأمور باطلة لا تكون من أفعال الربّ الرحمٰن، الجليل العظيم المنزّه عن كلّ نقصان.

دلّ على هذه الحقيقة نصوصٌ من القرآن العظيم، منها:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت ٢٩):
﴿ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٤٤) ﴾.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف ٤٦):
﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِروا مُعْرِضُونَ (٣) ﴾.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ص ٣٨):
﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) ﴾.

أي: لو لم يكن بعد رحلة الحياة الدنيا حياة أخرى يجري فيها الحساب والجزاء، وإقامة العدل الربّاني، لكان خلق السماء والأرض وما بينهما عملاً باطلاً، وعبثاً من العبث، لا هدف له ولا غاية،

والخالق الفاطر الحكيم منزَّهٌ عن العبث واللّهو واللّعب.

(٨)
وعد الله حَقّ

والله عزّ وجلّ قدير على ما يشاء، لأنّه إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له كن فيكون، فلا يُعْجزه شيء مما يريده، وهو لا يقول إلاّ حقّاً، ومما يقولُهُ ما يَعِدُ به أن يَفْعلَهُ، فإذا وَعَد وعْداً فهو مُنَفَّذٌ له لا محالة.

إنّ العاجز هو الذي يمكن أن يُخْلِف وعده، والله منزَّه عن ذلك، وإنّ الكاذب هو الذي يَعِدُ وليس له رغبة في الوفاء، والله منزّهٌ عن ذلك.

وفي بيان أن وعد الله حقٌّ نزلَتْ آيَاتٌ في القرآن العظيم، منها:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾.

(٩)
أنزل الله كتابه بالحق

القرآن من كلام الله، ولمّا كان الله عزّ وجلّ لا يقولُ إلاّ حقّاً، فلا بُدَّ أنْ يكونَ كُلُّ ما في القرآن حقّاً، وتمرُّ القرون وتكرّ، وينكشف للناس يوماً بعد يومٍ ما في القرآن العظيم من حقٍّ كان الناس يجهلونه فيشكُّون فيه، وستظلُّ مطابقة القرآن للواقع تتكشّف للناس حتّىٰ يوم القيامة، وما لا ينكشف لهم في الحياة الدنيا سينكشف لهم يوم الدين.

دلّ على هذه الحقيقة نصوص من القرآن العظيم، منها:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء ١٧) يتحدّث عن القرآن ويخاطب الرسول:

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً (١٠٥)﴾.

أي: كما أنزلْنَاهُ وحمَّلْنَاهُ أَمِينَ الوحي جبريل عليه السلام بالْحقّ، فَقَدْ نَزل به جبريل بالحق، لم يغير منه حرفاً واحداً، ولو غيَّر منه حرفاً واحداً لما شهد الله له بأنَّه نَزَل بالحق، وبرهان ذلك واقع حاله دواماً.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُم الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فيما اختلفوا فيه... (٢١٣)﴾.

أي: كان الناس أمَّةً واحدةً على الإيمان والإسلام منذ عهد آدم، فاختلفوا بعد ذلك، فبعث الله النبيّين مبشّرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحقّ.

(١٠)

وأرسل الله ورسُلَه بالْحَقّ وبدين الحقّ

دلّ على هذه الحقيقة نصوص من القرآن العظيم، منها:

١ ـ قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء ٤) خطاباً للناس:

﴿يَا أَيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُم الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧٠)﴾.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة ٩):

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾.

(١١)

فما على المؤمنين بهذا الدين إلّا أن يلتزموا بالحقّ الّذِي وصف الله به

نفسه، والتزم به في قوله ووعده وعمله، وأنزل به كتابه، وبعث به أنبياءه ورسُله، وإذا تركوا الحقّ، وجدوا أنفسهم في متاهات الضلال بصور من الباطل لا نهاية لها، قال تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢) ﴾.

إنّه ليس بعد موقع الحق المحدّد إلاّ الضَّلال في صُور من الباطل لا نهاية لها.

فأنَّىٰ تُصْرَفُون: أي: فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ إلى الضَّلال برياح الأهواء والشهوات، وشياطين الإنس والجنّ.

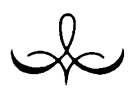
وعلى المؤمنين بهذا الدين أن يحذروا من أن يَلْبِسُوا الحقَّ بالباطل، وهم يَعْلَمُون، لئلاّ يَقعُوا بما وقع به أهل الكتاب من قَبلهم، فوبَّخَهُم الله وذمَّهُمْ ونهاهم عن أن يَلْبِسُوا الحقَّ بالباطل، فقال الله لبني إسرائيل في سورة (البقرة ٢):

﴿ وَلاَ تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالْبَاطِلِ وتَكْتُمُوا الحَقَّ وأَنْتُمْ تَعْلَمُون (٤٢) ﴾.

وخاطب الله أهل الكتاب بقوله في سورة (آل عمران ٣) موبِّخاً لهم:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ؟! (٧١) ﴾.

تَلْبِسُون: تَخْلِطُون وتُدَلِّسون.



الفصل الثالث

صُوَر الإدراك بَيْنَ الصَّوَاب وَالخَطَأ

إدراك الناس الموجَّه لمعرفة حقائق الأشياء له صور شتًّى بين الصواب والخطأ، والحقّ والباطل، ولو كانوا صادقين في إرادة إدراك الحقيقة، وجادّين في البحث عنها.

أمّا الذين لا يريدون الحقيقة لهوى في أنفسهم، فإنهم يصوِّرونها كذباً وزوراً وافتراءً كما يشاءون وعلى ما يشتهون.

وفيما يلي بيان لصور الإدراك بين الصواب والخطأ والحق الباطل.

* * *

الصورة الأولى:

أن يدرك المدرك الحقيقة إدراكاً كاملاً، ويكون ذلك باستيعاب الإدراك لكلّ عناصر الحقيقة وأجزائها وصفاتها.

وهذه الصورة قليلة الوجود في الناس، ونادرة جدّاً، ومن أمثلتها في الحساب أن ندرك أنّ إضافة واحد إلى واحد يساويان معاً اثنين، فإدراكنا هنا قد كان لكامل الحقيقة المعروضة للإدراك.

وإدراك الناس لكامل الحقيقة لا يكون غالباً إلّا في الذهنيات، أمّا بالنسبة إلى الأشياء الموجودة في الواقع خارج الذهن، فإدراك حقائقها وماهيّاتها إدراكاً كاملاً أمرٌ متعذّر، أو يكاد يكون متعذّراً، لأنّ الناس لم يُعْطَوْا في الخَلْق الأجهزة الكافية للتعرّف على حقيقة ماهيّات الأشياء، بل

يكاد يكون من غير الممكن لقدرات الناس العلمية إدراك ماهيات الأشياء الموجودة خارج الذهن.

وفي الغالب يكون إدراك الناس لحقائق الأشياء إدراكاً ناقصاً، ومقصوراً على ما يحسّونه منها، وهي صفاتها وسماتها وعلاماتها، حتى إنّهم لا يستطيعون أن يدركوا جميع ما يمكن أن يُحَسَّ من صفاتها وسماتها، لأنّ أدوات الإحساس التي وهبها الله للناس محدودة جدّاً، كمّاً وكيفاً.

وهذه حقيقة يعرفها الناس من أنفسهم بالتجربة، ودلّ عليها قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ ويسألونك عن الروح؟. قل: الروح من أمر ربّي، وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً ﴾ (٨٥).

ودلّت عليها قصة خلق الله لآدم، إذْ أبان الله لنا أنّه علّم آدم الأسماء، والأسماء لا تتجاوز حدود السِّمات والصّفاتِ والعلاماتِ الظاهرات، أمّا حقائق ماهيات الأشياء فلا تصل إليها، قال الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا: سبحانَك لا علمَ لنا إلاّ ما علّمتنا. إنّك أنت العليمُ الحكيمُ * قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلمّا أنبأهم بأسمائهم قال: أَلَمْ أَقُلْ لكم: إني أعلم غَيْب السماوات والأرض، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ (٣١ ـ ٣٣).

والأشياء التي لا تملك الحواسّ إدراكها هي بالنسبة إلى أصحاب هذه الحواس في عالم من عوالم الغيب.

والأمور الغيبية أمور نسبية، تختلف باختلاف أحوال الأدوات المدركة، لمختلف المخلوقات ذوات الإدراك.

إنّ الذي له عينان، ولكن ذهب الله بنورهما فهو لا يرى بهما شيئاً، هو أعمىٰ عمىً تامّاً مطبقاً، فإن كان يرى بهما أو بإحداهما شيئاً قليلاً، فهو بالنسبة إلى ما يرى مبصر، وبالنسبة إلى ما لا يستطيع أن يراه هو أعمىٰ.

ونتسلسل مع القضية، فنجد أنّ أحَدَّ الناس بصراً، وأحسنهم رؤية، لا يستطيع أن يرى من الأشياء الموجودة التي يمكن أنْ تُـرى إلاّ قدراً يسيراً، وطفيفاً جدّاً بالنسبة إلى ما لا يستطيع أن يراه، فهو إذن يملك من البصر بمقدار ما يستطيع أن يرى، كما أنّ لديه قدراً من العمىٰ بمقدار الذي لا يستطيع أن يراه.

وبهذا نرى أنّ نسبة العمىٰ عند كلّ المبصرين من الناس أعظم بكثير من نسبة البصر الذي يملكونه. وكلّ المبصرين من المخلوقين لديهم عمىً نسبي بقدر الأشياء التي لا يستطيعون رؤيتها.

إذن فالبصر والعمى من الأمور النسبية، ومثل البصر سائر الحواسّ التي هي أدوات اتصال قدرات المعرفة فينا بالأشياء التي يمكن أن تُحسّ.

لذلك فإن معارفنا عن الأشياء معارف غير كاملة، بل هي ناقصة نقصاناً كثيراً.

ومن العمىٰ النسبيّ الطارىء ما يولّده الهوى أو الحبّ، ألسنا نرى أنّ العاشق أو صاحب الهوى محجوب عن أشياء كثيرة مما يراه غيره، إنّه مُصاب بعمىً جزئيٍّ طارىء، سببه الهوى أو العشق، فهو لا يرى من أبعاد ما يهوى أو من يعشق، إلاّ البعد الذي يزيده هوى أو يزيده عشقاً. ومن أجل ذلك يسهل اصطياده من كلّ الجهات إلاّ الجهة التي تقع فيها دائرة هواه، أو دائرة معشوقه، ثمّ هو من هذه الجهة يسهل إغواؤه، نظراً إلى أنّها تمثّل أكبر جهة آسرة له، فهي تملك فيه نقطة ضعف لا يستطيع فيها أيّة مقاومة.

ومَنْ يُعرِضُ عن رؤية ما يستطيع أن يراه، هو بالنسبة إليه أعمى،

كالذي لا يستطيع أن يرى أصلاً، لأنّ النتيجة واحدة، فهو كفيف، إمّا مكفوف البصر بقوّة خارجة عن إرادته، أو كافٌّ بصره بإرادته، ولذلك وصف الله المعرضين عن رؤية الحقّ المعروض أمامهم بأنهم عُمْيٌ، مع أنهم لو شاءوا أن يروه لرأوه، ولكن كفّوا أبصارهم عن رؤيته بإرادتهم، واتبعوا أهواءهم واستكبروا، والنصوص القرآنية في هذا كثيرة، منها ما يلي:

١ ـ قول الله تعالى في سورة (الأعـراف ٧) في شأن قوم نوح عليه السلام:

﴿ فكذّبوه، فأنجيناه والذين معه في الفلك، وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا. إنهم كانوا قوماً عَمِين ﴾ (٦٤).

أي: كانوا عمياناً عن رؤية دلائل الحقّ الذي جاءهم به نوح، إذْ صرفوا أبصارهم بإرادتهم عن رؤيتها، فلم يروها، فكانوا بالنسبة إليها عمياناً.

٢ ـ وقول الله تعالى بشأن المنافقين في سورة (البقرة ٢):

﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنـورهم وتركهم في ظلمـات لا يبصرون * صُمٌّ بكم عُمْيٌ فهم لا يَرْجعون ﴾ (١٧ ـ ١٨).

فهؤلاء الصنف من الناس رأوا الهداية ودلائلها وأنوارها، ثمّ كفّوا أبصارهم عنها، واختاروا بإراداتهم عدم رؤيتها، وعدم الإحساس بها عن طريق أسماعهم، وعدم الاعتراف بها صادقين، فهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ بالنسبة إلى الهدى الذي جاءهم به الرسول.

٣ ـ وقول الله تعالى بشأن الكافرين في سورة (البقرة ٢):

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذي يَنْعِقُ بما لا يسمع إلاّ دعاءً ونداءً صُمٌّ بُكْم عُمْيٌ فهم لا يعقلون ﴾ (١٧١).

أي: فهم لا يسمعون من كلام الداعي ذي المضامين الرفيعة في

الهداية إلا صوتاً لا يزيد على أنه دعاء ونداء، كما تفهم الأنعام من كلام راعيها الذي ينعق صائحاً فيها، ولا يرون دلائل الهداية الربّانية، ولا يعترفون بالحقّ، فهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ، ومن كان كذلك فهو لا يعقل.

* * *

الصورة الثانية:

أن يدرك المدرك من الحقيقة مقداراً ما غير مستوعب لكلّ عناصرها وأجزائها وصفاتها، وهذا هو الإدراك الناقص لحقائق الأشياء.

ونؤكد هنا كما سبق لدى شرح الصورة الأولى، أنّ علم الناس بالأشياء مهما كان مطابقاً للواقع، فإنه في الغالب يُمثّل علماً ناقصاً، لا علماً مستغرقاً لكلّ ما يمكن أن يُعلَم من الشيء موضوع البحث.

والعلم الناقص المطابق لجزء من الواقع أو الحقيقة الفكرية المجرّدة علم حقيقي، بشرط اعتراف صاحبه بمبلغه من العلم، ودون أن يشتطّ في الادِّعاء، فيزيد على ما يعلم ولو مثقال ذرّة.

فإن زاد في الادّعاء شيئاً ما، فقد أخطأ بمقدار ما زاد في الادِّعاء. ولَمّا كان علم الذين قصَروا أنفسهم على البحث عمّا في الحياة الدنيا علماً ناقصاً وقفوا فيه عند حدود ظواهر هـذه الحياة، وأعـرضوا عن الحيـاة الأخرى، وغفلوا عنها ولم يبحثوا عمّا فيها، قال الله تعالى بشأنهم في سورة (النجم ٥٣):

﴿ فأعرضْ عَن مَّنْ تولّىٰ عن ذِكْرنا ولم يُرد إلاّ الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم. إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمَنِ اهتدى ﴾ (٢٩ ـ ٣٠).

فأثبت الله لهم علماً، ولكنّه علم ناقص قاصر، جعلهم يقفون عند

حدود القليل القريب منهم، ويعرضون عمّا هو أجلّ وأبقى.

وقال الله تعالى بشأنهم في سورة (الروم ٣٠):

﴿ ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾ (٦ ـ ٧).

فنفى عنهم علماً، وأثبت لهم علماً ببعض الظواهر من الحياة الدنيا.

* * *

الصورة الثالثة:

إدراكٌ تختلط فيه حدود الحقائق، وهو الأمر الذي ينجم عنه عدم التفاصل الواضح بين هذه الحقائق، وقد يكون الاختلاط في الأجزاء المقاربة للحدود.

وكثير من أغاليط الناس تأتي من عدم تفاصل الحقائق في أذهانهم، إذْ تمتزج حقيقتان فأكثر في أوهامهم وتصوّراتهم، حتّى يكون الحكم لديهم على بعضها منسحباً في تصوّرهم على غيره، ممّا اختلط في أذهانهم به.

أمثلة:

١ ـ كالخلط بين النية والعمل، فالحكم بصحة النيّة لا يستلزم الحكم بصحة العمل، والحكم بصحة العمل لا يستلزم الحكم بصحة النية.

ومنه الخلط بين العمل والإخلاص لله فيه، فبعض الناس يتوهّم أنّ من أخلص لله في عمله أعفى نفسه من المسؤولية، وأعطاه الله ما يحبّ من نتائج، ولو لم يتقيد في عمله بأركانه وواجباته وشروطه، ولو لم يتبع فيه منهج الله ولا سنته، وهذا غلط فاحش، ناشىء عن التباس الحقائق عنده، واختلاط بعضها ببعض من دون تمييز، وتوهّم أنّ بعضها يكفي عن بعض.

٢ ـ وكالإسلام والإيمان، فالحكم بصحة الإيمان لا يستلزم الحكم بصحة الإسلام وسلامته. والحكم بسلامة وصحة الإسلام من جهة الظاهر، لا يستلزم الحكم بصحة الإيمان وصدقه، فقد يسلم المنافق إسلاماً مستوفي الشروط والأركان بحسب الظاهر، وهو كافر في حقيقة أمره.

٣ ـ وكالاجتهاد ونتيجته، فالحكم على النتيجة بـالصحة، لا يستلزم أن تكون طريقة الاجتهاد سليمة حتماً، فقد يستنتج المجتهد من طريقة غير سليمة استنتاجاً يصادف إصابة الحق، فالنتيجة صحيحة في ذاتها ولكن لا من هذا الوجه الاجتهادي وطريقته غير السليمة.

وقد يسلك المجتهد طريقة سليمة في الاجتهاد بوجه عامّ، إلّا أنّه قد يخطىء في بعض عملياتها، فيأتي بنتيجة هي خطأ، أو بنتيجة هي صواب ولكن على سبيل المصادفة.

والحكم السليم يجب أن يوزّع على جوانب الصواب والخطأ توزيعاً جزئيّاً، فيقال: الطريقة غير سليمة، والنتيجة صادفت الصواب. أو الطريقة غير سليمة، والنتيجة غير صحيحة. أو الطريقة سليمة، ولكن حدث خطأ في نقطة كذا، فجاءت النتيجة غير صحيحة. أو الطريقة سليمة، وقد حدث في بعض مراحلها خطأ، ومع ذلك جاءت النتيجة صحيحة على سبيل المصادفة، ودليل صحة النتيجة كذا وكذا، أو دليل فساد النتيجة كذا وكذا.

هذا ما يوجبه البحث العلمي السليم القائم على التمييز التامّ بين الحقائق، وعدم اختلاط بعضها ببعض.

٤ ـ وكالكلّ والجزء، فالحكم على الكلِّ بأمر لا يستلزم الحكم على الجزء بذلك الأمر، وكذلك العكس، للتباين بين الكلّ والجزء، وللتفاصل بين حقيقتيهما.

فإذا كان الباب المغلق يمنع دخول الرياح الباردة إلى الغرفة، فإنّ

هذا الحكم لا يستلزم أن يكون نصف الباب مانعاً أيضاً من دخول الرياح الباردة إلى الغرفة.

وإذا كان الأكسجين الذي هو جزء من الماء مادّة قابلة للاشتعال، فإنّ ذلك لا يستلزم أنّ يكون الماء الذي يحتوي على الأكسجين والهيدروجين قابلاً للاشتعال، بوصفه كُلًّا مؤلفاً من أجزاء أحدها الأكسجين القابل للاشتعال، والهيدروجين المساعد على ذلك.

٥ ـ وكالتدرّج في الدعوة إلى الإسلام وكمال الإسلام في ذاته، فالتدرج في الدعوة إلى الإسلام أسلوب تربويّ حكيم دائم، يُتّبع فيه المنهج الربّاني والسنّة النبوية، واستخدامه في الدعوة لا يتعارض مع كمال الدين في ذاته واستقرار أحكامه.

إنّ التدرّج في الدعوة إلى الدين لا يستلزم استحلال فعل محرّم أو ترك واجب من أحكام الدين المستقرّة، ولكنّه يقتضي الاشتغال في الدعوة بالأهمّ أوّلاً، ثمّ بما وراءهُ، ويستفاد لذلك من حكمة الله في تدرج إنزاله لأحكام الدين وشرائعه، حتى إذا استجاب المدعوّ إلى مرحلة انتقل به الداعي إلى مرحلة وراءها. وهذا ما علّمه رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن.

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّ رسول الله ﷺ لمّا بعث معاذاً إلى اليمن قال له:

«إنّك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلاّ الله، فإنْ هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم خمس صلوات في كلِّ يومٍ وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أنّ الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوك لذلك فإيّاك وكرائم أموالهم، واتّقِ دعوة المظلوم فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب».

ولمّا كانت النسبة العظمى من الحقائق في الوجود الخارجي، وفي التصوّر والإدراك الفكري، هي من قبيل الحقائق المركبة لا الحقائق البسيطة، كان علينا أن نتبصّر حدود أجزاء الحقيقة المركبّة التي نبحث فيها، أو نعرضها للآخرين، أو ندعو إليها، أو نناظر فيها، وأن لا نخلط بين هذه الأجزاء، حتى لا نقع في اللَّبْس، أو نوقع غيرنا في اللّبْس، وكان علينا أن نعطي كلّ جزء منها حقّه كاملاً، في التصور الفكري، وفي الممارسات والتطبيقات العملية.

وما أكثر الأخطاء التي يقع فيها المفكرون والعاملون بسبب عدم تصوّرهم للحقائق المركبة على وجهها الصحيح، وعدم إعطاء كلّ جزءٍ منها حقه من العناية والعمل.

وفي بحث: «الدين الحق منهج وسط بين التفريط والغلوّ» مزيد شرح لهذه النقطة.

ويستخدم الأبالسة والمضلّلون من الناس وسيلة التلبيس، وهو لَبْسُ الحقائق وخلط بعضها ببعض، لينخدع المتأثرون بهم، فيتبعوهم، ومن ذلك لبس المحبّة والتعظيم للرسول أو لبعض الصالحين ببعض الصور والأعمال الخَاصّة بالعبادة، ليدفعوا بهم إلى اتخاذهم شركاء من دون الله.

ومن ذلك ما كان يوحي به أبالسة الشرك من جنٍّ وإنس، من تلبيس الدين على الذين يطيعونهم في تشريعاتٍ ما أنزل الله بها من سلطان، كأن يوهموهم أنّ من طاعة الله أن ينذروا ذبح العاشر من أولادهم لأصنامهم، كهُبل، أو مناة، أو اللاَّت، أو العزّى، وذلك شكراً لله على ما أنعم به عليهم من البنين الكثر، فهم يخلطون لهم حقيقة الشرك بحقيقة الدين، ويُلَبِّسون عليهم الأمر، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وكذلكَ زيَّنَ لـكثيرٍ من المشركين قَتْلَ أولادِهم شركاؤُهم لِيُرْدُوهم

وليَلْبِسُوا عليهم دينهم. ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ (١٣٧).

لِيُرْدُوهُمْ: أي ليهلكوهم، من الردىٰ، وهو الهلاك.

لِيَلْبسُوا عليهم دينهم: أي ليخلطوا عليهم دينهم، فيدخلوا مفاهيم الشرك في مفاهيم الدين، ويُخْرجوا من الدين ما هو من مفاهيمه.

ومن ذلك أيضاً ما دمغ الله به أهل الكتاب من لَبْسِ الحقّ بالباطل، فخاطب اليهود بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿ ولا تَلبسوا الحقّ بالباطل وتكتموا الحقَّ وأنتم تعلمون ﴾ (٤٢).

وخاطب أهل الكتاب عامّة اليهود والنصارىٰ بقوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحقّ بالباطل وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون؟ ﴾ (٧١).

* * *

الصورة الرابعة:

الزيادة على حدود الحقيقة التي نوجّه لها الإدراك، مع تصوّر أو ادّعاء أنّ هذه الزيادة داخلة في حدود الحقيقة.

ويكون ذلك بتعميم فاسد غير مطابق للحقيقة، وفي التعميم الفاسد يُسنَد إلى بعض الأشياء أحكام وصفات ليست لها، وهذه الأشياء التي تناولها التعميم الفاسد، ذات حقائق لا يصح فيها الحكم التعميمي الذي تصوّره الإدراك خطأً، أو ادّعاه صاحب الادّعاء خطأً أو كذباً.

فبين الإدراك وبين الحقيقة في هذه الصورة تلاقٍ من جهة، وتخالف من جهة أخرى، وجهة التخالف هي الجهة التي امتدّ إليها التعميم

الفاسد، ولم يكن من حقّه أن يمتدّ إليها.

والأغاليط أو المغالطات التي تجلبها التعميمات الفاسدات كثيرات جدّاً، قد يقع فيها العلماء والباحثون من غير قصد فيخطئون، وهي بذاتها فرصة سانحة يستغلّها المغالطون المضلّلون استغلالاً واسعاً.

إنّ التعميم في الحكم بالاستناد إلى أمثلة فردية واستقراءات ناقصة، أخطر مغالطة فكريّة، تقتات بها وتعيش عليها المذاهب الفكرية المعاصرة، ذات الاتجاهات المنحرفة في مختلف الميادين والمعارف التي اختلط فيها الحقّ بالباطل.

والتعميم الفاسد في الحكم قد ينجم عنه قلب الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، والمعمِّم تعميماً فاسداً قد يقبل المذهب كلّه، لأنه قد رأىٰ بعضه حقّاً، وقد يرفض المذهب كلّه، لأنّه قد رأى بعضه باطلاً.

إنّ على الباحث طالب الحقّ أن يُجَزِّىء عناصر الموضوع العام، أو عناصر المذهب، ويبحث كلّ جزءٍ فيه بحثاً مستقلاً، ويعطي حكمه عليه بالدليل، ولا يصحّ له أن يعطي حكماً عامًّا بالصحة لمجرّد أنّه رأى بعض عناصر الموضوع صحيحة، أو رأى بعض مسائل المذهب صحيحة.

فكثير من الأخطاء والأغاليط تأتي من الحكم على الكلّ بسبب الحكم على البعض، ويسقط في الخطأ أو الغلط هنا فريقان:

أ ـ فريق يحكم بالبطلان على كلّ عناصر الموضوع، أو كلّ مسائل المذهب وقضاياه ومقولاته، لأنّه رأىٰ خطأً أو بطلاناً في بعضها.

ب ـ وفريق يحكم بالصحة لكلّ عناصر الموضوع، أو كلّ مسائل المذهب وقضاياه ومقولاته، لأنّه رأى بعضها صحيحاً.

والمنهج الفكري السليم الذي يجب اتباعه في الأحكام التعميمية، هو

أنّ الجزم بالتعميم لا يجوز أن يكون إلّا نتيجة استقراء تامّ لكلّ الوحدات الجزئية التي تدخل في العموم.

فإذا اتحد الحكم في كلّ الوحدات أمكن عندئذٍ إصدار حكم كلّيّ عام عليها جميعاً، وإلّا فإن كان الأغلب يحمل هذا الحكم أمكن إصدار حكم أغلبيّ، لا حكم شامل، وإن كان دون ذلك فالحكم يجب أن يكون بحسب الحقيقة، التي يشهد لها الواقع، أو دليل الفكر وبرهان العقل.

إنّ على الباحث أن يفصّل أي موضوع ذي عناصر إلى عناصره ووحداته الجزئية، ثم يبحث في كلّ عنصر منها وفق أصول البحث العلمي، ثمّ يبني حكمه بالاستناد إلى ما انتهى إليه بحثه في ذلك العنصر، وهكذا حتى يستوفي كلّ العناصر، ولايغترّ بكثرة عناصر الصواب، فقد يأتي عنصر باطل فاسد فيكون سبباً في إبطال نظرية الموضوع كلّه، ويكون هذا العنصر بمثابة السمّ في الدسم بالنسبة إلى جملة النظرية.

إنّ نسبة قليلة من بعض السُّمِّيات الخطيرة كافية لأن تفسد ألف عنصر ممتزجة ببعضها من الغذاء النافع الطيب.

ومن سموم الأفكار نلاحظ مثلاً أنّ فكرتي الحريّة المطلقة والمساواة العامّة، إذا أطلقتا من أقفاصهما افترستا كلّ مبدأ أخلاقي كريم فاضل.

فإذا جمعنا مذهباً أخلاقياً مؤلفاً من مئة عنصر مثلاً، منها الصدق والإخاء والأمانة والمحبة والتعاون، إلى غير ذلك من مبادىء كريمة، وأطلقنا فيها فكرتي الحريّة غير المقيدة والمساواة العامّة في كلّ شيء، كانتا كافيتين لأن تعطّلا كلّ المباديء الأخرى عن العمل، وتفسد مفاهيمها.

فكيف بهما إذا اجتمعتا مع الإخاء فقط، أو مع العدالة فقط، كما فعلت الماسونية في شعارها، وكما فعلت الثورة الفرنسية في شعارها، مع العلم بأنّ هذه الشعارات مما وضعه أحبار اليهود لإقامة الثورات وإفساد الشعوب.

وهكذا تكون سموم الأفكار في حشود مسائل العلوم والمعارف الحقة.

إنّ على الباحث الناقد أن يغربل المسائل، ويثبت الحقّ والصالح منها، وينفي الباطل والفاسد.

والسقطات الشنيعات في هذا المجال تأتي معظمها من الأحكام التعميميّة الفاسدة.

إنّ الأصل في الاستقراء الناقص أنّه لا يصحّ الاعتماد عليه لإصدار أحكام عامّة، فدلالة الاستقراء الناقص دلالة ضعيفة، إذ التعميم إنما يأتي بقياسٍ ذهني يحتمل الصواب ويحتمل الخطأ.

ولكن قد يكون التعميم القياسي مقبولاً في قوانين الطبيعة بعد الاستقراء الناقص، نظراً إلى أنّه مقترن بقاعدة عامّة أكدتها الملاحظة المتكررة جدّاً، وهي أنّ سنة الله في الطبيعة التي طبع عليها الأشياء واحدة، وأنّ نظامه نظام عام، فما ينطبق على البعض الذي تناوله الاستقراء ينطبق غالباً على ما كان من نوعه وفصيلته ومستجمعاً لكلّ صفاته. على أنّ ذلك إنما يعطي نظريّة قابلة للتعديل، ولا يعطي حقيقة نهائية.

والاستقراء الناقص يمكن أن يقدّم أيضاً أحكاماً تشريعية عامّة، إلاّ أنها أحكام ظَنِّيّة صالحة للعمل، لا أحكام يقينية، إلاّ في بعض الصور التي يكون التعميم فيها مقترناً بقياسٍ يعطي حكماً قطعيّاً، كأن يكون ما لم يُدْرَسْ بالاستقراء أولى بالحكم ممّا دُرِس به.

أمثلة من التعميمات الفاسدات:

المثال الأول: إصدار أحكام تعميميّة على المقدمات ونتائجها، مع أنّ الحكم في حقيقة الأمر هو على المقدمات فقط، أو على النتائج فقط.

إنّ كثيراً من الأخطاء تأتي من الحكم على النتائج بالنظر فقط إلى مقدماتها أو وسائلها أو أسبابها والمناهج الموصلة إليها، وكذلك من الحكم على المقدمات أو الوسائل أو الأسباب والمناهج الموصلة، بالنظر فقط إلى النتائج.

ويكون الخطأ الفكريّ هنا من التعميم الذي ينشأ عن مدّ المقدّمات أو الوسائل والأسباب والمناهج إلى نتائجها، أو العكس.

ويلاحظ في هذا الخطأ جانب التعميم الفاسد، كما يلاحظ فيه أيضاً جانب الخلط بين حقائق الأشياء وعدم التمييز بين حدودها، كما سبق بيانه في (الصورة الثالثة).

ويظهر الخطأ بسبب هذا التعميم الفاسد، أو الخلط بين حقائق الأشياء في أربعة أشكال:

الشكل الأول: أن يرى المعمِّم تعميماً فاسداً صحة النتيجة فيحكم بصحة المقدمة أو الوسيلة أو السبب أو المنهج. مع أن النتيجة قد تكون صحيحة في ذاتها، بينما تكون وسيلتها غير صحيحة.

مثال ذلك أن يقول قائل: إنّ الصيام في شهر رمضان واجب شرعاً، (وهذا حق) بدليل أنّ قسّ بن ساعدة الإيادي كان يصوم شهر رمضان، (وهذا الدليل باطل). فكون النتيجة صحيحة لا يدلّ على أنّ الدليل الذي استدلّ به صاحب هذا القول صحيح.

فمن يحكم بصحة الدليل لأنه رأى الحكم الذي استنتجه صاحبه صحيحاً إنما يعمّم تعميماً فاسداً باطلاً.

ويتخذ هذه الحيلة أصحاب المذاهب الضالة، ليزحفوا عن طريقها إلى دسّ باطلهم. كأن يقول أصحاب مذهب الإمام المعصوم: إنّ الصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، والحجّ، من أركان الإسلام، بدليل

أنّ إمامهم المعصوم قد أفتى بذلك، فيرى العامة هذا الكلام صحيحاً، ويغفلون عن فساد الدليل.

ثمّ يزحف أصحاب مذهب الإمام المعصوم، فيقولون: إنّ إمامهم المعصوم قد أفتى بأنه لا تصحّ بيعةٌ لإمام ما إلاّ للإمام الذي يعيِّنونه هم، وفتاوى أخرى كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان، ويخدعون بها على طريقة الزحف التعميمي، أو الخلط بين حقائق الأشياء.

الشكل الثاني: أن يرى المعمِّم تعميماً فاسداً صحة بدايات المقدمات أو الوسائل أو الأسْباب أو المناهج، فيحكم مباشرة وبتعميم فاسد بصحّة النتائج. مع احتمال وجود أخطاء قد تعرّض لها الباحث في مراحل بحثه، رغم سيره في بدايات سليمة، ومناهج صحيحة بوجه عامّ.

إنّ خطأً يسيراً في بعض العمليات الحسابية، ضمن منهج رياضي سليم بوجه عامّ، يُعطي نتيجة خاطئة، بعيدة عن الصواب بعد الباطل عن الحق.

وكم يعتمد فقيه مجتهد على آية قرآنية أو حديث صحيح لاستنباط حكم من الأحكام، ثمّ تأتي النتيجة مخطئة وجه الصواب، لأنّ خطأً ما قد حدث في بحث الفقيه لاستنباط الحكم، كخطإٍ في دلالة كلمة، أو خطأ في عدم جمع مختلف النصوص حول الموضوع، أو غير ذلك.

الشكل الثالث: أن يرى المعمِّم تعميماً فاسداً بطلان النتيجة، فيحكم مباشرة وبتعميم فاسد ببطلان كلّ المنهج الاستدلالي الذي سلكه مقدّم هذه النتيجة. مع أنّ منهجه قد يكون سليماً بوجه عامّ، إلاّ أنّ النتيجة التي توصّل إليها قد كانت مجانبة للصواب، بسبب تعرّضه خلال بحثه لخطإٍ جزئيّ أفضى به إلى خطأ في النتيجة التي توصّل إليها.

الشكل الرابع: أن يرى المعمِّم تعميماً فاسداً فساد الوسيلة أو السبب أو المنهج، فيحكم مباشرة وبتعميم فاسد ببطلان النتيجة. مع أن

النتيجة قد تكون صحيحة في ذاتها، ولكن لا لدليل الباحث صاحب الادّعاء، وإنما لدليل آخر غيره، وهذا الدليل الآخر صحيح لا غبار عليه.

كمن جاء بحديث موضوع فأثبت به حكماً شرعيّاً، مع أنّ هذا الحكم نفسه ثابت بنصّ شرعيّ صحيح، كآية قرآنية أو حديث صحيح. إنّ استخدام هذا المستدلّ للحديث الموضوع يعتبر وسيلة فاسدة، ومنهجاً باطلاً، لكنّ ذلك لا يؤثر على الحكم سلباً، كما لم يؤثر فيه إيجاباً، فالحكم بحدّ ذاته ثابت وصحيح بدليل آخر ثابت وصحيح.

وفي مثل هذه الحال يجب ردّ الدليل فقط، فيقول المعترض: هذا الدليل لا يصلح، وهو باطل ساقط، لأنه حديث موضوع.

وبسبب جمع النتائج مع المقدّمات أو الوسائل أو الأسباب في تعميم فاسد، سقط الذين يقولون: إنّ الحقّ يتعدّد في المسائل الاجتهادية لاستخراج الأحكام الشرعية، بحجّة أنّ الله عزّ وجلّ قد رضي من كلّ مجتهد ما ينتهي إليه اجتهاده.

لقد رأى هؤلاء أنّ الوسيلة وهي الاجتهاد المأذون به وسيلة مقبولة عند الله، فحكموا بأنّ النتيجة حقّ، ولقد دخل عليهم هذا الوهم من التعميم الفاسد، الذي جرّ إليه جمع الوسيلة مع النتيجة في إطارٍ واحد، دون إقامة الحدود الفاصلة بينهما، مع أنّ الرسول ﷺ قال في صريح الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة:

«إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد».

وفي حديث وصيته ﷺ لكلّ أمير يؤمّرهُ الذي رواه مسلم عن بُريدة، جاء قوله:

«وإذا حاصرت أهل حِصْن، فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنّك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟».

فقد فرّق الرسول ﷺ بين الإذن بالاجتهاد والحكم بما أدّى إليه الاجتهاد، وبين كون الحكم في ذاته صواباً أو خطأً، موافقاً حكم الله أو غير موافق، فأبان أنّ الوسيلة قد تكون صحيحة المنهج مأذوناً بها، ولكنّ النتيجة قد تكون صواباً وقد تكون خطأً.

فإذا كانت النتيجة صواباً فهي حقّ، ولمن توصّل إليها باجتهاده أجران:

- أجر اتخاذ الوسيلة المأذون بها.
- وأجر إصابة الحق، لأنه بالغ في التحرّي، وتجرّد للوصول إلى الحق تجرّداً كاملاً، وحمّل نفسه ما يدعو إليه البرّ والإحسان.

وإذا كانت النتيجة خطأً، فهي باطل، وصاحبها معذور عند الله في أن يحكم بها، لأنه قد كان مأذوناً شرعاً باستخدام الوسيلة، وله باجتهاده أجر واحد فقط، هو أجر اتخاذ الوسيلة ضمن حدود الإذن الشرعي، وضمن الشروط التي تأمر بها موجبات التقوى.

فالحقّ واحد غير متعدّد، وحكم الله لو بلّغه رسوله مباشرة هو حكم واحد، ولكن لمّا وسّع الله الأمر على الناس، أذن لذوي الاستنباط منهم وأهل العلم والاجتهاد بأن يجتهدوا، وأعطاهم العذر إذا أخطؤوا.

المثال الثاني: ومن التعميمات الفاسدة المنتشرة، الحكمُ على كلّ معطيات الحضارة الغربية بالصحة، أو الحكم عليها كلّها بالفساد.

فمن حكم عليها جميعاً بالفساد، فقد رأى عناصر منها مخالفة للمقرّرات الدينيّة، فقاس سائر العناصر على ما رأى قياساً فاسداً، فحكم عليها جميعاً بالفساد.

وهذا غلط فكري شنيع، جلبه قياس فاسد، نجم عنه حكم تعميميّ باطل.

ومن حكم عليها جميعاً بالصحة، فقد رأى ما صحّ منها في معطيات العلوم البحتة، وما ظهر من آثارها في المنجزات التطبيقية المادّية، فقاس سائر العناصر على ما رأى قياساً فاسداً، فحكم عليها جميعاً بالصحة.

وهذا غلط فكري شنيع، جلبه قياس فاسد، نجم عنه حكم تعميميّ باطل.

إنّ التعميمات التي تستند إلى قياس فاسد تعميمات فاسدة، لأنّ القياس الذي هو دليلها قياس غير صحيح، ومبعث قبولها لدى الجماهير جهلهم بأسس اكتساب المعرفة، وثقتهم العمياء القائمة على غير أساس منطقي سليم.

إنّه ليس من الضروري أن يكون من يستطيع التغلّب على المصارعين في المصارعات الرياضية قادراً على التفوّق على الشعراء في الشعر، أو على الأدباء في الأدب، أو على علماء الحساب والهندسة في علومهم، حتى ولا على الملاكمين في الملاكمة، أو البهلوانيين من الرياضيين في ألعاب الخفّة.

وكذلك ليس من الضروري أن يكون المتفوّق في العلوم الصناعية قد وصل إلى الحقّ في قضايا الأخلاق، أو في قضايا فلسفة الوجود، والبحث عمّا وراء الظواهر المادّية، فضلاً عن قضايا الدين ذات المصادر الربّانية والمعارف الغيبية.

المثال الثالث: ومن التعميمات الفاسدة التي يطلقها الملحدون رفض كلّ دين، لأنّ بعض ما يطلق عليه اسم «دين» هو باطل.

إنّ هذا التعميم يستند إليه دعاة الإلحاد لدى محاربتهم للإسلام، ويطلقون به جدلياتهم الغوغائية، عند مجادلتهم الشبّان الجاهلين بأساليبهم وطرقهم الغوغائية.

المثال الرابع: ومن التعميمات الفاسدة، حكم كثير من الناس على كلّ عناصر مذهب فكريّ إنسانيّ اتّبعوه، بأنّها حقّ، أو هي الأصلح والأقوم، لأنّهم رأوا بعضها حقّاً، فانجذبوا إلى اعتناقه. أو رأوا بعضها أصلح وأقوم من وجهة نظرهم، فعمَّموا حكمهم على كلّ العناصر الأخرى، دونما فحص ولا تمييز، ثمّ رفضوا المذاهب الأخرى دونما فحص ولا تمييز، ولكنهم انساقوا مع تعميمهم الفاسد.

وكثيراً ما يكون في العناصر التي لم يفحصوها وعمّموا حكمهم عليها باطل كثير، وأمور ضارّة غير صالحة، وربّما يكون في المذاهب التي رفضوها بحكم التعميم الفاسد عناصر حقّ كثيرة، وأمور نافعة وصالحة.

ومن ذلك تعميم الحكم على الاشتراكية، ذات المفاهيم التي تشمل كثيراً من القضايا، ومن هذه القضايا ما هو حقّ وخير، ويتفق مع نظام الإسلام الاقتصادي، ومنها ما هو باطل وشرّ، ولا يقرّه نظام الإسلام.

والذين سقطوا في خطأ التعميم الفاسد هذا، اندفعوا في تأييد الاشتراكية، أو تسرّعوا في إعلان أنّ نظام الإسلام الاقتصادي يتفق مع الاشتراكية ويباركها، لمجرّد أنّ فيها بعض القضايا العادلة، المتفقة مع نظام الإسلام.

وقد كانت الفتنة بالاشتراكية عند إغراءاتها الأولى سبباً في جعل كثيرين من الغيورين على الإسلام، الناقمين من ظلم الرأسمالية، يندفعون في تأييدها، ويغفلون عن شرورها، وويلاتها الكثيرة، التي تفوق شرور وويلات الرأسمالية، فسقطوا بسبب ذلك في أخطاء، أعطت جماهير كثيرة من المسلمين صورة عن الإسلام مخالفة لحقيقة نظامه وأحكامه.

وفي مقابل ذلك تعميم الحكم على الرأسمالية ذات المفاهيم التي تشمل كثيراً من القضايا، ومن هذه القضايا ما هو حقّ وخير، ويتفق مع نظام الإسلام الاقتصادي، ومنها ما هو باطل وشرّ، ولا يُقرّه نظام الإسلام.

المثال الخامس: ومن أمثلة التعميمات الفاسدة، تعميم الحرّية، وإطلاقها من غير قيود، واعتبار كلّ دائرة من دوائرها، وكلّ موقع من مواقعها، أمراً حسناً، مع أنّ كثيراً من دوائرها ومواقعها خطر خطير وشرٌّ مستطير، ويتولّد عن إطلاقها أضرار لا حصر لها بالغات، وفساد عريض للأفراد وللمجتمعات.

إنّ حرّية كلّ فرد إذا أطلقت تصادمت وتصارعت مع حرّيات الآخرين، وتصادمت وتصارعت مع مبدأ الحق.

وقد علمنا أنّ شعار الحرّية قد أطلقه المضلّلون المفسدون في الأرض، ليفتنوا بها الناس، ولتكون سبباً في تدمير أوضاع اجتماعية قائمة، تمهيداً لتسلّط أصحاب المصالح الذين روّجوا شعارها.

ويطلق بعض الدعاة الإسلاميين المخلصين كلمة الحرّية دون قيودها، ويجعلونها من مبادىء الإسلام المجيدة، ويؤيدون بهذا الإطلاق وهم غافلون الشعارات المضلّلة التي روّجتها الماسونية، والمنظمات اليهودية الأخرى، وهي الشعارات التي أقامت بها الثورة الفرنسية العلمانية، وأقامت بها العلمانية الكمالية، وكثيراً من العلمانيات الأخرى، وينساقون وهم لا يشعرون في خطّ المكيدة الكبرى، مع أنّهم يعلنون بصدق محاربتهم لهذه المنظمات المضلّلة المفسدة، ولسائر أعداء الإسلام.

إنّ الشياطين يعرفون كيف يسوقون من يحاربونهم في ركابهم وهم لا يشعرون، فيندفعون إلى مهالكهم وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً.

المثال السادس: ومن أمثلة التعميمات الفاسدة تعميم المساواة، واعتبار كلّ مساواة أمراً حسناً ومطلباً كريماً، مع أنّ معظم عناصر المساواة من الأمور الباطلة التي هي مرفوضة عقلاً وواقعاً، ومرفوضة في مفاهيم الدين.

إنه لا يمكن أن يساوي الناقص الكامل، ولا أن يستوى الحق

والباطل، ولا العالم والجاهل، ولا الذهب والقصدير، ولا المسك والجير، ولا الظلمات والنور، ولا الظلّ ولا الحرور، ولا الطيب والخبيث.

إنّ مطلب المساواة بشكل عامّ هدم لأسس الحق، وهدم لأسس العدل، هدم لمفاهيمهما ولما يوجبانه. وهو أيضاً يهدم أسس الفوارق الجمالية، وأسس الخير والشرّ ومقتضياتهما.

وقد علمنا أنّ شعار المساواة قرين شعار الحرية، قد أطلقه المضلّلون المفسدون في الأرض، ليفتنوا بهما الناس، وليكونا سبباً في تدمير أوضاع اجتماعية قائمة، تمهيداً لتسلّط أصحاب المصالح الّذين روّجوا شعاراتهما.

ويطلق بعض الدعاة الإسلاميين كلمة المساواة دون قيودها، ويجعلونها من مبادىء الإسلام المجيدة، وينساقون وهم لا يشعرون في خطّ المكيدة الكبرى، ويخدمون وهم غافلون مخطّطات أعداء الإسلام.

المثال السابع: ومن التعميمات الفاسدة رفض كلّ ما عند المذاهب المخالفة، لأنّ بعض ما فيها باطل. واعتقاد أنّ كلّ مسائل المذهب الذي ينتمي إليه المعمّم تعميماً فاسداً هي حقّ، مع أنّه لم يفحص كلّ مسألة من مسائله فحصاً علميّاً استدلاليّاً.

إنّ مثل هذا التعميم لا يقبل به منطق الحق، إنّما يدفع إليه التعصب والجهل، وعدم البصيرة العلمية الربّانية.

وبهذا التعميم الفاسد يرفض بعض الغلاة الجهلة علوماً نسبة الحقّ فيها هي النسبة الغالبة، وإن وجد فيها بعض الخطأ أو عدم النفع فهي نسبة قليلة، مثل علم المنطق المصفًّى من مسائل الفلسفة المتعلقة بما وراء الطبيعة، ومثل علم النفس الوصفي المصفًّى من شوائب الآراء الإباحية، ومثل علم الطبيعة والأحياء، بعد استبعاد آراء التطوّر الذاتي وكلّ ما فيه مناقضة لصحيح صريح ثابت في الدين، وهي أمور قليلة جدّاً.

المثال الثامن: ومن التعميمات الباطلة رفض تعليل بعض الأحكام الشرعية، أو رفض بيان حكمة الله فيها، لأنّ بعض الأحكام الشرعية هي من الأمور التعبّديّة المحضة، ولأنّ طائفة منها ذات حِكَم خفيّة عجزنا عن اكتشافها.

إنّ العجز عن اكتشاف حكمة بعض الأحكام الشرعية، وكون بعض الأحكام أحكاماً تعبّديّة محضة، لا يسمح لنا بأن نعمّم الحكم فنقول: كلّ الأحكام الشرعية لا تُعلّل، وهي من الأمور التعبّدية المحضة.

إنّ مثل هذا التعميم تعميم فاسد، لأنّه يعتمد على أمثلة محدودة، يمكن استثناؤها واعتبارها قسماً مستقلاً.

وبنظرة عامّة نستطيع أن نقول: إنّ أحكام الله التشريعيّة في الدين الذي ارتضاه لعباده تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما هو ظاهر العلة عقلاً، وقد تكشف النصوص ذلك، كالأحكام المستندة إلى مبدأ الحقّ والعدل، أو الأحكام التي تظهر فيها مصالح الناس ومنافعهم، ومن أمثلة ذلك النهي عن القتل، والظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، والعدوان على حقوقهم. والأمر بالإيمان بالله، وبرّ الوالدين والإحسان إليهما، وبفعل الخير وترك الشرّ.

القسم الثاني: أحكام قد لا تظهر الحكمة منها إلّا بعد الامتحان والاختبار والتجارب الإنسانية الطويلة، والاكتشافات العلمية. ومن أمثلة ذلك تحريم أكل لحم الخنزير، وتحريم الخمر والميسر، وبعض حِكَم تحريم الخمر والميسر قد كانت معروفة قبل ذلك، وأبانها القرآن.

القسم الثالث: أحكام تعبّديّة محضة، لامتحان طاعة الإنسان أمام أوامر الله ونواهيه، وهي قليلة جدّاً، كتحديد أعداد الركعات في الصلاة، وأشكال الحركات في العبادات.

وبناءً على هذا التقسيم، لا يجوز تعميم رفض تعليل الأحكام

الشرعية، أو رفض البحث عن حِكَم الله في الأحكام الشرعية. ولا يجوز في المقابل تعميم آخر يدّعي أنّ كلّ حكم شرعي خاضع للتعليل العقلي، أو مقترن حتماً بالحكمة التي تتحقّق بها المصلحة أو المنفعة العاجلة للمكلفين.

ولكن على المؤمن أن يلتزم العمل بأحكام الله طاعة لله، لا ابتغاء المصلحة العاجلة، وإلّا لم يكن عابداً لله، وإنما هو باحث عن مصلحته الدنيوية، وهو كمن يحتمي عن شرب الخمر لأنّ الطبيب نصحه بالتزام هذه الحمية من أجل صحته الجسدية.

المثال التاسع: ومن التعميمات الباطلات ما يقع به الكثيرون من اعتبار سبَبٍ واحدٍ توجَّهت أنظارهم له هو السبب الوحيد الذي تحقّق به الأمر الذي وقع، أو يتحقق به الأمر المراد وقوعه، أو المتَوَقَّع وقوعه، أو المَخُوفُ من وقوعه، مع أنّ هذا السبب الذي توجّهت أنظارهم له هو واحد من أسباب كثيرة، كلٌّ واحدٍ منها صالح لأن يتحقق به ذلك الأمر، ويغفُلُونَ عن أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل في كونه لتحقيق أيّ أمر من الأمور عدّة أسباب، ولم يحصر تحقيقه بسبب واحد، ليحتال الناس لتحقيق غاياتهم، فإذا أعجزهم سبب فكّرُوا بسبب آخر، ثم سبب ثالث، ورابع، وهكذا. وهذا الذي تنبّه إليه الشاعر فقال:

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بالسّيفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ   تَنَوَّعَتِ الأَسْبابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدُ

ونظير ذلك ما يقع به الكثيرون من اعتبار شرطٍ واحد من جملة شروط هو الشرط الوحيد له اللازم الكافي، مع أنّه رغم كونه شرطاً لازماً، إلّا أنه غير كافٍ.

إنّ الطّهارة للصلاة شرط لازم لصحتها، ولكن هل هو شرط كاف؟. لو كان شرطاً كافياً مع لزومه لصحّت صلاة العريان وله ثوبٌ طاهر يلبسه، ولصحت الصلاة إلى غير القبلة والتوجُّهُ إليها بيقين أو ظنّ راجحٍ أمر متيسّر، ولصحت صلاةُ الفريضة قبل دخول وقتها، إنّ هذه كُلَّها شُروط لصحة الصلاة، وكلٌّ واحد منها شرط لازم، لكنّه شرط غير كافٍ.

وإنّ إخلاص المجاهد في سبيل الله وابتغاءه نُصْرَةَ دين الله شَرْطٌ لازم ليُمِدَّ الله بتأييده ونصره، ولكن هل هو الشرط الوحيد الكافي؟.

لو كان الأمر كذلك لأمر الله أنبياءه ورسله بأن يقاتلوا أعداءَهم بأفرادهم، ليحقّق لهم نَصْرَهُ عليهم، لكنّه لم يفعل ذلك، بل أمرهم مع صدقهم وإخلاصهم وابتغائهم نُصْرةَ دينِ الله، باتّخاذ الوسائل السببيّة وإعداد كلّ الشروط اللازمة، ومنها تكوينُ جيشِ المؤمنين الكافي، ليُمِدَّ الله بتأييده ونَصْره.

وترى بعض الأمّهات أنّ البرد هو أساس كلّ مرض فلا تهتم إلّا بحماية أبنائها من البرد، مع أن ما يتناولونه من أطعمة لا تتوافر فيها الشروط الصحية من الأسباب التي تجلب لهم كثيراً من الأمراض، وما يمارسونه من عادات سيئات كتعاطي المسكرات والمخدّرات أكثر جلباً للأمراض الشنيعة من البرد، وكذلك ممارسة الشهوات المحرّمة وأنواع الشذوذ الجنسيّ.

وترى بعض الأمّهات أنّ الغذاء هو الشرط الوحيد لبناء أجساد أبنائهنّ، فتحشونَهُمْ غِذاءً حتى تتخمنهم وتوقعنَهُمْ بأمراض السِّمنة والبدانة، وتَغْفُلْنَ عن الأسباب والشروط الأخرى الفعليّة المادّية، والوقائية.

ومن هذه النظرة التعميميَّة الخاطئة، تتولّد رغبات عنيفات جامحاتٌ عن سواء السبيل، تحصر أسباب الظاهرات في سبب واحد، أو علّة واحدة، وتحصر الشروط اللازمة في شرط واحد غير كافٍ لتحقيق المطلوب.

وتحدثُ عند بعض الناس هذه النظرةُ الناقصة القاصرة، بعامل من عوامل الهوى، أو التعصّب، أو من استعجال تحقيق الرغائب، أو من التقليد الأعمى، أو من الثقة بالقَادَةِ ذوي الأهواء والمصالح الخاصة.

وقد تحدث بسبب التهرُّبِ من تصوُّر الشروط أو الأسباب المركَّبة،

التي لا تتحقّق النتائج إلّا باجتماعها، وهو لا يريد أن يجهد ذهنه لمعرفة هذه الأسباب أو الشروط المركّبة، ولا يريد أن يتحمَّل عِبْءَ القيامِ بها، والسعيِ لإيجادها،وقد يكون غير أهل لإيجادها إذا عرفها، فيلقي بينها وبين بصيرته وفكره حجاباً كثيفاً حتّى لا يعلمها.

ومن أمثلة ذلك أيضاً أن يرى بعض الناس أنّ إصلاح التربية البيتيّة كافٍ لإخراج أسرة صالحة دون النظر إلى جملة أسباب أخرى اجتماعيّة، ومدرسيّة، وشخصيّةٍ في نفسيّة الفرد الذي ينشأ في الأسرة، والتي تعمل من جهات مختلفات على تربية الناشىء، فيقصرُ اهتمامه وتوجيه نظره على تربية الناشىء في بيت أسرته. وآخرون يحمّلون المدرسة كلَّ العبء. وكلّ قسم من الناس يحاول أن يقذف كُرَة المسؤوليّة عن نفسه، ويعتبر الفريق الآخر هو المسؤول الوحيد، مع أنّ المسؤوليّة موزّعة على الجميع، بحسب موقع كلّ فريق وما يملك من قدرات تأثير إيجابيٍّ أو سَلْبي.

ونظير ذلك تَدَارُؤ المسؤوليات والتقصيرات بين أقسام المجتمع، حُكّامِه، وعُلَمَائِه، وفُقَهَائِه، وتجاره، وصنّاعه، والعامة، مع أنّ كلّ قسم يحمل من المسؤولية والتقصير بقدر موقعه كماً وكيفاً.

* * *

المثال العاشر: نادى أنصار اتّباع السنة بوجوب العمل في المسائل الاجتهادية بما صحّ عن النبيّ ﷺ، وعدم جواز التقليد لأقوال المذاهب إذا كانت مخالفة لما صحّ عن النبيّ.

هذه المقولة سديدة مقبولة في عمومها، وتُحَرِّكُ في قلوب المؤمنين حماسة الانتصار للدين، وللحقّ الذي جاء به الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه.

وقد أعجبت هذه الفكرة كثيراً من الشباب الحريصين على الالتزام بالإسلام، وبما صحّ في السنّة عن الرسول، ومعهم الحقّ في ذلك، بمنظورِ فكرةٍ كُلّيّة عامة.

لكنَّ تطبيق هذا الاتّباع للسنّة الصحيحة، لا يتمّ إلاّ بمقدّمات تعتمد على وجوب الأخذ بطرق الاجتهاد الأقوم، للوصول إلى الحكم الصحيح الذي دلّت عليه السنة الصحيحة، ومن ذلك ما يلي:

أولاً: جمع كلّ ما ورد في القرآن العظيم حول موضوع القضيّة التي يراد التعرّف على حكمها الشرعي.

ثانياً: جمع كلّ ما ورد في السنّة حول موضوع القضيّة التي يرادُ التعرّف على حكمها الشرعي.

ثالثاً: النظر العلمي المتجرّد من ذوي الأهلية، في نِسْبَة قُوَّة الأحاديث الواردة في السنّة، وهذا الأمر يخضع لاختلاف آراء المحدّثين، فقد يقوّي بعضهم حديثاً، في حين يضعّف بعضهم الآخر هذا الحديث، بمقتضى علّة من العلل التي يعرفها المحدّثون، وهذا مجال واسع ينجم عنه خلافات في ترجيح بعض الأحاديث على بعض.

رابعاً: النظر فيما صحّ عن الصحابة من عمل أو حكم حول القضيّة التي هي مجال البحث. إذ ليس من المعقول أن يصحّ عنهم عمل أو حكم مع اختلاف الروايات، وأن يكونوا فيه مخالفين لرسول الله في بياناته العمليّة أو القولية، وهم أهل الصدر الأول الذين نقلوا لنا الدين كُلَّه، وعنهم أخذنا كتاب الله، وعنهم أخذنا سنَّة رسوله، سواءٌ فيما نقلوه بأقوالهم، أو ما علَّمُوه المسلمين الذين جاءوا بعدهم بأعمالهم وتطبيقاتهم.

والنظر هنا ينبغي أن يُلاحَظ فيه ما اختلفوا فيه، من أمور ناشئة عن اجتهادات فرديّة، أمّا التطبيقات العامّة في العبادات، التي يتفقون عليها أو يتسامحون فيما بينهم في الخلاف حولها، فتعطي الباحث وجوهاً من النظر الاجتهادي لا بدّ أن يراعيها في فهم حكم من الأحكام الشرعية، وفي استنباطه بالدليل.

خامساً: النظر في أدلّة الفقهاء الاجتهاديّة حول القضيّة التي يُراد التعرّف على حكمها الشرعيّ الأحقّ بالاتّباع، فقد يكون لدى بعضهم من الأدلة ما يؤيّد وجهة نظره.

سادساً: جمع كلّ ذلك في نظرة اجتهاديّة شاملة، للتوصُّل إلى الرأي الأرجح الأحقّ بالاتّباع، وبذلك يكون اتّباع السُّنّةِ حقّاً، لأنّ السنّةَ لا يصحُّ فَصْل بعضها عن بعض، ولا يصحّ عزلها عن آيات القرآن العظيم، كما لا يصحُّ عزْلُ ما اتفق عليه أهل الصدر الأول أو معظمُهُمْ في أمور الدين العمليّة التي تؤخذ عادة بالاتّباع العملي والتقليد، أكثر ممّا تُؤْخذ ببيانات قولية، إنّهم بعملهم يحكون أنهم يفعلون ذلك اتباعاً للرسول، فهم لا يبتدعون في دين الله، كيف يبتدعون في دين الله وهم خير عدول هذه الأمّة، وخير القرون؟! لا سيما إذا كان من الأمور التي تتكرَّر دواماً، كأعمال الصلاة وأقوالها، وقد عاصروا فيها رسول الله ﷺ سنين، وهم يقلّدونه فيها، وما أحسب أن استنباطاً فكريّاً من حديث لصحابي يحكي فيه بصفة عامّة أعمال الرسول في الصلاة، وحكايتُهُ تحتمل تأويلات متعدّدات، تكون أقوى دليلاً ممّا اتفق عليه أهل الصدر الأول أو مُعْظَمُهم عملاً وتطبيقاً.

سابعاً: اتّباع قواعد استنباط الأحكام، وهي القواعد التي اتفق عليها علماء أصول الفقه الإسلامي، وليس كلّ فهم للنصّ يقول به مجتهد، هو الفهم الصحيح له.

* * *

ومع التأكيد بأنّ اتّباع ما صحّ عن النبيّ ﷺ هو الواجب، أذكّر هنا بأنّ أئمة المجتهدين من فقهاء المسلمين قالوا نظير مقالة الإمام الشافعي: إذا صحّ الحديث فهو مذهبي.

* * *

ويأتي داعٍ من أنصار السنَّة الداعين للأخذ بما صحّ عن النبي ﷺ، المشكورين في دعوتهم هذه بلا شك، فيبذل جهداً قد يكون مؤهَّلاً له وقد لا يكون، فيما يلي:

١ ـ في تصحيح حديث وتقويته، ضدّ روايات أخرى، وقد يصيب في ذلك وقد يخطىء.

٢ ـ وفي استنباط حكم شرعي من ذلك الحديث الذي رجَّحه واعتمده

للاستنباط، وقد يصيب في الفهم الاستنباطي وقد يخطىء.

٣ ـ وقد يقصِّر في جمع كلّ ما ورد في السنة حول الموضوع.

٤ ـ وقد لا يتدبّر ما جاء في كتاب الله حول الموضوع.

٥ ـ وقد لا يعبأ بما صحّ عن أصحاب رسول الله ﷺ أو معظمهم من عمل لا يعملونه في العادة إلّا متّبعين مقلّدين فيه للرسول بحكم معاصرتهم له، وأخذهم عنه صورة العمل مباشرة.

ويُقدِّم من خلال الجهد الذي بذله حُكْماً اجتهاديّاً، رأىٰ فيه أنَّه هو الحقّ الذي دلّ عليه ما صحّ عن النبيّ ﷺ، وقد يكون مصيباً فيه، وقد يكون مخطئاً.

ويتلقَّفُه عنه المتحمّسون من الشباب الذين يغارون على السنة، ويندفعون لمناصرتها، حتّى ألَّفُوا فيما بينهم جماعةً خاصة أشْبَه ما تكون بحزبٍ يدافع عن قضيّةِ حزْبِه، ويعادي كلّ مخالف، ويعتبره خارجاً عن الحقّ.

ويرون أنّهم إذا أخذوا برأيه الذي توصّل إليه، فقد نصَرُوا السنّة قطعاً، وعمِلوا بالسنة قطعاً، ونبذوا آراء الناس الاجتهادية الأخرى، مع أنه إنْ كان مؤهلاً للاجتهاد فهو واحد من المجتهدين المعرّضين للصواب والخطأ كسائر المجتهدين، وإن لم يكن من المؤهلين فهو إلى الخطأ أقرب.

إنّ النظرة التعميميّة الفاسدة هي التي أوصلت هذا الفريق من الناس إلى هذا الخطأ الفاحش، وهم يحسبون أنّهم يُحْسِنُون صُنعاً، وينصرون السُّنَّة.

إنّ مناصرة السنّة لا تقتضي مناصرة الرأي الاجتهادي الذي يتوصَّل إليه إمامُ نُصْرَةِ السُّنَّة، أو داعٍ كبير من دعاة أنصار السنة، وهذا الرأي الاجتهادي قد يكون مصيباً فيه وقد يكون مخطئاً.

وهل عَرَفَتْ جماهير الأتباع بالدليل الراجح لديهم أنّ رأيه الاجتهاديّ هو الصواب، وأنّه استوفى في نظرته الاجتهاديّة كلَّ شروط البحث الواجبة، التي سبق بيان بعضها؟

إنّ جمهورهم الأعظم مقلّدون لإمامهم المعاصرِ هٰذا، ثقةً بأنّه حريص على اتّباع السنّة والعمل بها ونبذ آراء الناس، ولم أَجِدْ حتّى الآن في الملتزمين برأي إمامهم المعاصر من أنصار السنة من هو قادر على عرض أدلة الحكم الذي التزم به في نقاش علمي سليم، باستثناء حفظ بعضهم لأدلة إمامه، دون إدراك واعٍ لدلالات النصوص التي يحفظها، ودون نظرة شمولية لسائر النصوص والأدلّة حول موضوع الحكم الذي التزم به.

وهل هذه الثقة كافيةٌ في نظر هذا الجمهور المقلّد، لأن يحكموا حكماً جازماً بأنَّ ما توصّل إليه إمامُهم المعاصر من أنصار السنة هو حُكْمُ الله الذي لا يجوز الأخذ بغيره؟!.

إنّ أيّ إنسان عاقل مسؤول عند الله عمّا وهبه من قدرة تفكير لا يستطيع أن يدّعي ذلك.

لقد انتقلت القضية لدى هؤلاء من مذهبيّةٍ قديمة قائمة على تقليد إمام ذي مذهب كامل مدوّن، إلى مذهبيّة معاصرة قائمة أيضاً على تقليد إمام ذي آراء وأفكار واجتهادات قاصرة على بعض مسائل، قد يكون مصيباً فيها، وقد يكون مخطئاً.

وزحف هذا التعميم الفاسد زحفاً ثانياً فجعل كلّ مغْرور بنفسه مُسْتَكْبرٍ مفتون، وكلَّ ذي غرض دسٍّ في الإسلام، يرى أنه كفْءٌ لأن يجتهد في الدين، الأمر الذي لم يتصدَّ له جمهور أصحاب رسول الله ﷺ، وهم خير القرون، بل كانوا يرجعون في أحكام دينهم إلى أهل العلم من الصحابة، وأهل الاجتهاد والاستنباط فيستفتونهم، ويأخذون عنهم ما يفتونهم به، من آراء اجتهاديّة.

وينجم عن هذا الزحف التعميمي الفاسد فوضى في شريعة الله لعباده، وبَدَل أن يكون المسلمون في أربعة مذاهب، أو خمسةٍ، أو ستة، يتشتّتون إلى آلاف المذاهب، وكلّما رأى واحدٌ من هؤلاء حديثاً، وفهم من عبارته فهماً فاسداً، أو ناقصاً، أو مخالفاً لمفاهيم شريعة الله في النصوص

الأخرى، أخذ به وروّجَ له، وجعله مذهباً، زاعماً أنّه من أنصار السنة العاملين بما صحّ عن النبي ﷺ.

من هذا المثال نفهم: أنّ كلّ تجديد وراءه تقليد، هذه ظاهرةٌ متكرّرة من ظاهرات الاجتماع البشري.

إنّه كلّما نبغت فكرة جديدة، وظهر لها بريق، وفُتِن جمهور من الناس بها، أخذوا يردّدونها ويمجّدون بها، ويثنون عليها، ويروّجون لها، وتكوّن حولها حزبٌ من النّاس، وصارت لهم مذهباً.

فإذا كانت هذه الفكرة من الأفكار الأصول، التي تتفرَّعُ عنها فروع كثيرة، وأخذ أذكياء دُعاتها والمروّجين لها، يَبْنُون عليها فروعهم التي يستنبطونها بآرائهم واجتهاداتهم الخاصّة، وجدنا أنّ المفتونين بالفكرة التي هي الأصل لهذه الفروع يتبَنَّوْنَ كُلَّ هذه الفروع اتباعاً وتقليداً مهما كانت خَطَأً، كأنّهم هُمْ مُسْتَنْبطوها، ويحسبون أنفسهم ـ دون بصيرة ـ في مقام من استنبطها، مع أنَّهم في الحقيقة مقلّدون لا رأي لهم في ذلك إلاّ التقليد، والاتّباع غير البصير.

لقد أعجبتهم الفكرة الأساسية التي هي من الأصول، وقد تكون حقاً لديهم بالبرهان، لكن هل كلُّ فرع يستنبطه أيُّ مجتهد بناءً عليها هو حقّ؟!.

هذا أمرٌ مرفوض في العقول، ألا يحتمل أن تكون طريقة الاستنباط أو طريقة الفهم خاطئة؟.

إنّ هذا الغلط الفاحش الذي تنجم عنه أخطار جسيمة، إنما جاء من الزحف التعميميّ، الذي انتقل من الثقة بالفكرة الأساسية، التي هي من الأصول، إلى الأفكار الفرعية التي هي اجتهاد فردي عرضة للصواب وللخطأ.

كثيراً ما أطرح على ملتزمي بعض الأحكام الاجتهادية المعاصرة، القائمة على فكرة نصرة العمل بالحديث، فأقول للملتزم منهم بحكمٍ من

هذه الأحكام حين أراه يمارسه، هل أنت تعمل بمقتضى هذا الحكم اجتهاداً أو تقليداً؟.

فيقع في الحيرة، فإذا قال: توصلت إليه اجتهاداً سألته عن الدليل، فلا يستطيع تقديم الدليل الصالح لإثبات الحكم، وإن قال: هو ما توصّل إليه فُلان، قلتُ له: إذن أنت مقلّد لرأي مجتهد، فكيف تدَّعي أنّكَ من أنصار السنة، وعدم الأخذ بتقليد المذاهب؟؟!!.

* * *

هذه صورة التعميم الفاسد، وهذه بعض أمثلتها، وما أكثر ما يقع الناس في تعميمات فاسدات، حتىٰ يعادي بعض الناس مذهباً، أو جماعة، أو شعباً، أو قوماً، لأمر يكرهه قد ظهر له من البعض، فعمّم تعميماً فاسداً، فكَرِهَ الجميع، وعادى الجميع.

* * *

الصورة الخامسة:

الإدراك المنحرف عن مطابقة رقعة الحقيقة مع التلاقي الجزئي بينه وبينها.

فكثيراً ما يكون إدراك المدركين للحقيقة إدراكاً منحرفاً عن مطابقة رقعتها، ويلزم من هذا الانحراف مع التلاقي الجزئي الخادع بصحة الإدراك الزيادة على الحقيقة من جهة، والنقص منها من جهة أخرى، مع توهّم مطابقة الحقيقة.

كمن يسلّط الضوء الكاشف في الليل على حصنٍ ليسدّد إليه قذيفته، فينحرف عنه، فيقع نصف الضوء على الحصن، ونصفه الآخر على حصن مجاورٍ له، ويتكامل في توهمه أنّ ما رأى هو كامل الحصن الذي يقصد تدميره، فيرمي قذيفته، وقد تقع قذيفته على الحصن المجاور الذي لا يريد

أن يمسّه بأذى فيدمّره، وهو يحسب أنه قد أحسن صنعاً.

كذلك الانحراف في الإدراك الذهني للحقائق.

أمثلة:

١ ـ فمن أمثلة الإدراك المنحرف مع التلاقي الجزئي، بعض أخطاء الناس في مفهوم الزهد في الدنيا.

إنّ الزهد في مفهوم الدين له حقيقة تظهرها الحدود التالية:

الحدّ الأول: عدم تعليق القلب بالدنيا وشؤونها ولذّاتها ومتاعها وأسبابها، والتوجه القلبي لابتغاء الآخرة ومرضاة الله.

الحدّ الثاني: العمل ضمن الطرق التي أحلّها الله وأذن بها، لكسب المعايش وإعفاف النفس عن الصدقات، مع إجمال الطلب، دون إسراف، ولا إلحاح، ولا تقصير، وبشرط أن لا يطغى الكسب على الواجبات الأخرى فيأخذ أوقاتها، ومقادير الجهد الذي يجب أن يوفّر لها.

الحدّ الثالث: أن لا يبخل الكاسب بما زاد عن حاجاته وحاجات أسرته، إذا دعاه الواجب الديني إلى البذل، أو حثه الدين عليه دون إيجاب.

الحدّ الرابع: عدم الإفراط في الاستمتاع بزينة الحياة الدنيا، والاقتصار منها على ما يدفع الحاجة المقلقة للنفس، أسوة برسول الله ﷺ الذي كان أزهد الناس في الدنيا.

وينحرف بعض الناس في مفهوم الزهد في الدنيا عن هذه الحدود، فيتركون العمل لكسب المعايش، توهّماً منهم أنّ هذا من الزهد في الدنيا، ويجلسون في الزوايا والتكايا للعبادة فقط، لا للعلم ولا للتعليم، ويتعرّضون لعطايا الكاسبين وصدقاتهم، وهذا انحراف عن الثاني من الحدود الأربعة للزهد. فترك العمل ليس من الزهد، والتعرّض بسبب

ذلك لأخذ صدقات الناس ليس من الزهد. حتى لو رضي صاحب هذا السلوك بأدنى العيش، وقنع بالقليل، فقد انحرف عن مفهوم الزهد في الإسلام.

وبعض هؤلاء المتظاهرين بهذا الزهد يجمعون مقادير وافرة من الصدقات، ثمّ يدعوهم الواجب إلى البذل، فتكزّ نفوسهم ويبخلون، فيقعون في منافاة الحدّ الثالث من الحدود الأربعة للزهد.

وبعض هؤلاء قد يكونون من أكثر الناس إفراطاً في الاستمتاع بزينة الحياة الدنيا، إذا تيسّر ذلك لهم، ولا يقتصرون من الدنيا على ما يدفع الحاجات المقلقة لنفوسهم، فيقعون في منافاة الحدّ الرابع من حدود الزهد.

أمّا الحدّ الأوّل فأمره قلبي، وهو بين العبد وربّه، فقد تكون الدعوى فيه دعوى كاذبة، وقد تكون صادقة، لكنّ مقاييس الحدود الثلاثة الأخرى قد تكشف صدق الدعوى أو كذبها.

وحين يكون مفهوم المسلم للزهد في الدنيا مخالفاً لبعض هذه الحدود، ومطابقاً لبعضها، فإنّ إدراكه لمفهوم الزهد يكون من قبيل الإدراك المنحرف عن مطابقة رقعة الحقيقة، مع التلاقي الجزئي بينه وبينها، ويكون قد أدخل في مفهوم الزهد ما ليس منه، وأخرج من مفهوم الزهد ما هو منه.

٢ ـ ومن أمثلة الإدراك المنحرف عن مطابقة رقعة الحقيقة مع التلاقي الجزئي، أخطاء الناس الكثيرة في مفهوم القضاء والقدر.

إنّ القضاء والقدر في مفهوم الدين له حقيقة تظهرها الحدود التالية:

الحدّ الأول: أنّ الله عليم بما كان وبما هو كائن وبما سيكون حتّى ما سيعمله الناس بإراداتهم الحرّة التي لا جبر فيها.

الحدّ الثاني: أنّ الإنسان المدرك البالغ مكلّف من ربّه ضمن دائرة

اختياره التي منحها الله له، أن يعمل أعمالاً ويترك أخرى، وجعله الله مسؤولاً مسؤولية تامّة عن أعماله ضمن دائرة اختياره، ورتّب له على الطاعة الثواب، وعلى المعصية العقاب.

ومّما أمره به اتخاذ الأسباب لتحقيق مطالبه وحاجاته من الحياة الدنيا، ولتحقيق ما يرجو من الثواب العظيم يوم الجزاء الأكبر.

ومما نهاه عنه التهوّر، والإسراف المضر، وتناول كل ما يضره في الحياة الدنيا، وكل ما فيه شرّ يجلب له المؤاخذة والعقاب يوم الدين.

الحدّ الثالث: أنّ من اتخذ من الناس سبباً حقّق الله نتائجه بقضائه وقدره، خيراً كان أو شرّاً، إلاّ أن يكون لله حكمة خاصة في خرق سنته، في حادثة من الحوادث، فمن ذبح نفسه، أو وجأ نفسه بحديدة، أو تحسّى سُمًّا، قتله الله بقانونه الذي نظّم به الأسباب والمسبّبات. ومن زرع زرعاً وتعهّده ضمن سنن الله الثابتة، أنبت الله زرعه، وأعطاه ثمراته، ولو كان كافراً بربه.

تلك هي سنة الله في خلقه وقضائه وقدره. وفي هذا القسم تدخل كلّ المسخّرات للمخلوقات عن طريق أسبابها.

الحدّ الرابع: أنّ ما لم يمنح الله لمخلوقاته فيه أسباباً، فإنّه يخضع لسلطان القضاء والقدر مباشرة، دون أن تتخذ هذه المخلوقات المريدة له أسباباً.

ومعظم ما في الكون هو من هذا القسم الخاضع لسلطان القضاء والقدر مباشرة.

ويدرك الناس من هذه الحدود الأربعة بعضها، وينحرف إدراكهم عن بعضها، فلا يكون تطابق كامل بين ما يدركون وبين رقعة الحقيقة.

مثلًا: يتهور سائق السيارة تهوّراً جنونيّاً، ويعصي الله بهذا التهوّر،

فإذا قيل له: يا رجل، لا تتخذ سبباً تقتل به نفسك أو غيرك، وتكون به مجرماً مسؤولاً عند الله، قال: «قل: لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا».

فينحرف في مفهوم النصّ القرآني عن المراد منه. فالحقيقة أنّ المكتوب الذي سُجّل فيه علم الله، قد سُجّل فيه أيضاً أن تهوّر فلان بإرادته الحرّة، سيحدث، وسينجم عنه قتله، وقتل فلان وفلان معه، وأن جريمة قتل نفسه، وقتل من معه، سيحاسب عليها حساباً عسيراً، لأنّه فعلها مختاراً لا مضطرّاً، فأجرى الله قانونه القدري المسخّر لأعمال عباده الاختيارية، فتحققت نتائج الأسباب، وفق نظام الأسباب والمسببات.

ويرتكب كثير من الناس الكبائر وسائر المعاصي بإراداتهم الحرّة، ويعرّضون أنفسهم بذلك لعقاب الله وعذابه المعجل في الدنيا، والمؤجل ليوم الدين، ثمّ يعتذرون عن أنفسهم ويعتذر لهم الجاهلون، بأنّ ذلك قضاءٌ وقدر جبري قضاه الله عليهم وقدّره.

وهم في الوقت نفسه لا يخطر سلطان القضاء والقدر على قلوبهم في شؤون كسب المال، بل يبذلون لتحصيله قصارى جهدهم، ولا يقولون: إنّه لن يأتينا من المال إلّا ما قسم الله لنا، اعتقاداً من قرارة أفئدتهم، بل يتصوّرون أنهم كلّما اجتهدوا في اكتساب الرزق زادت أموالهم وأَثْرَوْا.

وكذلك حالهم في كلّ ما لهم به هوىً من شؤون الحياة الدنيا، أمّا بالنسبة إلى أعمال الآخرة، وبالنسبة إلى المعاصي التي يرتكبونها بإراداتهم الحرّة، فإنهم يتعلّلُونَ بالقضاء والقدر.

وهذا انحراف في الإدراك عن رقعة حقيقة القضاء والقدر، التي دلّت عليها النصوص من القرآن والسنة، ودلّ عليها منطق العقل المستند إلى فهم صفات الله فهماً متناسقاً متكاملاً.

ويقدّم بعض الموجهين للعامة مفاهيم جبرية خاطئة في هذا المجال،

ويوقعونهم بسبب ذلك في انحرافات فكرية اعتقادية، وانحرافات سلوكية كثيرة.

* * *

الصورة السادسة:

الإدراك المجانب للحقيقة الذي ليس بينه وبين رقعة الحقيقة أيّ تلاق مطلقاً.

فكثيراً ما يكون إدراك المدركين للحقيقة إدراكاً مجانباً لها مجانبة كليّة، فليس بينه وبين رقعة الحقيقة أي تلاقٍ، وهم يحسبون أنّهم مصيبون، وأنّ رؤيتهم للحقيقة رؤية صحيحة.

كمن يشير إلى رقعة مكة المكرّمة في الخريطة فيقول: هـذه رقعة دمشق، أو القاهرة، أو بغداد، أو عمّان، أو أنقرة، أو غير ذلك من عواصم العالم الإسلامي.

فهذا الإدراك مجانب للحقيقة مجانبة كلّية، وهو وإن كان أقل وجوداً في الناس من الصور السابقة، إلاّ أنه موجود بنسب مختلفة. ففي العلوم موجود بنسبة محدودة، وفي العقائد الباطلة والمذاهب الفكرية ذات الأهداف المحققة لأهواء ذوي الأهواء والمصالح الخاصة موجود بنسبة كبيرة جدّاً، وذلك لأن الأهواء والمصالح الخاصة، والتقاليد العمياء، وشهوات النفوس الرعناء، لا تتحقق إلاّ بهذه المجانبة الكلّية لبعض الحقائق الجذور.

ومن أمثلة ذلك قول الذين قالوا: لا إلّه، والوجود كلّه مادّة أزلية. وقول الذين قالوا: إنّ عبادة الأوثان تقرّبهم إلى الله زُلْفى. وقول الذين قالوا: إنّ الملائكة بنات الله. وقول الذين قالوا: عيسى هو الله. أو هو ابن الله، أو ثالث ثلاثة. وقول الذين قالوا: العزير ابن الله. وقول الذين قالوا: إنّ الإنسان نتاج التطوّر الذاتي الارتقائي في عالم الأحياء.

إلى غير ذلك من أمور باطلة كثيرة ليس بينها وبين رقعة الحقيقة أيّ تلاقٍ جزئي.

ويكثر الإدراك المجانب للحقيقة لدى تفسير النصوص، إذْ تفسّر الكلمةُ في النصّ بغير معناها المراد، فينصرف الإدراك انصرافاً كلّيّاً عن الحقيقة، إلى مفاهيم ليس بينها وبين رقعة الحقيقة أي تلاقٍ.



الفصل الرابع

أسبابُ الخطأ أو الجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة

مقدمة:

للجنوح عن الحقيقة حالتان:

الأولى: حالة مقصودة، وتكون عند ذوي الأهواء والنزغات الشيطانية، والشهوات الجانحة الجامحة، ولهذه الحالة سبب واحد، هو توجّه الإرادة الجازمة للالتواء عن الحقيقة أو الإعراض الكلّي عنها، بدافع من دوافع النفس الأمّارة بالسوء.

الثانية: حالة غير مقصودة للجانح نفسه، ولهذه الحالة أسباب كثيرة، ظهر لي منها بالتأمّل الأسباب التاليات:

١ ـ الوهم الناشىء عن اضطراب نفسيّ أو عدم اتّزان فكري.
٢ ـ ضعف أداة الإدراك أو وسيلته مع الغرور بالنفس.
٣ ـ انحراف النظر عن الحقيقة.
٤ ـ اشتباه الحقيقة بما جاورها.
٥ ـ تشابه الحقائق في صفاتها ولو تباعدت.
٦ ـ ردود الأفعال الفكرية السريعة بمؤثرات نفسية.
٧ ـ سوابق الأفكار.
٨ ـ التعصب لشخص أو قوم أو حزب أو جماعة أو فكرة قديمة.
٩ ـ التقليد الأعمىٰ.
١٠ ـ التسرّع في الحكم مع عدم وضوح الرؤية.

١١ ـ مؤثرات الأهواء والشهوات والمصالح الخاصة.

وأبيّن هذه الأسباب في مقولتين:

المقولة الأولى: في شرح أسباب الخطأ أو الجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة.

المقولة الثانية: في عرض أمثلة من الأغاليط الناشئة عن الخطأ أو الجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة.

المقولة الأولى
في شرح أسباب الخطأ أو الجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة

(١)
السبب الأول
الوهم الناشىء عن اضطراب نفسي أو عدم اتّزان فكري

فكم يكون الخطأ أو الجنوح الفكري عن الحقيقة ناشئاً عن الوهم الذي يُحدثه الخوف، أو الطمع، أو الشهوة العارمة أو الغضب، أو حاجة من حاجات النفس، أو دافع من دوافعها، أو يحدثه عدم اتّزان فكري، لخلل عارض أو دائم، أو نحو ذلك من الأعراض والأمراض النفسية.

وبالتوهّم يَرىٰ الرائي ما لم تَرَ عيناه، ويسمع ما لم تسمعْ أذناه، وقد يلمسُ ما لم تلمسْ يداه، وقد يشمّ ما لم يشمّ أنفه، وقد يذوقُ ما لم يَذُقْ لسانه، وقد يدرك ما ليس له حقيقة في الواقع.

وبالتوهُّم يصغر الكبير، ويعظُم الصغير، وتُحذف من الحقيقة عناصر، ويضاف إلى الحقيقة عناصر، وتُرىٰ الأشجار في اللّيل أشباحاً من الجنّ، وتُرى الحبالُ والعصيّ ثعابينَ تسعىٰ، وتُرىٰ البِركة الصغيرة بحراً، ويُرىٰ النّحاسُ الأصفر ذهباً، والزجاج الأبيض ماساً، وتُرى الفرسان المغيرة المعدودة جيشاً عرمرماً، وتُرىٰ أرضُ الصّرح الممرّد من قوارير لُجّة ماء، إلى غير ذلك من أمور كثيرة.

ويقع الناس في كثير من الأغاليط والأخطاء العلميّة بسبب وَهْمٍ

سيطر عليهم، وهذا الوهم قد جلبته حركة نفسية من حركات النفوس، التي تحدث اضطراباً في بعض وظائفها، فيفقد الفكر توازنه، فتزيغ البصيرة عن الرؤية الصحيحة.

وما أكثر الأخطاء التي يقع فيها العشّاق، لأنّ نار العشق أفقدت أفكارهم التوازن، وأزاغت بصائرهم، فرأوا بعيون هواهم، لا بعيون عقولهم وأفكارهم القادرة على إدراك الحقيقة.

والمندفعون بشهوة الحكم والسلطان يفقدون توازنهم، وتزيغ بصائرهم وأبصارهم، فيعشون أو يعمون عن إدراك الحقيقة.

والمندفعون بشهوة جمع المال يفقدون توازنهم، وتزيغ بصائرهم وأبصارهم، فيعشون أو يعمَوْن عن إدراك الحقيقة.

وكذلك كلّ من تضطرب وظائف أجهزته النفسية، بانفعال، أو شهوة، أو هوىً، أو أي دافع من دوافع النفس، أو أي عرض من أعراضها، أو أي مرض من أمراضها، كالحسد والحقد والعداوة والبغضاء، وغير ذلك.

وقد ضرب الله مثلاً لهذا السبب من الأسباب الموقعة في الخطأ، وهو ما حدث للمؤمنين في غزوة الأحزاب، بسبب ما تعرَّضوا له من خوف شديد، فقال عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ يا أيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذْ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها. وكان الله بما تعملون بصيراً * إذْ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذْ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنّون بالله الظنونا * هنالك ابتُلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ (٩ ـ ١١).

فالاضطراب النفسيّ الذي أحدثه الخوف الشديد، جعل الأبصار تزيغ، والبصر متى زاغ فسدت رؤيته فرأى غير الحقيقة، وجعل الأفكار

تضطرب، ومع الاضطراب تأتي الأوهام، وتأتي واردات الظنون الباطلة، وهذا ما أشار القرآن إليه في قوله تعالى:

﴿ وإذْ زاغت الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وتظنّون بالله الظنونا ﴾.

١ ـ زاغتِ الأبصار من حالة الاضطراب النفسي الذي جلبه الخوف الشديد.

٢ ـ وبلغت القلوب الحناجر، إذِ انشمرت من شدّة الخوف، فشعر الخائفون بأن قلوبهم ارتفعت عن مواطنها في الصدور حتى بلغت الحناجر.

٣ ـ وتظنون بالله الظنونا، إذِ اضطربت الأفكار، وأقبلت واردات الأوهام، وجعل المؤمنون الصادقون يظنّون بالله الظنون المنافية لمقتضى إيمانهم، وهي لا شك حالة مَرَضية عارضة، جَلَبها اختلال وظائف النفس بسبب شدّة الخوف الطارىء، وهي مما يشمله العفو للعذر القائم.

وقد حمىٰ الله رسوله محمداً ﷺ من زيغ البصر وطغيانه، رغم عِظَم المشهد الذي رآه عند سدرة المنتهىٰ، وبياناً لهذه الحماية قال عزّ وجلّ في سورة (النجم ٥٣):

﴿ ولقد رآه نَزْلةً أخرى * عند سِدْرةِ المنتهى * عندها جنّة المأوى * إذْ يغشىٰ السّدرة ما يغشَىٰ * ما زاغ البصر وما طغى ﴾ (١٣ ـ ١٧).

١ ـ ما زاغ البصر: أي ما انحرف ولا اضطرب.

٢ ـ وما طغىٰ: أي وما زاد في الرؤية على الحقيقة شيئاً.

فالرؤية إذن قد كانت صحيحة لا زيادة فيها على الحقيقة، وقد كانت لجبريل على هيئته الحقيقية التي لم يتشكّل فيها عليه السلام بشكل آخر.

* * *

(٢)

السبب الثاني

ضعف أداة الإدراك أو وسيلته مع الغرور بالنفس

وكثيراً ما يكون الخطأ ناشئاً عن ضعف أداة الإدراك أو وسيلته، مع الغرور بالنفس الذي ينتج عنه توهم كمال الإدراك وكمال الوسيلة، ثم ينتج عنه توهم معرفة الحقيقة معرفة كاملة مستوعبة.

ومن ضعف أداة الإدراك أو وسيلته عدمُ توافر الشروط اللازمة للإدراك الصحيح، كالضوء الكافي للرؤية، فيقع الناظر في الغَبَش، أو الرؤية الضبابية.

وبهذا السبب يقع الناس في أخطاءٍ كثيرة من كلّ الصور الستّ التي سبق بيانها.

ومن هنا وقع بعض الذين ينكرون الغيبيات، كالملائكة والجنّ، توهُّماً منهم بأنّ لديهم الأداة المدركة مع وسائلها التي تجعلهم يدركون حقيقة الواقع، بصفة استغراقية، فما لم يدركوه فهو غير موجود.

وهؤلاء إنْ كانوا صادقين مع أنفسهم، فهم مغرورون غروراً قبيحاً شائناً بالأدوات والوسائل الضعيفة التي لديهم، وغرورهم بأنفسهم قد نقص من مستوى عقولهم شيئاً كثيراً، حتّى عطّل عقولهم عن التسليم بالبدهيّة التي تقرّر: أنّ عدم وجدان صاحب الإدراك الناقص للشيء لا يدلّ على عدم وجود ذلك الشيء.

نظر مغرور بنفسه من ثقب الباب، ليرى من في داخل الغرفة، وتوهّم أنّ الثقب كافٍ لاستيعاب رؤية كلّ من في الغرفة، فرأى فيها خمسة أشخاص، فقال: فيها خمسة أشخاص، وليس فيها غيرهم حتماً.

مع أنّ فيها أشخاصاً آخرين لم يرهم، لأنّهم لم يكونوا في محاذاة الثقب

الذي نظر فيه.

لقد أصاب في قوله: في الغرفة خمسة أشخاص.
وأخطأ في قوله: وليس فيها غيرهم حتماً.
وكان عليه أن يقول: لم أرَ غير خمسة أشخاص.

والغرور بالنفس كثيراً ما يصيب الذين حالفهم النجاح، ويصيب الرؤساء والزعماء، والقادة السياسيين والعسكريين، وأصحاب اللَّسَنِ والفصاحة، وأصحاب القوة والبأس، ومن لهم أنصار وأتباع ومحبّون ومؤيدون، ويصيب المستكبرين، وسريعي البديهة، وأصحاب الشجاعة والإقدام.

والغرور داء يصيب الجماعات كما يصيب الأفراد، كحزب جاهد وناضل، وجماعة أصابت مجداً، وأسرة برز فيها زعيم أو قائد ذاع صيته وعظمت شهرته، أو أمّة أو شعب كانت لهم أمجاد تاريخية حربية، أو علمية، أو فنية، أو صناعيّة ، أو غير ذلك.

والغرور بالنفس ينفخ فيها حتى تتورّم تورُّماً مَرَضِيّاً، فَيُغَشِّي على البصيرة والفكر وأدوات الحسّ، وقد يطمسها أحياناً، فلا ترىٰ ما هو أمامَها وفي مدىٰ رؤيتها، وترى بالأوهام والتصوّرات الكاذبة أشياء لا وجود لها.

إنّ غرور المغترين بأنفسهم يوقعهم في أغاليط وأخطاء كثيرة، تجرُّ لهم ولمن وثق بهم واتّبعهم نكبات وبلايا وشروراً عظيمة.

* * *

(٣)

السبب الثالث

انحراف النظر عن حدود رقعة الحقيقة

وكثيراً ما يكون الخطأ ناشئاً عن انحراف النظر عن حدود رقعة

الحقيقة، مع توهُّم إصابته لها، وهو نوع من الحَوَل الفكري.

وقد يبدأ النظر برؤية الأجزاء الأولى من الحقيقة، ثم ينحرف عنها، فيغرّه البدء الصحيح، ثم لا يدرك أنه قد انحرف عن الحقيقة بعد ذلك.

كمن يبدأ من أوّل الطريق بداية صحيحة، ثمّ يسير غير متحرٍّ عن صحة المسيرة مع كلّ خطوة، فينحرف عن الطريق ويضلّ، ولا يصل إلى الهدف، بل يقع في المتاهات وهو يزعم أنّه على صواب، توهُّماً منه بأنّ بدايته كانت صحيحة.

وكم يقع مفسّرو النصوص في أخطاءٍ فاحشة، نتيجة انحراف نظرهم عن فهم المراد من النصّ، مع توهّمهم أنّهم قد أصابوا فهم المراد.

كمن يفهم من عبارة: «أضله الله» الواردة في القرآن الكريم بهذه الصيغة أو بصيغ أخرى مشابهة: أنّ الله عزّ وجلّ جبره على الضلال، ولم يعطه حرّية الاختيار، وخلقه ضالاً قضاءً وقدراً بأصل التكوين ليعذّبه في دار عذابه يوم الدين.

ويلغي صاحب هذا الفهم الفاسد بفهمه هذا دلالات نصوص العدل والحكمة والرحمة كلّها، ويحوّلها عن دلالاتها الأصلية.

وقد كان بإمكانه ليصل إلى الفهم الصحيح، أن يجمع النصوص، ويضع كلاًّ منها في موضعه، ويفهم من كلٍّ منها دلالته المقصودة، وعندئذٍ ينكشف له أنه قد أخطأ في فهم التعدية التي في هذا الفعل المتعدّي وأشباهه.

إنّ تعدية الأفعال لا تفيد دائماً معنى إيجاد المفعول به أو خلقه، بل يكفي فيها أيُّ معنى تصحّ معه فكراً هذه التعدية، كالتسبب، والحكم، والقضاء، والاتهام، والعلم بالشيء على ما هو عليه في الواقع، وغير ذلك.

ومن جمع النصوص الواردة حول هذا الموضوع، نفهم أنه ليس معنى «أضلّه الله» أنّه عزّ وجل خلق فيه الضلالة جبراً، وإنّما معناه: أنّه حكم عليه بالضلالة، بعد أن وجده قد ضلّ بإرادته الحرّة، واختياره الكامل، مع توافر شروط مسؤوليته عن اختياراته.

ومثل هذا المعنى في تعدية الأفعال كثير جدّاً في استعمالات العرب، فهو من أصول المعاني التي تدلّ عليها التعدية.

زار عمرو بن معد يكرب، رئيسَ بني سُلَيْم، فأعطاه عشرين ألف درهم، وسيفاً، وفرساً، وغلاماً خبّازاً، وثياباً وطيباً، فقال عمرو:

«لله درّكم يا بني سُلَيم، قاتلتُها فما أَجْبَنْتُها، وسألْتُها فما أبخلتُها، وهاجيتُها فما أفْحَمْتُها»[1].

أي: ما وجدتها جَبَانةً، ولا بخيلة، ولا مُفْحَمة.

ويقال لغة: أَجْبَنَه إذا وجده جباناً، أو حَسِبه وظنّه جباناً. وجَبَّنَهُ تجبيناً إذا نسبه إلى الجبن.

وتقول لغة: جَبَّنْتُ الرجلَ وبخَّلتُه وجهَّلتُه، إذا نسبتَه إلى الجبنِ والبُخْلِ والجهل. وتقول: أجْبَنْتُه وأبْخلتُه وأجْهَلْتُه، إذا وجدتَه جباناً بخيلاً جاهلاً.

وتقول لغة: أغفلتُ الرجل، إذا أصبته ووجدته غافلاً، أو وصفته بالغفلة وسمّيته غافلاً.

وتقول لغة: برَّأْتُ الرجل، إذا حكمت له بأنّه بريء، أو أثبتّ أنه بريء، أو شهدت له بالبراءة.

وتقول لغة: أَحْلَمْتُ الرجل، إذا وجـدتَه حَليماً، أو وصفته بالحلم، وسمّيته حليماً.

(١) انظر «لسان العرب» في مادّة (جبن).

وتقول لغة: خَطَّأْتُ الرجل، إذا حكمت عليه بأنه مخـطىء، أو اتَّهمته بأنه مخطىء. وعلى هذا يقال: إنْ أخطأْتُ فخطِّئْني.

وتقول لغة: صَوَّبْتُ الرجل، إذا حكمتَ له بأنّه مصيب، أو وصفته بالإصابة، وعلى هذا يقال: إنْ أَصَبْتُ فَصَوِّبْني.

وتقول لغة: سوَّأْتُ الرجل، إذا حكمتَ عليه بأنه أساء، أو اتَّهمته بالإساءة، وعلى هذا يقال: إنْ أَسَأْتُ فَسَوِّءْ عليّ.

وتقول: زَنّاه، إذا اتّهمه بالزنا، أو حكم عليه به قضاءً، وقد يكون بريئاً من الزنا.

وتعدية فعل (جعل) تأتي في القرآن بمعنى الفعل والخلق، وتأتي بمعنى الحكم، وتأتي بمعنى الاعتقاد ولو كان باطلاً.

ومن الاستعمالات التي جاء الجعل فيها بمعنى الاعتقاد الباطل، قول الله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿ الذي جعل مع الله إلٰهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد ﴾ (٢٦).

وقوله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وجعـلوا لله شركاء الجنّ..... ﴾ (١٠٠).

ومن استعمالات الجعل بمعنى الحكم التشريعي، قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿ ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنّه كان منصوراً ﴾ (٣٣).

وتعدية فعل (زكّىٰ) جاءت في القرآن بمعنى الحكم بالزكاة التي هي البراءة من الإثم، وجاءت بمعنى تطهير النفس فعلاً من الإثم، بالإيمان واجتناب المعاصي.

فمن الأول قول الله تعالى في سورة (النجم ٥٣):

﴿ فلا تزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى ﴾ (٣٢).

أي: لا تحكموا لأنفسكم بأنّكم أزكياء طاهرون أتقياء، ولا تصفوها بذلك، فالحكم بتزكية الأنفس ليس لكم، إنما هو لله، فهو أعلم بمن اتقى حقاً، فمن زكّاه الله فحكم له بذلك فهو الزكيّ التقي، لأنه سبحانه هو العليم بعباده الحكيم في أحكامه.

ومن الثاني قول الله تعالى في سورة (الأعلى ٨٧):

﴿ قد أفلح من تزكّىٰ ﴾ (١٤).

وقول الله تعالى في سورة (الشمس ٩١):

﴿ ونفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها ﴾ (٧ ـ ٩).

أي: قد أفلح من جعل نفسه بإرادته وعمله زَكِيَّة طاهرة من الكفر والمعاصي.

وعلى هذا القياس نفهم كثيراً من أفعال التعدية في القرآن.

فمنها ما جاء في قول الله تعالى في سورة (الحجر ١٥) حكاية لقول إبليس:

﴿ قال: ربّ بما أغويتني لأزيِّننَّ لهم في الأرض ولأغوينّهم أجمعين * إلّا عبادك منهم المخلَصين ﴾ (٣٩ ـ ٤٠).

بما أغويتني: أي بما قضيت عليّ في حكمك بالغواية، بعد ابتلائي بأمر السجود ومعصيتي، فطردتني من رحمتك. فقبل مقالة إبليس هذه، كان قد صدر الحكم عليه بالطرد واللّعنة، وهو ما يدلّ عليه سوابق النصّ.

ومنها ما جاء في سورة (الصف ٦١):

﴿ وإذْ قال موسى لقومه: يا قوم ِلمَ تُؤْذونَنِي وقد تعلمون أنّي رسول الله إليكم. فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ (٥).

أي: فلمّا زاغوا هم عن الحقّ بإراداتهم وأعمالهم، أزاغ الله قلوبهم، أي حكم الله على قلوبهم بأنها قد زاغت، لأنّ زيغهم قد كان نابعاً من عمق قلوبهم، فالقلب هو منبع الإرادة، ومحلّ الزيغ والهداية، وما الأعمال إلّا ظواهر لما فيه.

فالحكم بالزيغ أو بالهداية حكم على ما في القلوب لدى التحقيق، وحكم الله على قلوب هؤلاء بالزيغ حكمٌ حقٌّ وعدل، لأنّهم فاسقون، والله لا يهدي القوم الفاسقين، أفيعقلُ أن يحكم الله للفاسقين بأنّهم مهديّون؟! إنّ مثل هذا الحكم مخالف لحقيقة أمرهم، إنّ حقيقة أمرهم أنهم زائغون ضالون، فكيف يحكم الله لهم بالهداية.

ومنها أيضاً ما جاء في قول الله تعالى لرسوله في سورة (الكهف ١٨):

﴿ ولا تُطِعْ من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فُرُطاً ﴾(٢٨).

أي: ولا تطع من وجدنا قلبه غافلاً عن ذكرنا فحكمنا عليه بأنه غافل.

ونظير هذا في اللّغة العربية كثير جدّاً، فهو من أصول دلالات التعدية، فعلى متدبّر كلام الله أن يفهم النصوص القرآنية بما يتلاءم مع المفاهيم الإسلامية العامّة التي دلّت عليها النصوص المختلفة.

وبموجب هذا الفهم ندرك دلالة التعدية في مثل قول الله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿من يَهْـدِ اللهُ فهـو المهتـدِ، ومن يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِـدَ لـه وَلِيًّـا مُرْشداً﴾ (١٧).

أي: من يحكم الله له بالهداية فهو المهتدي حقاً، لأنَّهُ هو وحده العليم بقلوب عباده وبما فيها من هداية وضلال، فـإذا حكم بالهـداية فحكمه الحق، وكذلك من يحكم الله عليه بالضلالة فهو الضالّ حقاً، ولَنْ تجد له من دون الله وليًّا ينصره فيحكم له بالرّشاد، وينجيه من عذاب الله.

ويقع كثير من الوعّاظ والخطباء بسبب انحراف النظر عن حدود رقعة الحقيقة، في غلطة فاحشة يكرّرونها باندفاع حماسيّ، وهم منصرفون عن تحرير ما يقولون.

إنّهم حينما يهاجمون الكافرين والمجرمين وحتى العصاة يصفونهم بنحو العبارات التالية: «إنهم مفطورون على الشر، أو على الكفر ـ أو هذا من فساد فطرتهم ـ أو من خبث فطرتهم ـ أو من سوء فطرتهم ـ أو نحو هذه العبارات».

فيحيلون ظواهر أعمالهم، وأنواع سلوكهم في الحياة، إلى أنّها آثار فطرتهم الخبيثة، ويغفلون عن أنّها آثار اختيار إراداتهم الحرّة التي منحهم الله إيّاها ليبلوهم أيُّهم أحسن عملاً. أمّا أصل فطرتهم التي فطرهم الله عليها فهي فطرة الإيمان وحبّ الحقّ.

وبعد ذلك جاءت أهواء النفوس فأثَّرت على الإرادة الحرّة فجنح الإنسان بإرادته الحرّة، فالمسؤولية تقع على الإرادة المزودة بالبصيرة العقلية، لا على الفطرة، فكم من ذي فطرتين متماثلتين في الخصائص الطَّبْعِيّة تماماً، وأحدهما مؤمن تقي، والآخر كافر شقي. فالأول يثـاب بجنات النعيم لأنه استخدم إرادته الحرّة في اختيار سبيل الخير والحقّ، والثاني يعاقب بنار الجحيم، لأنه استخدم إرادته الحرّة في اختيار سبيل الشـرّ والباطل.

والدليل الشرعي على سلامة أصل الفطرة الإنسانية ونقائها من الشرّ الفطري، قول الله عزّ وجل في سورة (الروم ٣٠):

﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فِطْرتَ الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيِّم. ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٣٠).

وقول الرسول ﷺ كما جاء في الحديث الصحيح:

«كلّ مولود يولد على الفطرة حتى يُعْرِبَ عنه لسانه، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يُمجّسانه».

وفي الحديث القدسي يقول الله عزّ وجل:

«إني خلقت عبادي حنفاء كلّهم فاجتالتهم الشياطين».

فالأصل في فطرة الإنسان السلامة وحبّ الحقّ، ولكنّ الإرادة الحرّة في الإنسان إمّا أن تستجيب لمؤثرات الأهواء، أو عوامل التربية الفاسدة، وإمّا أن تستجيب لمنطق العقل ونداء الضمير، وتهتدي بأنوار دين الله لعباده.

* * *

(٤)

السبب الرابع

اشتباه الحقيقة بما جاورها

وكثيراً ما يكون الخطأ الفكري ناشئاً عن اشتباه الحقيقة بما جاورها، وبهذا الاشتباه تختلط أرض الحقيقة بأرض المشتبهات بها في النظر، فيحدث الخطأ.

وقد نبّه الرسول ﷺ على أخذ جانب الحذر بالنسبة إلى المشتبهات

بين الحلال والحرام في الدين، وأنه ينبغي اتقاء الوقوع فيها حذر الوقوع في الحرام، ولكن لا على معنى الحكم بالتحريم، فالحكم بالتحريم لا يجوز إلاّ بالدليل الشرعي الكافي لإثبات الحرمة.

روى البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنّ الحلال بيّن، وإنّ الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهُنَّ كثير من الناس، فمن اتقىٰ الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالرّاعي يرعى حول الحمىٰ، يوشك أن يرتع فيه، ألاَ وإنّ لكلّ مَلِكٍ حِمىً، ألاَ وإنّ حِمىٰ الله محارمه، ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب».

والمشتبهات بين الحلال والحرام هي التي يرى الناظر إليها عناصر تشبه الحلال وعناصر تشبه الحرام، وهذه العناصر مختلطة قد يقع الناظر إليها في الالتباس، إمّا لعدم وضوح الرؤية لديه، وإمّا لأنّ الأمر توجد فيه فعلاً عناصر تقتضي التحريم وعناصر أخرى تقتضي الإباحة، وهي مختلطة اختلاطاً يصعب معه التمييز، أو ترجيح أحد النوعين على الآخر، والمشتبهات أمور مشكوك في حلّ فعلها، أو حرمة فعلها، أو مشكوك في حلّ تركها، أو حرمة تركها.

والمجاورة بين الحلال والحرام تجعل ظلال كلٍّ من المتجاورين تقع على الآخر، فيقع في الوهم الاشتباه.

واتقاء الشبهات هو الأولى والأورع دائماً، كما أنّ الوصول إلى جوار الحرام، ومباشرة حدوده، من الأمور الخطرة، التي قد تضعف النفس معها أمام قوة الإغراء، فلا تجد مقاومة، فتدخل داخل حدود الحرام، بداعي هوى النفس وشهواتها التي تجد لها في أرض الحرام مرتعاً.

هذا هو منهج السلوك بالنسبة إلى المشتبهات، أمّا الأحكام فلا يجوز البتّ فيها بالتحريم أو بالإيجاب مع وجود الاشتباه، حتى يقوى الدليل على إثبات الحكم بذلك.

إنّ ما يدعو إليه الورع لا يصح أن يُصدَّر فيه حكم بالإيجاب أو بالتحريم، بل يقال فيه: إنّ الأفضل والأورع هو الترك أو الفعل، أو ينبغي الترك أو الفعل من باب الحذر من الوقوع في الحرام أو ترك الواجب.

فإذا قام الدليل الكافي وزال الاشتباه أمكن إصدار الحكم بالتحريم، أو بالإيجاب.

ويقع كثير من الناس في أخطاء تصدير أحكام اجتهادية بالتحريم أو بالإيجاب، مع أنّ القضية من الأمور المشتبهات في نظرهم، ولكن رأوا أنّ الورع يقضي بفعلها فحكموا بأنها واجب، أو رأوا أن الورع يقضي بتركها فحكموا بأنها حرام، ونقول: إنّه ليس من حقهم شرعاً أن يصدّروا مثل هذه الأحكام، لأنّ الأدلة الداعية إلى الورع لا تقوى على إثباتها.

* * *

(٥)

السبب الخامس

تشابه الحقائق في صفاتها ولو تباعدت

وقد يكون الخطأ الفكري ناشئاً عن تشابه الحقيقة مع غيرها في الشكل، أو الصورة أو اللّون، أو غير ذلك من الصفات، ولو لم يكن المتشابهان متجاورين.

١ ـ كمن يرى السراب ماءً، لأنّ السراب في الصحراء قدّم للنظر من بعيد صورة تشبه صورة لجّة الماء. وكذلك نظر الكافرين إلى أعمالهم، إنهم

ينظرون إليها فيرون أنّها تشبه الأعمال التي تحقق لأصحابها السعادة، فيكدّون فيها ويكدحون، بُغية أن تحقق لهم السعادة التي ينشدونها، ويَسْعَون لاهثين بحثاً عن السعادة بوسائل أعمالهم المبنيّة على قاعدة الكفر بالله وباليوم الآخر، لكنّهم يُفنون أعمارهم سعياً وكدّاً، ثمّ لا يصلون إلى السعادة التي ينشدون، بل تنقضي آجالهم، ويجدون الله الذي كانوا ينكرونه، ويجدون حقائق الدار الآخرة والحساب والجزاء.

قال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ والذين كفروا أعمالهم كسرابٍ بِقِيعة يحسبه الظمآن ماءً، حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئاً ووجد الله عنده، فوفّاه حسابه، والله سريع الحساب ﴾ (٣٩).

٢ - وكمن تشابه عنده ظاهر المنافق بظاهر المؤمن، فحكم للمنافق بالإيمان اعتماداً على التشابه في الظواهر بينهما.

٣ - ورأى قوم هود منظر سحاب مقبلة على بلادهم - وكان هود عليه السلام قد أنذرهم بالهلاك إذا لم يستجيبوا لدعوته - فلمّا رأوْا السُّحب المقبلة قالوا: هذا عارض ممطرنا، لأنه كان مشابهاً في الصورة للعارض الممطر، لكنّه كان عذاباً مهلكاً، قال الله تعالى مبيناً ذلك في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ فلمّا رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا: هذا عارضٌ مُمْطِرُنا. بل هو ما استعجلتم به، ريحٌ فيها عذاب أليم * تدمّر كلّ شيء بأمر ربّها فأصبحوا لا يُرى إلاّ مساكنهم، كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ (٢٤ - ٢٥).

٤ - وكمن اشتبه عليه النُّحاس الأصفر بالذهب، أو الزجاج شديد الصفاء بحجارة الماس، أو اشتبه عليه بعض أصناف الملح بالسكر.

وفي سنة ١٣٧٢ هـ كنت في «بومبي» على مائدة المرحوم الشيخ محمد

علي زينل علي رضا مؤسس مدارس الفلاح أجزل الله مثوبته، فوجدت أمامي طعاماً يشبه المربيات في شكله، فهممت أن آكل منه مقدار نصف ملعقة، فأسرع الشيخ رحمه الله وأعلمني أنه معجون من الشطّا (الفلفل الأحمر الحارّ جدّاً) فكففت عنه.

فعلى العاقل البصير أن لا يغتر بالتشابه بين الأشياء، فيعمّم عليها الأحكام، بل عليه أن يتّبع كلّ الصفات والخصائص، ثمّ يصدّر حكمه بحسب مقتضيات الحقّ والواقع.

٥ ـ ومن الأغاليط التي وقع فيها كثير من الناس بهذا السبب إطلاقهم على نظام الإسلام أسماء مبادىء إنسانية أخرى غير إسلامية في جملتِها، بل هي مضادّة للإسلام، إلّا أنّ بينها وبين نظام الإسلام في موضوعها شبهاً جزئيّاً. وبهذا الشبه الجزئي اشتبه عليهم الأمر، فظنّوا أنّه يصحّ استناداً إليه إطلاق أسماء هذه المبادىء على نظام الإسلام في موضوعاتها.

وساعد على هذه الرؤية الفاسدة عوامل أخرى، كالتسرّع في الحكم مع عدم وضوح الرؤية، وكانغماس الناس في مفاسد المبادىء الواقعة في الطرف المضادّ الأقصى، وهم يزعمون أنّهم لا يخالفون الإسلام، وكوسائل الخدع التي يستخدمها دعاة هذه المبادىء للتضليل وتزوير الحقيقة.

ومن أمثلة ذلك إطلاق أسماء الاشتراكية أو الرأسمالية أو الديمقراطية أو الديكتاتورية على نظام الإسلام الذي هو شيء آخر غير هذه المبادىء كلها.

وقد يحتلّ نظام الإسلام مساحة الوسط الحقّ بين هذه الأضداد المتقاصية. والوسط الحق كثيراً ما توجد فيه عناصر مماثلة لعناصر من المبدأ الواقع على جهة أقصى اليمين، وعناصر مماثلة لعناصر من المبدأ الواقع على جهة أقصى الشمال.

وانخداعاً بهذا الشبه الجزئي قد يطلق بعض الناس على الإسلام

أسماء هذه المبادىء المضادّة في جملتها للإسلام.

فبعض الناس أخطؤوا فرأوا أن الإسلام اشتراكي، وآخرون أخطؤوا فرأوا أنّ الإسلام رأسمالي، وآخرون يخطئون فيرون الإسلام ديمقراطيّاً، وغيرهم يرونه ديكتاتوريّاً، إلى غير ذلك من أسماء لمبادىء غير إسلامية في جملتها.

وكنت في بعض ما كتبت ضربت مثلاً توضيحيّاً لهذا الغلط فقلت:

إن مثل الإسلام في نظامه كمثل الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم بين الكائنات الحيّة الأخرى، ومن المعلوم بالمشاهدة أنّ بين هذه الكائنات وبين الإنسان عناصر جزئية متشابهة، لكنّ كلّ واحد من هذه الكائنات مخالف للإنسان في جملته.

فإذا رأينا الشبه الجزئي بين الإنسان وبين الحمار مثلاً في أن لكلّ منهما عينين يرى بهما، وأذنين يسمع بهما، ونحو ذلك، فإنّه لا يصحّ لنا أن نقول: الإنسان حماري.

ولو صحّ ذلك لكان الإنسان أيضاً ذئبيّاً وثعلبيّاً، وثعبانيّاً، إلى سائر الحيوانات المتفاصلة في صفاتها الكلّية إلى أنواع، إذْ كلُّ نوع منها لا يخلو من شبه جزئي مع الإنسان.

ويستغلّ الأخباث المضلّلون استعداد الناس لتقبّل هذا الغلط، فيستخدمون حيلة الشبه الجزئي لإقناع جماهير المسلمين بأنّ مبادئهم التي يدعون إليها مبادىء تتفق مع الإسلام، إلى حدّ أنّه يصحّ أن ننسب الإسلام إلى هذه المبادىء، كأنها هي الأصل الحسن الجميل، فإذا اتفق الإسلام معها كان هو حسناً جميلاً مثلها.

وبسخرية نقول: نعم، كما اتفق الإنسان في تكوينه مع الحمار، بدليل أن الإنسان له عينان ينظر بهما، وله أذنان يسمع بهما، كما أنّ

للحمار العظيم عينين يبصر بهما، وأذنين يسمع بهما، أمّا ذنبه وحوافره ومشيه مكبّاً على وجهه وسائر صفات النقص فيه، فيلبسونها أغطيةً مزركشة، ويعلّقون عليها زينات زخرفية لستر قبائحها.

وهكذا يطمس المغالطون الفوارق الكثيرة بين الإسلام ومذاهبهم الفاسدة، ليروّجوا هذه المذاهب بين المسلمين.

* * *

(٦)

السبب السادس

ردود الأفعال الفكرية السريعة بمؤثرات نفسيّة

وكثيراً ما يكون الخطأ الفكري ناشئاً عن ردود الأفعال الفكرية السريعة إلى الضدّ الأقصىٰ، مع أنّ الحقيقة قد تكون دونه.

ويقع في هذا الخطأ الفكريّ الفاحش كثير من الناس، بسبب انتقالهم السريع إلى الضدّ الأقصىٰ المقابل لفكرة باطلة رفضوها، أو مذهب رأوا فساده فلم يقبلوا به.

وبسبب هذا الانتقال السريع الذي هو من قبيل ردود الأفعال غير الواعية، يتركون الأوساط التي قد تكون الحقيقة في واحد منها، أو قد تكون الحقيقة موزعة الأجزاء بين الأوساط، وقد يكون فيما رفضوه بعض الحقّ مختلطاً بباطل كثير، وفيما انتقلوا إليه بعض الحقّ مختلطاً بباطل كثير.

وبعملهم هذا ينتقلون من خطأ إلى خطأ آخر مثل الذي فرّوا منه، وربما يكون الذي انتقلوا إليه أفحش وأشدَّ بعداً عن الحقيقة من الخطأ الذي فرّوا منه.

أمثلة :

المثال الأول: حقد العمّال والكادحون والفقراء على الرأسمالية المقيتة

وظلمها، فثاروا عليها ورفضوها، لكنّهم انتقلوا بردود الأفعال الفكرية السريعة المعاكسة إلى الضدّ الأقصىٰ، فسقطوا في براثن المنظَّمات الشيوعية والاشتراكية المقيتة، التي هي أشدّ ظلماً وهضماً للحقوق، وبعد سقوطهم وجدوا أنفسهم يكتوون بنيران أشدّ حرارة وتعذيباً من نيران الرأسمالية والإقطاع.

وسبب ذلك أنّ غضبهم الثائر على الرأسمالية أعمىٰ بصرهم وبصيرتهم عن الأوساط التي تقع فيها الحقيقة، وأعدل هذه الأوساط وأقومها نظام الإسلام الاقتصادي.

وكم سمعنا في أيّام حقد الناس على الرأسمالية أقوالاً انفعالية غير واعية، تطالب بقدوم الشيوعية، فلمّا قدمت الشيوعية ببعض تطبيقاتها، صار هؤلاء أنفسهم من أكبر مؤيّدي عودة الرأسمالية، وعميت بصائرهم مرّةً أخرى عن عدل الإسلام ومناهجه الحقّ، كأنّه ليس في الوجود إلاّ الأضداد المتقاصية، وليس بينها أوساط تقع الحقيقة فيها.

إنّها الغفلة عن الأضداد الوسطى، ورؤية الأضداد القصوى فقط، كأنّ التقابل يقع بين نقيضين[1] فقط، لا بين أضداد متعدّدة.

إنّ الأرجوحة الفكرية تتقاذفهم من أقصىٰ الغرب إلى أقصى الشرق وأقساه، وهم يسمحون للقوى ذات المصلحة الخاصة بأن تتقاذفهم بين الأقصيين، ورؤوسهم تدور، والسياط المسلّطة عليهم تضربهم مرّة في أقصى الغرب، ومرّات في أقصى الشرق.

ولو تركهم القَذّافون أصحاب المصالح الخاصة لتقاربت المسافة، وصحّت الرؤية، ولرأوا أنّ أرض الحقيقة موجودة تحت أقدامهم بين

(١) النقيضان: هما المتقابلان اللذان لا ثالث لهما، وكلٌّ منهما ينقض مُقابله، فإذا وجد هذا انعدم ذاك، وإذا انعدم هذا وجد ذاك، كالوجود والعدم، والإيجاب والسلب، أمّا الأضداد فهي المتقابلات التي لا يجتمع اثنان منها في شيء واحد، ولكن قد لا يوجدان معاً، إذ يوجد ضدٌّ ثالث، كالأبيض والأسود وبينهما ألوان، منها الأحمر والأصفر. . .

الأقصيين، وهم لن يطمئنّوا إلاّ إذا وقفوا عليها، ويكون ذلك حينما تنتهي لعبة الأرجوحة.

المثال الثاني: رفض الغرب الديكتاتوريّة وعنفها وقسوتها وظلمها، وكان الحقّ معه في أن يرفضها، ولكن قذفه ردّ الفعل الفكري السريع الثائر إلى الديمقراطية الفوضوية المائعة الرجراجة المفسدة للأجيال، والمنذرة بكارثة عظيمة للشعوب الغربية، ما لم تَصْحُ إلى الأوساط التي تقع فيها الحقيقة الصالحة المصلحة.

وأعمىٰ الثائرين حقدهم على الديكتاتورية، وغضبهم منها، فلم يَرَوْا الأوساط التي تقع الحقيقة النافعة فيها، وأقوم هذه الأوساط وأعدلها منهج الإسلام الحقّ.

واستغلّ بعض الديكتاتوريين سوء حال الديمقراطيات في جمع أنصار لهم، يقنعونهم بفساد الديمقراطية، ويشحنونهم بالحقد عليها وعلى دعاتها، وفي غمرة الحقد والعمى الفكري اندفعوا إلى مؤازرتهم، وجنّدوا أنفسهم في جيوشهم، وقامت ديكتاتوريّات ظالمة آثمة سالبة لكلّ الحرّيات، فبعد ديمقراطية الثورة الفرنسية، قامت في الغرب ديكتاتورية الفاشية، وتسنّم ذروتها هتلر في ألمانيا، وموسوليني في إيطاليا.

وهكذا يتأرجح الناس بين الأقصيين الفاسدين، ويتقاذفهم أصحاب المصالح الخاصة، ويعمون عن الأوساط التي يقع الحقّ فيها، أو هي أقرب إلى ما يسعد الناس وينفعهم ويُصلِح أحوالهم.

المثال الثالث: أسرفت تقاليد المجتمعات الإسلامية خلال العصور المتأخرة، في عزل المرأة وحجابها، وإبعادها عن الحياة، وحصرها في المنازل، وغلا الناس في ذلك غُلوّاً ابتعدوا فيه عن مفاهيم الشريعة الإسلامية، وعمّا كان عليه سلف هذه الأمّة في عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده.

وولّد ذلك تذمُّراً دفيناً، لا سيما حينما فسد حال الرجال، وفسقوا في كلّ مجال، وبقي الضغط على المرأة آخذاً طابع غَيْرة وحميَّةٍ جاهلية.

وجاءت الفتنة بتقليد المرأة الأوروبية، مع زحف الاستعمار، وعوامل الغزو الفكري والنفسي والسلوكي، الذي تولّته المؤسسات الصليبية أوّلاً، ثم المؤسسات الإلحادية واللادينية من الغرب والشرق.

وقامت في بلدان العالم الإسلامي دعوات تحرير المرأة، وكانت هذه الدعوات مدفوعة سرّاً من قبل أعداء الإسلام، واستجاب لهذه الدعواتِ المتذمّراتُ والمتذمّرون من الأوضاع التقليدية المغالية، وانطلقت داعيات السفور وطرح الحجاب باندفاع مسرف جدّاً، وقذفهنّ العمىٰ الفكري إلى الضدّ الأقصى، ولم ينظرن إلى الوسط الإسلاميّ المعتدل المحتشم، فانتشر بدعوتهنّ وتطبيقاتِهنّ السفور الحرام، فنصف العري، فشبه العري الكامل.

ونجم عن هذا الإسراف الشنيع فساد عريض، وكساد في سوق الزواج، ورواج في سوق الفحش والرذيلة.

ثمّ ظهرت صحوات إسلامية، وبدأت الاتجاهات الإصلاحية تكشف عيوب هذه الفوضىٰ التي جلبها السفور المسرف، واستجاب لهذه الدّعوات الإصلاحية كثيرون، إذْ رأوا ما انتهت إليه أحوال المسلمين والمسلمات من فساد عريض.

ولكن حصل عند بعض أصحاب الرجعة ردّ فعلٍ عنيف إلى الضدّ الأقصى، فظهر الغلوّ في حجاب المرأة، وظهرت الآراء المتشدّدة المؤيدة لهذا الغلوّ. مع أنّ حكم الإسلام فيه من الحكمة والاعتدال ما يضمن مقصود الشارع من الأمر بالحجاب، ولا حاجة للإسلام بأن نغلوَ من أجله، أو نسرف في التشدّد بزعم شدّة التّمسُّك به، إنّ شدّة التمسّك شيء والغلوّ شيء آخر، فشدّة التمسُّك تكون بالمحافظة على حدود الشارع دون تفريط ولا غلوّ.

إنّ الخير كلّ الخير في أن نحرّم ما حرّمه الله ورسوله، وأن نوجب ما أوجبه الله ورسوله، وأن نستحسن ما حسّنه الله ورسوله ولم يوجباه، وأن نترخّص فيما رخّص فيه الله ورسوله.

المثال الرابع: رفض المعتزلة الرأي الجبريّ بشدّة، ومعهم الحقّ في هذا الرفض، فانتقلوا بردّ فعل فكريٍّ معاكس إلى الضدّ الأقصى، فوقعوا في خطأٍ فكريٍّ آخر رفضوا فيه دلالات نصوص الكتاب والسنة، ولم يتبصّروا ما بين الضدّين الأقصيين من أوساط فكرية تقع الحقيقة فيها.

ثمّ اهتدى المحقّقون أهل البصيرة من أهل السنة والجماعة، إلى الوسط الذي تقع فيه الحقيقة، وهو ما كان عليه السلف الصالح، بالإيمان الاتباعي، دون تعقيدات وإشكالات فلسفيّة.

وأجدني مسوقاً إلى بسط الكلام حول هذا الموضوع، لأنه ما زال مشكلاً في تصوّر كثير من الناس، حتّىٰ الباحثين منهم والدعاة، والمتصدّين للتعليم والتوجيه، والأساتذة الذين يشرحون للعامة وللمتعلمين أركان العقيدة الإسلامية.

إنّ الحدود الوسطىٰ هي في الغالب مواضع الغموض في المعارف النظرية، إذْ تنطلقُ الأفكار بسرعة من الشيء إلى أبعد أضداده، وتترك الضدّ أو الأضداد الوسطى.

لقد وقف كلٌّ من الجبرية والقدريّة (وهم المعتزلة نفاة القدر) في الضدّ الأقصى المقابل للضدّ الأقصىٰ الذي وقف فيه ندّه.

تأثّر الجبريّة بظواهر بعض النصوص، وغفلوا عن دلالاتٍ يقينيّة لنصوصٍ أخرى، فقالوا: إنّ الإنسان لا اختيار له، وهو كالريشة في الهواء، والله عزّ وجلّ قد خلق بقضائه وقدره الجبريَّيْن فريقاً من عباده للسعادة وللجنة، وفريقاً آخر وهم الأكثر للشقاوة وللنار، ولا اعتراض على

إرادة الله وحكمه، فالخلق خلقه، والناس جميعاً عبيده، وهو يفعل فيهم ما يشاء ويختار.

وكبُر كلام هؤلاء عند الذين رأوا دلالات نصوص عدل الله ورحمتِهِ وحكمته، وأنّه سبحانه لا يظلم أحداً، وقامت لديهم براهين العقل على خلافه فاندفعوا بردّ فعلٍ عنيف معاكس لاتجاه الجبرية، فنفوا القدر في دوائر أعمال المكلفين الاختيارية، زعماً منهم أنهم يتّبعون في ذلك دلالات نصوص عدل الله ورحمته وحكمته ونفي الظلم عنه، مع دلالات العقل، فقالوا: إنّ الله عزّ وجلّ خلق المكلّفين وأعطاهم مشيئاتهم، ومكّنهم من خلق أفعالهم التي تقع في مجال تكليفهم، وتركهم يتصرّفون كما يشاءون، فليس لله مقادير في أعمالهم ولا في نتائج أعمالهم، وأخذوا يتأوّلون كثيراً من النصوص الصحيحة الثابتة بيقين على غير وجهها الصحيح.

ولمّا اعترض هؤلاء على الجبرية بالعقل ودلائله، وبالنصوص المثبتة لحكمة الله وعدله ورحمته والتي تنفي الظلم عنه، أجاب الجبرية بأنّ أفعال الله ومشيئاته لا تُعلّل، وأنّه لا مانع عقلاً ولا شرعاً من أن يقدّر الله الكفر بالقدر الجبريّ على عبده، ثمّ يخلقه فيه جبراً، ثمّ يعاقبه عليه، وأنّ ذلك لا يكون ظلماً، لأنّ الله عزّ وجلّ هو الخالق المالك، فله التّصرّف الكامل فيما يملكه سبحانه. وغيّر هؤلاء بهذا الالتزام مفاهيم الحكمة والعدل والرحمة والظلم، ودلالات نصوص كثيرة، كالحديث القدسي الصحيح، الذي يقول الله فيه:

«يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالَموا».

وكقول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إنّ الله لا يظلمُ مثقال ذرّة، وإنْ تَكُ حسنةً يضاعفها ويؤتِ من لَدُنْهُ أجراً عظيماً ﴾ (٤٠).

وكقول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ إنّ الله لا يظلم الناس شيئاً ولكنّ الناس أنفسهم يظلمون ﴾ (٤٤).

وكقوله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ ولا يظلم ربُّك أحداً ﴾ (٤٩).

لقد رأىٰ الجبريّون أنّ إرادة الله إذا لم تتعلّق بخلق الهداية في العبد جبراً، تعلّقت حتماً بخلق الضلالة فيه جبراً، وغفلوا عن الوسط الحقّ وهو الاحتمال الثالث، ألا وهو تعلّق إرادة الله ومشيئته بمنح الإرادة الحرّة المختارة للمكلفين، وأنه متى تعلّقت إرادة اللهِ بشيءٍ امتنع أن تتعلّق بنقيضه، أو بضدّه، في وقت واحد وشيءٍ واحد. وغفلوا عن اختصاص علم الله بسبق علمه بما سوف يختار العبد بإرادته الحرّة. وغفل المعتزلة عن اختصاص الله بسبق علمه هذا، وعن إمكان الجمع بين تخيير العبد، وأنّ الفعل بعد اختيار العبد إنّما يتم بخلق الله الذي سخّر لعباده القُوَىٰ، التي تكون سبباً في وجود الأفعال وتحقيق النتائج.

حقّاً لقد غفل الفريقان معاً عن الاحتمال الثالث، الذي هو وسط بين الضدّين الأقصيَيْن، وهو الجمع بين كلّ صفات الله عزّ وجلّ، دون تصوّر التناقض بينها، ودون إلغاء دلالة أيّ منها، وتحويلها عمّا هو معلوم منها بالبداهة.

وهذا الوسط يظهر لنا تماماً حينما نفهم أنّ حكمة الله اقتضت أن يخلق نوعاً من خلقه حرّاً مختاراً ليمتحنه، وليحاسبه، ثمّ ليجازيه، وقد أعطاه في هذا الخلق أعظم الخصائص التي يمكن أن تكون لمخلوق.

فتعلّقت مشيئته تعالى بأن يكون هذا المخلوق حرّاً مختاراً، وإذْ قد اقتضت حكمة الله أن يمنحه التخيير ليبلوه، ثم ليحاسبه ويجازيه، استحال مع ذلك أن تتعلّق مشيئته بنقيض التخيير الذي هو الجبر.

لكنّ علم الله الشامل المحيط بكلّ شيء، إنّما هو صفة كاشفة للواقع، لا خالقة له، ولا موجودة، ولا مجبرة، وليس لها أي تأثير في إيجادٍ أو إعدام.

ثمّ إنّ هذا المخيّر في إرادته، قد تساعده القدرة الرّبّانية الممدّة لكلّ شيءٍ على تنفيذ مراده، فما يتمُّ بهذه القدرة المساعدة له لا يتحقّق بوصفه المطلوب المباشر لمشيئة الله عزّ وجلّ، وإنّما يتحقّق باعتبار أنّ الله قضىٰ وقدّر أن يسخّر لعباده طائفة من إمدادات قدرته، وقُوىً خلقها في كونه، يحقّق لهم بها ما اتجهت له مشيئاتهم الخاصة، إلّا أن يكون لله مشيئة بخلاف ذلك، فهم بالتسخير والتمكين والإذن من القضاء والقدر يتصرّفون وفق مشيئاتهم، وتلك هي سُنّة الله، ليتمّم بها ظروف ابتلائه لعباده على الوجه الأكمل.

إنّ مشيئة الله توجّهت لتخيير العباد المكلفين المبتلين، فكان من المخيّر المكلّف المبتلىٰ أن أراد فعل الشرّ، ولكن لا يتمّ له فعل الشرّ إلّا بتمكين الله له منه، وإقداره عليه، وتسخير ما خلَق من قدرات في كونه لإرادته، فيعطيه الله ذلك بقضائه وقدره وخلقه، ما لم تكن له سبحانه مشيئة خاصّة مخالفة للنتائج التي يمكن أن تتحقق بمشيئة العبد، لو سارت إلى مداها ضمن ما سخّر الله لها.

كمن أراد قتل إنسان، فمكّنه القضاء والقدر من محاولات التنفيذ، ومن مباشرة الأسباب، وسخّر الله له قدرات كثيرة، وقطع خطوات في هذه المحاولة. فإذا كان لله مشيئة بأنّ أجل هذا الإنسان الذي يراد قتله قد انتهى، جَرَتْ مقادير الإمداد إلى غايتها، فتَمَّ القتل. وإذا لم يكن لله مشيئة بموت هذا الإنسان في هذا الأجل، قام الحريص على قتله بكل محاولاته، واتخذ كلّ أسبابه، ثمّ يخلف الله النتيجة بسببٍ معارض يجريه عزّ وجل.

والعمل الذي يصدر عن العبد المكلّف المخيّر، إنّما هو من لوازم حكمة التخيير للابتلاء، فهو أمرٌ حكيم بالنسبة إلى الله عزّ وجل، وقد يكون ظلماً وعدواناً وشرّاً من العبد المخيًّر، لأنه قد عصىٰ فيه أوامر التكليف ونواهيه.

وخطأ الجبرية والمعتزلة في ترك حدّ الوسط، والأخذ بأحد الحدّين الأقصيين، قد جرّهما إلى ارتكاب أخطاءٍ كثيرة، كانت من لوازم هذا الخطأ الجذري. فمنها أخطاء في فهم صفات الله عزّ وجل. وأخطاء في فهم نصوص القرآن والسنَّة، إذ انجرّ الفريقان إلى تأويلات باطلات، وتفسيرات فاسدات ما أنزل الله بها من سلطان.

على أننا إذا قارنّا بين أخطاء الجبرية وأخطاء المعتزلة، رأينا أنّ أخطاء الجبرية ربما كانت أفحش وأكثر إسرافاً في البعد عن الوسط الذي تقع الحقيقة فيه.

ففي صفات الله، يقضي الحقّ بأنّ لكلّ صفة في خريطة جملة صفات الله حدوداً من الدلالات لا يصحّ تجاوزها. ومدُّ بعض هذه الصفات حتى تحتَلّ ما هو لغيرها من الصفات عدوان فكريّ، يتولّد عنه مفاهيم خاطئة، وضلالات فكرية، وجنوح عن منهج التفكير الحقّ.

إنّ مدّ صفتي القدرة والإرادة حتى تكونا مشاركتين لصفة العلم في كلّ متعلّقاتها، يُسقط في أخطاءٍ تنتهي إلى ضلالات اعتقادية، وقد يكون الخطأ في أوّله صغيراً، ولكن ينجم عنه انحراف عظيم في سلسلة اللوازم.

إنّ صفة العلم الربّاني تكشف وتعلم ثلاثة أقسام:

الأوّل: ما هو موجود أزليٌّ على سبيل الوجوب الحتمي، وهو ذات الله وقدرته وإرادته وسائر صفاته، وهذا لا تتعلّق به قدرة الله ولا إرادته، لأنهما تتعلقان بالممكنات فقط.

الثاني: ما هو مستحيل الوجود، فهو غير ممكن الوجود حتماً، فالعلم الربّاني يكشفه ويعلمه، ولا تتعلّق به قدرة الله ولا إرادته، لأنه مستحيل الوجود عقلاً، مثل شريك الباري سبحانه وتعالى عن الشريك.

الثالث: ما هو موجود فعلاً، ولكن يمكن عقلاً عدمه، وليس وجوده أزليًا واجباً. وما هو غير موجود فعلاً ولكن يمكن عقلاً وجوده، وليس عدمه واجباً عقلاً.

فالعلم الربّاني يكشف هذا القسم ويعلمه، وهذا هو الذي تتعلّق به قدرة الله وإرادته، فإن كان موجوداً فقد تعلّقت إرادة الله وقدرته بإيجاده، وإن لم يكن موجوداً فإنما يوجد إذا تعلّقت بإيجاده إرادة الله وقدرته، لأنّ أصله العدم ويمكن إيجاده بقدرة الله.

وبهذا البيان يظهر لنا أنّ غير الواقع غير مراد الوقوع وإن كان ممكناً مع أنّه معلوم، ولم تتعلّق به قدرة موجده فهو معدوم. ويظهر لنا أنّ بعض ما هو غير واقع لا يمكن أن يقع، فلا يمكن أن يريده الحكيم، ولا يمكن أن تتعلق به قدرته. وأنّ ما هو واقع إن كان واجب الوجود فهو معلوم، ولكن لم تتعلّق به إرادة ولم توجده قدرة. وإنما وجوده أزلي أبدي واجب عقلاً. وإن كان غير واجب الوجود فهو معلوم، وإنما وُجد لمّا تعلّقت بإيجاده إرادة الله وقدرته.

إنّ خطأ مدّ صفة الإرادة، وصفة القدرة، إلى كلّ المتعلّقات التي تشملها صفة العلم، يوقع في أخطاءٍ فكرية كثيرة، منها ما يلي:

١ ـ إنّ هذا المدّ الفاسد يجعل بعض الناس يتوهمون أنّه لا مانع من أن تتعلّق إرادة الله وقدرته بإيجاد المتناقضَين في آن واحد في شيء واحد.

كأن تتعلّق إرادته تعالى وقدرته في زمن واحد ومكان واحد بإيجاد شيءٍ ما وإعدامه معاً، دون أن يكون لهذا التناقض جهة تفكّه.

وبهذه سقط الذين يقولون للتوفيق بين الجبر والاختيار: نحن قدرية ظاهراً جبريّة باطناً، وتصوّروا أنّهم حلّوا التناقض بهذا، وفكّوا الجهة بالتفريق بين الظاهر والباطن، مع أنّ الظاهر والباطن في العقائد شيءٌ واحد، وإلّا فهو كالنفاق، إنّ أمر التفريق في المسائل والقضايا الاعتقادية بين الظاهر والباطن حيلة مرفوضة، كحيل ألعاب أصحاب الخفّة الحركية، الذين يموّهون بأمر ليخفوا فيه أمراً آخر.

إنّ هذا الكلام يحمل مضموناً ساقطاً حتماً، وهو يشبه قول القائل: أنا موجود ظاهراً معدوم باطناً من الجهة التي أنا فيها موجود، وبالخصائص والصفات نفسها.

وتحليل سقوط هذا الكلام الجبري القدري، يظهر حينما نلاحظ أنّ مشيئة الله لا يمكن أن تتعلّق في وقت واحد بأن يكون العبد نفسه مختاراً ومجبوراً معاً في النقطة التي أريد فيها أن يكون مختاراً، وفي الزمن ذاته الذي أُريد أن يكون فيه مختاراً.

ومن البدهيّات أن إرادة الله لا تتعلّق بالنقيضَين معاً.

إذن: فالمخلوق الواحد في الوقت الواحد إمّا أن تكون له إرادةٌ حرّة مختارة، وإمّا أن يكون مجبوراً لا اختيار له.

٢ ـ والسقوط في خطأ مدّ صفة القدرة وصفة الإرادة إلى كلّ المواقع التي تشملها صفة العلم، جعل الجبريين يغفُلون عن الوسط التخييري، حينما تردّدت أذهانهم بين الأقصيَين: الجبر على الهداية، والجبر على الضلالة.

إنّهم لمّا قرؤوا في النصوص، انّ الله تعالى يعلم كلّ ما سيفعله العبد باختياره الحرّ، وأنّ الله كتب علمه هذا فعلمته الملائكة المختصة، وهذا العلم من خصائص الربّ عزّ وجل، توهّموا أنّ كلّ معلوم من أفعال العباد، هو مراد ومقدّر لله عزّ وجل على سبيل الجبر. وهذا خطأ فاحش.

٣ ـ ومدّ صفتي القدرة والإرادة إلى المواقع التي تستأثر بها صفة العلم، لزم منه تجاوزهما في توهّم الجبريين، حتى طغتا على صفتي الحكمة والعدل، فكان من نتائج ذلك أن تقلّصت في توهّمهم صفة الحكمة عن مداها الذي هُو لَها، وتقلّصت صفة العدل عن مداها الذي هو لها، واختلط في تصوّرهم مفهوم العدل بمفهوم الظلم.

وتخلُّصاً من الإشكالات التي اعترضتهم، صرفوا الأمر إلى مفاهيم غيبية غير مدركة.

وتعطّل بذلك فكرهم عن إدراك الحكم الرّبّانية التي يمكن أن تدرك به، فإذا أدرك الفكر حكمة من الحكم الرّبّانية صرفوه عنها، وكان ذلك إكراماً للحَوَل الفكري الذي نظر إلى صفتي القدرة والإرادة نظرة غير صحيحة.

٤ ـ ولدى فهم الجبريين لطائفة من النصوص القرآنية، وقعوا في أخطاء الجمود عند الأقصيين المتضادّين المتباعدين، ورفع الوسط الذي هو بينهما.

لقد فهموا هذه النصوص على أنها مرفوعة الوسط، مع أنّ الوسط موجود والحقّ فيه، لا في الطرفين الأقصيَين.

فمن ذلك قول الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ ولو شاء ربُّك لآمن مَنْ في الأرض كلّهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ (٩٩).

وقول الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ وعلى الله قصد السبيل، ومنها جائر، ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (٩).

ولدى تدبّرنا لهذين النصّين ونظائرهما، نقول: لدينا أربع مشيئات:

المشيئة الأولى: أن يجعل الله الناس جميعاً مجبورين على الهداية.

المشيئة الثانية: أن يجعل الله الناس جميعاً مجبورين على الضلالة.

المشيئة الثالثة: أن يجعل الله بعض الناس مجبورين على الهداية وبعضهم مجبورين على الضلالة.

المشيئة الرابعة: أن يجعلهم مخيّرين فيختار بعضهم بإرادته الحرّة سبيل الهداية، ويختار بعضهم بإرادته الحرّة سبيل الضلال.

فالنصوص ذكرت أنّه تعالى لو شاء أن يجعل الناس مجبورين على الهداية لفعل، لكنّه تعالى لم يشأ ذلك، فسقط الاحتمال الأول.

وهنا نتساءل، فنقول: ما الذي شاء الله إذن؟.

هل شاء أن يجعلهم مجبورين جميعاً على الضلالة؟ والجواب يأتي بالنفي قطعاً، لأنّ الواقع خلاف ذلك، ولأنّ حكمة الله وكمال الله يأبيان مثل هذه المشيئة. فسقط الاحتمال الثاني.

ثم نقول: هل شاء الله أن يجعل بعض الناس مجبورين على الهداية، وبعض الناس مجبورين على الضلالة؟.

وهنا نقول: إنّ حكمة الله وعدله ورحمته وكماله، صفات تأبَىٰ أنْ يخلُق عبيداً مجبورين على الضلالة وفعل الشرّ، ثمّ يكلّفهم، ثم يحاسبهم ويجازيهم على شيء خلقه فيهم، دون أن يكون لهم كسب فيه، فسقط الاحتمال الثالث.

وبعد إسقاط الاحتمالات الثلاثة الأولى، لم يبقَ إلّا الاحتمال الرابع، وهو مشيئته تعالى في أن يجعلهم مخيَّرين ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً، وهذا هو الاحتمال الذي يتناسب مع صفات الله، ونصوص التكليف، ومفاهيم نصوص المسؤولية والجزاء، ولا يرد عليه أيّ اعتراض.

وانصرف ذهن الجبريين إلى إثبات المشيئة الثالثة، وغفلوا عن المشيئة الرابعة، التي هي في الحقيقة الوسط بين الجبرين: الجبر على الهداية والجبر على الضلالة.

والحقيقة أنه لا جبر، فقد دلّت النصوص على أنّ المكلفين مخيّرون، لقوله تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ وقل: الحقّ من ربُّكُم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ (٢٩).

فلزم المصير إلى إثبات المشيئة الرابعة، وهي أنّ الله عزّ وجل قد جعل المكلَّفين من عباده مخيَّرين، فلم يجعلهم أمّة واحدة على سبيل الجبر، ولو جبرهم عزّ وجلّ لجبرهم على الهداية، لأن حكمته ورحمته وكماله لا تسمح بأن يجبرهم على الضلالة ثمّ يعذبهم، وهم لا يملكون حرّية الخلاص. وكذلك لم يجعل بعضهم مهديّاً على سبيل الجبر وبعضهم ضالاً على سبيل الجبر، فصفة عدله لا تسمح بذلك مع صفات حكمته ورحمته وكماله.

فثبت التخيير، وهو الحق الملائم لصفات الله والملائم لدلالات النصوص، إذا فهمت مجتمعة فهماً سليماً.

وفي مقابل خطأ الجبريين مدَّ المعتزلة صفتي العدل والحكمة في موضوع تكليف العباد، حتى طغتا في توهمهم على حدود صفتي الإرادة والقدرة، فقلّصوا هاتين الصفتين عن بعض اختصاصاتها الثابتة في النصوص، من أجل ما توهَّموه في صفتي الحكمة والعدل.

وبعضهم قلّص أيضاً صفة العلم عن مدى شمولها، فخالف دلالات النصوص الثابتة بيقين.

المثال الخامس: قال فريق يجب على الله عزّ وجلّ فعل الأصلح، وزعموا أن من كمال الله أن يكون غير الأصلح غير مقدور له سبحانه، فجعلوا قدرة الله محصورة في الممكن الأصلح فقط.

فعارضهم المنتصرون لمشيئة الله وقدرته المطلقتَين، فقالوا: لله تعالى أن يشاء أيّ شيءٍ ممكن عقلاً، وهو سبحانه قادر على فعل كلٍّ ممكن ولو كان قبيحاً، حتى ولو كان خلق الكفر بالعبد وجبره عليه، ثمّ معاقبته على ما خلق هو فيه جَبْراً.

وخالف هؤلاء في هذا الانتصار المسرف في الغلوّ العقل وقطعيّات النصوص، التي تثبت أنّ الله لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها، وأنه لا يظلم عزّ وجلّ أحداً مثقال ذرّة، وأنّه سبحانه حرّم الظلم على نفسه، وأوجب على نفسه العدل.

ثمّ قال هؤلاء: لا يقبح من الله فعل أيّ قبيح، ولا يجب على الله فعل أيّ شيء حسن، وانطلقوا في هذه الالتزامات إلى أقصاها.

وغفل الفريقان عن الاحتمال الثالث الحقّ، وهو أنّ الله عزّ وجل له المشيئة المطلقة والقدرة المطلقة، ولكنّه لا يشاء بحكمته إلاّ الحكيم أو الأحكم(١)، لأنّ هذا من مقتضيات كماله عزّ وجل، وقد أوجب هو سبحانه على نفسه أموراً بمشيئته واختياره سبحانه، لأنّ ذلك من مقتضيات صفة حكمته، وكمال عدله.

وليس غير الحكيم أو الأحكم غير مقدور لله عزّ وجل، لكنّ الله باختياره الحكيم لا يعلّق إرادته به، فلا تتعلّق به قدرته لزوماً، إذْ تعلُّق القدرة تابع لتعلُّق الإرادة، وتعلُّق الإرادة التنجيزيّة تابع للاختيار الحكيم، والاختيار الحكيم إنما يكون مع العلم المحيط بكلّ شيء.

ولزم من سقوط كلّ من الفريقين في تصوّره الخاطىء لوازم التزم بها كُلٌّ منهما بحسب أصله الذي أخذ به.

فقال قائلون: إنّ أفعال الله لا تتعلّق بأغراض مطلقاً، لأنّ الله غنيٌّ بذاته عن أيّ شيء، وانطلقوا مع هذا التصوّر إلى أقصاه، حتى إذا رأوا

(١) وقد دلّ على هذه الحقيقة قول الله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأتِ بخير منها أو مثلها﴾.

تعليل الله لبعض أحكامه بالمصلحة لعباده، أوّلوا ذلك بمطلق الإرادة، دون أن يُقرّوا بربط الأعمال بغايات حكيمة، اختارتها إرادة الله المقرونة بحكمته، وهذه الغايات قد دلّت عليها النصوص القاطعات، وتأوّلوا جمّاً غفيراً من النصوص بناءً على ذلك.

وشغل الفريقان الناس بمسألة الحسن والقبح العقليين، وحشوا بها بطون الكتب، ولو وضح لهما التصوُّر الثالث الوسط وضوحاً كافياً، لانحلّت إشكالاتها، ولم يسقطا في لوازم مذهبهما، ولم يخالفا كثيراً من نصوص الكتاب والسنة، ولم يتأوَّلاها على غير المراد منها الذي يسير معه المنطق العقليّ الحقّ.

المثال السادس: جنح فريق من الناس إلى جانب العقل، فجعلوه حاكماً على الدين، فأخضعوا المفاهيم الدينيّة لمفاهيم عقولهم القاصرة، فسقطوا في أخطاء فاحشة جانبوا فيها الدين والحقيقة معاً، وجانبوا منطق العقل الصحيح السليم.

وأفرط فريق آخر في تعطيل منطق العقل بجانب ما يفهمون من ظواهر دلالات نصوص الدين، فسقطوا في ظاهريّات اعتمدوا فيها على مفاهيم قاصرات للنصوص الدينية، وزعموا أنّ التسليم بها هو تسليم للدّين، وارتكبوا بسبب ذلك أخطاءً فاحشة، جانبوا فيها الدين والحقيقة معاً، مع مجانبتهم لمنطق العقل الصحيح السليم.

إنّ أسس الدين لا تقبل منهم التسليم بما يفهمونه من نصوصه فهماً مخطئاً، اعتماداً على ظواهر ألفاظ، لو تعمّقوا في فهمها، واستعملوا عقولهم بأناة وتبصّر في إدراك مضامينها ودلالاتها، لاستنبطوا منها مفاهيم لا تتعارض مع منطق العقل السليم، ولا مع الواقع بحال من الأحوال.

لقد غفل الفريقان عن تصوّر الأمر الثالث، الذي هو وسط بين تحكيم العقل في الدين، وبين التسليم للمفاهيم الظاهريّة الساذجة

للنصوص الدينية، وهذا الوسط هو: «فهم الدين الحقّ بالعقل الصحيح والمنطق الفكري السليم».

فلدينا دين من عند الله، نزلت ببيانه نصوص لغوية، لا يمكن فهم دلالاتها الصحيحة إلّا بالعقل الصحيح والمنطق الفكريّ السليم، فالواجب علينا إذن أن ننظر في فهم معاني النصوص الدينيّة بهذه الأداة التي خلقها الله فينا، لنتعرّف بها على حقائق الأشياء.

فمن يأخذ بما يتبادر إلى فهمه من النصّ، ويزعم أنّه يسلّم بما جاء به الدين، فإنّه يغالط نفسه، إذْ يجعل الدين هو ما فهمه فكره السطحيُّ الساذج من غير تأمّل ولا نظر عميق.

ومن يُكرِهُ النصوص الثابتة بيقين على حمل معانٍ تلائم فهمه القاصر للحقيقة، أو يرفض هذه النصوص ودلالاتها استناداً إلى تصوّرات عقله للحقيقة، فإنّه يعطي عقله أكثر من حدوده. إنّه يعطيه بذلك العصمة من كبوات الخطأ والغلط والنسيان والغفلة وقصور الإدراك، وكلٌّ هذه موجودة في عقول الناس.

ومَثَل هذا المعتمد على عقله القاصر كمثل من يريد أن يصيد النجم ببندقيته، وكمن يريد أن يرى الجرثوم الراشح في نقطة لا يدركها الطرف، بالمنظار العادي الذي يقرّب المسافات الأرضية للرائين.

المثال السابع: معظم الناس يرفعون الوسط بين الخير والشرّ، فلا يتصوّرون الأشياء إلّا في حدود هٰذين الضدّين، فإمّا أن يكون الشيء في تصوّرهم خيراً، وإمّا أن يكون شرّاً. فإذا لم يكن خيراً فهو في تصوّرهم شرّ، وإذا لم يكن شرّاً فهو في تصوّرهم خير.

وهكذا تتأرجح أفكارهم بين الضدّين الأقصيَين، ويغفُلون عن المسافة الوسطى، التي تقع الأمور الحيادية فيها، وهي الأمور المباحة التي لا ترجيح فيها لأيٍّ من طرفي الفعل والترك على الآخر، والأشياء التي هي من

قبيل الوسائل الصالحة لأن تستعمل في الخير، ولأن تستعمل في الشرّ، وهي بحدّ ذاتها لا توصف بخير ولا بشرّ، وإنّما الذي يوصف بالخير أو بالشرّ نوع استعمالها.

وكان العرب ككلّ الناس يرون المال خيراً بصفةٍ عَامّة، ويطلقون عليه اسم «الخير» وأطلق القرآن في سورة (العاديات) اسم «الخير» على المال بحسب مصطلح العرب.

ولكن الإسلام لم يجعل المال خيراً في المفهوم الحقيقي للخير والشر، وإنّما بيّن أنّه من قبيل الوسائل الصالحة لأن تستعمل في الخير، وتستعمل في الشرّ.

فالرسول ﷺ لمّا حذّر أصحابه من أن يفتتنوا بالدنيا التي ستفتح عليهم بأموالها وكنوزها، سأل أحد أصحابه: أو يأتي الخير بالشرّ؟! فأجابه الرسول ﷺ: «أو خيرٌ هو؟!».

فأنكر الرسول صلوات الله عليه أن يكون المال بحدّ ذاته خيراً، ثم ضرب مثلاً أبان فيه أنّ المال وسيلة، فإن استعمل في الخير كان خيراً، وإن استعمل في الشرّ كان شرّاً[١].

ونستطيع أن نفهم أنّ كلّ ما خلق الله للناس وسخّر لهم، هو من قبيل الوسائل أمور حيادية، إن استعملت في الخير كانت خيراً، وإن استعملت في الشرّ كانت شرّاً، وذلك بالنظر إلى الاستعمال لا بالنظر إلى ذواتها، فذواتها محايدة، وقد خلقها الله لينتفع بها، وسخّرها لعباده ليبلوهم أيّهم أحسن عملاً، وكلّفهم أن يستعملوها فيما لا شرّ فيه ولا ضرّ.

ومن الوسائل كلّ المخترعات الحديثة الصالحة لأن تستعمل في الخير ولأن تستعمل في الشرّ.

---

(١) انظر شرح الحديث (الثاني) في كتاب «روائع من أقوال الرسول ﷺ» للمؤلف، وهو حديث صحيح رواه مسلم.

ويُصدِّر بعض المتفقهين أحكاماً من عند أنفسهم على الوسائل المحايدة بالتحريم، تأثُّراً باستعمال أكثر الناس لها، مع أنّها ذواتها أشياء لا توصف بحلال ولا بحرام. حتى الخمر هي بحدّ ذاتها ممّا خلق الله، والحرام هو شربها واستعمالها فيما لم يأذن به الله.

المثال الثامن: هاجمت المدارس الاستشراقية، والمؤسّسات التبشيرية الصليبية، الإسلام بأنه دين انتشر في الناس عن طريق إكراههم عليه بالسيف.

فتصدّى لهذا الهجوم من صفوف المسلمين مأجورون للمهاجمين أنفسهم، واندفع معهم فريق من المسلمين المتأثرين بالثقافات المعاصرة، دون وعي لخطّة المكيدة وأسلوبها، فتبنّوا في الدفاع عن الإسلام فكرة أنّ الإسلام ليس فيه أصلاً قتال الهجوم، وإنما كانت الحروب الإسلامية حروباً دفاعيّة فقط، ودواعيها دفاعية فقط.

وكانت ذريعة هذه الفكرة النصوص الإسلامية التي تقرّر أنه لا إكراه في الدين.

وبإمعان النظر يتبيّن لنا أنّ هذا الدفاع عن الإسلام بهذه الطريقة، هو الدفاع الذي كان يريده المهاجمون أنفسهم، لأنّهم كانوا يريدون أن يؤصّلوا في المسلمين، عن طريق المسلمين أنفسهم، قضيةَ إلغاء الجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، وحصر القتال الإسلامي في حدود الدفاع فقط.

ثمّ بعد حين يدبّر الأعداء لقتال الدفاع مكيدة ثانية، تعتمد على الذكاء والحيلة، أو على القوة المتفوقة، بعد تجزئة القوى الإسلامية وتشتيتها.

لقد أوقع المدافعين في تبنّي هذه الفكرة ما لردود الأفعال الفكرية والنفسية السريعة إلى الضدّ الأقصىٰ، مع الغفلة عن الوسط الحق، من

استثار بحالة النفس المضطربة لدى صدّ الهجوم، ثم بعد استحسان الفكرة تستقر في النفس وتثبت، ويصعب على الإنسان انتزاعها، ورؤية غيرها، لأنها كانت وسيلته في صدّ الهجوم.

وكان مثل المهاجمين كمثل من يصطنع هجوماً وهمياً في حلبة الصراع على منافسه، فيرتدّ منافسه إلى الوراء بإفراط، ليشحن هجومه بقوّة اندفاع كبيرة، فيسقط من ورائه في فخ مكيدة تصوّر المهاجم منذ هجومه أنّه سيسقطه فيها، بهجومه الوهميّ المباغت.

وفي مقابل سقطة هؤلاء في فخ المكيدة، رأى جماعة من الغيورين على الإسلام غلط هؤلاء فيما سقطوا فيه، فارتدّوا إلى الطرف المقابل الأقصى، فقالوا تقليداً لخطأ اجتهادي سابق عند بعض أهل التأويل: إنّ قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿ لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ ﴾ (٢٥٦).

منسوخ بآيات الأمر بالقتال. فوقع هؤلاء في خطأ آخر التزموا فيه ضمناً ولو لم يصرّحوا بذلك: أنّ الإسلام انتشر عن طريق إكراه الناس عليه، لا عن طريق الإقناع.

أمّا الوسط المتروك من قِبَل الفريقين الواقفين في الطرفين الأقصيين المتضادّين، فهو أنّ الإسلام قد شرع القتال لعدة أمور، ليس في واحد منها الإكراه على اعتناق الإسلام، وهذه الأمور هي ما يلي:

الأمر الأول: الدفاع عند حالات الهجوم الظالم الآثم أو الهجوم المدبّر، والحق فيه واضح.

الأمر الثاني: الجزاء والعقاب لاسترداد الحقوق المغصوبة والمأخوذة بغير حق، كحال المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم. والحقّ في هذا الأمر واضح أيضاً، ودليله قول الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ (٣٩ - ٤٠).

الأمر الثالث: الانتصار لمسلمين مستضعفين مظلومين مقهورين، واقعين تحت سلطان كفّار ظالمين، يغلبونهم على أمرهم، ويفتنونهم في دينهم، وفي بيان هذا الأمر يقول الله عزّ وجل في سورة (النساء ٤):

﴿ ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرّجال والنساء والولدان الذين يقولون: ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلُها، واجْعل لنا من لدنك وليّاً، واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ (٧٥).

الأمر الرابع: تأمين تبليغ دعوة الحقّ للناس، فتبليغ الدين للناس أجمعين وظيفة المسلمين الأولى، التي لا يجوز لهم بحالٍ من الأحوال أن يتخلّوا عنها، دلّ عليها قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ وكذلك جعلناكم أمّةً وسطاً، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً. . . . . ﴾ (١٤٣).

وقول الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وجاهدوا في الله حقّ جهاده، هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حَرَج، ملّةَ أبيكم إبراهيم، هو سمّاكم المسلمين من قبلُ، وفي هذا، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ (٧٨).

فقد كلّف الله المسلمين أن يجاهدوا في الله حقّ جهاده، لتبليغ دينه، ويوم القيامة يكونون شهداء على الناس في أنّهم بلّغوهم دين الله، كما أن الرسول ﷺ يكون شهيداً على المسلمين الذين بلّغهم دين الله في زمانه.

وحين لا تسمح لهم دولة بهذا التبليغ، فإن من حقهم أن يقاتلوها لتأمين تبليغ دين الله، إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وإذا لم يقم المسلمون بهذه الوظيفة، فإنهم يقعون يوم القيامة تحت

طائلة المسؤولية، في أنهم لم يبلّغوا الناس رسالة ربّهم.

الأمر الخامس: إزاحة قُوى طاغية ظالمة، لا تقيم العدل في شعوبها، ولا تعطيهم الحرّية في اعتناق الحقّ الذي قد يرغبون في اعتناقه، ويفتنونهم في دينهم.

وقد دلّ على هذا الأمر قول الله عزّ وجل في سورة (البقرة ٢):

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهَوْا فلا عدوان إلاّ على الظالمين ﴾ (١٩٣).

هذه الأمور الخمسة كلّها أمور معقولة ومبرّرة منطقيّاً، وليس فيها إكراه للناس على اعتناق الإسلام، كما أنها لا تقتصر على قضية الدفاع فقط الذي هو الأمر الأول منها.

* * *

(٧)

السبب السابع

سوابق الأفكار

إنّ سوابق الأفكار الثابتة حول موضوع معين يجعل فكر الإنسان موجّهاً شطر هذه السّوابق ومحجوباً عن غيرها.

ومن شأن سوابق الأفكار الثوابت، أن تُعشي البصر والبصيرة، وتجعل الفكر يجنح وينحرف عن وجه الصواب، إلاّ في حالة واحدة، وهي أن تكون سوابق الأفكار من الحقائق الواضحة، غير المختلطة ولا المشوبة بباطل.

ويظلّ كثير من الناس متخبّطاً لا يتضح له الحق، ولا ينكشف له وجهه، مع أنّ الموضوع يتعلّق بقضية من القضايا الأساسية المهمة، مهما

عرضت عليه الأدلة والبراهين، لا لأنّ الأدلة غير كافية للإقناع بالحقّ، ولكنْ لأنّ سوابق أفكار قد كان لها سلطان على عُقولهم وتأثير فيها، وتَغْشِيَةً على بعض قدرات الرؤية لديها.

ويرجع تأثير سوابق الأفكار على النفوس والعقول إلى عدّة عوامل، منها العوامل التالية:

١ - الإلف، فللإلف استهواء خاصٌّ يجعل المألوف محبَّباً للنفوس، ومحلًّا للطمأنينة والسكينة، ويجعله مأنوساً غير مستغرب لدى العقول، حتى يكون كالبدهيَّات التي لا تناقش، ولا تحتاج إلى أدلة أو براهين، فهي تستمسك به على أنه حقٌّ جليٌّ جدّاً، ولو كان باطلاً واضح البطلان في حقيقة أمره، إلّا أنّ الإلف حجب بصيرة العقل عن فحصه، وتقويمه بميزان المنطق السليم، والنظر التأمليّ الصحيح، فجعلَه من المسلّمات التي لا تحتاج نظراً ولا استدلالاً.

٢ - الاستكبار عن الاتّهام بالتزام الخطأ، وعدم استبصاره، طوال المدّة السّالفة، التي ظلّت فيها سوابق الأفكار هي المستبدة بقناعة العقل وارتياح النفس.

ويبدو أنّ الرجوع عن الخطأ إلى الصواب يجرح كبر المستكبرين، أصحاب الأنانيات المستعلية المقيتة، لذلك فهم يُصرّون على الخطأ، ويكابرون ويعاندون، ولو ظهر لهم وجه الحقّ، وكثيراً ما يحجب عنهم كبْرُهم رؤية وجه الحق، والإصغاء إلى دليله.

٣ - ارتباط مصالح ومنافع، أو شهوات وأهواء، بالتزام سوابق الأفكار والإصرار عليها.

فمن له مصلحةٌ، أو منفعةٌ، أو شهوةٌ، أو هوىً، في فكرة من الأفكار، وكان له حول هذه الفكرة قناعة سابقة، فإنّ عوامل نفسه تجعله يُصرّ على قناعته السابقة، ويرفُضُ أيّة فكرة مضادّة، وحينما

تُعرض عليه الأدلة والبراهين المثبتة للفكرة المضادّة، والمبطلة لما يلتزم من فكرة سابقة، فإنّه يجد ذهنه محجوباً عن إدراك هذه الأدلة والبراهين، ومصدوداً عنها.

ولئن استبصرها واكتشف فساد ما كان عليه، فإنّ مصلحته، أو منفعته، أو شهوته، أو هواه، تجعله يعرض عن قبول الفكرة الجديدة المضادّة، ما لم يكن لديه من قوة الإرادة وصدق العزيمة في ابتغاء الحقّ، ما يجعله يرجع عن الخطأ إلى الصواب، ولو خسر مصالحه ومنافعه الخاصة، ولو خالف شهوته وهواه.

وكثير من المشركين قد صعُب عليهم قبول منطق التوحيد، لأنّهم ألفوا مفاهيم الشرك الباطلة، وبعضهم استكبروا عن أن يتّهموا هم وآباؤهم بأنّهم كانوا في الضلال والجهل، وبعضهم قد ارتبطت طائفة من مصالحهم ومنافعهم، أو شهواتهم وأهوائهم، بالتزام المفاهيم والعقائد الباطلة.

ونجد لدى متّبعي المذاهب الهدّامة الضالة كثيراً من هذا العناد الصارف عن الحقّ، إذْ كانت لهم سوابق أفكار صعب عليهم أن يتحوّلوا عنها، ويرجعوا إلى الحقّ، ويعترفوا على أنفسهم بأنّهم كانوا مبطلين.

وقد نجد نظير ذلك بصورة مخففة أو شديدة لدى أتباع المذاهب الفقهية، والمذاهب الاجتماعية، ورجال البحث العلمي، وأصحاب الآراء الاجتهادية، ولدى أعضاء المنظمات والهيئات المختلفة، فإذا كانت لديهم سوابق أفكار ومفاهيم، صعُبَ عليهم أن يتخلَّوْا عنها، وصعُبَ عليهم أن يَرَوْا أنّ الحقّ في غير ما كانوا يتصوّرون، وكبُر عليهم الأمر، وأخذتهم العزّة بالإثم، وكثيراً ما يُصِرُّون على باطلهم ولو ظهر لهم الحقّ.

ومن أمراض سوابق الأفكار تحجُّر الذهن، وتبلُّده، وعدم رؤيته غير

ما هو منطبع فيه من صورة سابقة.

وبهذا التحجُّر الذهني قد يرىٰ الإنسان الباطل حقًّا، والحقّ باطلاً.

* * *

(٨)

السبب الثامن

التعصّبُ لشخصٍ أو قومٍ أو حزبٍ أو جماعةٍ أو فكرة قديمة

إنّ التعصّب لشخص، أو قوم، أو حزب، أو جماعة، أو فكرة قديمة، ظاهرة موجودة في مختلف المجتمعات البشرية، ومن مختلف مستوياتها.

وهذه ظاهرة تمثّل انحرافاً مَرَضيّاً، حينما لا تكون ذات مضمون أخلاقي كريم، كالانتصار لحزب الله وجماعة الحقّ فيما يدعون إليه من الحقّ، على أننا حينئذٍ لا نُسمّيه تعصُّباً، بل هو انتصار للحقّ بالحقّ.

والتعصّب فرع من فروع الأنانية الفردية أو الجماعية، وكما أنّ الإنسان الظالم لنفسه ينصر هواه وشهوته وظلمه وعدوانه وأخطاءه وأغاليطه وضلالاته بالباطل، ويقاتل من أجلها أصحاب الحق، كذلك المتعصّب لشخص يواليه، أو قوم أو حزب أو جماعة أو فكرة قديمة مسيطرة، إنّه بتعصّبه يناصر جهة ولائه بالباطل، ولو ظهر له أنّ الحقّ في غير الجهة التي يناصرها.

ومع الأسف الشديد نلاحظ داء التعصّب هذا موجوداً عند معظم الفرق والطوائف وأصناف الناس، حتى عند العلماء.

وهو الداء المهيمن على عقول ونفوس المادّيين، وأصحاب الأهواء ومتبعي الأديان المحرّفة، كاليهود والنصارى.

وداء التعصب هذا موجود في دوائر جزئية عند المسلمين أيضاً،

فنلاحظه عند الفقهاء، والمفسِّرين، والأدباء، وغيرهم. ونلاحظه عند الشيوخ ومريديهم وتلامذتهم، ونلاحظه عند الدعاة والوعّاظ. ونلاحظه عند المنظمات والجمعيات الإسلامية، التي تتصدّى للأعمال الإسلامية الكبرىٰ، فيفسدون بتعصّبهم أعمالهم ونيّاتهم، ويجعلهم تعصُّبهم أصحابَ أهواء ينحرفون عن الحقّ، وينصرون الباطل، وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صنعاً، ثمّ يخذلهم الله لذلك، وقد لا يدركون لماذا خذلهم الله، وأنزل فيهم الفشل والهمّ والغمّ.

إنّهم في غمرة التعصب يندفعون اندفاع السكارىٰ، أو اندفاع محجوبي الأبصار، إلاّ من زاوية الرؤية التي حصروا أنفسهم فيها، فهم لا يَرَوْن إلاّ من خلالها. كوحيد القرن الذي يرتبط بصره بخطوط الرؤية المتصلة برأس قرنه، الذي يريد أن يبعج به بطن عدوّه، وهو هائج ثائر.

* * *

(٩)

السبب التاسع

التسرّع في الحكم مع عدم وضوح الرؤية

إنّ التسرّع في إصدار الأحكام دون رويّة، مع عدم وضوح الرؤية. وإنّ الاكتفاء ببادي الرأي دون تحرٍّ للحقيقة، ولا صبرٍ في البحث عنها، يوقع في أغاليط وأخطاء كثيرة.

ويدفع إلى هذا التسرّع عدّة عوامل منها ما يلي:

١ ـ الغرور بالنفس، والاعتداد بسرعة البديهة.

٢ ـ الكسل الذهني، وعدم الرغبة بإجهاد الفكر للتعرّف على الحق.

٣ ـ الاندفاع الغوغائي مع صيحات الجماهير التي تندفع اندفاع النَّعم.

٤ ـ الانفعال النفسيّ، كالغضب والخوف والطمع، وثورة الشهوة وطيش الهوى.

٥ ـ الحاجة الملحّة، كالجوع الشديد، والشَّبَق، ومدافعة الضرورة الطبيعية عند الحاقن أو الحاقب.

إلى غير ذلك من عوامل.

والاكتفاء ببادي الرأي سمة العامّة والدهماء، الذين تحرّكهم العواطف الآنية، وتوجههم الانفعالات غير الواعية، وتتحكم بهم الغوغائية، ويستغلّهم عادة أصحاب المصالح والأهواء، ببثّ الأفكار السريعة بينهم، لإثارتهم وتهيجهم، وبتحريك الشعارات التي تشعرهم بأنّ ما يوجّهون له هو من المسلّمات التي تتضمنها هذه الشعارات.

ولذلك نلاحظ أن أكثر الأفكار المسيطرة على دهماء الناس في عصور الفوضى الفكرية، هي من نوع الأفكار المزيفة، التي تتحكّم بها تعميمات باطلات، وتخصيصات باطلات، ومبادىء لا تعتمد على حقّ، وعقائد لا تستند إلى براهين، ولا إلى أدلّة كافية للإقناع.

بل جلّ ما تستند إليه، عواطف قومية، أو إقليميّة، أو شخصية، أو تقاليد وعادات لا قيمة لها في ميزان الفكر السليم، ولا في ميزان الواقع التجريبي.

* * *

(١٠)

السبب العاشر

مؤثرات الأهواء والشهوات والمصالح الخاصة

ومن شأن أهواء النفوس وشهواتها ومصالحها الخاصة الدنيوية، أن تُعميَ بصيرة الإنسان، أو تصيبها بالعشى، أو تمدّ عليها غشاوة ما، فيرى الإنسان بسبب ذلك الحقّ باطلاً، والباطل حقّاً، أو تختلط عليه الأمور، وتلتبس في فكره صور الأشياء بنسبةٍ ما، وذلك على مقدار غلظ الغشاوة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الهوى الطاغي يُعمي عن رؤية الحق، ويُصمُّ الآذان عن سماع كلمة الحق. فمن كان له هوى في اتجاه فكريٍّ معين، حجب عنه هذا الهوى رؤية الاتجاهات الأخرى، فهو لا يرى إلّا الاتجاه الذي دفعه إليه أو جذبه إليه هواه.

ويأتي من يريد إقناعه بتصحيح رؤيته، وتوجيه نظره لغير الاتجاه الذي تعلّق به، فلا يجد لديه أذناً تسمع له نُصحاً، أو فكراً يفهم منه بياناً، لأنّ ذهنه منصرف عنه انصرافاً كلّيّاً.

والسبب في ذلك مؤثرات الهوى التي حجبت الذهن والبصيرة عن الحقيقة، وعزلت الحواسَّ عن إدراك ما يُعرض عليها، ممّا يخالف هوى النفس.

فالعين لا ترى إلّا أشكالاً ورسوماً وظواهر، والأذن لا تسمع إلّا أصواتاً وحروفاً، فمخاطِبُها كالذي ينعق بما لا يسمع إلّا دعاءً ونداءً.

* * *

(١١)

السبب الحادي عشر

التقليد الأعمى

والتقليد الأعمى ينشأ عن التعصُّب، أو عن الثقة الإجمالية بالإمام المقلَّد، أو الثقة بمنهجه وطريقة اجتهاده.

فالتابع الذي يقلِّد إمامه دون بصيرة في كلّ خطوة يخطوها، يقع في كلّ الأخطاء التي يقع فيها إمامه تلقائيّاً.

من الحقّ أنّ التقليد ضرورة، فنحن لا نملك وسيلة أخرى لا يكون فيها تقليد، ولا نستطيع أن نوجب على كلّ إنسان أن يكون مجتهداً في كلّ مسألة، ولو لم يكن أهلاً للاجتهاد، وإلّا خَبَط خَبْطَ أعشى بغير علم،

فوقع في أخطاءٍ لا حصر لها، وقد يخرج بها عن الدين كلّه وهو يحسبُ أنه يُحسن صنعاً، ويؤدّي فضيلة الاجتهاد المباشر من مصادر التشريع. ولنا في أصحاب رسول الله أسوة حسنة، فقد كان فيهم أئمّةٌ يستنبطون ويُفْتون ويَقْضون، وكان فيهم آخرون يستفتون ويعملون بما يفتيهم فيه أئمتهم.

ولكن من الواجب على المقلِّد المأْذُونِ له بأن يقلّد إماماً مجتهداً مأذوناً له بالاجتهاد، أن لا يدَّعي أنّ كلّ ما عليه إمامه هو حقّ.

إنّ الإمام المجتهد المأذون له بالاجتهاد معذور عند الله فيما أخطأ به في اجتهاداته الجزئيّة، وهو ينشد الحقّ ويطلبه، وهو مكلّف إذا ظهر له الحقّ بعد ذلك أن يرجع عن اجتهاده السابق، ويعلن خطأه ورجوعه إلى الصواب.

وإنّ أتباع الإمام الواثقين به معذورون عند الله في العمل باجتهاداته التي أخطأ فيها وجه الصواب، لأنهم لا يعلمون أنّه مخطىء، وهم يرجّحون أنه مصيب وجه الحق، ولا يملكون شيئاً آخر أفضل من ذلك، أمّا المساوي فهو أن يتحوّلوا إلى تقليد إمام آخر.

لكنّ الأتباع لا يعذرون عند الله في ادّعاء أنّ إمامهم على صواب قطعاً في كلّ مسألة اجتهد فيها، لأنّ مثل هذا الادّعاء لا يملكه إمامهم نفسه. وذلك لأنّ الاجتهاد في المسائل الاجتهادية الخلافية لا يقدّم أكثر من دليل ترجيحي، والدليل الترجيحيّ لا يعطي يقيناً بأنّ ما وصل إليه الاجتهاد هو الحقّ قطعاً، وما عداه باطل قطعاً.

وهنا يغلط أتباع المذاهب المقلّدون بلا بصيرة غلطاً فاحشاً، إذْ يرَوْنَ الحقّ كلّ الحقّ فيما توصّل إليه إمامهم، ويرَوْن ما عداه باطلاً.

وبمثل هذا الخطأ الفاحش يقع دعاة اللاّمذهبية المعاصرون، إذ يلتزمون مذهبية معاصرة لإمام معاصر، فيرَوْن أنّ اجتهاداته هي الحقّ، وما عداها باطل، ثقة منهم بمنهجه الذي يعلنه، وهو اتّباع السّنة، والنظر

في الأحاديث الواردة عن الرسول ﷺ، وما تحمل من دلالات.

ومن الأمور البدهية أنّ سلامة المنهج بوجه عامّ، لا تقتضي حتماً صحة الاجتهاد الجزئي في كلّ مسألة، فالاجتهاد الصحيح لا يتوقف فقط على سلامة المنهج، بل لا بدّ في كلّ نظر جزئي للوصول إلى الحكم في المسألة الجزئية الخاصة من توافر عدة شروط، وأحد هذه الشروط سلامة المنهج العامّ.

فالقضية ليست بهذه السطحية التي يراها هؤلاء المقلّدون المتسرّعون في إصدار أحكامهم.

المقولـة الثانية

في عرض أمثلة من الأغاليط الناشئة

عن الخطأ أو الجنوح الفكري عن إدراك الحقيقة

المثال الأول: هل الإنسان خليفة عن الله في أرضه؟:

في ظني أنّ من الأغاليط التي وقع فيها بعض المفكرين الإسلاميين المعاصرين، وهم معذورون في اجتهادهم ومأجورون إن شاء الله، فتابعهم عليها مقلّدوهم فنشروها نشراً واسعاً:

فكرة: «أنّ الإنسان خليفة عن الله في أرضه» أخذاً من قول الله عزّ وجل للملائكة عند بدء خلق آدم الإنسان الأول في الأرض: ﴿ إني جَاعل في الأرض خليفة ﴾.

مع أنه ليس في النصّ أيّة دلالة على أنّه خليفة عن الله، وأطلق الدعاة الإسلاميون وأتباعهم ببراءة وحسن نية، مقولتهم المعاصرة:

إنّ الإنسان خليفة عن الله في أرضـه، لإقامـة شرعـه، وعمران الأرض على منهج الله.

وسَرَت هذه المقولة مسيرة الحقائق المسلَّم بها، وأخذت ألسنة بعض العلماء المنهجيين تطلقهـا اتّباعـاً، دون بحث عن جذور هـذه الفكرة، ومصدرها وأسانيدها النصّيّة أو العقلية المنطقية.

وربما استخدمتها أنا نفسي، وسجلتها في بعض ما كتبت، تسرّعاً مني، واتّباعاً لما يطلقه معظم الدعاة الإسلاميين.

لا شكّ أنّ هذه المقولة برّاقة في ظاهرها، ولكن لدى تحليلها نلاحظ أنّها ذات إشكال كبير في مفاهيم العقيدة الإسلامية، وبيان ذلك فيما يلي:

إنّ الاستخلاف يتضمّن معنى تفويض المستخلِفِ لخليفته، وهذا التفويض:

إمّا أن يكون تفويضاً في الخلق.
أو تفويضاً في الحكم والأمر والنهي.
أو تفويضاً في العمل والتصرفات.

أمّا التفويض في الخلق، فالمقرّر في العقائد بداهة، أنّ الخلق كلّه لله وحده، والله تعالى لم يفوّض أحداً بأن يخلق شيئاً، فليس لله خليفة في الخلق، وأمّا معجزات عيسى عليه السلام في إحيائه للموتى، ونفخه في الطين فيكون طيراً، فلم يكن تفويضاً في الخلق، ولكنّها معجزات كان يجريها الله على يد رسوله، ورسوله ما كان يباشر أسبابها إلّا بالإذن الربّاني، وهو ما بيّنه الله في سورة (المائدة ٥) بقوله:

﴿ إذْ قال اللهُ يا عيسى ابن مريم اذكر نِعمتِي عليكَ وعلى والدتك. إذْ أيّدتُّك بروح القُدُس تكلّم الناس في المهد وكهلاً، وإذْ علّمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وإذْ تخلُق من الطين كهيئة الطير بإذني، فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني، وتبرىء الأكْمَهَ والأبرصَ بإذني، وإذْ تخرج الموتى بإذني، وإذْ كففتُ بني إسرائيل عنك إذْ جئتهم بالبيِّناتِ، فقال الذين كفروا منهم: إنْ هذا إلّا سحرٌ مبين ﴾ (١١٠).

وهو ما أعلنه عيسى عليه السلام حين بعثه الله إلى قومه، قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣) حكاية لمقالة عيسى لقومه:

﴿ أنِّي قد جئتكم بآية من ربّكم أنّي أخلُق لكم من الطين كهيئة

الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأُبْرىء الأكمه والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله. وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم، إنّ في ذلك لآية لكم إنْ كنتم مؤمنين ﴾ (٤٩).

فإجراء كلّ معجزة من هذه المعجزات لم يكن يتمّ إلّا بإذن الله، وإذا كان الأمر كذلك فلا تفويض في الخلق مطلقاً.

وأمّا التفويض في الحكم والأمر والنهي عن الله فله عقلاً وشرعاً قيود، إنّ الحاكمية لله وحده، فمن له الخلق هو الذي له الأمر، وكون الحاكمية لله وحده هو من عناصر توحيد الألوهية.

والرسول مبلِّغ عن الله شرائعه لعباده، وحين يعطي الله رسوله تفويضاً في الاجتهاد لاستنباط أحكام الله، فإنّه عزّ وجل يتابّعه بالتعديل والتصحيح إذا أخطأ، لأنّ الناس يؤمنون بأنّ ما يحكم به الرسول هو حكم الله، وما دام الرسول موجوداً فالوحي لم ينقطع، والمتابعة قائمة، فما يحكم به الرسول ﷺ اجتهاداً منه، ويقرّه الله عليه دون تعديل، فهو حكم الله.

فالتفويض في الأحكام لا يكون إلّا لنبيّ معصوم عن مخالفة شرع الله، ومراداته في التكاليف، وإذا لم يكن معصوماً عن الخطأ في الاجتهاد فهو متابع بالتصحيح والتعديل.

ولا يصلح الناس بشكل عامّ لمثل هذا التفويض، ففيهم العصاة، وفيهم الكفرة، وإذا أخطأ صالحوهم في اجتهاداتهم لم نجد وحياً يصحّحها لهم، ويبين فيها حكم الله، لانقطاع الوحي، وانتهاء النبوات.

وقد علّمنا الرسول ﷺ أنْ لا نُنْزِلَ الناس على حكم الله، لأننا لا ندري أنصيب فيهم حكم الله أوْ لا؟.

ففي حديث بُرَيدة الذي رواه مسلم، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرِيّةٍ، أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً.

وقد جاء في هذه الوصايا ما يلي:

«وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنْزِلهم على حكم الله، فلا تنزلهم ولكن أنزلهم على حكمك، فإنّك لا تدري: أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟».

فالتفويض في الأحكام لغير المعصوم المتابع بالوحي غير مقبول شرعاً، وأبان الرسول ﷺ معنى اتخاذ اليهود والنصارىٰ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله في قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرْباباً من دون الله والمسيح ابن مريم، وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلا هو سبحانَه عمّا يشركون ﴾ (٣١).

جواباً لعدي بن حاتم الطائي، لمّا قال للرسول: إنّهم لم يعبدوهم، فقال له الرسول ﷺ:

«بلى، إنّهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فاتّبعوهم فذلك عبادتهم إيّاهم».

فهذا شأن التفويض في الأحكام. إنْ يكن فلا يكون إلا لرسول.

وأمّا التفويض في العمل والتصرفات فهو يتضمن إباحة كلّ تصرّف وعمل يصدر عن الإنسان، وهذا خلاف الواقع، إذ الإنسان موضوع موضع التكليف والمسؤولية، والمكلّف مأمور تجب عليه الطاعة، وهو مسؤول عن عمله، وليس بمفوّض، إنّه عبد مبتلىٰ، وليس خليفة عن الله سبحانه، لقد تعالى الله عن ذلك وتنزّه.

أمّا التمكين القدري للإنسان من العمل فيما سخّر الله له ليبلوه في ظروف هذه الحياة الدنيا، فليس تفويضاً ولا استخلافاً عن الله، هذا ما عليه عقيدة السلف الصالح.

روي عن سيدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في مسألة أعمال

العباد بين الجبر والاختيار، قوله(١):

«أَمَرَ الله تعالى بالخير تخييراً، ونهى عن الشرّ تحذيراً، ولم يُعصَ مغلوباً، ولم يُطَعْ مُكْرِهاً، ولَم يُملِّكْ تفويضاً، فهو أمرٌ بين أمرين، لا جبر وتفويض، والاستطاعةُ تُمَلِّكُ بالله الذي إنْ شاء مَلّك».

فأبان ـ رضي الله عنه ـ أنّه لا جبر ولا تفويض، فمن أين يكون الإنسان خليفة عن الله في أرضه؟!!.

والخليفة لا بدّ أن يكون مفوَّضاً على أيّ معنىً من معاني التفويض.

ونلاحظ أيضاً أنّ مفهوم الخليفة أعلىٰ شأناً من مفهوم النبي ومن مفهوم الرسول، فالنبيّ منبِّأٌ عن علوم ربّانية بالوحي، والرسول مكلّف بالتبليغ، وقد قام دليل العقل ودليل الشرع على وجوب كون الرسول معصوماً عن المعاصي والمخالفات، لئلا يكذب على الله في بلاغاته، ولئلا يكون أسوة غير حسنة في أعماله.

ولقد جعل الله مع الرسول رصداً من الملائكة، يتابعونهم ليعلم أن قَدْ أبلغوا رسالات ربهم، وفي بيان هذه الحقيقة قال الله تعالى في سورة (الجن ٧٢):

﴿ عالمُ الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلّا من ارتضىٰ من رسول، فإنّه يسلُك من بين يديه ومن خلفه رَصَداً * ليعلمَ أن قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهم، وأحاط بما لديهم، وأحصىٰ كلّ شيءٍ عدداً ﴾ (٢٦ ـ ٢٨).

فإذا كان الرسول كذلك، فكيف بالخليفة الذي تتضمّن مهمّته تفويضاً عمّن استخلفه، ولو في أدنى الأمور.

إنّ أدنىٰ ما يشترط فيه بداهة العصمة عمّا يخالف التصرفات الحكيمة للمستخلِف.

(١) انظر شرح المقاصد ج (٢) صفحة (١٣٣) والإتحاف شرح الإحياء ج (٢) صفحة (٥٦).

أفيقال بعد هذا: إنّ الإنسان على وجه العموم خليفة الله في أرضه؟!.

وهل يسدُّ ثُغرات الإشكال أن نضيف إلى ذلك: لإقامة شرع الله، وعمران الأرض على منهج الله؟.

وقد قال تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (١٠٣).

فكيف يصلحون لمثل هذه الخلافة؟!. وكيف يستخلفهم الله عنه وهو عزّ وجلّ عليم حكيم؟!.

وإذا كان الله بحكمته لا يجعل رسالته إلّا حيث توجد الأهلية الكاملة لحمل رسالته، وهي رسالة تبليغ وأسوة حسنة، فقال عزّ وجل في سورة (الأنعام ٦):

﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته..... ﴾ (١٢٤).

أفلا يكون استخلافه عنه كذلك لو شاء أن يستخلف؟!.

إنّه سبحانه لو شاء أن يستخلف عنه، لاختار واصطفى من هو أهل لمثل هذه الخلافة، ولم يجعل الأمر عامّاً لكلّ ذوي الإرادات الحرة، الذين مكّنهم من طاعته ومعصيته حتى الكفر به، ليمتحنهم، ثمّ ليحاسبهم، وليجازيهم على أعمالهم.

الخلافة فيها معنى الوكالة:

والخلافة عن الله فيها معنى التوكيل والإنابة، وقد دلّتنا النصوص القرآنية على أنّ الله هو الوكيل على كلّ شيء، وبيّن الله لرسوله أنّه ليس وكيلاً على الناس، وإنّما هو رسول مبلّغ فقط، وإذا كان الرسول محمد ﷺ ـ وهو خير خلق الله ـ ليس وكيلاً على الناس عن الله، فإنّ أحداً

من بعده لا يصلح لأن يكون عن الله وكيلاً، وفيما يلي طائفة من النصوص الدالة على هذه الحقيقة:

١ ـ خاطب الله رسوله محمداً بقوله في سورة (هود ١١):

﴿ فلعلّك تاركٌ بعض ما يُوحىٰ إليك وضائقٌ به صدرُك أن يقولوا: لولا أنزل عليه كنزٌ أو جاء معه مَلَكٌ. إنّما أنت نذير. والله على كلّ شيء وكيل ﴾ (١٢).

أي: ما أنت إلاّ نذير، رسول منذر مبلّغ، فلست عليهم وكيلاً، إنّما الوكيل هو الله، فالله الربّ الخالق المتصرف المالك هو الوكيل وهو ذو السلطان المهيمن على كلّ شيء.

٢ ـ وقال الله عزّ وجل في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ اللهُ خالقُ كلّ شيء وهو على كلّ شيء وكيل ﴾ (٦٢).

فهو سبحانه ذو السلطان المطلق على كلّ شيء، وبعد خلقه للأشياء، فهو الوكيل المتصرف بأمورها، فيسبب لها الأسباب، ويدفع عنها الموانع، ويمدها بما يحتاج إليه وجودها وبقاؤها، وكم من أعمال لا نستطيع إحصاءها يقوم الله عنّا فيها، ولولا قيامه سبحانه بها عنا لما استمرّ وجودنا لحظة واحدة.

٣ ـ وأمر الله رسوله محمداً ﷺ بقوله في سورة (يونس ١٠):

﴿ قل: يا أيّها الناس قد جاءكم الحقّ من ربكم، فمن اهتدىٰ فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها. وما أنا عليكم بوكيل ﴾ (١٠٨).

وما أنا عليكم بوكيل: أي: فلا أغني عنكم من الله شيئاً، لأنني لست وكيلاً مفوضاً، وإنما أنا مبلِّغ رسالة ربّي.

٤ ـ ثم قال الله له في سورة (الزمر ٣٩):

﴿ إنّا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحقّ فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ (٤١).

٥ ـ وبعد ما جاء في سورتي (يونس) و(هود) وقبل سورة (الزمر) أنزل الله على رسوله في سورة (الأنعام ٦) قوله عزّ وجل:

﴿ ذلكم الله ربّكم لا إلّه إلاّ هو خالق كلّ شيءٍ فاعبدوه وهو على كلّ شيءٍ وكيل ﴾ (١٠٢).

وقوله عزّ وجل:

﴿ ولو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظاً، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ (١٠٧).

٦ ـ ثم أنزل عليه بعدما جاء في سورة (الزمر) قوله عزّ وجل في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ والذين اتّخذوا من دونه أولياء اللهُ حفيظٌ عليهم، وما أنت عليهم بوكيل ﴾ (٦).

التسخير ليس تفويضاً ولا توكيلاً ولا خلافة عن الله:

أمّا تسخير ما في الأرض وما في السماء للإنسان فليس تفويضاً له في أن يتصرف فيها، وليس توكيلاً، وليس خلافة عن الله.

إنّما التسخير تمكينٌ قدري، مقرون بالإذن الربّاني القَدَري، وواقع في دائرة الامتحان، ومادّة هذا الامتحان التكليف بالأوامر والنواهي، وساحته المسخّرات للإرادة الحرّة، وعقبته أهواء النفوس وشهواتها ونزعاتها ونزغاتها ومطالبها وغرائزها.

ومع التسخير السببي لا يتم في الكون إيجاباً ولا سلباً إلاّ ما يقضي به الله عزّ وجلّ.

فما كان لله فيه قضاء وقدر أذن سبحانه بوقوعه، وجرت المسخّرات بقضاء الله وقدره لتحقيق نتائج إرادات المكلفين.

وما لم يكن لله فيه قضاء ولا قدر، لم يأذن الله سبحانه بوقوعه، وقامت العقبات بخلق الله وقضائه وقدره لمنع حصول نتائج إرادات المكلفين، فلم تؤثر الأسباب المسخّرة في تحقيق مرادات الناس، وإنما الذي يتحقق هو مراد الله بأسباب أخرى أو بخلق خارج عن نظام الأسباب.

ولذلك نلاحظ أنّ النصوص القرآنية الكثيرة، قد ربطت تحقيق نتائج أعمال المخلوقين السببة بإذن الله، بما في ذلك أعمال الملائكة، وأعمال المرسلين في إجراء الآيات الخوارق.

فالرسول لا يأتي بآية إلّا بإذن الله. وجبريل لا ينزل بالقرآن على قلب محمد ﷺ إلّا بإذن الله. والسحر لا يضرّ أحداً إلّا بإذن الله. وانتصار فئة من الناس على فئة أخرى لا يتمّ إلّا بإذن الله. وكلّ نفس لا تموت إلّا بإذن الله. حتى البلد الطيّب إنّما يخرج نباته بإذن ربّه.

فالقوانين الثابتة، والأسباب الخاضعة للسنن الدائمة لا تؤدّي أعمالها الطبيعية إلّا بإذن الله.

إذن: فلا توكيل، ولا تفويض، ولا خلافة عن الله. والنصوص شواهد على ذلك:

١ ـ قال الله عزّ وجل في سورة (الأعراف ٧):

﴿ والبلد الطيب يخرج نباتُه بإذْن ربّه، والذي خبُث لا يخرج إلّا نكداً، كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون ﴾ (٥٨).

٢ ـ وقال الله عزّ وجل في سورة (إبراهيم ١٤):

﴿ آلر. كتابٌ أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلماتِ إلى النور بإذن ربّهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾ (١).

وقال عزّ وجل فيها أيضاً حكاية لمقالة رسل أقوام سابقين:

﴿ قالت لهم رُسُلُهم: إنْ نحن إلاّ بَشَرٌ مثلكم، ولكنّ الله يمنّ على من يشاء من عباده، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلاّ بإذن الله، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون ﴾ (١١).

وقال عزّ وجل فيها أيضاً:

﴿ ألَم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكُلَها كلّ حين بإذن ربّها ﴾ (٢٥).

٣ ـ وقال الله تعالى في سورة (الرعد ١٣):

﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلاّ بإذن الله لكلّ أجلٍ كتاب ﴾ (٣٨).

٤ ـ وقال الله تعالى بشأن جبريل عليه السلام في سورة (البقرة ٢):

﴿ قل: مَنْ كان عدوّاً لجبريل فإنّه نزّله على قلبك بإذن الله مصدّقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ (٩٧).

٥ ـ وقال الله تعالى بشأن السَّحَرة الذين يتعلمون من السِّحر ما يفرّقون به بين المرء وزوجه في سورة (البقرة ٢):

﴿ وما هم بضارّين به من أحدٍ إلاّ بإذن الله ﴾ (١٠٢).

٦ ـ وقال الله تعالى في سورة (البقرة ٢) أيضاً في حكاية قصة طالوت وجالوت:

﴿قال الذين يظنّون أنهم ملاقوا الله: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين * ولمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربّنا أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين * فهزموهم بإذن الله، وقتل داود جالوت﴾ (٢٤٩ ـ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

٧ ـ وقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله كتاباً مؤجّلاً ﴾ (١٤٥).

وقال فيها أيضاً بشأن ما أصاب المسلمين في أحد:

﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلمَ المؤمنين ﴾ (١٦٦).

فكل حَدَث يحدث ضمن نظام الأسباب والمسببات، وضمن سنن الله الثابتة إنما يحدث بإذن الله. فلا توكيل، ولا تفويض، ولا خلافة عن الله.

فكرة الخلافة عن الله مزلق خطير:

وفكرة خلافة الإنسان عن الله في الأرض فكرة خطيرة، تزحف منها تعميمات تجعل الأصلح لعمران الأرض عمراناً حضاريّاً ماديّاً هم المؤهلين ليكونوا خلفاء الله في أرضه، ولو كانوا كافرين به جاحدين لوجوده.

وهذه الفكرة تنتقل إلى إشاعة وجوب طاعة الدول الحضارية المستعمرة المتقدِّمة في مجالات الصناعة والقوة والعلوم المادية، ووجوب عدم مقاومتها، لأنّ رجالها هم المؤهلون لعمران الأرض عمراناً حضاريّاً ماديّاً، فهم خلفاء الله في أرضه الذين تجب طاعتهم، وفق قانون استخلاف الأصلح للعمران، والأعرف به، والأقدر عليه، لو كان الاستخلاف عن الله أمراً واقعاً فعلاً.

ومن هذه النقطة المزلقية الخطيرة زَحَف «ميرزا غلام أحمد القادياني» عميل الانجليز في الهند، والعامل في خدمتهم، والناصر لقضاياهم، فأسقط ركن الجهاد في سبيل الله، وزعم أن الانجليز هم خلفاء الله في أرضه، فلا يجوز قتالهم، ولا تجوز مقاومتهم لإخراجهم، بل تجب طاعتهم والاستكانة لحكمهم وسلطانهم.

فكرة خلافة الإنسان عن الله بدعة محدثة:

على أنّ الفكرة بحدّ ذاتها بدعة محدثة من بدع الأفكار، لم يقل بها

أحد من السلف، وليس لها سند من نصٍّ شرعي، جُلّ ما تعتمد عليه تأويل فاسد، ثمّ شاعت واستهوت كثيراً من الناس، وتلامعت ألوانها في نظر الكثيرين من الدّعاة المخلصين في الدعوة إلى الإسلام، ورأوا أنّهم يستحثون بها الضمير الإنساني لالتزام منهج الله، وتطبيق أحكامه وشرائعه.

وقصة ذلك أنّ الطبري ـ رحمه الله ـ ذكر رأياً في تفسير الآية، مفاده أنّ آدم عليه السلام ومن هو مثله من الأنبياء والرسل، خليفة من الله، في أن يحكم بحكم الله بين بنيه، الذين سيوجد منهم من يفسد في الأرض، ويسفك الدماء.

وآدم بعد هبوطه من الجنة وتوبته اجتباه الله بالنبوّة، فصار نبيّاً معصوماً، والنبي المعصوم أهل لأن يُستخلف في أن يحكم بحكم الله إذا شاء الله ذلك.

وهنالك رأيان آخران في تفسير قول الله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ ذكرهما الطبريّ أوّلاً فيما ورد من المأثور عن السلف.

الرأي الأول: أنّه كان قد سكن الأرض جنٌّ قبل الإنسان، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فقضىٰ الله بأن يطردهم، ويخلق الإنسان، ويجعله خليفة لسكّان الأرض قبله.

فخليفة على هذا: «فعيلة» بمعنى «فاعلة» أي يخلف من سبقه، أي: فهو خليفةٌ خالِفَةٌ تخلُف خليفة سبقت.

الرأي الثاني: أنّ الإنسان من خصائصه أنّه يتناسل فيخلف بعضه بعضاً، وآدم الذي هو الإنسان الأول (خليفة) بمعنى مخلوف من ذرّيته.

فصيغة «خليفة» على هذا الرأي «فعيلة» بمعنى «مفعولة» أي مخلوفة. فهذا المخلوق الجديد خليقة مخلوفة، يموت قسم منها ويخلفه أنسالٌ منها.

ويطابق أحد هذين المعنيين ما جاء في طائفة من النصوص القرآنية،

ومن الخير في البحث العلمي أن نسبُرها ونتدبّرها، وهي فيما يلي:

١ ـ قال الله تعالى خطاباً للناس جميعاً في سورة (فاطر ٣٥):

﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض، فمن كفر فعليه كفره، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلّا مَقْتاً. ولا يزيد الكافرين كفرهم إلّا خساراً ﴾ (٣٩).

خلائف: جمع خليفة.

فبين الله في هذه الآية أنّ الناس خلائف في الأرض، أي يتعاقبون عليها، فيخلُف بعضهم بعضاً، وكلّ خَلَف فيها سيصير سلفاً، وكل سلف سيلحقه خَلَف، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٢ ـ وقال الله تعالى في سورة (يونس ١٠) خطاباً للناس بعد بعثة محمّد ﷺ:

﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا، وجاءتهم رسلهم بالبينات، وما كانوا ليؤمنوا. كذلك نجزي القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾ (١٣ ـ ١٤).

ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم: أي جعلناكم تخلفونهم في سكنى الأرض من بعدهم. وجعلناكم مخلوفين من أنسالكم.

٣ ـ ثم خاطب الله الناس بقوله في آخر سورة (الأنعام ٦):

﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إنّ ربّك سريع العقاب وإنّه لغفور رحيم ﴾ (١٦٥).

أي: جعلكم خلائف، خلفتم من قبلكم في سكنى الأرض والانتفاع من خيراتها، ويخلفكم أنسالكم من بعدكم، فأنتم خالفون ومخلوفون.

٤ ـ وأبان الله عزّ وجلّ أنّ هذه هي سنته في البشر جميعاً، إنها قصةُ التاريخ الإنساني:

أ ـ نوح ومن نجا معه في الفلك جعلهم الله خلائف.
ب ـ عاد جعلهم الله خلفاء من بعد نوح.
جـ ـ ثمود جعلهم الله خلفاء من بعد عاد.
وهكذا يتداول الاستخلاف.

ففي شأن نوح ومن نجا معه في الفلك، قال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ فكذّبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذّبوا بآياتنا، فانظر كيف كان عاقبةُ المنذَرين ﴾ (٧٣).

أي: فكان نوح ومن نجا معه خلائف، خلفوا مَنْ عمّهم الله بالغرق، ثم توالدوا، فصار بعضهم يخلف بعضاً.

وفي شأن عاد قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧) حكايةً لما قاله هود عليه السلام لقومه:
﴿ واذكروا إذْ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح، وزادكم في الخلق بسطة. فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾ (٦٩).

خلفاء: جمع خليف. وقال سيبويه: جمع خليفة كسّروه تكسير فعيل، لأنه لا يكون إلّا للمذكر. وقال غيره: فعلية بالهاء لا يجمعُ على فُعلاء.
(لسان العرب)

أي: اذكروا إذ جعلكم الله خلفاء في الأرض من بعد انقراض عصر نوح وملحقاته.

وفي شأن ثمود قال الله تعالى في سورة (الأعراف ٧) أيضاً، حكاية لما قاله صالح عليه السلام لقومه:

﴿ واذكروا إذْ جعلكم خلفاء من بعد عاد، وبوّأكم في الأرض، تتخذون من سهولها قصوراً، وتنحتون الجبال بيوتاً. فاذكروا آلاء الله ولا تَعْثَوا في الأرض مفسدين ﴾ (٧٤).

أي: اذكروا إذْ جعلكم الله خلفاء في الأرض، من بعد إهلاك المكذبين من عاد، وانقراض ذيول عصر من بقي منهم.

وكان استخلاف ثمود تحقيقاً لما أنذر به هود قومه عاداً، إذ قال لهم كما جاء في سورة (هود ١١):
﴿ فإن تولَّوْا فقد أبلغتكم ما أرسلتُ به إليكم ويستخلفُ ربِّي قوماً غيركم ولا تضُرُّونه شيئاً. إنّ ربّي على كلّ شيء حفيظ ﴾ (٥٧).

أي: فإنْ تتولَّوْا معرضين عن الاستجابة لدعوتي، فقد أدّيت وظيفتي فيكم، إذْ أبلغتكم ما أُرسلتُ به إليكم، وسيهلككم الله وينـزل بكم عذابه، ويستخلف قوماً غيركم، ليبلوهم كما ابتلاكم.

وبمثل هذا الإنذار أنذر الله عزّ وجل الذين كفروا بمحمّد ﷺ إذْ خاطبهم بقوله في سورة (الأنعام ٦):
﴿ وربُّك الغنيّ ذو الرحمة. إنْ يشأ يذهبْكم ويستخلفْ من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذريَّة قومٍ آخرين * إنّ ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين ﴾ (١٣٣ - ١٣٤).

وهكذا عرض الله عزّ وجل لنا من خلال الواقع البشري قصة هذا الإنسان، إنّه خالِفٌ ومخلُوف على هذه الأرض، فالأجيال تتعاقب خلائف وخلفاء ومستخلفين، والمنقرضون إمّا أن ينقرضوا بعقاب جماعي مهلك، وإمّا أن ينقرضوا وفق سنة الوفيات، بحسب الأعمار المقدّرة للأفراد أو للأمم.

وإذا كان الأمر كذلك فالعنوان المناسب لأوّل مخلوق من هذا النوع هو اسم (الخليفة).

ولذلك قال الله عزّ وجلّ للملائكة حين أراد إظهار قضائه وقدره في خلق هذا النوع: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾.

وسأل الملائكة ربّهم: ما صفة هذا المخلوق وما خصائصه؟ فأبان الله لهم صفاته، ومنها أنّه يكون ذا إرادة حرّة، وذا صفات نفسية ينتج عنها الإفساد في الأرض وسفك الدماء.

فقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك.

وطوى النصّ القرآني كعادته في الإيجاز سؤال الملائكة عن صفات هذا الخليفة وجوابهم، ولكن دلّ على المحذوف استشكالهم أو سؤالهم عن الحكمة.

وغفل أهل التأويل عن هذا المحذوف فذهبوا مذاهب شتّى في المراد من معنى الخليفة.

ولدى التأمّل في الرأي الثالث المأثور، والذي كان منزع الخطأ الذي حدث عند المتأخرين، نلاحظ أنه الرأي الذي يبين أنّ في الآية من سورة (البقرة) محذوفاً دلّ عليه قول الملائكة:

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ﴾.

وإليك الرأي الثالث كما ذكره الطبري.

الرأي الثالث: روى الطبري: «عن موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حمّاد، قال: حدّثنا أسباط عن السُّدِّي، في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرّة عن ابن مسعود، وعن ناسٍ من أصحاب النبي ﷺ أنّ الله جلّ ثناؤه، قال للملائكة: ﴿ إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة ﴾ قالوا: ربّنا، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال:

يكون له ذرّية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً».

فكشف هذا القول الحوار المطويَّ في الآية، والذي هو بين قوله تعالى: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ وبين ما جاء بعده في الآية: ﴿ قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء. . . . ﴾.

ولكنّ الطبري علّق من عنده على هذا القول المأثور فقال ما يلي:

«فكان تأويل الآية على هذه الرواية التي ذكرناها عن ابن مسعود وابن عبّاس: إني جاعل في الأرض خليفة مني، يخلفني في الحكم بين خلقي، وذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله، والحكم بالعدل بين خلقه».

من الواضح أنّ هذا فهم من الطبري لهذه الرواية. ثم أخذ بعض المفسرين عن الطبري هذا الفهم، فذكروا أنّ ابن عبّاسٍ وابن مسعود قد رُوي عنهما أنهما قالا بمضمون هذا الفهم، مع أنّ الطبري إنما ذكره استنباطاً وفهماً، ولم يسنده إليهما في رواية صريحة الدلالة.

وباستطاعتنا أن نفهم من الرواية غير الفهم الذي فهمه الطبري رحمه الله وأجزل مثوبته.

فالرواية قد حلّت فقط إشكالاً مضمونه: كيف عرفت الملائكة أن هذا المخلوق الذي أخبرهم الله عنه، سيكون منه إفساد في الأرض، وسفك للدماء، حتى سألوا ربّهم سؤال الباحث عن الحكمة:

«أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، ونحن نسبّح بحمدك ونُقدّس لك؟».

بدليل ما جاء في الرواية من أنّهم سألوا ربّهم عن صفات هذا المخلوق الجديد، إذ قالوا: «ربّنا وما يكون ذلك الخليفة؟».

أي: أيّ شيء يكون هذا الخليفة؟ ما هي صفاته؟ وما هي خصائصه؟.

فلما أجابهم: بأنه مخلوق يكون له ذرّية يفسدون في الأرض، ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً، قالوا مقالتهم التالية الواردة في الآية.

ويظلّ على هذا تحديد معنى الخليفة متردّداً بين الرأيين الأول والثاني، وأرجّح منهما الثاني بعدَ تدبّر النصوص القرآنية التي سبق استعراضها.

أمّا المعنى الذي فهمه الطبري من الرواية فهو احتمال ثالث من عنده، لا تدلّ عليه الرواية بأكثر من كونه احتمالاً وارداً على أصل الموضوع، وليس في الرواية ما يدلّ على أن ابن عباس وابن مسعود قد قالا فعلاً بهذا الفهم.

هذا كلّ ما عند الطبري حول هذا الرأي، وقد ظهر أنه فهم من عنده لرواية رواها.

ثمّ جاء الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار، فوسّع الدائرة، وزحف زحفاً تعميميّاً في التأويل، فرأى أنّ الإنسان كلّه خليفة عن الله في الأرض، وفيما يلي نصّ كلامه:

«هذا هو المذهب الأول في تفسير الخليفة (أي: القول بأنّ الإنسان خليفة لساكن في الأرض قبله). وذهب الآخرون إلى أنّ المراد: إنّي جاعل في الأرض خليفة عنّي، ولهذا شاع أنّ الإنسان خليفة الله في أرضه. وقال تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ (٣٨) والظاهر ـ والله أعلم ـ أنّ المراد بالخليفة آدم ومجموع ذرّيته، ولكن ما معنى هذه الخلافة؟ وما المراد من هذا الاستخلاف؟ هل هو استخلاف بعض الإنسان على بعض؟ أم استخلاف البعض على غيره؟.

جرت سنة الله في خلقه بأن تُعلَّم أحكامه للناس وتنفّذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه في ذلك، وكما أنّ الإنسان أظهر أحكام الله وسننه الوضعية (أي الشرعية لأنّ الشرع وضع إلهي) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعية، فيصح أن يكون معنى الخلافة

عاماً في كلّ ما ميّز الله به الإنسان على سائر المخلوقات، نطق الوحي، ودلّ العيان والاختبار على أنّ الله تعالى خلق العالم أنواعاً مختلفة، وخصّ كلّ نوع غير نوع الإنسان بشيء محدود معيّن لا يتعدّاه. فأمّا ما لا نعرفه إلّا من طريق الوحي كالملائكة، فقد ورد فيها من الآيات والأحاديث ما يدلّ على أنّ وظائفه محدودة. . .».

ثم بسط فكرة كون الإنسان خليفة عن الله في أرضه، مستدلّاً بواقع حال الإنسان الذي استطاع أن يتصرّف بالمسخّرات ويخترع ويبتكر.

فهل في هذا الذي ذكره الشيخ رشيد رضا ما يسمح لنا بأن نعتبر الإنسان خليفة عن الله في أرضه، بعد ما عرفنا من تحليل عناصر الخلافة كما سبق بيانه.

وبعد الشيخ رشيد رضا ردّد كثير من الدعاة الإسلاميين هذه الفكرة، حتى ذاعت وشاعت، وغدت من الأمور المقررة المفروغ من بحثها في مفاهيم الإسلام. وغدت فكرة ذات استهواء كبير في مجال الدعوة.

لا شكّ أنّ الإنسان يحبّ أن يكون خليفة عن الله في أرضه، فهو يرضي بذلك غروره بنفسه، ونزعات الاستعلاء التي لديه، ولكن ما كلّ ما يحب الإنسان هو حقٌّ في ذاته، والتمسك بالخطأ المرضي لما تحب النفوس لا يغني من الحقّ شيئاً.

ويبدو الأمر مخيفاً حينما نلاحظ أنّ الموضوع له مساس بخصائص الرّبّ الخالق الأمر الحاكم المهيمن على كلّ ذرّة في الوجود، وكلّ حركة وسكنة فيه، ويتعلّق بصفاته عزّ وجل. ومثل هذا لا يجوز إثباته إلّا بدليل قاطع عن الشارع.

وما دام النصّ متردّداً بين احتمالات متعدّدة، فالواجب يحتّم استبعاد ما تقضي المفاهيم الدينيّة العامّة باستبعاده منها.

إنّ الملائكة لا يمكن أن يكونوا قد فهموا من قول الله تعالى لهم:

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ أنّ هذا المخلوق سيكون خليفة عن الله.

لأنّهم يعلمون أنّ الله عليم حكيم، فهو لا يختار خليفة عن نفسه، على أيّ مستوى من مستويات الاستخلاف، إلاّ من هو أهل لهذه الخلافة.

ولو فهموا ذلك لما قالوا في تساؤلهم: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟».

إنّه لأمرٌ مستنكر جداً: أن يقول الله لهم: سأجعل خليفة مني. فيقولوا له: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء.

أليس هذا الربط ربطاً مستنكراً مرفوضاً بالبداهة؟! هل من صفاتِ المستخلِفِ مثل هذا؟!.

لكن إذا فهمنا كما فهم الطبري ـ رحمه الله ـ من أنّ هذا الخليفة يحكم بالعدل، ويقضي بالقسط، كان من الممكن أن يسأل الملائكة ربّهم فيقولوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء.

أي: حتى يحتاج هؤلاء المفسدون سافكو الدماء إلى خليفة يحكم بينهم بالعدل ويقضي بينهم بالقسط ويطبِّق فيهم أحكام الله.

ونقول: إنّ مثل هذا الفهم غير مرفوض من الناحية الاعتقادية، بيد أننا لا نملك إثباته رأياً لابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة، لما سبق بيانه لدى عرض الرواية، كما ذكرها الطبري نفسه.

الخلافة بمعنى الحكم والسلطان:

وجاءت الخلافة في النصوص بمعنى الحكم والسلطان والولاية العامة على الناس، المعانة بالمعونات الغيبية الزائدة على سنن الأسباب المعتادة.

فحين أعطى الله داود عليه السلام الملكَ قال له كما جاء في سورة (ص ٣٨):

﴿ يا داود، إنّا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى فَيُضِلَّكَ عن سبيل الله. إنّ الذين يَضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ (٢٦).

إنّا جعلناك خليفة في الأرض: أي جعلناك ذا سلطان وملك على الناس، فاحكم بين الناس بالحق.

وقد كان ملك داود وملك ابنه سليمان من بعده مؤيّدين بمعونات ربَّانية غيبية، زائدة على نظام الأسباب المعتادة في سنن الله للناس أجمعين.

وهذا المعنىٰ للخليفة لا يخرج عن أصل المعنى العام للخلافة، إلاّ أنّه خاصّ في الملك والحكم والسلطان والولاية العامّة على الناس، فبعد أوّل ذي سلطان أو حكم أو ملك في الأرض يكون الآتي من بعده خليفة عنه، وهو مخلوف من غيره بعد انتهاء أجل ولايته.

والسلطان المؤيّد بالمعونات الرّبانية الغيبية، الزائدة على سنن الأسباب والمسبَّبات المعتادة، هو خليفة استخلفه الله استخلافاً معاناً، لإقامة العدل والقسطاس المستقيم والحكم بما أنزل الله.

وهو الخليفة الذي أشار إليه الرسول ﷺ فيما روى البخاري عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما بعث الله من نبيّ، ولا استخلف من خليفة، إلاّ كانت له بطانتان: بطانةٌ تأمره بالمعروف وتحضّه عليه، وبطانةٌ تأمره بالشرّ وتحضُّه عليه، والمعصومُ من عصمه اللهُ».

وقد اختار الرسول ﷺ لمتولّي السلطان الأعظم من بعده اسم «الخلفاء» واحدهم خليفة.

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ:

«كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلّما هلك نبيٌّ خلفه نبي، وإنّه لا نبيّ بعدي، سيكون بعدي خلفاء فيكثرون».

قالوا: فما تأمرنا؟. قال: «أوفوا ببيعة الأول، ثمّ أعطوهم حقّهم، واسألوا الله الذي لكم، فإنّ الله سائلهم عمّا استرعاهم».

وروى مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:

«إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما».

وهذه الخلافة المعانة بالمعونات الغيبية الخاصة، غير الملك العام الذي يؤتيه الله من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ومشيئته سبحانه تتبع حكمته، وعلمه بخلقه، ومن حكمته تأديب الفاسقين بالملوك الظالمين الجائرين، وعقوبتهم بهم.

قال الله عزّ وجل في سورة (آل عمران ٣):
﴿ قل: اللّهمّ مالكَ الملك، تُؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء، وتُعزّ من تشاء وتُذِلُّ من تشاء، بيدك الخير، إنّك على كلّ شيءٍ قدير ﴾ (٢٦).

والاستخلاف المعان بالمعونات الرّبّانية الغيبيّة الخاصّة، كما يكون للخلفاء ذوي السلطان المؤيّد بنفحات الغيب ومعوناته، يكون أيضاً للأمم المؤمنة إذا استقامت على منهج الله، فيجعل الله لهم السلطان في الأرض، ويجعل منهم الخلفاء.

وقد أطمع الله العرب تلويحاً بأن يجعلهم خلفاء الأرض، أي: أصحاب الحكم والسلطان فيها، خلفاً لذوي السلطان والحكم القائمين، إذا آمنوا برسول الله محمد ﷺ، واتّبعوهُ، وعملوا بما أنزل الله عليهم، ونلاحظ التلويح بهذا المطمع الكبير الذي تتحلّب له أشداق العرب لو صدّقوا رسولهم، في قول الله عزّ وجلّ خطاباً لأهل مكّةَ في سورة (النمل ٢٧):

أمَّنْ يجيب المضطرّ إذا دعاه، ويكشف السوء، ويجعلكم خلفاء الأرض. أإله مع الله؟!!. قليلاً ما تذكّرون ﴾ (٦٢).

ويجعلكم خلفاء الأرض: أي أصحاب الحكم والسلطان فيها خلفاً لحكامها وسلاطينها القائمين.

وغفل المشركون عن إدراك هذا التلويح بالمطمع العظيم، أو لم يؤمنوا بصدق الرسول، حتى يكون لهم مطمع بأمر عظيم كهذا، وهو لا يتحقَّق لهم إلاّ بقوّة غيبيّة خارقة.

وما كان تلويحاً ضمنيّاً للعرب في مكّة صارَ وعداً صريحاً في العهد المدني للذين آمنوا وعملوا الصالحات، إذْ أنزل الله قوله في سورة (النور ٢٤):

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات: ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين مِنْ قبلِهم، وليمكّننَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم، وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً. يعبدونني، لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك همُ الفاسقون * وأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأطيعوا الرسول لعلكم تُرحمون * لا تحسبَنَّ الذين كفروا معجزين في الأرض، ومأواهم النارُ ولبئس المصير ﴾ (٥٥ ـ ٥٧).

وإذْ كان الوعد للمؤمنين وعد استخلاف بالحكم والسلطان في الأرض، خَلَفاً لحكّامها وسلاطينها وملوكها، ذوي القوىٰ العسكرية التي لا تدانيها قوى الذين آمنوا، جاءت الإشارة إلى مدد المعونة الرّبّانيّة الزائدة على نظام وسنن الأسباب والمسبَّبات، فقال الله تعالى في النصّ:

﴿ لا تحسبَنّ الذين كفروا معجزين في الأرض ﴾.

ولكن شروط هذا الاستخلاف الموعود به قد جاءت في النصّ كما يلي:

١ ـ أن تكون الأمّة أمّـة مؤمنة صـادقة في إيمـانها: ﴿ وعد الله الـذين آمنوا ﴾.

٢ ـ أن يكـون إيمانها متـرجَماً في الـواقع بـالأعمال الصـالحة: ﴿ وعملوا الصالحات ﴾.

٣ ـ أن تعبدَ اللهَ وحده ولا تشرك بعبادته أحداً: ﴿ يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾. من الشرك الثقة بفاعليّة الأسباب، والغفلة عن مسبِّبها الذي ستر بها أعماله وأفعاله سبحانه وتعالى.

٤ ـ أن تقيم الصلاة: ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾.

٥ ـ أن تؤتي الزكاة: ﴿ وآتوا الزكاة ﴾.

٦ ـ أن تطيع الرسول في كلّ أوامره ونواهيه التشريعية، والقياديَّة السياسية والعسكريَّة، وغير ذلك ﴿ وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾.

ومثل هذا الوعد جاء على لسان موسى لبني إسرائيل، كما حكى الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف ٧):

﴿ قال: عسىٰ ربُّكم أن يُهلَك عدوّكم ويستخلفَكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ (١٢٩).

* * *

وقد ذكر ابن تيمية أنّه لا يصلح أن يقال: إنّ الله يستخلف أحداً عنه، وأنّ قول الذين قالوا: إنّ الإنسان خليفة الله جهل وضلال.

فمن أقواله في هذا الشأن ما يلي:

[والخليفـة لا يكون خليفة إلاّ مع مغيب المستخلف وموته، فالنبي ﷺ إذا كان بالمدينة امتنع أن يكون له خليفة فيها، كما أنّ سائر من استخلفه النبي ﷺ لما رجع انقضت خلافته، وكذلك سائر ولاة الأمور إذا استخلف أحدهم على مصره في مغيبه بطل استخلافه ذلـك إذا حضر المستخلف.

ولهذا لا يصلح أن يقال: إنّ الله يستخلف أحداً عنه، فإنّه حيّ قيوم مدبّر لعباده، منزه عن الموت والنوم والغيبة، ولهذا لمّا قالـوا لأبي بكر: يا خليفة الله، قال: لست خليفة الله، بل خليفة رسول الله وحسبي ذلك.

والله تعالى يوصف بأنه يخلُف العبد، كما قال ﷺ:

«اللهمّ أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل»، وقال في حديث الدجّال:

«والله خليفتي على كلّ مسلم».

وكلّ من وصفه الله بالخلافة في القرآن فهو خليفة عن مخلوق كان قبله، كقوله: ﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم ﴾، ﴿ واذكروا إذْ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾، ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾، وكذلك قوله: ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾، أي: عن خلق كان في الأرض قبل ذلك، كما ذكره المفسرون وغيرهم.

وأمّا ما يظنّه طائفة من الاتحادية وغيرهم أن الإنسان خليفة الله، فهذا جهل وضـلال][1]. انتهى.

* * *

المثال الثاني: أيُّ الطريقين أقربُ؟:

من الأغاليط الشائعة لدى بعض الشُّبّان المتحمِّسين لإقامة الحكم الإسلامي تصوُّرُهم أنَّ الطريق الأقرب لإصلاح المجتمع هو إقامـة الحكم الإسلاميّ أوّلاً، وأنّ الطريق الأقرب لإقامة الحكم الإسلاميّ هو طريق الثورة والقتال، ويتصوّرون أنَّ إصلاح المجتمع عن طريق الدعوة إلى الله والإقناع الفردي والجماهيري، وبناء الأجيال المؤمنة المسلمة طريق طويل، وأنَّ أعداء الإسلام لا يمكّنون الدّعاة من متابعة دعوتهم، وإصلاح المجتمع عن طريق الدعوة والتربية والبناء.

(١) انظر كتاب «منهاج السنة» للإمام ابن تيمية ص ٩٤ ـ ٩٥، الجزء الرابع، نشر مكتبة الرياض الحديثة.

وقد يستشهدون بقول منسوب إلى الرسول متداول على الألسنة فيه: «إنّ الله لَيزَعُ بالسُّلطان ما لا يَزَع بالقرآن».

وفي بيان الحقّ الذي دلّت عليه النصوص الإسلامية، وقِصَصُ المرسلين، وتعليمات الله لرسوله وللمسلمين أقول:

إنّ منهج الرسُل الذي أَرْشَدهم الله إليه، هو طريق الدعوة إلى الله وإلى دينه والالتزام به، وبناء الأُمَّةِ أَوّلاً.

فإذا تكوَّنت الأمّة الصالحة لإقامة مجتمع إسلاميّ قويٍّ على دينِ الله، ولإقامة الحكم الإسلامي على ما يُرضي الله، استخلَفَهُم الله، ومكّن لهم دينهم الذي ارتضاه لهم.

ولم يكن من منهج أيّ رسول من رسُل الله التحرُّكُ العسكريّ القتالي لإقامة الدولة الإسلاميّة أوّلاً، قبل وجود الأمة المسلمة المستعدّة لتطبيق أحكام الله وشريعته لعباده، مع أنّ الجهاد في سبيل الله بالقتال، قد دعت إليه الكتب الرّبّانية الثلاثة: التوراة، والإنجيل، والقرآن، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة ٩):

﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) ﴾.

فمَعَ وُجُودِ هذا التوجيه للقتال في التوراة والإنْجِيل، لم يأتِ توجيه بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام في مصر، لقتال فرعون وجنوده، لأنّ قدراتهم السببيّة لم تكن تكفي لذلك، فلمّا خرجوا من مصر إلى سيناء، أمرهم الله بأن يدخلوا الأرض المقدّسة مقاتلين فاتحين، لأنّ قدراتهم السببيَّة كانت بعلم الله تكفي لذلك، لكنّ بني إسرائيل جبنوا عن ذلك.

كذلك لم يأت توجيه الذين آمنوا بعيسى عليه السلام لقتال ذوي

السلطان في فلسطين من حكام الدولة الرُّومانية، مع وجود الحث العامّ في الإنجيل على القتال في سبيل الله، لأنّ أتباع عيسى يومئذٍ لم تكن لديهم الوسائل السببيّة الكافية لقتال حكّام الدولة الرومانية.

* * *

ومنشأ غلط الذين عكسُوا ترتيب المنهج الرَّبّاني ناشىء من غلطهم في تصوّر القضيّة من أساسها، ومن غلطهم في فهم النصوص، إذْ يضعُونَها في غير مواضعها، ولا يطابقون بينها وبين مراحلها في تَدَرُّج البناء.

إنّهم حين يعرضون مشكلة إصلاح المجتمع، وقدرة السلطة الإدارية على الإصلاح بالأمر وقوّة الجند، يَحْصُرون نظرهم في المسافة التي تقع بين قمّة الهرم الاجتماعي التي تحتلّها السلطة الإدارية والقوى المساندة لها، وقاعدة هذا الهرم، فيقولون: إنّ إصلاح القاعدة عن طريق قمّة الهرم أقرب وأسهل من إصلاح هذه القاعدة عن طريق التغلغل فيها بالدعوة والإقناع والإرشاد والبناء المتدرّج، ويحذِفُون ويمسحون من هذا التصور المسافة الطويلة المعنوية غير المرئيّة والمليئة بالعقبات والوديان والمهالك والمخاطر، والمرتفعات المدبّبَات والمنخفضات السحيقات، الواقعة بينهم وبين الوصول إلى قمّة الهرم، وإسقاط المحتلين له، المحميّين بقوى لا قبل لهم بها، والتي قد يكون من المتعذّر أو المستحيل بحسب العادة اجتيازها.

وسبب هذا التصوّر الفاسد المقرون بالغفلة عن المسافة غير المرئية الفاصلة بينهم وبين قمّة الهرم، رغْبَتُهُم المتوقّدة في تحقيق الأمل المنشود بسرعة، والوصول إلى مركز السلطة العليا دون أن يصعدوا على السلّم الطبيعي المتدرّج لها، ودون أن يلتزموا بالسرعة البطيئة الحكيمة التي تُلْزِمُ بها أحكامُ الله التشريعيّة، وتجري بمقتضاها سنن الله التكوينيّة، والتي يتقيّد بموجبها أمر الله التكوينيُّ نفسه، مع أنّ الله عزّ وجلّ إذا أراد شيئاً فإنّما يقول له: كن فيكون.

إنّ أمر الله التكوينيَّ هذا، يجعله الله باختياره متقيّداً بسنّته في الخلق

المتدرّج، على طريقة البناء التربويّ، فيسير لحظةً فلحظة، وفق خطّة التربية المتدرّجة، وكان باستطاعته سبحانه أن يخلق السماوات والأرض والناس والنبات والحيوان والثمرات، بمستويات كمالاتها دفعة واحدة بأمر: «كن» فهي بأمره «تكون» مباشرة.

لكن الله عزّ وجل لم يختر هذا لنفسه، فهو بهذا: «ربّ العالمين» أي: هو الخالق للعالمين بأمر التكوين على وفق نظام التكوين المتدرّج نماءً إلى الكمال. وهذا هو معنى التربية، وعلى هذا النظام تسير حوادث الكون كلّها إلّا المعجزات الخاصة التي تأتي استثناءً نادراً، كخلق ناقة النبي «صالح» عليه السلام، وكفلق البحر لموسى عليه السلام، وكخلق الطين طيراً لعيسى عليه السلام، وإعادة طيور إبراهيم عليه السلام التي ذبحها وخلطها ووزّعها على الجبال.

كيف خلق الله آدم؟ وكيف يخلق الأجنّة في بطون أمَّهَاتها؟ وكيف يخلُقُ الزرع ويُنبت الشجر؟.

هل نام قومٌ عشية فأصبحوا في صباحها فوجدوا صحراءهم الرمليّة القاحلة بساتين وجنّاتٍ بخلق الله، وبأمره التكويني؟ أم يجعل الله ذلك ضمن سنّتِهِ في البناء التربوي المتدرج، خلال مدّةٍ زمنيَّةٍ مرسومة في أصل خطّة التكوين.

لكنّ الناس يَحْلُو لهم أن يكونوا خلّاقين بكلمة: «كُنْ» دون أن يتقيّدوا بما ألزم الله به نفسه، في أوامره التكوينيّة، وكان الإنسان عجولاً.

ويساعد على استحكام الغفلة في نفوس أصحاب هذا التصوّر الفاسد، هوى الأنفس بابتغاء السلطة حُبّاً بالعُلُوِّ في الأرض، فيتعجّلُون، ويجهلُون أنّ السلطة المؤيّدة بتأييد الله، والمقرونة بالمُسَاعَدَةِ الرَّبّانية والاستخلاف منه، لا تأتي بالطَّلَب، ولا على وفق أهواء الناسِ، إنّما تأتي بحكمة الله لمن يعلمهم الله أهلاً لها، ولا يُعْطيها لطُلّابها، ولا للمتعجّلين، ولا للذين هم غير أهلٍ لها.

إنَّ الهوىٰ يُعْشِي ويُغَشّي على البصائر.

* * *

إنّ المسافة الأقرب بين موقع صاحب الغاية وبين غايته التي ينشدها، ليست هي الخطّ المستقيم، إنّما هي الطريق الموصل إلى المقصود بزمن أقلّ، وتضحيات ونفقات أقلّ.

وإنّ أبعد المسافات كلّها هي الخطّ المستقيم المتعذّر سلُوكُه أو اجتيازه، وكلّما كان الطريق أكثر عقبات وأكثر عوائق كان هو الطريق الأطول والأبعد، ولو كان في النظر أقرب المسافات.

إنّ النظر يستطيع أن يجتاز الآفاق دون عقبات، فليس هو الحَكَمَ في تحديد ما هو الأقرب والأبعدُ من الطُّرُق، لكنّ الذي يملك التحديد إنّما هو العقل الذي يضع في حسابه دائماً العقبات، والوسائل المتيسّرة، وإمكانات العمل، وأسباب الوصول إلى الغاية، ويوازن بين مختلف الطرق المحتملة، ويوازن بين مقادير الخسارة والربح، فيختار أسلَمها، وأحكمها، وأكثر تحقيقاً للغاية المنشودة، وأبعدها عن احتمالات الخيبة، وأقلّها خسائر.

* * *

وقف العقلاء، وذوو النظر القاصر على شفا هاوية، وهم يريدون جميعاً الوصول إلى ماء البحر الذي يرونه من بعيد.

فقال ذوو النظر القاصر: إنّ أقرب مسافة إلى البحر هي الخطّ المستقيم بيننا وبينه، والأمر لا يحتاج منّا أكثر من نفس جريئةٍ شجاعة، تتخطّى هذه الهاوية بقفزةٍ يقفزها مجموعة أفراد منا، قد يذهب كثير منهم ضحايا ارتطام، لكن إذا نجا منهم ناجون ووصلوا إلى ماء البحر، استطاعوا أن يتّخذوا للباقين وسائل آمنة يختصرون بها المسافة الطويلة، التي لا بدّ أن يجتازها المجتازون الآخرون، إذا هم سلكوا الطُّرُق الطبيعيَّة الدائرة حول الجبل، واضطرّوا أن يدخُلوا الأدغال والغابات، ويقطعوا الجسور، ويعبروا الأنهار.

وقال أهل العقل المعتبرون بتجارب من سبقهم: إنّ المسافة الأقرب

بيننا وبين مقصدنا الذي هو الوصول إلى ماء البحر، أن نَسْلُكَ الطُّرُقَ الطبيعيّة، وندور معها كيف دارت، ونختار منها الأكثر أمناً وسلامة ويُسْراً، والأبعد عن بذل الأثمان الباهظة، من الرَّكْب والزاد، والمركب والعتاد.

وعاند ذوو النظر القاصر، فارتطموا وخابوا، ودلُّوا العدوَّ على إخوانهم العقلاء، فنال العدوُّ من الجميع نيلاً عظيماً، وسدُّوا الطريق على من وراءهم، وجَنَوْا على أنفسهم وعلى أُمَّتهم حتى حين، ولم يظفروا برضوان الله، لأنّهم عصوا سنَّته في كونه، ومنهجه في شريعته.

إنّهم تَعجَّلُوا الهدف المنشود فإذا بهم يتعجَّلُونَ الخيبة والفشل، مع الوقوع في الإثم.

ولو أخذوا برأي أهل العقل، واتّبعوا سنن الله التكوينيّة، وأحكامه التشريعيّة، لظفروا برضوان الله عاجلاً، ويحقّق الله عزّ وجلّ بفضله هدفهم المنشود، إذا علم أنّهم أهل لذلك، أوّ يدّخر ذلك لأبنائهم أو أحفادهم من بعدهم، لكن يجب عليهم أن يتابعوا المسير على صراط الله الذي رسمه لأوليائه المؤمنين المسلمين المستسلمين لأحكامه، المتقيّدين بشريعته.

* * *

أما الحديث المتداول على الألسنة: «إنّ الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»، فإن كان له أصل، فهو خطاب موجّه للسلطان المؤمن المسلم القائم، ليعرّفه مسؤوليته الدينيّة تجاه رعيّته، وليُبينّ له أنّ قيامه بهذه المسؤولية ذو نفع عظيم، وأنّ تقصيره فيها ذو ضرر جسيم، إذْ لِقُوَّة سلطانه المادّية، ولهيبته في نفوس بعض الناس من التأثير، ما ليس للقرآن القائم على الإقناع الفكريّ والهداية للتي هي أقوم، والترغيب في جنات النعيم، والإنذار بعذاب أليم يوم الدين.

وليس هذا الحديث موجّهاً لعامّة المسلمين، حتّى يُفْهَم منْهُ التحريضُ على الوصول إلى السلطة، ليُلْزِموا الناسَ بفعل الخير والكفّ عن الشرّ.

فقد ثبت في السنّة أنّ طالب الولاية لا يُمْنَحُها، وثبت أنَّ الولاية أمانة، وأنّها يوم القيامة خزي وندامة، إلّا من أخذها بحقّها وأدّى ما فرض الله عليه فيها. وكلَّف الله الذين آمنوا أن يؤدّوا الأمانات إلى أهلها، أي: أن يُوَلُّوا عليهم من هم أهل للولاية.

على أنني لم أجد هذا القول في مرجع من كتب الحديث التي تحت يديّ، وقد أورده صاحب لسان العرب في مادة «وزع» بصيغة: «مَنْ يَزَعُ السلطانُ أكثر مِمَّنْ يَزَعُ القرآن».

وقال بعده: معناه أنّ من يكُفُّ عن ارتكاب العظائم مخافةَ السلطان أكثر ممّن تكفُّهُ مخافة القرآنِ واللهِ تعالى، فمن يكفُّه السلطانُ عن المعاصي أكثر ممن يكُفُّهُ القرآن بالأمر والنهي والإنْذار. انتهى.

فالاعتماد على مثل هذا القول لا يصحّ رواية، ولا يصحّ معنىً كما يفهم كثير من المستشهدين به.

* * *

إنّ الوظيفة الدائمة للأمّة الإسلاميّة أنّها أُمَّةُ دعوة، فعليها أن تقوم بوظيفتها هذه دواماً دون انقطاع.

فإذا استكملت في علم الله بناء القاعدة الصالحة للاستخلاف الحكميّ في الأرض استخلفها الله، ومكَّنَ لها دينها الذي ارتضاه للنّاس.

أمّا إذا سعتْ لتضع نفسها موضع هذا الاستخلاف دون أن تكون قاعدتُها مؤهَّلة لذلك، ودون أن تستكمل ما يلزم لحماية هذا الاستخلاف، فإنّ الله عزّ وجلّ يخيّبُ مساعيَها، ولا يُمكّنُ لها في الأرض، حتّى لا يكون دينه ولا تكونَ الأمّة الرّبّانيّة الحاملة له ألعوبة في أيدي أصحاب الأهواء الطامعين في الوصول إلى سلطة الحكم الإسلاميّ لأغراض دنيويّة في نفوسهم.

وكلّما رأينا خيبة الساعين فلا بدّ أن نعلَم أنّ الشروط النفسيّة أو المادّية لم تستكمل بعد، ولا بدّ أن نعلم أيضاً أنّ حكمة الله غير متّهمة،

وأنّ وعد الله لا يُخلف، ولكِنَّ الناس هم الذين يسيئون الفهم، ويطالبون الله عزّ وجلّ بتحقيق وعْدٍ لم يحققوا هُمْ في أنفسهم شروطه، ولا واجباته.

أيُّها الإخوة المندفعون المتحمّسُون الثائرون الغاضبون اللاَّبسون أردية الجهاد، الحاملون باسم عامّة المسلمين أسلحة القتال في سبيل الله، دون أن تُحَقِّقوا في أنفسكم شروط مباشرة القتال، ودون أن تؤدّوا واجباته، ودون أن تلتزموا منهج الله القويم، المبيَّن في قرآنِه العظيم، وفي تطبيقاتِ رسوله الكريم، وفهمها علماءُ المسلمين وأئمتهم، لا تفتِنوا المسلمين عن دينهم بتصوُّراتكم الخاطئات، ومساعيكم غير المستكملة لأدواتها وشروطها.

راقبوا الله في أنفسكم وغيركم، واعلموا أنكُم مسؤولون يوم الدين عن كلّ كبيرة وصغيرة تعملونها، وعن كلّ تَوَرُّطٍ تتورَّطونه بغير حقّ، وبغير برهانٍ لكم فيه من الله، والمسلمون في حالة ضعف لا تسمح لهم في كثير من البلاد بمواجهة أعدائهم في حرب عسكريّة، لأنّها تكون في الغالب خاسرة، والقرار العسكريّ يجب أن تقرّره قيادة عسكريّة مؤهّلة، في ظلّ حكْمٍ معترفٍ به لَهُ بيعة صحيحة ظاهرة، وأن يُوافق عليه حاكم المسلمين المبايع.

* * *

قالوا: إنّ أعداء الإسلام والمسلمين لا يتركون قتالنا وإكراهنا على الكفر أو الفسوق والعصيان ولو تركناهم.

وهذه حُجّةٌ ساقطةٌ لا قيمة لها، قائمة على المغالطة، أو الفهم الناقص القاصر.

إنّ كُلّ المؤمنين المستضعفين في التاريخ الإنسانيّ قد تعرّضوا لألوان من الاضطهاد من أجل دينهم، ولم يكن المخرج أن يقاتلوا أعداءهم الأقوياء على ضعف قواتهم ليتمكّن الأعداء من إبادتهم، متّخذاً ثوراتهم المسلّحة ذريعة لإبادتهم وتشتيتهم وتمزيقهم كلّ ممزّق، ومعهم جمهور كبير من ضعفاء المسلمين.

بل كان المخرج لهم وسائل أخرى غير المواجهة الحربيّة المسلّحة بأسلحة القتل والتدمير، وأنجح هذه الوسائل صبرهم على عدوّهم في كلّ ضغوطه السياسية والعسكرية والاقتصادية، والدأب غير المتوقف في تجميع الناس على دين الله، واتخاذ وسائل الدعوة والتعليم والإقناع الحكيمة، وقد تكون الهجرة إلى أرض من أرض الله الواسعة إحدى هذه الوسائل، كما جاء في بيان الله عزّ وجلّ بقوله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً (١٠٠) ﴾.

* * *

المثال الثالث: كتب العلاّمة التقيّ النقيّ البصير الداعية الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي مقدّمة لكتاب «الثورة الإيرانية في ميزان الإسلام» أي: ثورة الخميني، وجذورها الفكرية الشيعيّة المذهبيّة الضيقة المتعصبة المعادية للصحابة ولأهل السنة، تأليف الشيخ «محمد منظور النعماني» جاء فيها تبصير الدوائر والحركات والجماعات الإسلامية، تُجاه تعميماتهم الخاطئات، وتصوّراتهم الفاسدات، لكلّ حركة تقوم باسم الإسلام، إذ يندفعون في تأييدها، ونُصْرَتها، والتمجيد بها، لمجرَّد أنَّها قد رفعت رايةَ الإسلام، ولو كان مَضْمُونُها حرباً على الإسلام، وحرباً على جمهور المسلمين، ولو كانت تَحْمِل أفكاراً تَدْميريّة لا تخدم إلاّ أعداء الإسلام وكلَّ ما يتّصلُ بالإسلام، وللأمّة الإسلاميّة، ولتاريخ المسلمين، وأشير إلى أن كتاب الشيخ «محمد منظور النعماني» تتبع فيه تتبعات بصيرة من مصادر الشيعة ومن كتب الثورة نفسها.

وإنني في هذه البصائر أنقل فقرات من مقدّمة الشيخ أبي الحسن كما جاءت في عباراته جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

«في السنوات الماضية وحين قام «آية الله روح الله الخميني» بالدعوة

إلى الثورة الإسلاميّة، وقضى على عرش الامبراطورية «البهلويّة» وأقام ـ كما قال ـ الحكومة الإسلاميّة، وأوجد عهداً جديداً. . كان من المتوقّع ـ وآثار ذلك وقرائنه كانت موجودة ـ ألّا يقوم بتقليب صفحات النزاع التاريخي القديم المتواصل بين الشيعة والسنة، وذلك حتّى تنتشر دعوته وتعمّ.

وكان من المتوقّع ـ إنْ لم يكن قادراً على أن ينزع هذه الصفحات ـ أن لا يقبلها على أيٍّ تقدير.

وإذا لم تكن الفرقة الإماميّة الاثنا عشرية بقادرة على إعلان براءتها من تلك العقائد، لهدفٍ سياسيّ، أو لمصلحة محليّة، فعلى الأقل لم يكن من الواجب إظهارها وإعلانها.

بل كان الأمل المرجو من هذا الزعيم الذي حمل رأسه على كفّه، أن يُعلن ـ على أساس من فكره العميق ودراسته المستفيضة، ومن أجل اتحاد المسلمين، وبوازع من الشجاعة الأخلاقية ـ أنّه لم تَعُدْ هناك ضرورة لإثارة تلك العقائد الهدّامة، التي تضرب بشدّة على أصول الإسلام، والتي تُسِيء إليه، وتُقلِّل من شأنه، وتقف حجر عثرة في طريق الدعوة للإسلام بين غير المسلمين، تلك التي كانت نتيجة مؤامرة خبيثة، دبّرها أعداء الإسلام في القرن الأول، وفي عهد الصحابة رضوان الله عليهم، والتي ظهرت نتيجةً لعاطفة الانتقام لزوال الامبراطورية الفارسية، التي كانت قائمة في ذلك الوقت.

كان المرجو من «آية الله» أن يُعلن أنّه لم تَعُدْ هناك ضرورة لكلٍّ هذه المعتقدات، وأنّ علينا أن ننسى الماضي من أجل رفعة الإسلام، ومن أجل إصلاح البلاد الإسلاميّة، والقضاء على الفساد المتفشّي في المجتمع الإسلامي. . .

وكان المرجو منه أيضاً أن يُعلنَ بأنّه من الواجب الآن أن نبدأ معاً رحلةً جديدة، وأن ترتفع أمام أنظار العالم الصورة المزدهرة لماضي الإسلام وحاضره، وأن نعمل معاً على أن نجذب بقيّة أُمم العالم إلى الإسلام.

إلّا أنّ كتابات «آية الله الخميني» ورسائله التي كتبها لشرح ولتوضيح العقائد الشيعيّة، وبكل وضوح وبكلّ عنف، جاءت على خلاف كلّ التوقعات والقرائن.

فقد وردت في كتابه «الحكومة الإسلاميّة : ولايةُ الفقيه» تلك الأفكار ذاتُها في حقّ الإمامة والأئمة... تلك الأفكار التي تصل بالأئمة إلى مقام «الألوهية». وتثبتُ أفضليَّتهم على الأنبياء والرسُل والملائكة، وأنّ الكائنات في مرحلتها التكوينيّة تابعة لهم، خاضعة لسيطرتهم[١]. وهكذا أيضاً في كتابه «كشف الأسرار» بالفارسيّة، لا يجرح فقط صحابة رسول الله، وخاصّةً الخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم، بل يتطاول عليهم بالسبّ والشتم بألفاظ لا تصلُح إلّا أن تُطلَق على جماعةٍ ضالّةٍ مُضلّةٍ، فاسقةٍ فاجرة، فاسدة مفسدة[٢].

وارتبطت قضية الإماميّة والأئمة بدعوته، ولم تتّخذ شكل إرشادات سرّية، أو شكل مناهج خاصة، بل اتّخذت شكل رسائل مطبوعة ومنشورة.

وما يخصُّ «الخميني» في أمر الإمامة والأئمة [أي: أفكاره الخاصة بالإمامة والأئمة وطعنه واتّهامه للصحابة] لم يكن بالشيء المستتر الذي يخفى على الجميع، فقد انتشرت كُتبهُ بأعداد تصِلُ إلى مئات الآلاف في إيران وخارجها.

وبناءً عليه فقد كان من المتوقّع تماماً ألّا تلقَىٰ دعوتُه هذه أيّ قبول، وألّا تنال أيّة استجابة، وألّا يفهم على أنّه زعيمُ الثورة الإسلامية، ومؤسس الحكومة الإسلاميّة، والقائد والزعيم المثالي، وخاصة بين دوائر أهل السنة، وهم الذين يمثّلونَ الأكثريّة المسلمة في العالم. وخاصّة بعد أن أعلن عن اختلافه مع عقيدة الأمّة الأساسيّة، ألا وهي عقيدة التوحيد. وبعد أن أعلن عن رأيه في: «مشاركة النبوّة» وهي النتيجة الطبيعيّة لتعريف الإمامة وتحديد أوصاف الإمام. وبعد أن جرح وطعن كبار

(١) الحكومة الإسلامية ص ٥٢.

(٢) كشف الأسرار «بالفارسية» ص ١١١ - ١١٤.

شخصيّات الصحابة الكـرام الّذين يحتلُّون مكانةً تالية لمكانة رسول الله في قلوب المسلمين، والذي يُمثّل عَصْرهم ـ ليس فقط في تاريخ الإسلام، بل في تاريخ العالم الإنسانيّ، في ضوء التاريخ الثابت، وبشهـادة المؤرخين المسلمين وغير المسلمين ـ أعظم فترة حكم في تاريخ العالم، وأعظم نموذجٍ للحياة مرّ به العالم.

إلاَّ أنّ ما حدث كان خلاف ذلك، وهو أمرٌ لا يصيبُ الإنسانَ بصَدْمة، بل يُصِيبُه بالحيرة.

ففي بعض الدوائر وضعه بعض أعلام الفكر الإسلامي، وبعض الإسلاميّين الذين يدعون إلى رفعة الإسلام وغلبته، وضَعُوهُ في مكانـة «الإمام المنتظر» وأظهروا له حُبّاً، وتَعصَّبُوا له، بدرجة جعلتهم لا يقبلون في حقّه أيّ نقد أو ملاحظة!!!.

من خلال هذه التجربة، ومن خلال هذه الملاحظات، يمكن تقدير أمرين:

أوَّلُهما: أنّه لم يعُدْ هناك أيُّ معيار للنقد. ولم يَعُدْ هناكَ أيُّ معيارٍ موضوعيّ للمدح أو الذمّ، في كثير من الدوائر الإسلاميّة، التي تضُمُّ أهل القرآن والسنّة، وأسوة السلف الصالح، وأصحاب العقائد الصحيحة، والمسلك الصحيح.

ففي هذه الدوائر يكفي لأن يكون القائد محبوباً، أن يناديَ فقط بإقامة حكومة حرّة باسم الإسلام، أو يَهْتف ضدَّ أية قوَّةٍ غربيّة، أو يَخْلُقَ بعض المشكلات لها، حتى يُغْتَفر له كُلُّ شيء، ولو كان هذا الشيء خروجه على أصول الإسلام!!.

ثانيهما: أنَّ أهميّة العقيدة قد تدهورت إلى حدّ خطير لدى جيلنا المثقف المتعلّم. وهذا أمرٌ جـدٌّ خطير، يـدعو للقلق، ويستلزمُ إعمـال الفكر.

هذا أمرٌ جدٌّ خطير يدعو للقلق، إنّـه أهمُّ الحدود الفـاصلة بين

دعوات الأنبياء وغير الأنبياء من الأدعياء، وبين أهداف وأعمال الأنبياء وأعمال غيرهم.

فهي عقيدة لا تقبل أيّ هدنة أو مهادنة، ولا تقبل أيّ تسويفٍ أو مساومة. فمعيار الرفض والقبول، ومعيار الإعجاب والفضّ، وشروط الوصل والقطيعة، يتمثل فقط ـ عند المسلم ـ في تلك العقيدة، وفي هذا الدين الذي هو رغم ضعف المسلمين قائمٌ وثابتٌ في شكله الأصليّ، طالما بقيت هذه العقيدة صُلْبةً مستقيمة، وطالما تمسَّكَ بها أهلُها، وأخذتْهُمُ الحميَّةُ والغيرة عليها، إن مسَّها أحدٌ بضُرّ، وطالما لم يَهُنْ ولم يضعفْ مُفَسّرو الدين وشارحوه والمحافظون عليه أمام أيّ جبروت، أو طاغوت، أو أمام أيّة امبراطورية مهما وصلت قوّتها، وطالما لم يسمحوا لأحد أن يمسّ هذه العقيدة من قريب أو بعيد، وطالما رأوا عَدَمَ جواز السكوت على أيّة عقيدة خاطئة، أو دعوة تشوبُها شائبةٌ من خطأٍ أو تحريف، مهما كان الأمر يمسُّ المصالح الدنيوية للمسلمين، ومهما كان الأمر يحمل التلويح بالابتعاد عن تفرقة المسلمين، أو البعد عن إيجاد اختلاف بينهم.

فالعقيدة الصحيحة هي الأساس، وما عداها باطل باطل...».

وضرب الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي مثلين من التاريخ القديم والحديث على صلابة علماء المسلمين في وجه من أرادوا مسّ العقيدة الإسلاميّة بتغيير من ذوي السلطان، ثمّ قال:

«والسلطان الجائر هذا يكون أحياناً في صورة [فردٍ مَلِك] أو [حاكم] أو في صورة [رأيٍ عامّ] ويكون أحياناً في صورة [نجاح خادع وتوفيق كاذب] أو [شُهْرَةٍ كاذبة] كما يكون أحياناً في صورة [ادّعاءاتٍ بـإقامَـةِ جمهورية إسلاميّة] أو غير ذلك..

ويشهد التاريخ وتشهد التجارب على أنّ الأمرين الأخيرين هُمَا أكثر الأمور التي تُطَالِعُنَا اليوم...».

وممّا جاء في مقدّمته هذه:

«الضعف الأخلاقي والديني الذي أصاب عدداً من الدول العربيّة والمسلمة، والصورة التي لا ترضي في تلك البلاد... دفَع العديد من الشباب المسلم، في شبه القارّة الهندية ممّن شعر بـالحزن والأسى، من الظروف الحاضرة، ومـمّن تجذبه وتسحَرُهُ الحركات التي تُطلق الشعارات الرّنّانَة، ومن بينها الحركات الإسلامية، كلٌّ هذا جعل هذه الدوائر الشبابيّة تثق في الخميني، باعتباره بطلاً وزَعيماً.

وهكذا أصبحت للخميني شهرة كبيرة، وذاع صيتُه تماماً مثلما ذاع صيتُ «كمال أتاتورك» في زمانٍ ما، ومثلما ذاع صيتُ «جمال عبد الناصر» بين القوميين العرب أيضاً، ولا يزال مثل هؤلاء الرؤساء يذيع صيتُهم...

هؤلاء الرؤساء الذين ينكرون السنّة، ويتندَّرُون بالسنَّة والحديث، وينشرون الأفكار الغربيّة، والأفكار الشيوعيّة، وأكثر من هذا فإنّ صَبْغَ مثل هذه الأفكار بصبغة دينيّة، جعل من مثل «الخميني» زعيماً مشهوراً، غلبت شهرته كلّ من سبقوه، ووصل الأمر إلى أنّه إذا ظهرت قضيَّةٌ تتعلّق بالعقيدة، وتمّ بحثها من وجهة نظر الكتاب والسنة وإجماع الأمّة، شعر هؤلاء بالضّيق والكآبة، ووصل الأمر أحياناً إلى حدّ الامتعاض والهيجان والابتذال.

ذلك هو الأمر الذي يجعلنا نشعر بالقلق على وجهة النظر التي تشمل روح الإسلام، وتحمل مستقبل هذا الدين بين جنباتها، ونحن نشعر بالقلق من جرّاء مثل هؤلاء الذين نقول في حقّهم عبارة عليٍّ رضي الله عنه: أتباعُ كلِّ ناعق...».

* * *

المثال الرابع: تعظيم الصغائر.

الإسلام دين اصطفاه الله لعباده اصطفاءً، وليس من حقّ أيّ مخلوق بالغاً ما بلغ أن يغيّر شيئاً من هذا الدّين الذي اصطفاه الله لعباده، لا في أحكامه، ولا في حلاله وحرامه، ولا في درجة الحكم تشديداً أو تخفيفاً.

● فما جعله الله عزّ وجلّ فرضاً لازماً، وركناً من أركان الدين، وجعل تركه من الكبائر، فليس لأحد بالغاً ما بلغ أن يخفّف من شدّةِ درجة حكمه فيجعل تركه من الصغائر.

● وما جعله الله عزّ وجلّ من المحرّمات الكبرى، كالشرك بالله، وقتل النفس بغير حقّ، والسّحر، وعقوق الوالدين، والتولّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات، وأكل أموال الناس بالباطل، فليس لأحد بالغاً ما بلغ أن يخفّف من شدّة درجة حكمه فيجعل فعله من الصغائر.

● وما جعله الله واجباً، لكن لم يجعلْ تركه من مستوى الكبائر، كردّ التحيّة بمثلها، وصلةِ الرّحِم البعيدة، ومتاعِ المطلّقة قبل الدخول بها، فهو حقٌّ على المحسنين، وكتابةِ صُكوك المداينات، ونحو ذلك، فليس لأحد كائناً من كان أن يرفع درجته، فيجعل تركه من مستوى الكبائر.

● وما جعله الله من المحرّمات الصغائر، كالنظر إلى المرأة الأجنبيّة، والكذبات العارضات التي ليس فيها افتراء على دين الله، ولا إضرارٌ أو إيذاء بغير حقّ، ولا هضم لحقّ، وكحلق اللّحية إذا رجّحنا القول بالتحريم، وكنتف بعض الشعور التي ورد النهي عنها، لما فيه من تغييرٍ للشّكل الظاهر الذي جعل الله فيه علامات فارقات في أصل الخلق، لتمييز الأفراد بعضهم عن بعض، فليس لأحد كائناً من كان أن يرفع درجة تحريمه إلى مستوى الكبائر.

● وما جعله الله من المندوبات أو المستحبّات، فليس لأحد بالغاً ما بلغ أن يجعله من الواجبات الصغائر فضلاً عن الواجبات الكبائر.

● وما جعله الله من المكروهات أو مما فعلُه خلاف الأولى، فليس لأحد أن يجعله من المحرّمات الصغائر فضلاً عن المحرّمات الكبائر.

إنّها حدود الله ليس لأحد أن يُغيّر فيها، أو في دَرَجَتِها، شدّةً

وضعفاً. إنّ التغيير في حدود الله مُشاركةٌ لله في ألوهيته وربوبيّته، وعدوانٌ على حقّه سبحانه وتعالى.

إنّ الله قد جعل لكلّ أمرٍ من أمور الدين قدراً واحداً، والتغيير في ذلك يعطي صورة غير الإسلام الذي اصطفاه الله لعباده، وارتضاه لهم، ويدخل في عموم قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران ٣):

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ (٨٥) ﴾.

ويدخل في ركب الذين شرعوا من الدين ما لم يأذنْ به الله، واتّخذوا أنفسهم أرباباً مُشَرّعين.

وكما يحلو لبعض المتهاونين في الدين، التهوينُ من ارتكاب الكبائر، يحلُو لبعض المتشدّدين والمتشدّدات تعظيم الصغائر، والتشديد عليها، وتوجيهُ كلِّ الأنظار نحوها، كأنّها كلُّ الدّين، أو أهمُّ وأخطرُ ما فيه. وهذا من التلاعب في نسب الأحكام الرّبّانية، ومقاديرِها التي جعلها الله لها، وحدُودِها الّتي حدَّها لَها.

وقد أبان الله عزّ وجلّ في كتابه أنّه جعل بعض ما نَهَى عنه من الكبائر، وهذا يَدُلُّ على أنّ غيرها ممّا نهى عنه هو من الصغائر، وأبان أنّ من اجتنب الكبائر كفّر الله عنه سيّئاته من الصغائر، فبعد نهي الله عزّ وجلّ الذين آمنوا عن كبيرتين عظيمتين من كبائر الإثم التي تستحق عذاباً في النار، هما أكل أموال الناس بالباطل، وقتلُ النفس بغير حق، قال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً (٣١) ﴾.

ووعد الله بالخير الباقي الخالد للمؤمنين المتوكّلين على ربّهم الّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، فدلّ على التفريق بين الكبائر والصغائر. فليس من حقّ أحدٍ كائناً من كان أن يجعل الصغيرة كبيرة، فإنْ فعل ذلك

كان مفتتناً على الله وعلى حدود دينه الذي اصطفاه لعباده، فقال عزّ وجلّ في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وما عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) والَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ والْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) ﴾.

واستثنى اللهُ عزّ وجلّ من كبائر الإِثْمِ والفَوَاحِشِ اللَّمَمَ، وهيَ ما يصيبُ منها المؤمن عرضاً دون إصرار ومُداومة، إذْ يقعِ تحت تأثير مُؤَثِّرٍ شديدٍ على نفسه، تضعُفُ معه مقاومته، فقال عزّ وجلّ في آية مدنيَّةٍ، مضمومةٍ إلى سورة مكية، هي سورة (النجم ٥٣) وهي السورة (٢٣) بحسب ترتيب النزول:

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ والْفَوَاحِشَ إلاَّ اللَّمَمَ إنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾.

أي: فالله يغفر لهم، لأنه واسع المغفرة.

فالله عزّ وجلّ أعلم بعباده، وأعلم بما فطرهم عليه إذْ أنشأهم من الأرْض وإذْ هُمْ أجنَّةٌ في بطون أمَّهاتِهِمْ، ويعلَمُ أنّهم خطَّاؤون، ولولا فضله عليهم بالحفظ، ورحمته لهم بالمغفِرة، ما زكى منهم من أحَدٍ أبداً، أي: ما طهر منهم من المعاصي والخطايا أحد، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (النور ٢٤):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فإِنَّهُ يَأْمُرُ بالْفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) ﴾.

ولعلم الله بعباده، وعِلْمِه بما فُطروا عليه، وأنَّهم خَطَّاؤونَ، جعل لضعفاء الإرادة منهم الصغائر متنفَّساً لارتكاب الخطايا، لتكون ساحة فاصلة بينهم وبين ارتكاب الكبائر.

فإذا عظّم الدعاة والوعّاظ والمرشدون هذه الصغائر لهم، وجعلوها في تصوُّرهم بمثابة الكبائر، فقد أزالوا هذه الساحة التي جعلها الله متنفّساً للمعصية والاستغفار، فتختلط في نظر الناس الصغائر بالكبائر.

ثمَّ إذا وجَدُوا الدُّعاةَ والوعَّاظَ والمرْشدين يوجّهون معظم اهتماماتهم للتحذير من هذه الصغائر، ظنّوا أنّها هي ذات الاهتمام الأكبر في الدين، فيتركونها، ويجدون متنفّساً لخطاياهم بارتكاب الكبائر، فَتَلْبَسُ المرأة المشدَّدُ عليها للترضية الظاهريّة قُفّازَيْنِ تَسْتُرُ بهما كَفَّيْها، وتُلْقِي قناعاً كثيفاً على وجهها، ثمّ يهون عليها بعد ذلك أن ترتكبَ الفواحش، وكبائر الإثم، كالغيبة والنميمة، والإضرار بالناس، وافتراء الأكاذيب عليهم، وأكل أموال الناس بالباطل، والسحر، والرجوع إلى المنجمين والعرَّافين والعرّافات.

إنّ حدود أحكام الله يجب أن نبيّنها للناس كما هي في دين الله، وعلينا أن ندع آراءنا الخاصة جانباً، فالله أعلم بعباده، وأعلم بما يُصْلِحهم، وأعلم بما فطرهم عليه.

إنّ الله عزّ وجلّ خلق الإنسان، وجعل له أجهزةً أساسية إذا فَقَد واحداً منها فقد كلَّ حياته، كدماغه، وقلبه، وكبده، وطائفة من شرايينه وأوردته.

وجعل له أجهزة دون ذلك، إذا فَقَد واحداً منها لم يخسر كلّ حياته، لكنه يخسر من ثمرات كسبه في حياته على قدر ما فَقَد، كبصره وسمعه، وذوقه، ويديه، ورجليه.

وجعل له أعضاءً دون ذلك، فيها نفع وجمال، فإذا فَقَدَ واحداً مِنْها لم يخسر شيئاً عظيماً من جسده، وكان بإمكانه أن يعوّض ممّا لم يخسر، كأصبع من يد أو رجل، وكَكُلْيَةٍ من كليتين، وكأذن قطعت وبقي سمعها، ونحو ذلك.

وجعل له متمّماتٍ تزيينيَّةً جماليةً، كشعره، ونضارة جلده، وجَمَال قسماته.

كذلك نجد سنة الله في كلّ ما خلق من حيوان، ونبات، وكذلك نجد سنّة الله في كلّ قوانين الإبداع التي مكّن الناس من الوصول إليها، والانتفاعِ من المنجزاتِ بها.

فمن غيّر في سنن الله وأنظمته في الوجود خاب وخسر، ومن غيَّر في حدود أحكام شريعة الله خابَ وخسر، وهو من الابتداع في الدين، والدينُ لله، ولَيْسَ من حقّ أي أحدٍ أن يبْتدع في دين الله ما لم يأذن به الله، وما لم يكن له به سلطان من عند الله، بدليل شرعي مقبول عند أئمة الاجتهاد في فهم الدين.

إنّ الإسلام في عقيدته، وعمله الظاهر والباطن، بناء فكريٌّ واعتقادي وسلوكي داخليّ وخارجي منزل من عند الله، وهو مطابق لبناء الإنسان، والتزام الإنسان بهذا الدين هو سبيل سعادته في الدنيا والآخرة.

وإذا عرضنا خطوط حدود أحكام الإسلام وشرائعه ومبادئه ومفاهيمه على طريقة رسم الخرائط الهندسية، وجدنا خريطة الإسلام تمثّل دائرة كبرى، في داخلها دوائر حتى الدائرة التي هي في مركز القلب حول المحور.

١ ـ ففي الدائرة الصغرى التي هي حول المحور مباشرة، تقع العقائد والمفاهيم الرئيسيّة والمبادىء التي يجب الإيمان بها، وفي داخل هذه الدائرة درجات ذوات نِسَبٍ متفاوتة، أدخلُها إلى العمق الإيمان بالله عزّ وجلّ.

٢ ـ وفي الدائرة التي بعدها اقتراباً إلى خطّ السّطح، تقع أركان الإسلام، والفرائض التي جعل الدين تركها من الكبائر، وتقع أيضاً المحرّمات العظيمة التي يعتبر ارتكابها من الكبائر.

وفي داخل هذه الدائرة أيضاً درجاتٌ ذَوَاتُ نِسَبٍ فيما بينها، بحسب الصلة المباشرة بين الفرض وعمق الإيمان، أو غير المباشرة وهي التي تكون بوساطة حلقة أو أكثر من سلاسل الاتصال.

فبعض الفرائض كالصلاة ألصق بدائرة الإيمان من بعض فرائض أخرى.

٣ ـ وفي الدائرة الثالثة اقتراباً إلى خطّ السطح تقع الواجبات التي لم يجعل الدين تركها من الكبائر، وتقع المحرّمات التي لم يجعل الدين ارتكابها من الكبائر.

والواجبات والمحرمات في هذه الدائرة ذواتُ نِسَبٍ متفاوتة أيضاً، فما اقترب منها إلى الدائرة الثانية كان أشدّ وجوباً أو أشدّ تحريماً.

٤ ـ وفي الدائرة الرابعة اقتراباً إلى خط السطح تقع المندوبات والمستحبات، وتقع أيضاً المكروهات، وما هو من قبيل خلاف الأولى، كالآداب الإسلامية في اللّباس، والمشي، والطعام والشراب.

والمندوبات والمكروهات في هذه الدائرة ذوات نِسَبٍ متفاوتةٍ أيضاً، فما اقترب منها إلى الدائرة الثالثة كان أشدّ نَدْباً، أو أشدّ كراهية، وربّما اشتبه المندوب فيها بالواجب، وربّما اشتبه المكروه فيها بالمحرّم من الصغائر، فتختلف فيه آراء أهل الاجتهاد من الأئمة المعتبرين.

وقد يختلف المجتهدون الفقهاء المأذون لهم بالاجتهاد ـ لما أثبتوه من جدارة وأهليّة، بشهادة كبار علماء المسلمين ـ في بعض أحكام هذه الدوائر.

لكنّ الكبائر العظمى التي نبّه القرآن عليها قد رتّب الله عليها تهديداً ووعيداً، أو جعل لها عقاباً مبيّناً، أو أمر حاكم المسلمين بأن يقيم الحدّ على مرتكبها.

وكلمةُ «لَعَنَ» رسول الله فاعل كذا، أو «لَعَنَ الله» فاعل كذا الواردة في بعض الأحاديث، لا تفيد أن العمل من الكبائر، فاللّعن أي: الطرد والإبعاد له مستويات، قُصْوَى وَدُنيا، وأدناه بمعنى الإبعاد المؤقت، الدالّ على كراهية العمل. فلا بدّ لإثبات أنّ العمل كبيرة من دليل آخر يفيد ذلك.

* * *

إنّ تعظيم الصغائر في الدين يفسد في تصوّر عامة المسلمين رؤيتهم لأحكام الدين، فلا يلاحظون الفروق بين الصغائر والكبائر، وبين المكروهات والمحرّمات، وبين المندوبات والواجبات.

ولا يكون تعظيم الصغائر إلاّ على حساب مساحات الكبائر وحجومها، فخريطة الإسلام ذات مساحة محدّدة، وهي غير قابلة للإضافة أو الحذف، كذلك فهي غير قابلة لتغيير نِسَبِ الحدود فيها.

إنّ تعظيم أمر قرية صغيرة في خريطة الدولة يفسد الخريطة، وربّما يطغىٰ على العاصمة المجاورة لها، أو على مدينة كبيرة.

وإنّ تعظيم أمر غرفة صغيرة في خريطة بناء القصر يفسد خريطته، ولا بدّ أن يطغى ذلك على مساحات الغرف الأخرى التي حدّدت مساحاتها بحسب ما أُعدت له.

وحين تُعظَّمُ الصَّغَائِرُ لعامة المسلمين، ويصعُبُ عليهم اجتنابُها لما فُطروا عليه من الضعف البشري، وتختلط الرؤىٰ في أنظارهم، يهون عليهم ارتكاب الكبائر، لأنّها تغدو في تصوّراتهم مساوية للصغائر، وربما يهتمون بترك الصغائر التي لا تكلّفهم مشقة مغالبة نفوسهم وأهوائهم وشهواتهم، ويقعون في الكبائر التي لهم فيها هوى عظيم، فيأكلون المال الحرام، ويرابون، ويظلمون الناس ويفسقون، ويرضون جانب التقوى بلحية يعفونها، وثوب يقصّرُونه، وربّما يقولون: تلك مستورات، وهذه ينبغي الاهتمام بها لأنها تدلُّ على الولاء للإسلام.

وتختلط المفاهيم، واعْجَبْ لدين قوم كلُّ همّهم منه مظاهره!!.

* * *

المثال الخامس: تكفير من لم يحكم بما أنزل الله.

دخلت أغاليط حول هذا الموضوع، كانت نتيجة تفسير النصوص على غير وجهها، وانطلقت بذلك تعميمات مخالفة لما أجمع أهل السنة.

وإيضاحاً للمفاهيم الإسلامية التي تدلُّ عليها النصوص مجتمعة متكاملة كتبت هذه المقولة:

إنّ الحكم بما أنزل الله، وقبول الحكم بما أنزل، والرضا القلبي والتسليم التامّ له، من عناصر عبادة العبد لربّه، وهو ثمرة كبرى من ثمرات الإيمان.

وذلك لأنّ من عناصر الإيمان بالله جلّ وعلا الإيمانَ بأنه حكم عدل، وبأنه أحكم الحاكمين، وبأنّ كلماته تمّت صدقاً وعدلاً، وبأنّه جلّ وعلا حكيم عليم محيط بكل شيء علماً، فهو لا يغيب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

ولأنّ من عناصر الإيمان بالله جلّ وعلا الإيمان بأنّ شريعته لعباده هي أحكم الشرائع وأعدلها، إذ هو سبحانه عليم بأحوال عباده، محيط علماً بما في نفوسهم، خبيرٍ بما ينتج عن كلّ حكم من مصلحة أو مفسدة، ومن خير أو شرّ، لذلك فهو أعلم بأحكام العدل التي تلائم عباده، وتضع الحقوق في مواضعها، وهو سبحانه منزّه عن الأغراض والأهواء الخاصة فهو جلّ وعلا لا يحابي أحداً على حساب أحد، ولا يظلم أحداً لصالح أحد، ولا يعطي فريقاً من حقّ فريق آخر، وما يظلم ربّك أحداً، وإنما يراعي في أحكامه الحقّ والعدل ومصالح عباده.

فمن أدرك هذا من عناصر القاعدة الإيمانية، وكان محبّاً للحقّ طالباً له ولو كان عليه لا له، أو كان طالباً مرضاة ربّه بطلبه للحق وبعده عن ظلم الآخرين، فإنه لا بدّ أن يجد نفسه مدفوعاً للحكم بما أنزل الله ومدفوعاً لقبول حكم الله، والتسليم به تسليماً كاملاً، وإلاّ كان عاصياً لربّه، متبعاً لأهواء نفسه، مستهيناً بأعلى الفضائل الأخلاقية، وهو حبّ الحقّ وطلبه، وكراهية الظلم ومجافاته.

ومن يرفض أحكام الله تمرّداً عليها، فإنّه يتخذ إلٰهه هواه، ويرتدي أقبح أثواب الرذائل الخلقية، ويتعدّى حدود الله، ويستكبر عن عبادته والخضوع لأحكامه.

ويضاف إلى أسس الحكم بما أنزل الله، أنّ مستند توحيد الله بالعبادة أنّ الحكم لله وحده، وقد أمر أن لا نعبد إلاّ إياه، وهذا ما احتجّ به يوسف عليه السلام على صاحبيه في السجن، إذ دعاهما إلى عبادة الله وحده، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢) يقصّ علينا ما قاله يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن:

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾.

فمستند توحيد الله في العبادة توحيد الله في الحاكميّة، إذ هو وحده الربّ الخالق، فلا حكم لأحد غير الله فيما لم يأذن به الله، وإذ أمر سبحانه أن لا نعبد إلاّ إيّاه فقد وجب أن نفرده بالعبادة، فلا نشرك بعبادته أحداً، ولا نعبد سواه.

وعقيدة توحيد الله في الحاكمية هي عقيدة الأنبياء والرسل جميعاً، لأنها من كبريات الحقائق عن الله جلّ وعلا، وهي متصلة اتصالاً مباشراً بكون الله هو الربّ الخالق المالك للكائنات كلّها، أشيائها وأحيائها، ما كان منها في عالم الشهادة، وما كان منها في عالم الغيب، ومن كان هو المالك للكائنات فهو الحاكم المطلق في كلّ ما يملك، تصرّفاً بالإيجاد والإعدام، والحياة والموت، ونحو ذلك، وتصرّفاً بالأمر والنهي والتكليف، وقد قصّ الله علينا مقالة يعقوب عليه السلام لأبنائه، فقال تعالى في سورة (يوسف ١٢):

﴿ وَقَالَ: يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُم مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾.

أي: بيده أحكام المقادير يقضي بها كما يشاء.

ولذلك قرّر الله لنا هذه الحقيقة مقترنة ببيان أنه لا إلّه إلّا هو، وأنّ له كمال الحمد في الأولى وفي الآخرة، وأنّ الناس إليه يرجعون، ليحكم بينهم، وليجازيهم، فقال تبارك وتعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿ وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾.

وقال تعالى فيها أيضاً:

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾.

فالحكم في مقادير الحياة الدنيا وجزاءاتها وأقضيتها الكبرى لله وحده، لا يملك ذلك نبي ولا رسول ولا ملك، وكذلك الحكم يوم الدين، هو لله وحده.

وقد دلّ على تفرّده سبحانه في الحكم في الأولى قول الله تعالى لرسوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قُلْ: إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ. قُلْ: لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ: إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ، مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) ﴾.

يقصّ الحقّ: أي يتتبّع غاية الحق، ليحكم به سبحانه.

ودلّ على تفرّده في الحكم في الأخرى يوم الدين، قولُ الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَىٰ اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) ﴾.

ونضيف أنه حين يكون ترك العمل بأحكام الله تركاً على سبيل

التمرّد على مبدأ الطاعة، أو على سبيل رفض حاكمية الله جلّ وعلا، أو على سبيل الشكّ في كونها حقّاً وعدلاً، وتفضيل غيرها عليها، فذلك كفرٌ وردّة عن الإسلام الذي يبدأ بإعلان الاستسلام لأحكام الله والإذعان لها، والطاعةِ على قدر الاستطاعة، وشأن هذا التارك كشأن إبليس إذ رفض حكم الله، وتمرّد على طاعته، واعترض على أمره معانداً له، معتقداً أنه تكليف مخالف لمقتضى الحكمة، وبهذا يتضح لنا أنّ الباعث على ترك حكم الله في مثل هذه الحالة، إنما هو كفر بالله، أو كفر بحقه على عباده. ويغلب على الظن أن وضع القوانين العامة المخالفة لأحكام الله يدخل في هذا القسم الذي هو رفض حكم الله والتمرد على طاعته.

أمّا إذا كان ترك العمل بأحكام الله تركاً لا على سبيل التمرّد على مبدأ الطاعة، ولا على سبيل رفض حاكمية الله جلّ وعلا، ولا على سبيل الشكّ في كونها حقّاً وعدلاً وتفضيل غيرها عليها، فلا بُدَّ حينئذٍ أن يكون الباعث على ترك حكم الله أحد أمرين:

أ ـ فإمّا أن يكون الباعث الرغبة بالعدوان والظلم.

ب ـ وإمّا أن يكون الباعث الرغبة بالفسوق.

وذلك لأن حكم الله إمّا أن يكون في مجال الحقوق، وعندئذٍ يكون تركه ظلماً، لأنّ حكم الله هو حكم العدل، وإمّا أن يكون في مجال ضبط السلوك عن مواقع الإثم والقيام بفروض العبادات لله تعالى، وعندئذ يكون ترك حكم الله فسقاً وخروجاً عن حدود الله وتعدّياً لها، وعلى هذا نستطيع أن نفهم بوضوح ما جاء في القرآن حول هذا الموضوع، إذ جاء في سورة (المائدة ٣) قول الله تعالى:

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (٤٤) ﴾.

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون (٤٥) ﴾.

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون (٤٦) ﴾.

فقد بيّن الله في هذه النصوص الثلاثة البواعث التي تجعل الناس يتركون العمل بحكم الله، فالباعث إمّا أن يكون كفراً، وإمّا أن يكون

ظلماً، وإمّا أن يكون فسقاً، وأشدُّها الكفر، ثم الظلم، ثم الفسق، على أنّ الكفر يشتمل على الظلم والفسق وزيادة، والظلم يشتمل على الفسق وزيادة، فتكاملت النصوص في بيان أطراف موضوع الحكم بغير ما أنزل الله، فلا يصح أن نجعل كل حكم بغير ما أنزل الله كفراً فالآيات تبيّن البواعث.

ومن الواضح في أغراض الدين الكبرى أنّ الله أنزل الكتب على رسله لتحكم هذه الكتب بين الناس بالحق، وأمر المرسلين بأن يحكموا بما أنزل الله، وأمر المؤمنين إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، وأن يُحَكِّمُوا كتاب الله وسنّة رسوله فيما شجر بينهم، وأن يرضوا بحكم الله ورسوله ويسلّموا تسليماً، وجعل ذلك دليلاً على سلامة الإيمان وصدقه.

وقد دلّ على أنّ الله تبارك وتعالى قد أنزل الكتب على رسله لتحكم هذه الكتب بين الناس بالحقّ، قول الله تعالى في سورة (البقرة ٢):

﴿ كانَ الناسُ أمةً واحدةً فبعثَ اللهُ النبيّينَ مبشرينَ ومنذِرينَ وأنزلَ معهُمُ الكتابَ بالحقِّ ليحكمَ بينَ الناسِ فيما اختلفوا فيه، وما اختلفَ فيه إلّا الذين أوتوهُ من بعدِ ما جاءَتهم البيناتُ بغياً بينهُم، فهدىٰ اللهُ الذين آمنوا لما اختلفوا فيهِ من الحقّ بإذنِه، واللهُ يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم (٢١٣) ﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الناس كانوا أمة واحدة، ومعنى هذا بمقتضى دلالة جملة النصوص أنهم كانوا أمة واحدة مؤمنة، إذ كانوا في الدور الأول في عهد آدم على الإيمان والعمل برسالة الله لآدم، وكانوا في الدور الثاني بعد نوح عليه السلام على الإيمان والعمل برسالة الله لنوح، فاختلفوا بعد ذلك عن الحقّ، ودخلت فيهم أنواع الضلالات الاعتقادية والعملية، فبعث الله للناس جملة النبيين تترى، لردّ الناس عن ضلالاتهم وأنواع اختلافهم ولتبصيرهم بالحقّ حتى يلتزموه. وأنزل مع النبيين الكتاب بالحق، وبين الله أنّ من أهداف الكتاب المنزَّل أن يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، في الأمور الاعتقادية، وفي أمور الحياة العملية.

وبما أن الكتاب الرّباني منزل بالحق، فلا بدّ أن يكون حاكماً بالحقّ

على المختلفين، فمن رجع إليه طالباً الحقّ بإخلاص رأى بيان الحقّ فيه، ومن حكّمه هُدِي إلى وجه الحقّ.

ثمّ كان حال الناس بعد أن أرسل الله النبيين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ أن أصيبوا بنوع اختلاف آخر، هو الاختلاف في الكتاب، فكان من الذين أوتوا الكتاب ونظروا في البينات التي اشتمل عليها فريق اختلف فيه، ولم يكن سبَبُ اختلافهم عدمَ إدراكهم للحقّ، وعدمَ وضوح البينات لهم، وإنّما كان سبب اختلافهم فيه عاملِ البغي والحسد في نفوسهم، وهذا ما بيّنه الله بقوله: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾.

لكنّ المؤمنين طالبي الحقّ بصدقٍ اهتدوا للحقّ الذي اختلف فيه الباغون فآمنوا بالكتاب، وصدّقوا بما جاء فيه من الحقّ، وحكّموه في عقائدهم وأعمالهم، وفي شأن هؤلاء قال الله تعالى في الآية: ﴿ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ واللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ﴾.

ودلّ على أنّ الله أمر المرسلين بأن يحكموا بين الناس بما أنزل الله قول الله تعالى لرسوله في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً (١٠٥) ﴾.

وما دام الكتاب منزّلاً ليحكُم بين الناس بالحقّ، والمرسلون مبلِّغون له وحاملون لرسالته، فهم أوّل المكلفين بأن يحكموا بين الناس بما جاء فيه.

ودلّ على أن الله أمر المؤمنين إذا حكموا بين الناس أن يحكموا بما أنزل الله، كون الله أمرهم بالأخذ بالحق، وبالحكم بالعدل، وكون كتاب الله قد اشتمل في أحكامه على الحقّ والعدل، وكون الله أمرهم بطاعته وطاعة رسوله وأمرهم إن تنازعوا في شيء أن يردّوه إلى الله والرسول، كلّ

ذلك نجده في قول الله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ، إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً(٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٥٩) ﴾.

وربط الله صدق إيمان المؤمنين بأن يحكّموا الرسول فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضىٰ ويُسَلِّموا تسليماً، فقال تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً(٦٥) ﴾.

وجعل الله من صفات المؤمن الصادق أنه لا خِيَرَةَ له في كلّ أمر قضىٰ فيه الله ورسوله بحكم، فقال تعالى في سورة (الأحزاب ٣٣):

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً(٣٦) ﴾.

فالمؤمنون الصادقون يـردّون ما يتنـازعون فيـه إلى الله ورسولـه، ويحكّمون الله ورسوله فيما شجر بينهم ـ أي: يحكّمون كتاب الله وسنة رسوله فيما شجر بينهم ـ ثم لا يجدون في أنفسهم حرجاً من قضاء الله ورسوله، ويسلّمون تسليماً، والمؤمنون الصادقون لا تكون لهم الخِيَرَة مِنْ أمرهم في كلّ أمرٍ يكون لله ولرسوله فيه قضاء.

ومن صفات المؤمنين الصادقين أنهم إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم قالوا: سمعنا وأطعنا، وحققوا بالتطبيق العملي مضمون قولهم هذا، فالتزموا بالسمع والطاعة على مقدار الاستطاعة، دلّ على هذا قول الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ

يَقُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) ﴾.

وقولهم هذا تطبيق لما كانوا أعلنوه وبايعوا عليه من السمع والطاعة بشكل عامّ، منذ أعلنوا إسلامهم، لأنهم هنا يدعون ليحكم الله ورسوله بينهم فيستجيبون لهذه الدعوة.

من كلّ ذلك يتضح لنا أن الحكم بما أنزل الله، والرضا بحكم الله وبقضائه، والرضا بحكم رسوله، فرائض فرضها الله على المؤمنين، وقواعد من قواعد الإسلام الكبرى، وأنّ المؤمن صادق الإيمان لا يملك خياراً يبيح له مخالفة أحكام الله ورسوله، أو التمرّد عليها. ويتضح لنا أنّ الحكم بما أنزل الله من أفضل العبادات التي يمارسها المؤمنون، وهو التزام بما تقضي به مكارم الأخلاق وفضائل السلوك الإنساني.

ثم إنّ الحكم بما أنزل الله، وإقامة حكم الله في الأرض، هو الحصن لاستقرار الحكم واستمراره، وهو الكفيل بسعادة الناس وأمنهم ورغد عيشهم، ثم هو سبيل سعادتهم يوم الدين، لما فيه من تحقيق لرضوان الله جل وعلا.

* * *

المثال السادس: التجرُّؤ على أحكام الدين بإصدار فتاوى التحليل والتحريم والتكفير والإخراج من الإسلام، خدمة لأفكار التنظيم الذي يحمل شعار الإسلام.

ويُصدِّر هذه الأحكام من لا يملكون القدرة على فهم نصوص القرآن والسنة، وهم غير مؤهلين لا عقلاً ولا شرعاً لاستنباط الأحكام، مع أنّ الله عزّ وجلّ أمر بردّ ما يتنازع في حكمه الناس إلى القرآن والسنة، وإلى أولي الأمر المؤهلين منهم لاستنباط الأحكام، ولمعرفة ما يعرض لهم من شؤون السّلم والحرب، معرفةً هي الصواب أو الأقرب إلى الصواب.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء ٤):

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ

فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً(٥٩) ﴾.

وقال فيها أيضاً بشأن المنافقين:

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (٨٢) وإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٣) ﴾.

وأولوا الأمر في كلِّ موضوع هم أهل الاختصاص فيه، فالفقهاء المؤهلون لاستنباط الأحكام الفقهية هم أولوا الأمر في هذا الشأن، والقادة العسكريون في شؤون الحرب هم أولوا الأمر فيها، وخبراء وعلماء الاقتصاد هم أولوا الأمر في حدود تخصُّصهم، والأطباء هم أولوا الأمر في شؤون الصحة والمرض، وهكذا.

ونجم عن التجرُّؤ على أحكام الدين لخدمة أغراض التنظيمات فتاوى عجيبة غريبة ما أنزل الله بها من سلطان، منها ما يلي:

١ ـ الانتماء إلى هذه الجماعة بعينها دون غيرها فرض، أو هو يساوي الدخول في الإسلام بإعلان الشهادتين.

٢ ـ يجب على كلِّ مسلم أن يبايع إمام هذه الجماعة بعينها، لأنها هي الجماعة الكبرى في هذا البلد أو هي الجماعة المخلصة الوحيدة، أو نحو ذلك من عبارات.

٣ ـ من لم ينتمِ إلى هذه الجماعة بعينها، ويعملْ داخل تنظيمها، فهو مع صفوف أعداء الإسلام لا محالة، لأنّ حزب الجماعة هو المعسكر الإسلامي.

إلى غير ذلك من أحكام وفتاوى يصدّرها بعض أتباع التنظيمات والجماعات التي تعمل لرفع منار الإسلام، وهي أحكام ما أنزل الله بها من سلطان، وفيها تجرُّؤٌ خطير على دين الله، وهو يدلّ على جهل بالإسلام، وفوضى فكرية، واعتماد على مجرّد العاطفة غير البصيرة لخدمة الإسلام

ورفع مناره، ويستغل هذا الانحراف الخطير مستغلّون كثيرون من أعداء الإسلام.

* * *

ونجم عن التجرّؤ على أحكام الدين، الاستهانَةُ بأمر تكفير المخالفين في الرأي الاجتهادي القابل بمقتضى الدليل المقبول شرعاً لاختلاف وجهات النظر فيه.

إنّ تكفير المخالفين في الرأي القابل للنظر الاجتهادي بغير برهانٍ من الله واضح وصريح أمرٌ خطير، قد يوقع في الكفر، والعياذُ بالله.

فقد روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ: كَافِرٌ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا».

بَاءَ بها: أي: حلَّ بصفة الكفر أحدُهُمَا، إمّا القائل إذَا لَمْ يَكُنْ مَنْ قيلت فيه كافراً حقّاً، وإمّا مَنْ قِيلَتْ فيه إذا كان هو عند الله وبحكم شرع الله كافراً، والمعنى أنّ صفة الكفر صارت مباءة له ومأوى.

أو: رجع بعد هذه المقالة بصفة الكفر أحدُهما، إمّا القائل أو من قيلت فيه، يقال لغة: بَاءَ إلى المكان، أي: رجع إليه.

أو: استحقّ الكفر أحدهما. أو احتمل صفة الكفر أحدهما.

وروى البخاري عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَرْمِي رَجُلٌ رَجُلاً بالْفُسُوقِ، ولا يَرْمِيهِ بِالكُفْرِ إلاَّ ارْتَدَّتْ عَلَيْهِ إنْ لَمْ يَكُنْ صاحِبُهُ كَذَلِكَ».

وروى البخاريّ ومسلم عن أبي ذرّ أيضاً قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«مَنْ دَعَا رَجُلاً بالكُفْرِ، أَوْ قَالَ: عُدُوَّ اللهِ [أي: يا عدُوّ الله] ولَيْسَ كذَلكَ، إلاَّ حَارَ عَلَيْهِ».

إلاَّ حَارَ عَلَيْهِ: أي: إلاّ رَجَعَ عَلَيْه.

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَيُّمَا رَجُلٍ مُسْلِمٍ أَكْفَرَ رَجُلاً مُسْلِماً، فَإِنْ كَانَ كَافِراً، وإِلَّا كَانَ هُوَ الْكَافِرُ».

وللإمام ابن تيميّة كلام واضحٌ جدّاً حول هذا الموضوع، رغم شدّتهِ في مقاومة البدع، ووجوب الالتزام بالسنة، فقال[1]:

«. . . لا يُجْعلُ أحدٌ بمجرّد ذنب يذنبه، ولا ببدعةٍ ابتدعَها ـ ولو دعا الناس إليها ـ كافراً في الباطن، إلّا إذا كان منافقاً .

فأمّا من كان في قلبه الإيمان بالرسول وما جاء به، وقد غلط في بعض ما تأوّله من البدَع، فهذا ليس بكافر أصلاً، والخوارج كانُوا من أظهر الناس بدعةً وقتالاً للأُمَّة، وتكفيراً لها، ولم يكن في الصحابة من يكفّرهم، لا عليّ بن أبي طالب ولا غيره، بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين، كما ذكرتُ الآثارَ عنهم بذلك في غير هذا الموضع.

وكذلك سائر الثنتين وسبعين فرقة، من كان منهم منافقاً فهو كافر في الباطن، ومن لم يكن منافقاً بل كان مؤمناً بالله ورسوله في الباطن، لم يكن كافراً في الباطن، وإنْ أخطأ في التأويل كائناً ما كان خطؤُه، وقد يكون في بعضهم شعبةٌ من شعب النفاق، ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار.

ومن قال: إنّ الثنتين وسبعين فرقة كلُّ واحد منهم يَكْفُر كُفْراً ينقُل عن الملّة، فقد خالف الكتابَ والسّنة وإجماع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة، فليس فيهم من كفّر كلّ واحدٍ من الثنتين وسبعين فرقة، وإنّما يكَفِّر بعضهم بعضاً ببعض المقالات . .» .

---

(١) انظر مجموع الفتاوى الصفحة (٢١٧) من الجزء السابع.

يشير رحمه الله إلى الحديث الذي أورده في موضع آخر من مجموع الفتاوى، إذ قال بشأنه[١]:

«الحديث صحيح مشهور في السُّنن والمسانيد، كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وغيرهم، ولفظه:

«افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، كلُّها في النار إلّا واحدة، وافترقت النّصَارى على اثنتين وسبعين فرقة، كلُّها في النار إلّا واحدة، وستفترق هذه الأمّة على ثلاث وسبعين فرقة كلُّها في النار إلّا واحدة».

وفي لفظ: «على ثلاث وسبعين ملَّة».

وفي رواية: قالوا: يا رسول الله، مَن الفرقةُ الناجية؟:

قال: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي».

وفي رواية قال: «هي الجماعة، يَدُ اللهِ علىٰ الجماعة».

ولهذا توصف الفرقة الناجية بأنّها أهل السُّنَّة والجماعة، وهم الجمهور الأكبر، والسّواد الأعظم.

أمّا الفرق الباقية فإنّهم أهل الشذوذ والتفرّق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريباً من مبلغ الفرقة الناجية (أي: في أعداد المنتمين إليها) فضلاً عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية القلّة. وشعارُ هذه الفرق مفارقةُ الكتاب والسنة والإجماع. فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة...» انتهى .

ثم أبان رحمه الله بعد صفحات: أنّ من لم يكن ظاهر الكفر، ولا منافقاً يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وإنّما أخطأ في الاجتهاد، أو لُبِّسَ عليه الأمر بما أورده موردو الشبهات، فقال مقالة بدعيّة، فليس بكافرٍ قطعاً.

---

(١) انظر مجموع الفتاوى (٣٤٥) من الجزء الثالث.

بل قد يكون فاسقاً عاصياً، وقد يكون مخطئاً مغفوراً له، وقد يكون معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه به من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه. . .

أقول: وهذا من كمال إنصاف الإمام ابن تيمية، وعمق فهمه وبصيرته، وورعه، وخوفه من الله، عليه رحمة الله ورضوانه.





الباب الثاني

الفهم الإسلامي الصحيح
لقضية اتخاذ الأسباب مع التوكل على الله

وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: مفاهيم عامّة وأمثلة.

الفصل الثاني: أدلة قرآنية وشرحها.

الفصل الثالث: وجوه النصر وأدلّته.

الفصل الأول

مَفَاهِيمُ عَامَّةٌ وَأَمْثِلَة

(١)

التوكل وظيفة إيمانية واتخاذ الأسباب وظيفة عملية

أ) ـ إنّ التوكّل على الله كما قرّره الإسلام، وطبّقه الرسول ﷺ، وفهمه المسلمون الأوّلون وطبّقوه ـ وظيفة من وظائف الطمأنينة الإيمانية القلبية، وعنصر من عناصر الجانب الاعتقادي القلبي، في الفرد المسلم والجماعة الإسلامية، وليس وظيفة من وظائف الطاقات المادّية، والقدرات الجسدية، والأعمال التخطيطيّة والتنفيذيّة في المسلم.

ب) ـ أمّا اتخاذ الأسباب فهو وظيفة الحركة العملية الإراديَّة في الحياة، ضمن ما سخّر الله للإنسان في ذاته أو في الكون من حوله، وأعطاه القدرة على تحريكه، أو أعطاه مفاتيح إطلاق طاقاته.

١ ـ فما يرجو الإنسان من شيء وهذا الشيء قد جعل الله في نظام كونه وسائل وأسباباً للوصول إليه؛ فعليه أن يتَّخذ له الأسباب الموصلة إليه، ضمن شروطها ومقاديرها المعهودة في نظام الكون، مركّبة كانت أو بسيطة. وعليه أن يكون على بصيرة بأن الطبخة السببيَّة لا تتم على وجهها الصحيح ما لم يتقيّد طابخها بشروطها ومقاديرها، وعليه أن يكون دقيق الملاحظة في التزام مقادير العناصر، ومقادير طريقة جمعها وتركيبها والتأليف بينها، والمقادير الزمنية اللازمة لكلّ حركة، فقد جعل الله لكل شيءٍ قَدْراً.

٢ ـ وما يؤمر المسلم بشيء من أمور دينه، وهذا الشيء لا يتحقق إلّا بأن يتخذ له شروطاً وأسباباً، تقضي بها أنظمة الكون المعتادة المعهودة فيه، أو تقضي بها نصوصُ التكاليف الدينية؛ فعليه أن يتخذ لتحقيق ما أُمر به تلك الشروط والأسباب، كما هي في نظام الكون وقوانينه الثابتة، إن كانت شروطاً وأسباباً كونية، وكما جاء بيانها في تكاليف الدين، إنْ كانت شروطاً وأسباباً تكليفيّة شرعية. والقاعدة الأصولية هنا تقرّر: أنّ ما لا يتم الواجب إلّا به فهو واجب.

إنّ الأمر الربّاني للمسلمين بتبليغ دين الله للناس أجمعين، لا يمكن تنفيذه بحسب أنظمة الكون المعتادة والمعهودةِ فيه إلّا باتخاذ شروط، وأسباب كثيرة، منها إعدادُ الأكفياء لهذا التبليغ، ومنها استخدامُ الوسائل التعليمية والإعلامية المختلفة، ومنها استخدام الوسائل النفسية والتربوية المتعدّدة.

إذن فعلى المسلمين أن يتخذوا كلّ ذلك لتنفيذ ما أمرهم الله به من تبليغ دينه للناس أجمعين.

٣ ـ وما يُنْهىٰ المسلم عن شيء نهياً دينيّاً، وهذا المنهي عنه لا يمكن اجتنابه إلّا باتخاذ شروط تقضي بها أنظمة الكون المعتادة المعهودة فيه، أو تقضي بها نصوص التكاليف الدينية؛ فعليه أن يتخذ لاجتناب ما نهىٰ الدين عنه تلك الشروط والأسباب، كما هي في نظام الكون وقوانينه الثابتة، إنْ كانت شروطاً وأسباباً كونية، وكما جاء بيانها في تكاليف الدين، إنْ كانت شروطاً وأسباباً تكليفية شرعية.

وهذه النقطة مشمولة أيضاً بقاعدة: ما لا يتمّ الواجب إلّا به فهو واجب.

لقد نهى الإسلام المسلمين عن تناول ما يضرّ بصحتهم أو يقتلهم من مأكولٍ أو مشروب أو غير ذلك. لكنّ هذا النهيّ لا يستطاع تنفيذه في

كلّ شيءٍ إلاّ بمعرفة الأشياء التي تضرّ، فإذا كانت هذه المعرفة لا تتم إلاّ باتخاذ الوسائل العلميّة المختلفة، التي منها مختبرات التحليل، وكشف ما في المركّبات من عناصر، وإجراء التجارب العلمية لمعرفة تأثير كلّ عنصر منفرداً كان أو مركّباً مع غيره؛ فإن اتخاذ هذه الوسائل أمر واجب.

وقال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا بِطانةً من دونكم لا يألونكم خَبالاً، ودُّوا ما عَنِتُّم، قد بَدَتِ البغضاءُ من أفواههم، وما تُخفي صدورهم أكبرُ، قد بيَّنّا لكم الآياتِ إن كنتم تعقلون (١١٨) ﴾.

أي: لا تُقَرّبوا إلى مواطن أسراركم من ينافقونكم وهم ليسوا منكم، ولا تتخذوا مستشارين منهم، ولا خبراءَ يعرفون كلَّ بواطنكم، لأنهم سيفسدون عليكم، ويحبطون مخططاتكم وأعمالكم، عن طريق مداخلتهم ومخالطتهم لكم، ويستغلّون مواقعهم وهم بطانتكم، لتهديم أبنيتكم، وتنفيذ مخططات أعدائكم المجاهرين بعداوتهم لكم.

هذا نهي من الله للذين آمنوا أن لا يتخذوا المنافقين بطانةً لهم، لكنّ تنفيذ المنهي عنه فيه لا يتمّ إلاّ باتخاذ الأسباب التي تكشف المنافقين وتميّزهم بالدلائل والأمارات عن المؤمنين الصادقين، ثم إنّ الأسباب والوسائل الكاشفة تقضي بوضعهم موضع الامتحان والمراقبة ورصد ردود أفعالهم التلقائية وهم غافلون، فلا يُنْتَقىٰ من جماهير المنتسبين إلى الإسلام ليكون بطانة لقيادةٍ أو إدارةٍ إسلامية إلاّ من يوثق تماماً بصدق إيمانه، مع المؤهلات الأخرى الواجبة للاضطلاع بهذه المهمّة.

وكم سقطت قيادات إسلامية كثيرة في حبائل المنافقين، الذين اتخذوا منهم بطانة، دون أن يهتموا بالبحث عن صدق إيمانهم، وخلوّهم من دلائل النفاق وأماراته.

(٢)

دافعا اتخاذ الأسباب الكونية

وحينما يتخذ المسلم المؤمن الأسباب الطبيعية الكونية، لتحقيق النتائج والأمور التي يرجوها، فإنما يفعل ذلك بدافعين:

الدافع الأول: الانسجام مع سنن الله التكوينيّة، وهذا العمل هو طاعة لله بالسير وفق أحكام الله وقوانينه التكوينية القدرية، التي ليس باستطاعة الناس أن يخترقوها، ولا يخرقها إلّا مكوّنها، وليس من حقّ أحد أن يطالبه بخرقها، وحكمته تعالى هي التي قد تقضي بخرقها نادراً، لإثبات أنه هو الخالق الربُّ الذي إذا أراد شيئاً فإنَّما يقول له: كن فيكون، أو لتصديق رسولٍ من رسله بآية، أو لتطمين قلوب المؤمنين بأنَّهم على الحق وأنّ الله معهم، وقد تأتي إكراماً لذي ضرورة صادق مع ربّه مستقيم في دينه.

الدافع الثاني: الطاعة لله في أحكامه التشريعيَّة، وذلك لأنّ الله عزّ وجلّ قد أمر المؤمنين به وبرسوله وبكتابه، بأنْ يتخذوا الأسباب التي جعلها الله في كونه وسائل لتحقيق مطالب الحياة الدنيا، ويجتنبوا الأسباب المفسدة التي تفضي إلى غير ما يرجون. وأمرهم بأن يتخذوا الأسباب التي جعلها الله في دينه وسائل لتحقيق ثواب الآخرة، ولتحقيق ثواب آخر طيّب معجّل في الحياة الدنيا، ممَّا قد يأتي به نفح الغيب للمؤمنين، ممَّا هو فوق سنن الأسباب العاديّة، كالاستغفار، والدعاء، وصدق التوكل على الله، والإكثار من ذكر الله، والتقرُّب إلى الله بالنوافل، والتضرّع إلى الله عزّ وجل، فهي أسباب تعبديّة تجلب معونات غيبية.

(٣)

دخول كل سبب يكتشف في عموم الأسباب التي يجب اتخاذها

ومن الأسباب التي يجب اتخاذها الأسباب الماديّة التي يكتشفها الناس بوسائلهم العلمية التجريبية، مهما تطوّرت أو جدّ فيها جديد، واكتشف

الناس منها ما لم يكونوا قد اكتشفوه من قبل.

ومن الأسباب التي يجب اتخاذها المخططات الفكرية في مختلف مجالات الحياة السلمية والحربية لحركة التنفيذ. ومن ذلك المخطَّطات الإدارية، والمخطَّطات التعليميّة، والاقتصادية، والزراعية، والصناعية، والصحيّة، والعمرانية، والسياسية، والخطط الحربية، وغير ذلك.

ومن الأسباب التي يجب على المؤمنين اتخاذها الدعاء لله، والالتجاءُ إليه، وإلحاح الطلب منه، والتضرّع له، وذكر الله كثيراً، مع الاعتصام بما أمر به، واجتناب ما نهى عنه.

ولكلٍّ شيء سبب أو أكثر، ولكلٍّ شيء مقدار يجب التقيّد به ليعطي عطاءه الأحسن والأوفى، ولكل أجل كتاب، فلا يصحّ استعجال الأمور قبل أوانها، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

(٤)
تأثير التوكل على الله في الإمداد بقوى معنوية عالية لدى اتخاذ الأسباب

لقد وضح لدينا فيما مضى الفرقُ بين واجب التوكّل على الله، الذي هو وظيفة من وظائف الطمأنينة الإيمانية القلبيَّة، وعنصر من عناصر الجانب الاعتقاديّ القلبي في الفرد المسلم والجماعة الإسلامية. وبين اتخاذ الأسباب على اختلافها، الذي هو وظيفة الحركة العملية الإرادية في الحياة، لتحقيق النتائج العاجلة أو الآجلة.

ومتى صحّ إدراك هذا الفرق، والتزم المؤمن بالواجب في كلٍّ من التوكّل على الله بصدق، واتخاذ الأسباب الكونيَّة القدريَّة كما قضاها الله، والأسباب التكليفيّة الدينية، على ما شرعها الله؛ كان التوكّل على الله في

الجانب القلبي الإيماني ممدّاً بقوة معنويّة عظيمة، تضاعفُ القوى المادّية العاملة أضعافاً كثيرة، حتى يسبق المتوكّلُ على الله عدداً كثيراً من أمثاله السببيِّين الذين ليس لديهم مثل توكّله، وقد تزيد بعض أسبابهم على أسبابه. وحتى يغلب عشرون مؤمنون صابرون مئتين من الكافرين بإذن الله، والله مع الصابرين.

إنّ القوة المعنوية التي يأتي بها التوكّل علىٰ الله، فتعطي بها الأسباب الكونية عطاءها المضاعف، هي السرّ والإكسير العجيب الذي يسبق به المسلمون المؤمنون غيرهم، ويختصر الله لهم به الزمن، ويُبقي الله لهم به نتائج أعمالهم، ثمّ يجعل لها آثاراً متنامية مباركاً فيها، مع ما يدّخر الله لهم عنده من ثواب عظيم وأجر جزيل، ينعمون بفيضه الذي لا ينقطع يوم الدين.

ومن الملاحظ أنّ أهمّ عوامل الخذلان التي تُمنى بها القوى المادّية على كثرتها في الجيوش المحاربة، إنما هي تناقص القوى المعنوية القلبية، التي أثبتت التجارب التاريخية أنّ في مقدمتها قوّة التوكّل على الله، فهي أثقل القوى المعنوية على الإطلاق.

وذلك لأنّ من يعدّ العدّة، ويستخدم الأسباب، متوكّلاً على حدود ما أعدّ من قوى يظل قلبه قلقاً حذراً جباناً خائفاً من أن تكون قوّة عدوّة زائدة على قوّته ولو بمقدار يسير، وبذلك فقد تنهار قوته، وتفقد أسلحته وأسبابه مضاءها المقدَّر لها، لفقدان الروح المعنويّة من قلبه، وأمّا الذي يُعدّ العدّة الكاملة، ويتخذ ما يستطيع من أسباب، ويباشر العمل وهو موقن بأنّ قوّة قادرة على كلّ شيء تدعمه من وراء الحجب المادّية، وتشد أزره، فإنّه يستطيع أن يستعمل في نضاله وجهاده كلّ قوته، مع حضور قلب، وسرعة بديهة، نظراً إلى أنّه لم يمسّه الخوف الذي يقلق القلوب، ويفسد الرؤية الصحيحة للعقول.

وما يقال في أعمال القتال يقال نظيره في كلّ أعمال الحياة.

(٥)

اتخاذ الأسباب طاعة لسنن الله وطاعة لشرائعه. والتوكل تعبير إيماني وعبادة قلبية

لله في كونه سنن ذات أحكام صارمة، تنفّذ بقضاء الله وقدره، وهي لا ترحم أحداً، لا صغيراً لا يجد حيلة، ولا كبيراً عاجزاً، ولا جاهلاً، ولا غافلاً، ولا مجتهداً مخطئاً.

ولله في شريعته أحكام تكليفيّة لابتلاء إرادات المكلَّفين، فهم يفعلونها أو يتركونها باختيارهم الحرّ، فمن أطاعها أصاب خيراً، ونال من الله أجراً عظيماً، ومن عصاها أصاب شرّاً، واستحقّ من الله عقابه جزاءً وفاقاً.

والمسلم المؤمن العاقل يتقيّد بسنن الله في كونه، فلا يعاندها، ويطيع أحكام الله في شريعته فلا يعصيها، ويتوكّل مع ذلك على الله في تحقيق ما يرجو من نتائج يحبّها في الحياة الدنيا، ويكون على يقين تامّ بأنّ الله سيضاعف له ثواب الآخرة أضعافاً كثيرة، وبأنّه سيصيب حتماً هذا الثواب العظيم، لأن الله عزّ وجلّ لا يخلفُ الميعاد.

وعلينا أن نلاحظ أنّ التقيُّدَ بسُنَن الله عزّ وجل في كونه وعدمَ مُعَاندتها، إنّما هو طاعةٌ لله في أحكامه التكوينيّة التي لا تعانَدُ، وتعليقٌ للرجاء فيما جعل الله فيه رجاءً، واتّباعٌ للأمور من طرقها الطبيعية التي جعلها الله لها، وتوسُّلٌ إلى مطالبِ الحياة بوسَائِلها الطبيعيّةِ وأسبابها، ودخولٌ إلى البيوت من أبوابها.

أمّا التقيُّد بشريعة الله وعدمُ تعدّي حدودها فهو طاعةٌ لله في أحكامه التشريعيّة التكليفيّة، التي جعل الله فعلها أو تركها داخلاً ضمن دائرة مسؤوليّة الاختيار الحرّ للمكلّف.

ثمّ يأتي التوكُّل على الله تعبيراً عن صحّة الإيمان بأنّ سنن الله التكوينيّة هي من خلقه، وخاضعة لحكمه وسلطانه، وهو سبحانه إذا شاء

خرقها لحكمةٍ هو يقدّرها ويقضيها، ولكنّ الأصل ثباتها وعدم خرقها.
ويأتي التوكل على الله تعبيراً أيضاً عن صحّة الإيمان بأنّ أحكامه التكليفية التشريعيّة فريضةٌ لا يُعْفِي منها إلّا العجزُ عنها.

ثم إنّ التوكُّلَ على الله عبادة قلبيّة ونفسيّة لله تعالى، إذْ هو سكينة وطمأنينة داخليَّة من أثر صدق اليقين بالله، وقوة ثِقَل الإيمان به وبقضائه وقدره، وبأنّ له الخلق والأمر وهو على كلّ شيءٍ قدير.

وفي التوكُّلِ على الله معنى الدعاء لله بأن يدفع الموانع التي لا يملك الإنسان في العادة اتخاذ الوسائل لدفعها، وبأن يتمّم الأسباب الخفيّة التي لا يملك الإنسان في العادة استيفاءها.

ومع التقيّد بأحكام سنن الله التكوينية، وأحكام تكاليفه الدينية التشريعيّة، ومقتضيات الإيمان من التوكُّل على الله، يضاعف الله ثمرات الأعمال، ويمنح النتائج الْفُضْلىٰ لها.

فمن عاند فلم يتقيّد بأحكام سنن الله التكوينيّة، أو عصى فلم يتقيّد بأحكام تكاليف الله الدينية التشريعية ـ فليس من حقه أنْ يطالب الله عزّ وجلّ بتحقيق ما يرجو من نتائج، على أساس أنّه كان صادق التوكّل عليه.

إنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل التوكّل عليه وحده كافياً لتحقيق النتائج ذات الأسباب التي بينتها أحكام سنن الله التكوينية، فيما اختبر الناس وجرّبوا، أو أخبرت عنه النصوص الدينية الصحيحة الصريحة، وكذلك لم يجعل التوكّل عليه وحده كافياً لتحقيق النتائج ذات الأسباب التي أمرت باتخاذها أحكام الله في تكاليفه الدينيّة التشريعيّة.

إنّ التوكُّل الصادق على الله يعطي مزيداً من التوفيق والتسديد ومن النتائج الفضلى، وفي أُطُر الأسباب التي يتقيّد فيها العاملون بأحكام سنن الله التكوينية وأحكام تكاليفه الدينيّة التشريعية.

والناس على أقسام ثلاثة في هذا المجال:

الأول: قسم اتخذ الأسباب التي دلّت عليها أحكام سنن الله التكوينية، فحقّق الله له من النتائج ما تعطي هذه الأسباب في نظامها التكويني، ولو كان عاصياً لله في أحكام تكاليفه الدينيّة التشريعية، ولو لم يكن مؤمناً بالله الخالق، وهذه القضية هي من الأمور المشاهدة التي لا يجحدها إلّا جاهلٌ بالأسباب الكونية وما تعطيه للمؤمنين والكافرين دون تمييز ولا تخصيص، وقد دلّ عليها أيضاً قول الله تعالى في سورة (هود ١١):

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نُوفِّ إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يُبخَسُون (١٥) ﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران ٣):

﴿ ومَنْ يُرد ثوابَ الدنيا نُؤتِه منها، ومَنْ يُرد ثوابَ الآخرة نؤتِه منها وسنجزي الشاكرين (١٤٥) ﴾.

وقولَ الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى ٤٢):

﴿ مَنْ كان يريد حَرْثَ الآخرة نَزِدْ له في حرثه، ومن كان يريد حَرْثَ الدنيا نؤتِه منها، وما له في الآخرة من نصيب (٢٠) ﴾.

الثاني: قسم اتخذ الأسباب التي دلّت عليها أحكام سنن الله التكوينية، وأضاف إليها طاعة الله في أحكام تكاليفة الدينيّة التشريعية، حول الموضوع نفسه الذي اتخذ أسبابه التكوينية، فحقّق الله له نتائج أفضل من القسم الأول الذي اقتصر على اتخاذ الأسباب التكوينية فقط.

ولا تكون الطاعة الصادقة لأحكام التكاليف الدينية التشريعيّة، إلّا

من أهل الإيمان، ولا تتمّ هذه الطاعة إلّا بأن يقترن بها اتّخاذ الأسباب التي دلّت عليها سنن الله التكوينية، لأنّ الله عزّ وجل في شريعته لعباده قد أمر المؤمنين باتخاذها.

الثالث: قسم اتخذ الأسباب الكونية، وأطاع أحكام التكاليف الدينية التشريعية، وأضاف إلى ذلك صدق التوكل على الله، فهذا القسم هو القسم الأسمىٰ، ويعطيه الله نتائج أجلّ وأعظم من القسمين السابقين.

ويجلب الأسباب الغيبية الإضافية صدق التوكُّل على الله، والاستغفار، وذكر الله كثيراً، والدعاء، والتضرع إلى الله، وإخلاص النية، والصبر والصلاة، والتقرب إلى الله بالنوافل.

(٦)
انطلاقات الإيمان الثلاث

فللإيمان الصحيح الصادق انطلاقات ثلاث، وهي ما يلي:

الانطلاقة الأولى: وهي توجب اتخاذ الأسباب التي دلّت عليها سنن الله التكوينيّة، فالكون ـ وفق سنن الله الثابتة الدائمة ـ ترتبط تغيّراته بأنظمة أسبابه، والخارق نادر لا يجوز الاعتماد عليه، فإذا حصل بعد استنفاد الطاقة السببيّة التي هي من مستطاع الناس، فهو معونة توفيقيّة ربّانية، ولا يُنزِّلها الله إلّا بقَدَر، ولحكمة عالية.

ومن حِكَم خَرْقِ السنّن الثابتة تقديمُ برهانٍ إقناعيّ لمحتاج إليه فعلاً من براهين الإيمان بالله، أو تقديم دليل لتثبيت الإيمان وتقويته، وصرفِ الرَّيب أو الشك عمّن تعاني نفسه شيئاً من ذلك من المسلمين، أو لرفع نِسْبَةِ القوة المعنوية في نفوس المؤمنين وإمدادها بالطمأنينة والثباتِ والْبُشرىٰ، في معارك القتال، كما حصل للمؤمنين في بدرٍ والأحزاب.

وهنالك حِكَمٌ أخرىٰ سبق بيان بعضها.

الانطلاقة الثانية: وهي توجب طاعة الله في أحكام شريعته التي أنزلها لعباده، سواء أكانت أحكام عبادات لا تدخل في نظام الأسباب التكوينية الظاهرة، أو كانت من قبيل الأسباب التكوينيّة التي يتوصل إليها الناس بوسائلهم الإنسانية، وقد أمرنا الله باتخاذها، وجعل طاعته في ذلك عبادة، لارتباط اتخاذ هذه الأسباب بمصالح الدين، كالأمر بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وكالأمر بإعداد المستطاع من القـوة، أو أنّها كلّيّات تحدّد مفاهيم السلوك الإسلامي في الحياة الدنيا، كالأمر بالمشي في مناكب الأرض لتحصيل الرزق، أو هي من الأسباب الخفيّة التي قد يغفُل الناس عنها حين يلاحظون سنن الله في أنظمة الأسباب التكوينية، مع أنّها من الحاجات التي لا غنىٰ للناس عنها في كلّ عصر، كالأمر بالبحث عن الدواء المزيل لعلّة المرض.

الانطلاقة الثالثة: وهي توجب توجّه القلب والفكر وجوانب النفس كلّها لطمأنينة التوكّل على الله، في دفع الموانع التي لا يستطيع الناس الإحاطة بها، وفي استيفاء الأسباب الخفيّة التي يضاعف الله بها النتائج المرجوّة.

ومتى صحّت هذه الانطلاقة الثالثة كانت معاني التوكّل على الله، والاعتماد عليه، ماثلةً في ساحة التصوّرات العامة داخل نفس المؤمن، دون أن تبطّىء من حركة الانطلاقتين الأولى والثانية أيّ مقدار، بل هي في وضعها السويّ تزيد من حركتها، وتمنحهـما قُوىً إضـافية من مخـزون الجسد، ومن شجاعة النفس، ومن عزم الإيمان، ومن معونة الله.

(٧)

نتائج غير سارة للأغاليط في هذا الموضوع

وحول هذا الموضوع تقـع أغاليط كثيـرة، ويسقط فيها كثـير من المسلمين، حتى من قادة العمل الإسلامي، ويجد مرتكب الأغاليط نفسه

بعد ذلك يتحمّل تبعات أغاليطه، وقد يتحمّل غيره معه ذلك، وقد تحلّ الكارثة بجمهور كبير من المسلمين نتيجة هذه الأغاليط.

ويمدّ هنا الشيطان خراطيمه موسوساً، ومشكّكاً بالله، أو بعدله، أو بحكمته، ويقع الناس بذلك في محنة وبلاء هما أشدّ ممّا كانوا عليه من قبلُ.

وما ذلك إلّا ثمرة سوء فهمهم لأحكام الله ولدينه، ويريدون مع ذلك أن يتحمّل الله أغاليطهم، ويخالف أحكام سننه التكوينية وقد عاندوها، وأحكام تكاليفه التشريعية الدينية وقد عصَوْها، زعماً منهم أنّهم كانوا صادقين في التوكّل عليه، والله هو العليم بخبايا النفوس، وما تخفي من نيّات وغايات.

(٨)

أمثلة:

١ ـ إنّه ليس من حقّ المؤمن بالله أن يحرث في البحر، ويبذر في السِّبَاخ، ويتوكّل على الله ليعطيه أفضل ما يُعطي الزارعين.

فإذا أعطى الله الزارعين الكافرين به الذين تقيّدوا بأحكام السُّنن التكوينية، زرعاً جيّداً، وإنتاجاً حسناً، على قدر ما بذلوا من جهد، عتبَ على ربّه، وقال: هل الكافر خير منّي حتّى يخيّب زرعي ويعطيه زرعاً جيّداً، وإنتاجاً حسناً؟ إنّ هذا لفهم عجيب!!.

يا أيّها الجاهل بالله وبدينه وبسننه، اعلم أنّ الله عزّ وجلّ ليس مستعدّاً أن يغيّر سننه التكوينيّة وأحكام تكاليفه الشرعية مراعاةً لجهلك وأغاليطك، أو مراعاةً لهواك. ولو فعل ذلك لفسد نظام الكون، فأهواء الناس لا نهاية لها ولا ضابط، والله عليم حكيم قدير لا يتّبع أهواء الناس، واستمع إلى قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ولو اتّبع الحقُّ أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهنّ. بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾(٧١).

إنّ تصاريف ربنا عزّ وجلّ منضبطة بالحق والعدل والحكمة، وأنت تريدها أن تتّبع هواك، أو تراعي جهلك، أو غفلتك، أو أغاليطك، لا تطمع بهذا، ولا تظنّن أنّ عبادتك المحضة تغنيك عن عبادتك باتخاذ الأسباب التكوينية التي أمرك الله باتخاذها، ليحقق لك النتائج التي ترجوها في الحياة الدنيا، حتى العبادات المحضة الواجبة لا يغني بعضها عن بعض، فأعطِ كلّ ذي حقٍّ حقه، وقد جعل الله لكلّ شيءٍ قَدْراً.

يا أيّها الجاهل بالله وبدينه وبسننه، لقد عاندت أحكام سنن الله التكوينية، وعصيت أحكام تكاليفه الدينية الشرعية، وتريد مع ذلك أن يعطيك ثمرة عمل لم تفعله؟!.

لقد أخذت ثمرة عملك الذي فعلت، وهي الخيبة، فلا تلومنّ إلاّ نفسك.

إنّ من حرث في البحر وبذر في السِّباخ خاب، ولم ينبت له زرع ولم يكن له ثمر.

أمّا ادّعاؤك بأنك كنت صادق التوكّل على الله، فإن كنت صادقاً فعلاً، فلك ثوابٌ عليه يوم الدين إن شاء الله، مع مؤاخذتك على معصيتك في مخالفتك لأحكام تكاليف الله الدينية التشريعية، وقد آخذك في الدنيا على معصيتك في مخالفتك لأحكام سننه التكوينية، فأعطاك جزاءك خيبةً وفشلاً.

٢ ـ إنّه ليس من حقّ المؤمن بالله أنْ يحزّ رقبة ولده بالشفرة الحادّة متوكّلاً على الله بأن لا يجعل ولده ذبيحاً، فإذا وجد ولده ذبيحاً بعد ذلك وفقده، عتب على ربّه وقال: لماذا لم يسلّم الله لي ولدي كما سلّم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، حين تلّه أبوه للجبين وأراد

ذبحه، ففداه الله بذبح عظيم؟.

يا أيّها الجاهل الغبيّ، هل أنت نبيّ وأمرك الله بهذا الذبح، وباشرت العمل طاعة لله تعالى، حتى تطالبه سبحانه بأن يفدي ولدك بذبح كما فدَى إسماعيل؟!.

إنّك فيما فعلت إمّا مجرم قاتل سفّاح، أو مجنون لا عقل لك، وتريد مع ذلك أن يغيّر الله سنّته التكوينية وأحكامه التشريعية، مراعاة لحماقتك، أو غلطك وفهمك الفاسد عنه.

إنّك لا بدّ أن تتحمّل وِزْر عملك، وعقوبة حماقتك، وثمرة جهلك الذي لا عذر لك فيه.

أمّا ادّعاؤُك بأنّك كنت صادق التوكّل على الله، فهو ادّعاء غير مقبولٍ أصلاً، لأنّ صدق التوكّل على الله لا يكون مع ممارسة أمر حرّم الله عليك ممارسته. والخوارق مفتاحها بيد الله، ولا يجلبها صدق التوكّل عليه، إنّه تعالى لا ينزّلها إلاّ بقَدَر، وحين تقتضي حكمته العالية إنزالها. وفي الأحوال التي يعطي الله فيها رسولاً من رسله مفتاح خارق من الخوارق، فإنّ هذا الرسول لا يملك استخدام هذا المفتاح ما لم يأتِه الإذن الخاصّ باستخدامه، في واقعة معينة، قضت حكمة الله بإجراء هذا الخارق فيها.

٣ـ إنّه ليس من حق المؤمن بالله، العالم أو الجاهل بسنن الله التكوينية، وبما أنزل الله في أحكام التكاليف الدينية التشريعية لعباده؛ ليس من حقِّه أنْ يحمل سلاحه الضعيف ويهجم متوكّلاً على الله، فيقاتل في سبيل الله قوى طاغية كبرى لا يملك أسباب التغلب عليها وفق سنن الله الثابتة، مع زائد المعونة الربّانية المعتادة للمؤمنين الصابرين الصادقين.

فإذا تورَّط وجرّ لنفسه وقومه الدمار والهلاك والفشل والخيبة عتب على ربّه وقال: لماذا لم ينصرنا الله على عدوّنا، وقد قمنا لنصرة

دينه؟!. هل الملاحدة والكافرون والمنافقون خير من الفئة المؤمنة المقاتلة في سبيل الله، حتى ينصرهم الله عليها؟!.

ما أعجب هذا الفهم المجانب للصواب!!.

إنّ الله عزّ وجل ليس مستعدّاً أن يغيّر سننه التكوينيَّة مراعاةً لجهل الجاهل بها، أو أغاليطه ومفاهيمه الباطلة، واجتهاداته المخطئة في فهم النصوص الدينية.

إنّ لله سنناً ثابتة يجب على المؤمنين أن يتقيّدوا بها، ويراعوها، ويتخذوا الأسباب التي تقتضيها وتوجبها، ثم يتوكّلوا على الله، ليمنحهم مزيداً ممّا يحبّون من نتائج.

أمّا الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالطرق السلمية، فهي فريضة على حَمَلة الرسالة الرّبّانية، مَهْما ضعُفت قوة الداعي وعظم طغيان المدعوّ.

ثمّ إذا تعرّض الداعي إلى الله بالأسلوب الذي أمر به الله لأي بلاء أو عذاب، حتى صنوف القتل الشنيع، من أجل دعوته السلميّة فصبر واحتسب، وأعطى كلّ تضحية يملكها؛ كان عمله من أجلّ الأعمال وأعظمها وأفضلها عند الله، وكانت شهادته من أفضل الشهادات لديه عزّ وجلّ.

ولا بدّ أن نكون على بصيرة بأنّ من سنة الله في مثل هذه الحالة أن تنتصر دعوة الداعي الرّبّاني في قلوب الناس، وإن سقط هو شهيداً من أجل دعوته.

وذلك لأنّ عطف الناس على المظلوم يولّد كراهية لظالمه، ثمّ يولّد حقداً عليه، ثمّ كراهية لطريقته ومذهبه، ثمّ التفاتاً جادّاً إلى دعوة المظلوم، وعندئذ فقد تذهب غشاوات كثيفة وعقبات صادّة عن بصائر كثير من الناس، فيؤمنون بدعوة من سقط شهيد دعوته، دون أن يحمل سلاحاً

مادّيّاً على من يدعوه، غير سلاح الفكر والحجّة والبرهان والقول الليّن الحسن.

والأمثلة من التاريخ الكاشفة لسنة الله في ذلك كثيرة:

منها قصة غلام أهل الأخدود، الذي كانت شهادته في سبيل دعوته إلى الإيمان بالله سبباً في إيمان شَعْب الملك الطاغي الظالم، حتى طار صواب الملك، فخدّ أخاديد النار لشعبه، ليرتدوا عمّا آمنوا به، ويعودوا إلى ما كانوا عليه، وسقط الكافر الظالم الطاغي في شرّ عمله.

ومنها قصة المسيح عيسى عليه السلام، فقد كانت محاولة صلبه لإخماد دعوته سبباً في انتشار المسيحيّة على أيدي حواريّيه وأتباعه، في طول الامبراطورية الرومانية وعرضها.

وفي كلّ عصر يقدّم التاريخ لمن يتّعظون به أمثلة على هذه الحقيقة، وهي تدُلّ على سنة الله في هذا المجال.

فهل من مدّكر؟؟.



الفصل الثاني

أدلة قرآنية وشرحها

١ ـ قال الله تعالى في سورة (القمر ٥٤) وهي مكية:

﴿ كـذّبت قبلَهم قومُ نـوحٍ، فكذّبـوا عبدَنـا، وقالـوا: مجنونٌ. وازدُجِر (٩) فدعا ربّه: أنّي مَغْلوبٌ فانتصر (١٠) ففتحنا أبوابَ السماء بماءٍ مُنْهَمِر (١١) وفجّرْنا الأرض عيوناً فالتقى الماءُ على أمْرٍ قَدْ قُدِر (١٢) وحملناهُ على ذاتِ ألواحٍ ودُسُر (١٣) تجـري بأعيننـا جزاءً لِمَنْ كـانَ كُفِر (١٤) ﴾.

وازدُجِر: أي: زُجِر بعُنْفٍ وشدَّةٍ حتّى لا يدعو إلى دين الله، وحتى يكفَّ عن القيام بمهمّات رسالته، والزاجرون له كُبَراء قومه وأصحاب النفوذ والسلطان فيهم.

بماءٍ مُنْهَمِر: أي: منْصَبٌّ من السماء انصباباً كثيراً شديداً.

فالتقى الماء على أمر قد قُدِر: أي: على أمرٍ قد قُضِيَ على قوم نوح، وهو إهلاكهم غرقاً.

وحملناه على ذات ألواح ودُسُر: أي: على الفلك المصنوعـة من ألواح خشبيّة، مثبَّتَةٍ بدُسُر، والدّسُر هي المسامير التي تثبت بها الألواح حين جمع بعضها إلى بعض، وواحد الـدُّسُرِ دِسَـار، مثل: كتـاب وكُتب.

جزاءً لِمَنْ كانَ كُفِر: أي: جزاءً معجَّلاً لنوح عليه السلام الذي كان كُفِرَ من قبل قومه، أي جُحِد وكُذّب.

في هذا النصّ بيان أنّ نوحاً عليه السلام قد أعلن في دعائه لربّه أنّه مغلوب، إذ كانت قوّته لا تكافىء قـوّة أعدائـه بحسب قوانـين الكون السببيَّة، وما كان في مستطاعه أن يجمع ضدّهم قوة مكافئة، لأنّ الذين آمنوا به عدد قليل.

وطلب نوح عليه السلام من ربّه في دعائه هذا أن ينتصر له بخارق خارجٍ عن الأنظمة السببية التي يملكها الناس، فاستجاب الله له، فكان الانتصار بأن أوحى الله له أن يصنع الفلك، حتى إذا أتمّ عمله جاء الله بالطوفان، فأغرق الكافرين، وأنجى الله نوحاً ومن كان معه وما حمل معه من دابّة.

ولم يقل الله عزّ وجلّ لنوح عليه السلام قُمْ بسلاحك الضئيـل، وعددك القليل، فقاتلهم، وإني أنصرك عليهم.

بل أمره بأن يتّخذ لنفسه ولمن معه وسيلة النجـاة، وأعلمه بـأنه سيتولّى إهلاكهم بالخارق، وقال له: إنهم مُغْرَقون.

وكان في مقدور الله أنْ ينصره عليهم لو قاتلهم وحده، أو مع الثلّة القليلة التي آمنت به. ولكن لم يشأ الله ذلك، لئلا يظنّ الدعاة إلى الله من بعد نوح أنّ مثل هذا العدد الذي كان مع نوح عليه السلام كافٍ لمواجهة أمّة كافرة. ذات أعداد وافرة.

وقد قصَّ الله على رسوله محمد ﷺ قصة نوح هذه، بعد أن قال له في السورة نفسها بشأن مشركي مكّة: ﴿ فتولّ عنهم ﴾ أي: أعرض عن مقارعتهم ومجابهتم واصبر عليهم، مع المثابرة على دعوتهم.

* * *

٢ ـ ثمّ أنزل الله تعالى على رسوله قوله في سورة (الأعراف ٧) وهي مكية:

﴿ وأوحينـا إلى مـوسى أن ألقِ عصـاك فـإذا هي تَلْقَفُ مـا يأفكون (١١٧) فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملـون (١١٨) فغُلبوا هنالك

وانقلبوا صاغرين (١١٩) وأُلقي السحرة ساجدين (١٢٠) قالوا: آمنا بربِّ العالمين (١٢١) ربِّ موسىٰ وهارون (١٢٢) ﴾.

فبيّن الله لرسوله في هذا النصّ لوناً من ألوان انتصار الحقّ على الباطل، وهو الانتصار بالتفوّق المعنوي.

لقد انتصرت معجزة موسى على سحر سَحَرة فرعون، وكان هذا هو النصر الأوّل في هذه المباراة.

ولمّا آمن سَحَرة فرعون بربِّ موسى وهارون كان إيمانهم هو النصر الثاني لموسى على فرعون وملئه، إذْ تحوّلت أداة فرعون التي كان يباري بها، فصارت أداة لموسى خصمه الذي يباريه، وذلك حين أعلن السَّحَرة أنهم آمنوا بربِّ العالمين ربِّ موسى وهارون.

ولقد كانت هذه الهزيمة الثانية أشدّ على فرعون من هزيمة سحر سَحَرته أمام معجزة العصا.

* * *

٣ ـ ثمّ أنزل الله تعالى على رسوله بشأن موسى قوله في سورة (القصص ٢٨) وهي مكية:

﴿ قال: سنشدُّ عضدَك بأخيك، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتِنا. أنتما ومن اتبعكما الغالبون (٣٥) ﴾.

فأبان الله عزّ وجل لرسوله محمد ﷺ في هذا النصّ أنه وعد موسى وهارون عليهما السلام بأنه سيجعل لهما سلطاناً من المعجزة، تكون لهما به الحماية من فرعون وجنوده.

إنَّ قول الله تعالى لهما: ﴿ فلا يصلون إليكما بآياتنا ﴾ يفيد أن حمايتهما ستكون بآيات الله (أي: بأمور ربّانية يتولّاها الله) لا بقواهما السببيّة الخاضعة للسُّنن الكونية الثابتة.

أمّا قول الله تعالى لهما: ﴿ أنتما ومن اتَّبعكما الغالبون ﴾ فقد جاء

بيان الغلبة المرادة في هذا الوعد الربّاني، بنجاة موسى وقومه، وبإهلاك فرعون وجنوده، وقد كان ذلك بمعجزة انفلاق البحر لموسى وقومه، وانضمامه على فرعون وجنوده.

ولم يأمر الله موسى وقومه يومئذٍ بقتال فرعون وجنوده، لأن وسائلهم السببيّة لم تكن كافية بحسب العادة مع زائد المعونة الربّانية المعتادة للمؤمنين، لمواجهة جيش فرعون وقواه المادّية وأسبابه وآلاته الحربية. كما أنّ قوم موسى لم يكونوا مؤهَّلين نفسيّاً ولا جسديّاً لمثل هذه المواجهة، فهم لم يتدرّبوا منذ أجيالٍ على القتال، بل وصلوا إلى حالة عاشوا بها في مصر مكبّلين بالذلّة والصَّغار.

* * *

٤ ـ ثمّ أنزل الله تعالى على رسوله في أواسط العهد المكي قوله في سورة (الصافات ٣٧):

﴿ ولقد منّنا على موسى وهارون (١١٤) ونجّيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦) ﴾.

فأبان هذا النصّ أنّ ما كان وعداً كما قد جاء في آية القصص، قد صار بعد ذلك حقيقة واقعة.

وسمّاه الله عزّ وجلّ نصراً، ووصف موسى وهارون وقومهما بأنهم كانوا هم الغالبين، مع أنّ النجاة وإهلاك فرعون وجنوده، قد كان كلّ ذلك بالمعجزة الخارقة، ولم يكن من قوم موسى إلاّ أن خرجوا معه فارّين من مصر، ومتوجِّهين شطر البحر، ولم يكن من موسى عليه السلام إلاّ أن ضرب البحر بعصاه كما أمره الله.

* * *

٥ ـ وفي سورة (الصافات ٣٧) أيضاً أنزل الله على رسوله قوله:

﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسَلين (١٧١) إنّهم لَهُمُ

المنصورون (١٧٢) وإنّ جندَنـا لَهُمُ الغالبـون (١٧٣) فتولَّ عنهم حتى حين (١٧٤) وأبصرهم فسوف يُبْصرون (١٧٥) ﴾.

فبعد الأمثلة التاريخية التي قدّمها الله فيما سبق من تنزيل، والتي أبان لرسوله فيها كيف نصر نوحاً وموسى وهارون عليهم السلام بالآيات من عنده، ذكر الله لرسوله محمد ﷺ في هذا النصّ أنّ الأمثلة التاريخية التي سبق بيانها إنما هي أمثلة لسنة ثابتة، سبقت بها كلمة الله لعباده المرسلين.

أي: وأنت يا محمد واحد منهم، فأنت إذن منصور بنصر من عند الله لا ريب في ذلك.

ومن بنود هذه السُّنَّة الثابتة أمرٌ آخر يتناول جميع جند الله ولو لم يكونوا رسلاً، وقد سبقت بها كلمة الله، ونصّ القرار الرّبّاني فيها هو:

﴿ وإنّ جندنا لَهُمُ الغالبون ﴾.

ولكن يشترط فيهم أن يكونوا حقّاً جنداً لله عزّ وجل، والمفروض في جند الله أن يكونوا أداة تنفيذ مطيعة، لا أن يكونوا أصحاب أهواء، يُمْلُون إرادتهم الخاصّة دون تقيّد بمنهج الله، أو ينطلقون وفق أهوائهم على خلاف أوامر الله ونواهيه، وعلى خلاف المنهج الذي رسمه لهم.

وبعد بيان هذه السُّنّة الثابتة من سنن الله، صَـرف الله رسوله عن التفكير بمواجهة أعداء دعوة الحقّ مواجهة مسلّحة، فقال له:

﴿ فتولّ عنهم حتى حين ﴾.

أي: لا تقاتلهم، مع استمرارك في دعوتك إلى الله على منهاجها.

﴿ وأبْصرهُمْ فَسَوفَ يُبصرون ﴾.

أي: وليكن بصرُك متابعاً لهم، مراقباً لأعمالهم وتحرّكاتهم، ومـا يدبّرون ويخطّطون، فليس المراد من التولّي إغفال أمـرهم، والغفلة عمّا يكيدون، بل المراد عدم مواجهتهم بالقتال، والصبر على أذاهم.

فسوف يبصرون بعد حين من الدهر نتيجة صبرك عليهم، وكيف أنّ الله يُهيّىء لك من التأييد والنصر ما لم يكن بحسبانهم، وكيف ينزل بهم ممّا يكرهون ما لو عرفوه حقّاً منذ الآن لأسرعوا إلى الإيمان بك، وإلى اتِّباعك.

* * *

٦ ـ ثمّ أنزل الله على رسوله في أوائل العهد المدني في سورة (البقرة ٢) آيات الأمر بالقتال، فقال تعالى فيها:

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المعتدين (١٩٠) واقتلوهم حيث ثَقِفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل. ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم، كذلك جزاء الكافرين (١٩١) فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم (١٩٢) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة. ويكون الدين لله. فإنْ انتهوا فلا عدوان إلاّ على الظالمين (١٩٣) الشهر الحَرامُ بالشهر الحرام، والحرماتُ قِصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتَّقين (١٩٤) وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين (١٩٥) ﴾.

وقال الله تعالى فيها أيضاً:

﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أنّ الله سميع عليم (٢٤٤) من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة. والله يقبضُ ويبسُط وإليه تُرجعون (٢٤٥) ﴾.

ففي هٰذين النَّصّين من سورة (البقرة) ـ أوّل سورة مدنية ـ أمرٌ للذين آمنوا بأن يقاتلوا الذين يقاتلونهم، دون أن يعتدوا بتجاوز الحدود التي حدّها الله لهم، وبأن يقتلوهم حيث وجدوهم.

وكان المعنيّ بهؤلاء الذين يقاتلون المؤمنين مشركي مكة، لأنهم هم الذين أخرجوا الذين آمنوا من ديارهم وبلدهم، وهم الذين فتنوا المؤمنين

عن دينهم ليردّوهم كفّاراً بعد إيمانهم، فمن قـول الله تعالى في النصّ الأول:

﴿ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل ﴾.

عُلم أنّ مشركي مكة هم المعنيّون.

ونلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ قد أمر الذين آمنوا بقتال الذين ظلموهم وأخرجوهم من بلدهم، واتخذوا الوسائل لفتنتهم عن دينهم، بعد أن تكوّن للمسلمين في المدينة دولة وقاعدة قتالية.

ونلاحظ في النصّين معاً التوجيه إلى إعداد العدّة للقتال، ومعلوم أنّ أوّل شروط هذا الإعداد هو الإنفاق المالي، فالمقاتل لا يستطيع أنْ يقاتل من غير أعتدة حربية وتموين، وهذه لا بدّ لها من مال، والمال لا يأتي في حالة السّلم إلاّ بإنفاق الأمّة التي تُعدّ أنفسها لقتال أعدائها، وإذا دخلت الحرب دون إعداد ما يلزم لها من أعتدة وتموين كان ذلك ارتماءً بجهالة وغباءٍ إلى التهلكة، ولذلك نجد في النصّ الأول قول الله تعالى:

﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلْقوا بأيديكم إلى التهلكة، وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين﴾.

ونجد في النصّ الثاني عقب الأمر بالقتال مباشرةً قول الله تعالى:

﴿ مَنْ ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة، والله يقبض ويبسط وإليه تُرجعون ﴾.

وعقب ذلك ضرب الله مثلاً تاريخيّاً من أمثلة النّصر عن طريق قتال المؤمنين لأعدائهم، وكيف حقّق الله الغَلَبة للفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة، فقال تعالى في سورة (البقرة ٢) نفسها:

﴿ أَلَمْ ترَ إلى الملأ من بني إسرائيلَ من بعد موسى، إذْ قالوا لنبيٍّ لهم: ابعثْ لنا مَلِكاً نقاتلْ في سبيل الله. قال: هل عسيتُم إنْ كُتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا؟. قالوا: وما لنا ألاّ نقاتلَ في سبيل الله وقد

أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا. فلمّا كُتب عليهم القتالُ تولَّوْا إلاَّ قليلاً منهم، والله عليم بالظّالمين (٢٤٦) وقال لهم نبيُّهم: إنّ الله قد بعثَ لكُمْ طَالوتَ مَلِكاً، قالوا: أنَّى يكون له الملكُ علينا ونحن أحقُّ بالملك منه ولم يُؤتَ سَعَةً من المال. قال: إنّ الله اصطفاه عليكم، وزاده بَسْطَةً في العلم والجسم، والله يُؤتي مُلكَهُ منْ يشاء والله واسعٌ عليمٌ (٢٤٧) وقال لهم نبيّهم: إنّ آية ملكه أنْ يأتيكم التابوتُ فيه سكينةٌ من ربّكم، وبقيةٌ ممّا ترك آل موسى وآل هارون، تحمله الملائكة. إنّ في ذلك لآية لكم إنْ كنتم مؤمنين (٢٤٨) فلمّا فَصَل طالوت بالجنود قال: إنّ الله مبتلِيَكم بنَهَر، فمن شرب منه فليس منّي، ومن لم يَطْعَمْه فإنّه مني إلاّ من اغترف غُرفةً بيده، فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم، فلمّا جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوتَ وجنوده. قال الذين يظنون أنّهم ملاقو الله: كم من فئة قليلة غلبت فئةً كثيرة بإذن الله واللهُ مع الصابرين (٢٤٩) ولمّا برزوا لجالوتَ وجنوده قالوا: ربّنا أفرغ علينا صبراً وثبّتْ أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين (٢٥٠) فهزموهم بإذن الله، وقتل داودُ جالوتَ وآتاه الله الملك والحكمة، وعلّمه ممّا يشاء، ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكنّ الله ذو فضل على العالمين (٢٥١) ﴾.

في هذا المثل التاريخي إعداد نفسي وحَرَكي للرسول وللمسلمين لظروف حرب قادمة تُعِد لها القيادة الإسلامية، ويُعدّ المسلمون أنفسهم لها، فمرحلة الإعراض عن مواجهة أعداء الرسالة والصبر على أذاهم قد انتهت، وجاء دور المواجهة، والبدءِ بمقاتلة الذين يقاتلون المؤمنين منهم.

وفي هذا المثل التاريخي بيان انتصار الصَّفْوة المنتقاة من جماهير بني إسرائيل بقيادة «طالوت» الذي بعثه الله ملكاً عليهم، على «جالوت» وجنوده.

وهذا المثل قد اشتمل على أنّ جند الله من بني إسرائيل يومئذٍ قد توافرت لهم الشروط الكافية لتحقيق الانتصار، وذلك ضمن سنة الله الكونية المؤيّدة بمعونة الله المعتادة للمؤمنين.

فبنو إسرائيل قد وجدوا من أنفسهم في ذلك الحين القدرة على مواجهة أعدائهم، حتى قال الملأ منهم لنبيٍّ لهم: «ابعث لنا ملكاً نقاتلْ في سبيل الله».

فناقشهم نبيّهم في هذا الطلب، وقال لهم: «هل عسيتم إنْ كُتب عليكم القتال ألّا تقاتلوا؟!».

فأجابوا بأنّ لديهم من الدوافع النفسية ما ينفخ فيهم الحميّة ويثيرُ فيهم الحماسة إلى قتال أعدائهم. فقالوا:

«وما لنا ألّا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا؟!».

لكنّ هذا الكلام من رؤسائهم، وأعيانهم لم يكن له في واقع حال جماهيرهم الكثيرة إلّا نصيب قليل، فأكثرهم ظالمون، ولذلك:

«فلمّا كُتب عليهم القتال تولّوا إلّا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين».

وقد استجاب الله لطلب الملأ منهم، فاختار لهم ملكاً عليهم، من أقلّ أسباطهم مكانة اجتماعية فيهم، وهو «طالوت».

فاعترضوا على هذا الاختيار، وقالوا:

«أنّى يكون له الملكُ علينا ونحن أحقُّ بالملك منه، ولم يؤت سَعَةً من المال؟!».

فأجابهم نبيُّهم:

﴿ قال: إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطه في العلم والجسم، والله يؤتي ملكه من يشاء، والله واسع عليم ﴾.

وكانوا بحاجة نفسيّة إلى آية فوق بلاغ نبيهم لهم، وهذه الآية تثبت لهم أنّ الله قد اختار لهم «طالوت» ملكاً عليهم، فقدّم لهم نبيّهم آية ملكه، وهي مجيء تابوتهم المفقود، تحمله الملائكة لهم. عندئذٍ أقرّوا بملكه.

وخرج طالوت بالجنود من بني إسرائيل، ولكن رأى أن أكثرهم ليسوا مستعدِّين للقتال حقّاً. ورأى أن وجود هؤلاء في جيشه مثبّط، وربّما يسبّب الهزيمة لكل الجيش إذا انهزموا أو اضطربوا، أو تخلخلت بهم الصفوف، فأراد أن يختبرهم ويصطفي منهم من يمكن أن يصدق القتال حقّاً، إذا حصلت المواجهة بينهم وبين جالوت الجبّار، وجنوده الأشدّاء:

﴿ فلما فَصَل طالوت بالجنود ﴾.

فما أن اتجه بهم شطر عدوهم، ومضى بهم في الطريق، حتى علم أنهم قد اشتدّ بهم الظّمأ:

﴿ قال: إنّ الله مبتليكم بنَهَر، فمن شرب منه فليس مني ومن لم يَطْعَمْه فإنّه مني، إلاّ من اغترف غَرْفة بيده ﴾.

فسقط أكثرهم في هذا الامتحان الذي هو أقلّ من مواجهة العدوّ بالقتال، إنّه الصبر على الظمأ فقط:

﴿ فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم ﴾.

فلم يأخذ منهم معه إلى الحرب إلاّ الذين نجحوا في هذا الامتحان، وكانوا بالنسبة إلى عدوّهم عدداً غير كثير.

فلما جاوز طالوت النهر هو والذين اصطفاهم من المؤمنين الصادقين، نظر هؤلاء في عددهم وعدد عدوهم، فرأوا أنهم لا يكافئون قوة جالوت الجبّار، وجنوده معه، فقالت الكثرة منهم لملكهم طالوت:

﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾.

وكان في هذا الجيش المنتقىٰ ثُلّة هم صفوة الصفوة، وكان هؤلاء حريصين على الاستشهاد في سبيل الله، ويظنّون أن مناياهم قد قربت عن طريق الشهادة، فهم ملاقو ربِّهم وشيكاً، وهم مشوقون إلى هذا اللّقاء، ومتحمِّسون له، فقالوا لإخوانهم مطمئنين:

﴿ كم من فئـة قليلة غلبت فئة كثيـرة بـإذن الله، والله مـع الصابرين ﴾.

لقد كانت الموازنة في أذهان معظم جيش طالوت المنتقَىٰ قائمة على حساب القوى المادّية فقط.

لكنّ صفوة الصفوة أضافت إلى ذلك القوة المعنوية لجيش الإيمان، وأضافت أيضاً المعونة الربّانية المعتادة في سنَّة الله لجنوده المؤمنين، لا سيما أن مسيرتهم مصحوبة بنبيّ، وموجهة بأمر إلٰهيّ. ومع ذلك فلم تُدخل صفوة الصفوة هـذه في عملية الحسـاب النصرَ بخـارق غيبي، بدليـل استشهادهم بأمثلة من تاريخ الجيوش المؤمنة، إذ قالوا: ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرةً بإذن الله، والله مع الصابرين ﴾.

ونبَّهوا على سلاح الصبر في القتال بقولهم: ﴿ والله مع الصابرِين ﴾.

واطمأنّ الجيش، واستعدّ للمواجهة بكلّ احتمالاتها:

﴿ ولمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا: ربَّنا أفرغْ علينا صبراً، وثبّت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين.

فهزموهم بإذن الله، وقتل داود جالوت، وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه مما يشاء ﴾.

وكان «داود» عليه السلام أحد جُندِ طالوت. ويبين الله الحكمة من تكليف المؤمنين قتال الكافرين، بعد استيفائهم الشروط اللازمة لتحقيق النصر بإذن الله، فيقول الله تعالى:

﴿ ولولا دَفْع اللهِ الناسَ بعضَهم ببعض لفسدت الأرض، ولكنّ الله ذو فضل على العالمين ﴾.

وهكذا نلاحظ أنَّه قد نزل الأمر بالقتال، ثم أُتبع ببيان هذا المثل التاريخي، تمهيداً لأحداث غزوة بدر الكبرى.

* * *

٧ ـ وفي سورة (الأنفال ٨) ثاني سورة مدنية نزلت نلاحظ ما يلي:

أ ـ اهتمت بتسجيل ما تدعو العظة التاريخية والحكمة التربوية لتسجيله من أحداث غزوة بدر المظفَّرة.

ب ـ فصّلت عناصر كثيرة تتعلّق بموضوع الجهاد في سبيل الله بالقتال.

جـ ـ أبان الله فيها أنّ الكافرين مغلوبون في النهاية، إنّهم ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله، فسينفقونها، ثمّ تكون عليهم حسرة، ثمّ يُغلبون، لأنّ المؤمنين بقيادة الرسول ﷺ قد كانوا على المستوى الذي يؤهلهم للانتصار الكلّي على الذين كفروا، فقال الله تعالى في هذه السورة:

﴿ إنّ الذين كفروا يُنفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله، فسينفقونها، ثم تكون عليهم حَسْرةً، ثم يُغلَبون، والذين كفروا إلى جهنّم يحشرون (٣٦) ﴾.

ولكن قد يتوهّم المؤمنون أنّ نصر الله لهم حينما يقاتلون أعداءهم إنما يكون بالآيات والخوارق والمعجزات، فيبطّئهم ذلك عن الاستعداد الكامل لمواجهة أعدائهم، وفق السنن الكونية الثابتة، فعرض الله عليهم في السورة نفسها أن يُعدّوا كُلّ ما يستطيعون من قُوّة، فقال الله تعالى فيها:

﴿ ولا يحسَبنّ الذين كفروا سَبَقوا؛ إنَّهم لا يُعجزون (٥٩) وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة، ومن رباط الخيل، تُرهبون به عدوَّ اللهِ وعدوَّكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم. الله يعلمهم، وما تُنفقوا من شيء في سبيل الله يُوَفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون (٦٠) ﴾.

فالإعداد المطلوب من المؤمنين يجب أن يصل إلى المستوى الذي يرهب الأعداء الظاهرين فعلاً، فيلقي الرعب في قلوبهم، ويجعلهم يضعفون عن مواجهة جيش المؤمنين.

بل ينبغي أن يزيد الإعداد على ذلك حتى يرهب آخرين من دون

الأعداء الظاهرين، وهؤلاء الآخرون لم يتصدَّوْا بعدُ لإعلان عداوتهم للمؤمنين.

وليُعطي هذا الإلزام بإعداد المستطاع من القوة معنى الاجتهاد الكبير حتى يكون المؤمنون متفوّقين وسابقين على أعدائهم بوسائلهم المادّية، جاءت آيته عقب قول الله تعالى عن الكافرين:

﴿ ولا يحسبَنّ الذين كفروا سَبَقوا؛ إنّهم لا يعجزون ﴾.

ففي هذا تنبيه ضمني إلى أنّ سبق الكافرين الحالي بوسائلهم ليس مشكلة أمام عزم المؤمنين وتصميمهم، إذْ باستطاعة المؤمنين أن يبدؤوا الإعداد منذ الآن، ويصبروا ويتريَّثوا حتى يكون لهم السبق بهذه الوسائل.

فالسبق الحالي للأعداء ليس من شأنه أن يقعد المؤمنين أصحاب الهمم، أو يعجزهم، إنّ الزمن طويل، والمعركة مستمرّة، ومع الصبر والتريّث والإعداد بدأب تنقلب موازين القوى، فيكون السَّبْق للمؤمنين، وعندئذٍ يظهر أنّ الكافرين لا يعجزون.

إنّ السابق الآن ليس من المستبعد أن يصير مسبوقاً بعد حين، وإن المسبوق الآن ليس من المستبعد أن يصير سابقاً بعد حين. ولكنّ الشرط في ذلك هو الإعداد المستمرّ بدأب لتحقيق السبق المرهب.

ولبيان أنّ إعداد القوة لا يتمّ إلاّ بالإنفاق المالي، قال الله عزّ وجلّ في آية الإعداد نفسها:

﴿ وما تُنفقوا من شيءٍ في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾.

ولئلاّ يتوهّم المؤمنون توهّماً باطلاً يرون فيه أن إعداد المستطاع من القوّة الذي يتحقق به نصر المؤمنين على الكافرين بوعد من الله جازم، يكفي فيه أنّ أيّة ثُلّةٍ مؤمنة تُعِدُّ مستطاعها من القوة، وتواجه الذين كفروا مهما كانت أعدادهم وقواهم، فإنّ الله ينصرهم عليهم لا محالة ـ أنزل الله

في سورة (الأنفال ٨) نفسها، بعد آية الأمر بالإعداد بياناً لِنِسَب التكافؤ بين المؤمنين والكافرين، حتى يتحقّق الانتصار الموعود به. ملاحظاً في هذه النِّسَب مقادير القوة المعنوية لدى المؤمنين، ومقدار المعونة الربّانية لهم التي جرت بها سنّته المعتادة، دون إدخال الخوارق والمعجزات الغيبية في ذلك.

إنّ هذه النسبة تتراوح بين مقدارين أعلى وأدنى:

المقدار الأعلى: أن تكون أسباب الكافرين المادّية عشرة أضعاف أسباب المؤمنين.

المقدار الأدنى: أن تكون أسباب الكافرين المادّية ضعف أسباب المؤمنين.

فحين يكون جيش المؤمنين من النُّخبة المؤمنة الصفوة أمثال العشرة المبشَّرين بالجنة، فالعشرون الصابرون منهم يغلبون مئتين بإذن الله، هذا وعد من الله، والله لا يخلف الميعاد، وقد ينصرهم الله على أكثر من هذه النسبة، لكنه ليس وعداً متحتِّم الوقوع، فقد يحدث في بعض الأحوال، إنقاذاً لجنُود الدعوة الأوائل الذين لا رديف لهم، أو لحكمة أخرى يعلمها الله.

وحين يكون جيش المؤمنين أخلاطاً، فيه الصَّفْوة، وفيه آخرون كثيرون من مستويات إيمانية مختلفة، فالمئة الصابرة يغلبون مئتين، والألف الصابرون يغلبون ألفَيْن من الذين كفروا. هذا وعد من الله، والله لا يخلف الميعاد، أمّا ما زاد على الضعف والحالة هذه فلم يقترن بالوعد بالنصر، فإن حصل فهو فضل من الله، ولكنّ القيادة الإسلامية قد لا يُسمح لها بأن تتورّط بمواجهة عسكرية تتضاءل فيها احتمالات النصر، ولا تحقق فيها للإسلام أو للمسلمين مكاسب معتبرة والحالة كذلك.

وبين النسبتين العليا والدنيا تأتي درجات على مقدار ازدياد نسبة أصحاب الوزن الإيماني الثقيل في جيش المسلمين.

وللقيادة الإسلامية أن تحدّد هذه الدرجة بالنظر إلى خبرتها بأفراد جيشها.

وفي بيان النسبتين العليا والدنيا قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يا أيها النبيّ حرّض المؤمنين على القتال. إنْ يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين، وإنْ يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا، بأنّهم قوم لا يفقهون (٦٥) ﴾.

الآن خفف الله عنكم، وعلم أنّ فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين (٦٦) ﴾.

لقد نزلت الآية الأولى من هذا النصّ، ثم بعد مدّة غير طويلة نزلت الآية الثانية منه، إشعاراً بأن المجتمع الإسلامي يندر أن يكون كلّه صفوة يعادل الواحد منهم عشرة أمثاله، ولكن لا يصح أن تنزل واقعيته مهما نزلت عن مستوى مكافأة جيش المسلمين لضعفهم.

ويدلّ قوله تعالى: ﴿ الآن خفّف الله عنكم ﴾ على أنّ المسلمين يجب عليهم أن يصبروا لضعف قوتهم العسكريّة، وأنّ الله سينصرهم إذا صدقوا وصبروا.

لكن ليس من حقّهم أن يتورطوا في مواجهة أضعافهم وحالتهم كذلك، ثمّ يطالبوا الله بتحقيق النصْر لهم، فإذا لم ينصرهم عتبوا على ربّهم، أو شكّوا في حكمته.

هذه هي سنة الله التي ليس من حقّ المؤمنين أن يعاندوها.

* * *

٨ ـ ثم أنزل الله تعالى قوله في سورة (آل عمران ٣) ثالث سورة مدنية نزلت:

﴿ قل للذين كفروا: ستُغلبون وتُحْشَرون إلى جهنّم وبئس

المهاد (١٢) قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا: فئةٌ تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة، يرونهم مثلَيْهم رأيَ العين، والله يؤيّد بنصره من يشاء. إنّ في ذلك لعبرة لأولى الأبصار (١٣) ﴾.

أي: قد كان لهم آية في فئتين التقتا متقاتلتين:

أ ـ فئة مؤمنه تقاتل في سبيل الله.

ب ـ وأخرى كافرة تقاتل في غير سبيل الله. كالطاغوت، وأهواء أنفسها، أو كِبْراً وبَطَراً ورئاء الناس.

لقد أوعد الله الذين كفروا قبل ذلك في سورة (الأنفال ٨) كما سبق بيانه، بأنهم سيُغلبون ويحشرون إلى جهنَّم، وكان ذلك عقب غزوة بدر الكبرى.

وهنا في سورة (آل عمران) يأمر الله رسوله بأن يكرّر على أسماع الذين كفروا مضمون ما كان أنزله سبحانه في سورة (الأنفال) من أنهم سيغلبون ويحشرون إلى جهنم. وسورة (آل عمران ٣) قد جاء فيها تفصيل أحداث غزوة أحد.

وذكر أهل التأويل أنّ هذا النصّ منها نزل في الذين كفروا من اليهود، جواباً على تحدّياتهم للرسول ﷺ والذين آمنوا معه. وأرى أنّـه يشمل في مضمونه كلّ الذين كفروا، وقد أثبت الواقع بعد حـين كلّ ذلك.

وضرب الله للذين كفروا مثلاً قريباً من أمثلة سنة الله في تأييده الذين آمنوا وصبروا وصدَّقوا بنصره، وهو مثل انتصار المؤمنين في بدر الكبرى على مشركي قريش، وقد كان المؤمنون (٣١٣) مقاتلاً أو نحو ذلك، والمشركون ما بين التسعمئة والألف. ولكنّ الله قلَّلهم في أعين المؤمنين حتى لم يـزيدوا في نـظرهم عن مثلَيْهم، ليضاعف ذلـك من بأس المؤمنـين وشجاعتهم، وثقتهم بتحقيق النصر، فالمؤمنون في أدنى الحدود مستعدّون

لمواجهة ضعفهم من الذين كفروا، وموعودون بالنصر عليهم، إذا التزموا في قتالهم بمنهج الله لهم، وبعد أنّ ضرب الله هذا المثل قال:
﴿ إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار ﴾.

أي: إنّ في ذلك الذي جرى في بدر لعبرةً يعتبر بها أولوا الأبصار.

إنّها حادثة من حوادث التاريخ قدّمت مثلًا، والأمثلة لا تصلح لأنْ تكون عبرة ما لم تكن نموذجاً لقاعدة عامّة، أو سنّة ثابتة من سنن الله في كونه، ولمّا كانت هذه الحادثة من هذا القبيل صحّ أن تكون عبرة.

فما جرى في بدر إذن منسجم مع سنة الله المعتادة في نصر المؤمنين الصابرين على الذين كفروا.

ولئلّا يترك المؤمنون مع اتخاذ الأسباب واجبَ التوكّل على الله، والثقة به، وبأنّ بيده النّصر، أنزل الله في سورة (آل عمران ٣) قوله خطاباً للمؤمنين:
﴿ إنْ ينصركم الله فلا غالب لكم. وإنْ يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون (١٦٠) ﴾.

* * *

٩ ـ ثمّ أنزل الله تعالى قوله في سورة (النساء ٤):
﴿ فليقاتلْ في سبيل الله الذين يَشْرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتِلْ في سبيل الله فيُقْتَلْ أو يَغْلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً (٧٤) ﴾.

ففي هذه الآية بيان لعنصر مهمّ من العناصر التي يجب على الجندي المسلم المقاتل أنْ لا يفرّط فيها، إنّه عنصر القتال حتى النّصر أو الشهادة (فيُقتلْ أو يَغْلِب).
هذه هي القاعدة بالنسبة إلى الجندي المسلم، إمّا أن يَغْلِبَ أو يُقْتَلَ بين الكرّ والفرّ، أمّا الانهزام فهو احتمال غير وارد أصلاً.

أمّا بالنسبة إلى الجيش الذي يتحرّك بأوامر قيادته، فهو مطيع لما تأمر

به القيادة، حتى لو أمرت بالانسحاب كان عليه ذلك.

وواجب القيادة الإسلامية في هذه الحالة النظر في مقتضيات الخطط العسكرية التي تمليها ظروف المعركة.

فإن رأت أنّ الثبات مقرون باحتمال النصر أو السلامة بصفة راجحة أمرت بالثبات وبالصبر.

وإن رأت أنّ الانسحاب هو الأسلم، لأنّ احتمال النصر ضعيف، واحتمال الهزيمة هو الراجح مع ما فيها من خسارة فادحة، أو لأنّ الخسارة ستكون فادحة جدّاً لا يصح أن تُقدَّم ثمناً لما يجلبه النصر في المعركة القائمة، فإنّ عليها أن تقرّر الانسحاب الذي هو من أساليب القتال، فالقتال كرٌّ وفرّ.

* * *

١٠ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (محمد ٤٧) بياناً كشف به الغاية من وجوب اتخاذ الأسباب القتاليّة، لتحقيق انتصار المؤمنين على الذين كفروا.

إنّها غاية امتحان المؤمنين بالكافرين في حركة الدعوة إلى الله، وإقامة العدل، وقمع الظلم والطغيان.

فغاية الامتحان في ظروف الحياة الدنيا تستلزم ذلك، ولو يشاء الله لانتصر من الكافرين بأقلّ من طرفة عين، ولَمَا احتاج لجيوش المؤمنين حتى تقاتل في سبيله، ولكن ذلك يلغي حكمة ابتلاءِ الذين آمنوا ليكشف مستويات الصادقين منهم، والذين هم دون ذلك، وليمحّصهم، وليميِّز المؤمنين من المنافقين، وليسجّل أيُّهم كان أحسن عملاً.

قال الله تعالى في سورة (محمد ٤٧):

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضَرْبَ الرقاب. حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق، فإمّا منّاً بعدُ وإمّا فداءً، حتّى تضع الحرب أوزارها. ذلك

ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلُوَ بعضكم ببعض، والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضِلّ أعمالهم (٤) سيهديهم ويُصلح بالهم (٥) ويدخلُهم الجنّة عرّفها لهم (٦) يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصُروا الله ينصرْكم ويثبّتْ أقدامكم (٧) والذين كفروا فتَعْساً لهم، وأضلّ أعمالهم (٨) ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم (٩) ﴾.

* * *

١١ ـ ثم أنزل الله قوله في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿ إنّ الذين يحادّون الله ورسوله أولئك في الأذلّين (٢٠) كتب الله: لأغلبَنّ أنا ورسلي إنّ الله قوي عزيز (٢١) ﴾.

فأبان الله في هذا النصّ أنّ الغلبة له ولرسله على الذين يحادّون الله ورسوله، وهذا كتاب قضاه الله، فهو سُنَّة من سنن الله الثابتة.

وهذه الغلبة تكون على وجهين:

أ ـ فهي إمّا أن تكون بظهور الحقّ على الباطل ظهوراً فكريّاً بالحجّة والبرهان، أو بالتجربة العلميّة، وممارسات الحياة التي تكشف أنّ ما جاء من عند الله وبلّغه رسل الله حقٌّ وصدق، وفيه نفع وسعادة للناس.

ب ـ وإمّا أن تكون بظهور الحقّ على الباطل ظهوراً فكريّاً وعسكريّاً معاً، فيكون لحملة رسالة الله في الأرض الظهور والفتح المبين، والسلطان والتمكين.

ولكنّ لهذا الظهور البشريّ لحملة رسالة الله شروطاً، إذا تحققت في أنفسهم أيّدهم الله بنصْره، فمكّنهم في الأرض، وجعل لهم سلطاناً قويّاً.

ومن هذه الشروط أن لا يوادّوا من حادّ الله ورسوله، كما جاء بعد هذا النصّ من سورة (المجادلة ٥٨) نفسها، وهو قول الله تعالى:

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بـالله واليوم الآخـر يوادّون من حـادّ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم، أو أبناءهم، أو إخوانهم، أو عشيرتهم. أولئك كتب في قلوبهم الإيمان، وأيّدهم بروحٍ منه، ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. رضي الله عنهم ورضوا عنه. أولئك حزب الله. ألاَ إنّ حِزب الله هم المفلحون (٢٢) ﴾.

* * *

١٢ ـ ثمّ أنزل الله في أواخر العهد المدني قوله تعالى في سورة (المائدة ٥):

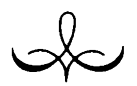
﴿ ومن يتـولّ اللهَ ورسولَـه والذين آمنـوا فـإنّ حـزب الله هم الغالبون (٥٦) ﴾.

فأبان هذا النصّ أنّ حزب الله هم الغالبون، فقرار هذه السُّنَّة الربّانية قرار غير منسوخ، إنّه من أواخر ما نزل من القرآن.

ولكن يشترط أن يكون المسلمون المؤمنون حزب الله حقّاً.

وحزب الله هو الذي يتقيّد بأحكام شريعته لعباده، وبأحكام سنن الله التكوينية التي نظّم بها كونه، وربط فيها النتائج بأسبابها، ويكون مع ذلك صادق الإيمان، صادق التوكّل على الله والثقة به، ملتزماً بالشروط التي بيّنها الله لتحقيق النصر، في حالتي السلم والحرب.

ويكون أيضاً على يقين تامّ بأنّ اتخاذ الأسباب إنّما يُحقق الطاعة لله تعالى، وأنّ الله من وراء الأسباب هو الذي يقضي بما يحبّ المؤمنون من تأييد ونصرٍ وتمكين، وسلطان في الأرض مبين.



الفصل الثالث

وُجُوهُ النَّصرِ وَأدِلَّتُه

(١)

وجوه النصر

يخطىء كثيراً من يتصوّر أو يظنّ أنّ النّصر ليس له إلاّ صورة الانتصار العسكري في معارك حربية، أو الانتصار السياسي في معارك انتخابية، أو نحو ذلك.

بل النَّصر له وجوه كثيرة أحدها الانتصار في معارك قتاليَّة، وباستطاعتنا أن نذكر من وجوه النصر الربّاني لأوليائه على أعدائه الوجوه التالية:

أ ـ النصر بغلبة الحجّة والبرهان، كانتصار إبراهيم عليه السلام بحجّته على قومه.

ب ـ النصر بظهور الحقِّ على الباطل، واعتراف أنصار الباطل في نفوسهم بأنهم مبطلون، وبأن خصومهم الدعاة هم المحقّون، فالهزيمة للمبطلين في هذا الوجه هزيمة نفسية، وكثيراً ما تكون مقدّمة لهزيمة ظاهرة مشهودة.

جـ ـ النصر بنجاة المؤمنين من كيد أعدائهم، وسلامتهم من شرورهم، كانتصار إبراهيم عليه السلام بنجاته من النار التي أجّجها قومه لتحريقه انتصاراً لأوثانهم، لقد كانت نجاته نصراً عظيماً من الله له، وهزيمة مخزية لقومه.

د ـ النصر بإحباط الله خطط الأعداء، وعدم تمكينهم من التغلّب على قوة المسلمين.

هـ ـ النصر بإدالة دولة الكفر ولو بعد حين، عن طريق الانهيار الذاتي، أو بتسليط دول كافرة أخرى، ثم ظهور دولة الإسلام ظهوراً غير مصحوب بأعمال قتالية، أو ضجيج إعلامي.

و ـ النصر بالفتح المبين، وتمليك المؤمنين أرض الكافرين وأموالهم، وتقتيل رجال الكفر وقادته وصناديده، وهذا الوجه من وجوه النصر هو الوجه الذي تحبّه جماهير المؤمنين، وتظنُّه هو النصر الوحيد.

ز ـ النصر بإنزال الله عقوبته في أعداء دعاة الحقّ وأنصاره، إهلاكاً وتدميراً بالمهلكات الكونية، التي لا يكون للناس كسب فيها، كانتصار الرسل على أقوامهم الذين أهلكهم الله بعذاب من عنده.

ح ـ النصر بانتصار فكرة الداعي إلى الله في قوم عدوّه الجبّار، ولو كان ذلك الداعي قد سقط شهيداً على يد ذلك الجبّار، كالنصر الذي ظفر به غلام أصحاب الأخدود، مع سقوطه هو شهيداً صريعاً، على يد عدوّه الملك الذي رماه بسهم من كِنَانة الغلام نفسه، وقال كما ذكر له الغلام: باسم الله ربّ الغلام، فرماه، فأصابه، فوضع الغلام يده على صدغه فمات، فتحوّلت الجماهير معلنة إيمانها بدعوة الغلام وكافرة بالملك الجبَّار.

ط ـ وقد يأتي النصر الفكريّ بتحوّل الغالب الفاتح إلى دين المغلوب المهزوم المنكسر في معارك القتال، كما حصل في بعض أدوار التاريخ.

إلى غير ذلك من وجوه، فعلى المؤمنين أن لا ييأسوا من النَّصر، وأن يعلموا أنّ انتصار الفكرة الإيمانية الإسلامية هو المقصود الرئيسي من دعوات الرسل كلّها، وأنّ قبول الناس لمبادىء الإسلام منوطٌ بإراداتهم واختيارهم الحرّ، وأنّ الله إذا علم أنّ المسلمين ـ في السّمة الغالبة

عليهم ـ قد صاروا أهلاً لإقامة دولة مؤمنة مسلمة، نصرهم على عدوّهم النصر الذي يحبّونه، فمكّن لهم في الأرض، وعندئذٍ يتحقق وعد الله الذي وعد به المؤمنين، بقوله في سورة (النور ٢٤):

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دينَهم الذي ارتضى لهم، وليبدِّلَنَّهم من بعد خوفهم أمناً. يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٥٥) وأقيموا الصلاةَ، وآتوا الزكاة، وأطيعوا الرسول لعلكم تُرحمون (٥٦) لا تَحْسَبَنَّ الذين كفروا معجزين في الأرض. ومأواهم النار ولبئس المصير (٥٧) ﴾.

فقضية استخلاف الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات قضيةٌ سهلة على الله، إنه سبحانه متى علم أنهم صاروا أهلاً لذلك استخلفهم ومكَّن لهم دينهم الذي ارتضىٰ لهم، ولا يعجزه حينئذٍ سَبْق الذين كفروا بوسائلهم.

أمّا إذا علم الله أنهم لم يؤهَّلُوا بعد لهذا الاستخلاف، فإنّ حكمته تقضي بأن لا يستخلفهم، لئلا يكون استخلافهم سبباً في فتنة الناس عن دين الله، لأنهم حينئذٍ سيستثمرون الدين لدنياهم الخاصة، فينقلب الأمر على الدين بعد أن كان الغرض من استخلافهم تأييد الدين ونصره.

ومن العبث أن يطلب المسلمون الاستخلاف في الأرض قبل أن يكونوا مؤهَّلين لتأييد دين الله، وتمكينه في الأرض، وإقامة شريعة الله في الحكم، ومن كان طامعاً في أن يعلو في الأرض فليتخذ غير سلّم الإسلام وسيلة إلى ذلك.

وعليهم والحالة كذلك أن ينشطوا في الدعوة السلمية إلى الله، حتى يصيروا في أعدادهم وإمكاناتهم مؤهَّلين للاستخلاف المنشود.

إنّ إعداد القاعدة الإسلامية العريضة في بناءٍ فرديٍّ وجماعي، هو

المرحلة الأولى لإعداد الأمة الإسلامية المؤهلة للاستخلاف في الأرض.

والقفز إلى المراحل التالية قبل إنضاج واستكمال المرحلة الأولى مخالفة لسنَّة الله وحكمته، وإفسادٌ لما تمّ بناؤه في المرحلة الأولى، فإنْ حصل شيء من ذلك وجب استئناف العمل من جديد على وفق منهج الله، ومع التقيُّدِ التامّ بسننه التكوينية والتشريعية وبسائر أحكام دينه على بصيرة، دون غلوّ ولا تفريط.

وحين يتم استكمال بناء القاعدة الإسلامية المؤهَّلَة للاستخلاف في الأرض، وتتم أعمال المرحلة الأولى، يأتي دور تطبيق قول الله تعالى في سورة (الحج ٢٢) وهي سورةٌ نزلت في أواسط المرحلة المدنية:

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينِ يُقَاتَلون بأنّهم ظلموا. وإنَّ الله على نصرهم لقدير (٣٩) الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلاّ أن يقولوا: ربُّنا الله، ولولا دَفْعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لهُدِّمَتْ صَوامعُ وبِيَعٌ وصلوات ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله كثيراً. ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ من ينصرُه. إنّ الله لقويٌّ عزيز (٤٠) الذين إنْ مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتَوُا الزكاة، وأَمَرُوا بالمعروفِ، ونَهَوْا عَنِ المنكر، ولله عاقبة الأمور (٤١) ﴾.

فالإذنُ بالقتال في هذه المرحلة من مراحل الدعوة قد كان له مبرّران صريحان، ووراءهما إلماح ضمنيٌّ إلى المبرّر الثالث:

فالمبرّر الأول الصريح: هو العمل على رفع الظلم القائم، واسترداد الحقّ المسلوب، وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في النص:

﴿ أُذِنَ للذين يُقاتلون بأنّهم ظُلموا. وإنّ الله على نَصْرهم لقدير. الذين أُخرِجوا من ديارهم بغير حق إلاّ أن يقولوا: ربُّنا الله ﴾.

فالإِذْنُ للمؤمنين أصحاب محمد ﷺ بالقتال الذي عُلِم حكْمُهُ قبْلَ نزول هذا النصّ، بدليل الغزوات المتعدّدة التي وقعت قبل نزوله، إنّما كان بسبب أنّهم ظُلموا من أجل إيمانهم بربّهم، ثمّ أُخرجوا من ديارهم في مكة

بغير حق. إذْ لم يكن بينهم وبين قريش في تلك المرحلة صراع على السلطة، أو منافسة على الحكم. إنهم لم يكن منهم إلاّ أن يقولوا: ربُّنا الله. أي: والدعوة إلى توحيد الربوبيّة وتوحيد الألوهية لله وحده، أخذاً من إعلان المقالة ولوازمها.

المبرّر الثاني الصريح: حماية بيوت الله التي يجب أن تكون لعبادة الله وحده، فلا تهدّم، فيمنع منها ذكر الله.

ومن التهديم المعنوي لبيوت الله حجب المؤمنين عنها، أو استخدامها في غير عبادة الله، أو إدخال الشرك والأوثان إليها.

وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى في النصّ:

﴿ ولولا دَفْع الله الناس بعضهم ببعض لهُدّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يُذكر فيها اسم الله ﴾.

وفي هذا إشارة إلى أن هذا المبرّر موجود في الشرائع الربّانية التي لها معابد تُسمّى عند أصحابها بهذه الأسماء (صوامع ـ بيع ـ صلوات ـ مساجد).

المبرّر الثالث الضمني: الذي جاء الإلماح إليه ضمناً دون تصريح به، هو التمكين في الأرض لإقامة دين الله.

والنصرُ الخاص من الله لِحَمَلَة لواء دينه وهو النصر الذي يوصلهم فعلاً إلى التمكين في الأرض، إنّما يهبه الله بمعونته الخاصّة، للّذين يعلم من صدقهم، وإخلاصهم، وقدرات جنودهم وأنصارهم، أنّهم إذا كان لهم السلطان في الأرض، حقّقوا الأمور التالية:

١ ـ أقاموا الصلاة (أي: على ما ينبغي).
٢ ـ وآتوا الزكاة (أي: كما أمر الله).
٣ ـ وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر (ويدخل في هذا إقامة الدين كلّه في المجتمع).

أمّا إذا علم الله أنّهم لو مكّنَ لهم في الأرض لم يقوموا أو لم يستطيعوا القيام بهذه الواجبات الرّبّانية، فإنّ حكمة الله قد لا تقضي بمنحهم هذا النصر الذي يفضي بهم إلى التمكين في الأرض، والله عزيز حكيم.

* * *

(٢)

أدلّة وجوه النصر

أ ـ في العهد المكي:

أولاً: أنزل الله على رسوله في أواسط العهد المكي قوله في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿ وقال الرسول: يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً (٣٠) وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً من المجرمين. وكفىٰ بربّك هادياً ونصيراً (٣١) ﴾.

لقد وصلت حالة الرسول ﷺ النفسيّة، في هذه المرحلة، بعد جهاد بضع سنين في الدعوة، إلى أنْ ينادي ربّه بأداة النداء الطويلة التي تشعر بحرارة الطلب، فيشكوَ قائلاً: ﴿ إنّ قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ أي: لم يستجيبوا لدعوتي، بل هجروني وأعرضوا عني إعراضاً شديداً، رغم أنني كنت أغشاهم به في مواطن اجتماعاتهم، وأتلوه عليهم، وأبلّغهم ما أنزل عليّ، وأبيّن لهم.

فجاء الجواب الرّبّاني للرسول:

﴿ وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً من المجرمين ﴾.

أي: نعلم ذلك، ونعلم أيضاً أنّ لك من مجرمي قومك أعداءً، وهو الأمر الذي آثرتَ أن لا تصرّح به في ندائك. ولكن اعْلم أنّك لستَ

الوحيد بين الرسل الذي لقي من قومه إعراضاً عن دعوته وبلاغاته، وظهر له من مجرمي قومه أعداءٌ يكيدونه. نعم لقد جرى لك هذا. وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً من المجرمين، فأعدّ نفسك لهذا، هذه هي سنة المجتمع البشري، التي تمّ بها القضاء التكويني، لإتمام حكمة الابتلاء.

ولكن الله مع أنبيائه يهديهم وينصرهم ﴿ وكفىٰ بربّك هادياً ونصيراً ﴾.

والبصير بحكمة الله يلتزم بهدي الله فلا يحيد عنه، ثم ينتظر نصر الله، على الوجه الذي يشاؤه الله، ومشيئته سبحانه وتعالى لا تفارق حكمته.

* * *

ثانياً: ثم أنزل الله على رسوله في سورة (يوسف ١٢):

﴿ حتّىٰ إذا استيأس الرسل، وظنُّوا أنَّهم قد كُذِبُوا، جاءهم نَصْرُنا. فَنُجِّيَ مَنْ نشاء. ولا يُرَدُّ بأسُنَا عن القوم المجرمين (١١٠) ﴾.

هذه الآية تُشعر بأنّ حالة الرسول النفسيّة، في تلك المرحلة، قد اقتربت من أن تدبّ إليها مشاعر اليأس من هداية من لم يهتد بَعْدُ من قومه، بدليل إشارة: ﴿حتى إذا استيأس الرسلُ، وظنُّوا أنهم قد كذبوا﴾ أي: غلب على ظنهم أن متابعة الدعوة قد أَمْسَت لا تجدي. عندئذٍ يستجيب الله لاستنصارهم به، فيأتيهم نصر الله. ونصر الله عندئذٍ يكون بإنزال عقابه بالمكذِّبين.

ويُنجّي الله حينئذٍ من يشاء من غير المجرمين، أمّا المجرمون فينزّل الله عليهم بأسه، ولا رادّ لبأس الله إذا نزل.

* * *

ثالثاً: ثم أنزل الله على رسوله قوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ قد نعلم إنّه ليحزُنُكَ الذي يقولون. فإنّهم لا يكذّبونَك. ولكنّ

الظالمين بآيات الله يجحدون (٣٣) ولقد كُذِّبت رسُلٌ من قبلك فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا. ولا مُبدِّل لكلماتِ الله. ولقد جاءك من نبأ المرسلين (٣٤) وإنْ كان كبُرَ عليكَ إعراضهم فإنِ استطعْتَ أن تبتغيَ نفقاً في الأرض أو سُلَّماً في السَّماء فتأتيهم بآية. ولو شاء الله لجمعهم على الهُدَىٰ، فلا تكونَنَّ من الجاهلين (٣٥) ﴾.

ففي هذا النصّ تربية للرسول ﷺ فيها شدّة، لتهدّم بِشِدَّتها ما تجسَّم في نفسه من أثر تكذيب قومه له، حتى أحزنته مقالات القوم فيه.

١ ـ فأبان الله له بأنّه عليم بما يتوالىٰ عليه من الحزن، الذي تُسبّبه له مقالات القوم التي يكرّرونها، ويتهمونه فيها بالكذب والافتراء على الله.

٢ ـ ثم كشف الله له أنّ القوم في حقيقة ما في قلوبهم لا يُكذّبونه، بل يعلمون حَقَّ العلم أنَّه صادق، ويعلمون أنّ الآيات التي يأتيهم بها هي آيات من عند الله حقّاً، ولكنّهم لا يريدون أن يؤمنوا بها، لأنّ ما تهدي إليه يخالف أهواءهم، لذلك فهم يجحدون بآيات الله جحود المنكر، الذي يعلم في قرارة نفسه وقلبه أنّه متعنّت، مبطل، مستكبر، أو متبع للهوىٰ.

٣ ـ ثمّ ذكّره الله بما جاءه سابقاً من نبأ المرسلين الذين كُذّبوا من قبله وأوذوا فصبروا على ما كُذِّبوا وأوذوا، وظلوا صابرين حتى أتاهم نصر الله، وذلك حين اقتضت حكمته في معالجة القوم بإنزال نصره لرسله.

وتصاريف حكمته عزّ وجلّ يقضيها بكلماته، ولا مُبدّلَ لكلمات الله، وعلى رسُله كما على غيرهم أن يستسلموا لما تقضي به حكمته.

٤ ـ ولعل نفس الرسول ﷺ تطلّعت إلى الاستجابة لمطالب قومه، إذ طلبوا الآيات الخوارق، حسب تشهّياتهم، رجاء أن يؤمنوا ويتّبعوه، وهم في حقيقة حالهم جاحدون وليسوا بحاجة إلى الاقتناع الفكري حتى

يؤمنوا، فلو جاءتهم الآيات التي طلبوها لم يؤمنوا، ولقالوا: إن هي إلّا سحر.

ولمعالجة هذا التَّطلُّعِ النّفسي لدى الرسول، قال الله له بأسلوب فيه شدّة تربوية:

﴿ وإنّ كان كَبُرَ عليك إعراضهم، فإن استطعتَ أن تبتغيَ نفقاً في الأرض، أو سُلَّماً في السّماء، فتأتيهم بآية ﴾.

أي: فافعل، ولكنّك لن تستطيع، فإذا لم يأت الله بالآيات الخوارق، أو يمكّنْكَ من الإتيانِ بها، فإنَّكَ لن تستطيع الإتيان بشيءٍ منها، وكذلك حال سائر الأنبياء والمرسلين وحال الملائكة.

٥ ـ ثُمَّ أكّدَ الله لرسوله وظيفته التي هي التبليغ والإنذار، وبيّن له أنّ إيمان القوم ينبغي أن يتمّ عن طريق إراداتهم واختيارهم الحرّ، بذلك تقضي حكمة الابتلاء، ولو كان الغرض أن يؤمنوا إيماناً إكراهيّاً أو إيماناً جبريّاً، لسلبهم الله إراداتهم الحرّة، ولجمعهم عندئذ على الهدى.

وإلماحاً إلى ذلك قال الله له:

﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى. فلا تكونَنَّ من الجاهلين ﴾.

* * *

رابعاً: ثُمَّ أنزل الله على رسوله قوله في سورة (الصافات ٣٧):

﴿ ولقد مَنَنَّا على موسى وهارون (١١٤) ونجَّيناهما وقومَهما من الكرب العظيم (١١٥) وَنَصَرْناهُمْ فكانوا هم الغالبين (١١٦) ﴾.

وقوله فيها:

﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين: (١٧١) إنهم لَهُمُ المنصورون (١٧٢) وإنّ جندنا لَهُمُ الغالبون (١٧٣) فتولَّ عنهم حتّى حين (١٧٤) وأبصرهم فسوف يبصرون (١٧٥) أفبعذابنا يستعجلون؟! (١٧٦)

فإذا نزل بساحتهم فسَاءَ صَبَاحُ المُنْذَرين (١٧٧) وتولَّ عنهم حتى حين (١٧٨) وأبصر فسوف يبصرون (١٧٩) ﴾.

فجاء في النص الأول من سورة (الصافات ٣٧) هذه بيان لوجه النصر وهو النصر بالآية الخارقة، وغلبة حقِّ موسى والذين آمنوا معه على باطل فرعون وملئه.

وجاء في النصّ الثاني من سورة (الصافات ٣٧) بيان وعد الله بنصر رسله والذين آمنوا، وأنّ هذا الوعد قد سبقت به كلمةُ الله لعباده المرسلين، وبيانٌ لحقيقة أنّ جند الله هم الغالبون.

وأمر الله رسوله في هذه المرحلة بأن يعرض عن المكذبين متولياً عنهم إلى أجل آخر، فقال له:

﴿ فتولّ عنهم حتى حين ﴾.

أي: أعرض عنهم، ولا يهمنّك أمرهم، ولا يحزنَنْك كفرهم، وتكذيبهم لك، وما تلقى منهم أنت ومن آمن معك من أذى، حتى حين من الدهر، ومتى علم الله أنّ الحكمة التأديبيّة قد استدعت نصرك عليهم، جاءك نصر الله.

ولكن إذا أعرضتَ عن معالجتهم أو مقارعتهم فلا تكن غافلاً عنهم، ولا تدعهم يكيدون وأنت لا تعلم بما يفعلون، بل راقبهم:

﴿ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾.

أي: فسوف يبصرون عاقبتهم الوخيمة، حين يكون لك ولمن آمن معك النصر، وتكون لهم الخيبة والخزي والهزيمة.

وأمّا استعجالهم العذاب تحدّياً لك، وإمعاناً في التكذيب برسالتك، فإنّ الحكمة الآن لم تستدع بعدُ تلبيَة طلبهم له، إنّ الوقت لم يحنْ.

وذلك لأنه ما زال فيهم أناس لم تنته مُدَّة معالجتهم، والرجاء بهدايتهم لم ينقطع، وإنزال العذاب الشامل يفوّت على هؤلاء فرصة الإيمان الذي لديهم الاستعداد لقبوله.

فالحكمة تقضي في مواجهة استعجالهم هذا بالتريُّث والإعراض عنهم حتى حين، مع مراقبتهم ببصر لا يفارق تحرّكاتهم.

هذه المعاني والتوجيهات نفهمها من قوله تعالى لرسوله:

﴿ أفبعذابنا يستعجلون؟!. فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذَرين. وتولّ عنهم حتى حين. وأبصر فسوف يبصرون﴾.

أي: فسوف يبصرون عاقبة تكذيبهم وتحدّيهم بإنزال العقاب.

* * *

خامساً: ثم أنزل الله على رسوله قوله في سورة (غافر ٤٠):

﴿ إنّا لننصُر رسُلَنَا والّذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتُهم، ولهم اللّعنةُ ولهم سوءُ الدّار (٥٢) ولقد آتينا موسى الهدى، وأورثنا بني إسرائيل الكتاب (٥٣) هدى وذكرى لأولي الألباب (٥٤) فاصبر إنّ وعد الله حقّ، واستغفر لذنْبكَ، وسَبِّحْ بحمدِ ربّكَ بالعشيِّ والإبكار (٥٥) ﴾.

فاشتمل هذا النصّ على وعد صريح من الله بالنّصر لرسُله وللذّين آمنوا، في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهاد، إذ يشهد الرسُل على أقوامهم أنهم بلّغوهم رسالة ربّهم. ويشهد المؤمنون المبلِّغون لما جاء به الرسل على الذين بلّغُوهم من الناس.

ولكنّ لم يحدّد نوع النّصر الذي وعد الله به في هذا النصّ، فهو ينطبق على أيّ وجه من وجوه النّصر التي سبق بيانها.

وفي التذكير بموسى وببني إسرائيل الذين أورثهم الله الكتاب وهو

التوراة، إشارة إلى وجهين من وجوه النصر:

الوجه الأول: نظير ما حصل لموسى وقومه، إذ أنجاهم الله، وأغرق عدوّهم وجنوده بآية خارقة.

الوجه الثاني: النّصر بالغلبة في معارك قتالية، كما حصل لبني إسرائيل إذ نصرهم الله بقيادة ملكهم طالوت على جالوت الجبَّار وجنوده.

ثم أمر الله رسوله بالصبر، وأعلمه أنّ وعد الله حقّ، وفي هذا إشارة إلى أنّ مجيء النصر مرهون بمقتضيات حكمة الله، فلا جدوى من استعجاله قبل الأوان، فقال الله له:

﴿ فاصبر إنّ وعدَ الله حقٌّ ﴾.

وأخيراً أمر الله رسوله بأن يستغفر لذنبه، وبأن يُسبِّح بحمد ربّه بالعشيّ والإبكار، فقال الله له:

﴿ واستغفر لذنبك، وَسَبِّحْ بحمد ربّك بالعشيّ والإبكار ﴾.

ليكون هذا الذكر عَوناً له على الصبر.

* * *

سادساً: ثمّ أنزل الله على رسوله قوله في سورة (الأنبياء ٢١):
﴿ ونوحاً إذْ نادىٰ منْ قبلُ فاستجبنا لَهُ فنجّيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) ونصرناه من القوم الذين كذّبوا بآياتِنا. إنّهم كانوا قومَ سوءٍ فأغرقْناهم أجمعين (٧٧) ﴾.

فضرب الله بهذا النصّ مثلاً من أمثلة نصره لرسله، وهو النصر بإهلاك المكذّبين بآيات الله، ونجاة الرسول ومن آمن معه.

* * *

سابعاً: ثُمَّ أنزل الله على رسوله بشأن نوح أيضاً قوله في سورة (المؤمنون ٢٣):

﴿ قال: ربِّ انصُرني بما كَذَّبونِ (٢٦) فأوحينا إليه أن اصنَعِ الفلْكَ بأعيننا ووحينا. فإذا جاء أمرنا وفار التنُّور فاسلُكْ فيها من كلٍّ زوجَيْن اثنَين وأهلكَ إلاّ من سبَقَ عليه القول منهم. ولا تخاطبني في الّذين ظلموا إنّهم مُغْرقون (٢٧) فإذا استويت أنت ومن معك على الفُلْكِ فقل: الحمد لله الذي نجّانا من القوم الظالمين (٢٨) وقل: ربِّ أنزلني مُنْزَلاً مباركاً وأنت خير المنزِلين (٢٩) إنّ في ذلك لآياتٍ وإنْ كُنّا لمبتَلِين (٣٠) ﴾.

ففصَّل هنا ما سبق أن أنزله موجزاً في سورة الأنبياء، تثبيتاً تربويّاً، وتدرّجاً تعليميّاً، وبيّن هنَا أنّ نوحاً سأل ربَّه أن ينصره بعد أن نفد صبره، واستجاب الله له إذْ علم أنه لن يؤمن من قومه إلاّ مَنْ قد آمن.

وأضاف الله في سورة (المؤمنون ٢٣) بياناتِ عقاب الله لعدد من أقوام الرسل بعد نوح، وأنّ ذلك قد كان نصراً للرسل، ومنهم هود عليه السلام، إذ دعا بمثل دعاء نوح عليه السلام:

﴿ قال: ربِّ انصُرني بما كَذَّبونِ (٣٩) قال: عمّا قليلٍ ليصبحُنَّ نادمين (٤٠) فأخذتهم الصيحة بالحق، فجعلناهم غُثاءً، فبُعْداً للقوم الظالمين (٤١) ﴾.

* * *

ثامناً: ثم أنزل الله على رسوله قوله في سورة (الروم ٣٠):

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسُلاً إلى قومهم، **فجاؤوهم بالبيناتِ**، فانتقمنا من الذين أجرموا، وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين (٤٧) ﴾.

وفي هذا متابعة تربويّة بتطمين قلوب المؤمنين بأنّ نصر الله لهم لا محالة قادم، إذْ هو حقٌّ على الله، فقد سبق به وعده، وسبقت به كلمته، والله لا يخلف الميعاد، ولا مبدّل لكلماته.

* * *

تاسعاً: ثم قصّ الله قصة **إهلاك** قوم لوط، استجابة لدعاء لوط

عليه السلام، إذ ﴿ قال: ربِّ انصرني على القوم المفسدين (٣٠) ﴾ مع ما ذكر من قصص إهلاك مكذِّبي الرسل، وذلك فيما أنزل في سورة (العنكبوت ٢٩).

وفي هذا تهديد لمكذِّبي الرسول محمد ﷺ، وتطمين لقلبه وقلوب الذين آمنوا معه، بأنّ عاقبة النصر لهم بنصر من عند الله.

ووجه النصر المذكور في هذه القصص، هو النصر بآية ربّانية خارقة.

وكانت سورة (العنكبوت ٢٩) آخر سورة مكيّة تحدّثت حول هذا الموضوع، ولم ينزل بعدها في العهد المكيّ إلاّ سورة (المطففين ٨٣) وليس فيها حديث عن نصر الرسل أو الذين آمنوا في الحياة الدنيا، أو عن إهلاك المجرمين أو المكذبين فيها بسبب ذنوبهم.

* * *

ب ـ في العهد المدني:

أوّلاً: ففي أوّل سورة مدنية وهي سورة (البقرة ٢) جاء الإلماح للنصر، بتمكين المؤمنين من الانتصار على الكافرين في معارك قتالية، بعرض قصة طالوت ملكاً على بني إسرائيل، وانتصاره على جالوت.

وذلك بعد الأمر بالقتال في سبيل الله، إذْ قامت للمسلمين في المدينة دولة ذات كيان مستقل، وباستطاعتها أن تُعِدَّ ما يلزم لمحاربة عدوّها.

وهو ما سبق بيانه.

* * *

ثانياً: ثم أنزل الله على رسوله قوله تعالى في سورة (الأنفال ٨):
﴿ يا أيّها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم لما يُحييكم. واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه، وأنه إليه تُحشرون (٢٤) واتَّقوا فتنة لا تُصيبَنَّ الذين ظلموا منكم خاصّة، واعلموا أنّ الله شديد

العقاب (٢٥) واذكروا إذْ أنتم قليلٌ مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطَّفكم الناس، فآواكم وأيّدكم بنصره، ورزقكم من الطيِّبات لعلَّكم تشكرون (٢٦) ﴾.

فجاء في هذا النصّ:

أ ـ أمرٌ للمؤمنين بالاستجابة للرسول في شأن إعداد العدّة الكافية، لمواجهة احتمالات المعارك الحربية القادمة، وفي كلّ أمرٍ فيه حياتهم المادّية والمعنوية.

ب ـ وتذكير لهم بما كانوا عليه قبل أن يهاجروا إلى المدينة، ويكون لهم فيها دولة ذات سيادة، إذ كانوا قليلين مستضعفين في الأرض، يخافون أن يتخطّفَهم الناس.

جـ ـ ومنّةٌ عليهم بأمور ثلاثة:

١ ـ أنه عزّ وجلّ آواهم في المدينة، وجعل لهم فيها إخواناً يؤونهم وينصرونهم.

٢ ـ أنه عزّ وجلّ أيّدهم بنصره في غزوة بدر المظفرة، التي كان النصر فيها بظهور جيش المؤمنين القليل على جيش الكافرين الكثير.

٣ ـ أنه عزّ وجلّ رزقهم من الطيبات في دار هجرتهم، بعد أن كانوا في الضيق والضّنْك.

وأنزل الله في سورة (الأنفال ٨) أيضاً قوله تعالى لرسوله:

﴿ وإنْ يريدوا أن يخدعوك فإنّ حَسْبَك الله، هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين (٦٢) ﴾.

فأشار بهذا إلى النصر الذي ظفر الرسول به بتأييد من عند الله، وبقتال المؤمنين الصادقين في بدر.

* * *

ثالثاً: ثمّ أنزل الله على رسوله قوله تعالى في سورة (آل عمران ٣):
﴿ ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّة، فاتّقوا الله لعلّكم تشكرون (١٢٣) ﴾.

وكان النصر العسكري في هذه المعركة محفوفاً بتأييد من عند الله للمؤمنين، تدخَّلت فيه إمدادات من الملائكة، قدّمت فيه نوع دعم، تمّ به ترجيح كفّة جيش الإيمان على جيش الكفر.

وأنزل الله فيها أيضاً قوله تعالى:
﴿ إنْ ينصركم الله فلا غالب لكم. وإنْ يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده. وعلى الله فليتوكّلِ المؤمنون (١٦٠) ﴾.

فتضمّنت هذه الآية التحذير الضمني من مخالفة الشروط التي بها يمنح الله النصر للمؤمنين، والتحذير من الغرور بالنفس، ومن الاعتماد الكلّي على الوسائل وترك التوكّل على الله والثقة بنصره.

* * *

رابعاً: ثم أنزل الله على رسوله قوله تعالى في سورة (النساء ٤):
﴿ والله أعلم بأعدائكم، وكفىٰ بالله وليًّا، وكفى بالله نصيراً (٤٥) ﴾.

ففي هذه الآية تطمين لقلوب المؤمنين تجاه أعداء لم يظهروا بَعْدُ على ساحة المواجهة، بأنّ الله سينصرهم عليهم بوسائله التي لا تُحصىٰ.

* * *

خامساً: ثم أنزل الله على رسوله قوله تعالى في سورة (محمد ٤٧):
﴿ يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصروا الله ينصرْكم ويثبّتْ أقدامَكم (٧) ﴾.

فأبان الله في هذه الآية شرط الإخلاص الكامل لله في معارك القتال، حتى يحقّق الله نصره للمؤمنين الزائد على موازين القوى المعتادة،

وضمن المنهج الإسلامي المبيّن.

وجاءت هذه الآية عقب تفصيلات تتعلّق بتعليمات قتالية، وهي:

﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضَرْب الرقاب، حتى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق، فإمّا منًّا بعد وإمّا فداءً حتى تضع الحرب أوزارها. ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلوَ بعضَكم ببعض. والذين قُتلوا في سبيل الله فلن يُضلّ أعمالهم (٤) سيهديهم ويُصلح بالهم (٥) ويدخلُهُم الجنّة عرَّفها لهم (٦) ﴾.

وفي هذا النصّ بيان للذين آمنوا أنّ دعوتهم لقتال أعدائهم ليست حاجة إليهم، ولكن ليبلوهم الله، ولو شاء الله لانتصر من أعدائهم بنفسه.

* * *

سادساً: ثمّ أنزل الله على رسوله قوله في سورة (الحج ٢٢):

﴿ ولينصُرَنّ الله من ينصره إنّ الله لقويٌّ عزيز (٤٠) ﴾.

والمراد بالنّصر هنا النّصر في معارك القتال، الموصلُ بمعونة الله وتأييده إلى التمكين في الأرض، بدليل سوابق النصّ ولواحقه في السورة.

* * *

سابعاً: ثمّ أنزل الله على رسوله قوله في سورة (الصف ٦١):

﴿ يا أيّها الذين آمنوا، هل أدلُّكُم على تجارةٍ تُنجيكم من عذابٍ أليم؟ (١٠) تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم. ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون (١١) يغفرْ لكم ذنوبَكم ويدخلْكم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ومساكِنَ طيبةً في جنّاتِ عدْنٍ. ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبُّونها نصرٌ من الله وفتح قريب، وبشّرِ المؤمنين (١٣) يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين: من أنصاري إلى الله؟. قال الحواريّون: نحن أنصار الله.

فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فأيّدنا الذين آمنوا على عدوّهم فأصبحوا ظاهرين (١٤) ﴾.

النصّ هنا يشتمل على دعوة المؤمنين إلى الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس. والجهادُ في سبيل الله يشمل كلّ أنواعه، بدءاً من الدعوة والتبليغ، حتى المعارك القتالية التي قد تلجىء إليها ظروف الاحتكاك بأعداء دين الله وأعداء المسلمين.

وسورة (الصف ٦١) من أواخر ما نزل في المدينة.

وقَيْدُ (في سبيل الله) يحدّد أنه جهاد صادق خالص من شوائب أغراض الدنيا.

أمّا الثواب الموعود به على هذا الجهاد الصادق الخالص بالأموال والأنفس، فهو ثواب مؤجّلٌ ليوم الدين، وهو الثواب الأعظم الذي ينبغي أن يكون هدف المجاهدين. وثواب آخر معجل يحبُّه الناس عادةً، لأنّهم يحبّون العاجلة.

فالثواب المؤجل ليوم الدين يشتمل على ما يلي:

أ - يغفر لكم ذنوبكم.
ب - ويدخلكم جنّات تجري من تحتها الأنهار، ومساكنَ طيبةً في جنّاتِ عَدْنٍ. ذلك الفوز العظيم.

والثواب المعجَّل الذي يحبُّه الناس عادةً، لأنَّهم يُحِبُّون العاجلة، يشتمل على ما يلي:

أ - نصرٌ من الله على أيّ وجه من وجوه النصر، بالقتال أو بغيره.
ب - وفتح قريب، يفتح الله به للمجاهدين البلاد والممالك.

ثمّ ضرب الله مثلاً من أمثلة نصره وتأييده وفتحه للمجاهدين من أتباع الرسل السابقين، وهو نصرهُ للّذين آمنوا بعيسى عليه السلام إيماناً

صادقاً على عدوّهم، حتى أصبحوا ظاهرين لهم تمكين في الأرض وسلطان.

والمعروف أنّ معظم جهاد هؤلاء الذين آمنوا بعيسىٰ عليه السلام صادقين مخلصين كان جهاد دعوة لا جهاد قتال، وبلغوا بذلك بعد حين أن كان لهم السلطان والتمكين والظهور على عدوّهم.

* * *

ثامناً: ثم أنزل الله على رسوله قوله في سورة (الفتح ٤٨):

﴿ إنّا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً (١) ليغفرَ لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر، ويُتمَّ نِعمتهُ عليك ويهديَك صراطاً مستقيماً (٢) وينصركَ الله نصراً عزيزاً (٣) ﴾.

نزلت سورة (الفتح ٤٨) هذه عقب صلح الحديبية مباشرة، وذلك في الطريق والمسلمون منصرفون من الحديبية وعائدون إلى المدينة.

فأبان الله أنّ ما تمّ في صلْح الحديبية قد كان فتحاً مبيناً، لا فتحاً مخفيّاً، وإنّما يستبينه أهل البصيرة بالأحداث، وقد ذكر الله أنّه فتح مبين، لأنّه مقدّمة واضحة لنصرٍ عزيز، أي: نصر غالب سيأتي بتأييد الله ومعونته.

وأرى في هذه الآيات إلماحاً إلى اقتراب انتهاء وظيفة الرسول ﷺ في هذه الحياة، فالفتح المبين قد حصلت مقدّماته، وأصبح ظهوره لكل الناس في الواقع المنجّزِ وشيكاً، وغدا النصر العزيزُ الغالبُ قريباً.

وإذْ قد اقترب أجل انتهاء وظيفة الرسول في هذه الحياة الدنيا، فالحكمة تقضي بتسديد الحساب، ما مضىٰ منه وما تبقّىٰ، ما لله علىٰ رسوله، وما للرسول عند ربه من أمور معجّلة في الحياة الدنيا.

١ ـ أمّا صحيفة ما لله على الرسول، فسيتمّ تسديدها بالغفران عمّا مضىٰ وعمّا سيأتي (ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر) فلا مؤاخذة بعد هذا الغفران.

٢ ـ وأمّا صحيفة ما للرسول عند ربّه من أمور معجَّلَة في الحياة الدنيا، ممّا سبق به وعد الله له، فسيحقّقه الله له قريباً وهو ما يلي:

أ ـ النصر العزيز الغالب على ألدّ خصومه، وقد تمّ ذلك قريباً بفتح مكة، وخيبر، وإخضاع كلّ الجزيرة للإسلام، وبدء التطلع إلى امتلاك نواصي صروح الدّول الكبرىٰ يومئذ.

ب ـ إكمال الدين، الذي هو الصراط المستقيم، وقد تحقَّق ذلك قريباً، يوم أنزل الله في حجّة الوداع قوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

جـ ـ إتمام النِّعمة في ظروف هذه الحياة الدنيا، وهي نعمة المعارف الزائدة على شرائع الدين في الحلال والحرام، ممّا تنزّل به الوحي، وقد تحقق ذلك أيضاً يوم أنزل الله الآية السابقة، على أن شرائع الدين من النعمة أيضاً.

وبدءاً بالأعمّ فالأهمّ قال الله لرسوله:

﴿ويتمَّ نعمته عليك، ويهديَك صراطاً مستقيماً، وينصرَك الله نصراً عزيزاً﴾.

* * *

تاسعاً: ثمّ أنزل الله على رسوله قوله في سورة (التوبة ٩) وهي آخر ما نزل من القرآن من سور قبل سورة (النصر ١١٠)، وجوّ السورة كلّه جوّ قتال وحرب:

﴿قاتلوهم يُعذِّبْهُمُ الله بأيديكم، ويُخزهم، وينصركم عليهم، ويشفِ صدور قومٍ مؤمنين (١٤) ويُذْهبْ غيظ قلوبهم، ويتوب الله على من يشاء والله عليمٌ حكيمٌ (١٥)﴾.

وأنزل فيها أيضاً قوله:

﴿يا أيّها الذين آمنوا، ما لكم إذا قيل لكم انفِرُوا في سبيل الله

اثّاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟!. فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ قليل (٣٨) إلاّ تنفروا: يعذّبْكم عذاباً أليماً، ويستبدلْ قوماً غيركم، ولا تضرّوه شيئاً. والله على كلّ شيء قدير (٣٩) إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذْ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذْ هما في الغار. إذ يقول لصاحبه لا تحزنْ إنّ الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه، وأيّده بجنودٍ لم تروها، وجعل كلمةَ الّذين كفروا السفلى، وكلمةُ الله هي العليا، والله عزيز حكيم (٤٠) ﴾.

فالدعوة في هذه السورة دعوة إلى القتال في سبيل الله، بعد أن استكمل المسلمون شروطه المادّية، والنصر الموعود به هنا هو النّصر على الأعداء في معارك القتال:

﴿ قاتلوهم، يعذّبْهم الله بأيديكم، ويخزهم، وينصركم عليهم، ويشفِ صدور قوم مؤمنين ﴾.

وفي النصّ الثاني جاء التحذير الشديد من التثاقل، والتباطؤ، وإيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ويتضمّن هذا التحذير الوعيد بالعذاب الأليم، والظاهر أنّه عذاب أليم معجّل في الحياة الدنيا.

وجاء في بيان هذا النصّ التحذيريّ للمؤمنين، أنّ تخلّيهم عن نصرة الرسول لا يضرّ الرسول شيئاً، فالله قادر على نصره بآية خارقة، وقد سبق أن نصرَه بآية من عنده، إذْ أنجاه مرّة أخرى إذ ستره الله عن أعين القوم وهو مختبىء في الغار مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه، وقد بلغوا إلى الغار بحثاً عنه، حتى إن أحدهم لو نظر إلى موطىء قدمه لرأى من في الغار، ولكن الله صرف أبصارهم أو غشّى عليها.

والله عزيز حكيم.

* * *

عاشراً: ثم أنزل الله على رسوله سورة (النصر ١١٠) وكانت إيذاناً

بانتهاء مهمة الرسالة، واقتراب الأجَل، والنّصر المذكور فيها يشمل النّصر بالقتال وبغيره، والنصر بدخول الناس في دين الله أفواجاً.

(٣)
خاتمة

يا شباب الإسلام، ويا حَمَلة لواء الدعوة إليه، لا تتورّطوا في تجارب تستدرجكم إلى ما لا يخدم الإسلام حقّاً، أو إلى غير ما تحبّون وترجون من نتائج. لا تتورّطوا في تجارب متسرّعة فجّة، أو تجاربَ طائشة رَعْناء، أو تجاربَ مشوّهة.

فإنكم إذا فعلتم شيئاً من ذلك خدمتم قُوىً كثيرة معادية، تريد أن تستهلك الإسلام وتُجهز على الدعوة إليه والتطلّع لمجده، عن طريق تجربات فاشلات، لتسقطه في نفوس الجماهير الكثيرة المنتمية إليه، كما تساقطت شعاراتُ زيوف، حملتها أقوامنا من قبل. أمَا تَسَاقطتْ ذابلةً تافهة، تساقُطَ زهرات الشوك؟!.

أما رأيتم كيف تساقطت القوميّة، والعلمانيّة، والاشتراكية، ونحوها من المبادىء التي لا خير فيها، والتي ملأت لوحاتها وإعلاناتها ودعاياتها المضلّلة أسماع الناس وأبصارهم، ثم كشَف الناس بعد تجرباتها أنها غُثَاء كغُثاء السَّيل، وزبَد كزبده؟!.

أمّا الزبد فيذهب جفاءً، وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

يا شباب الإسلام استمسكوا بالإسلام عقيدةً، ومنهاجاً، وخطّةَ عمل، وأسلوب تنفيذ، واستهدوا بهَدْي حركيَّةِ بناء الإسلام المتدرّجة، واعرفوا أعداءكم حقّاً، ومقادير قواهم المختلفة، وأعدوا لكلّ أمرٍ عدّته، وانظروا نظراً بعيداً، ولا تنظروا في حدود مواطىء أقدامكم فقط، فأنتم في

عالم يموج بالأعداء الكثيرين، ويموج بالشياطين، ويملكون من القوى المادّية ما لا تملكون، فاعتصموا بمزيتكم التي بها يجعل الله لكم من كل همٍّ فَرَجاً، ومن كلّ ضيق مخرجاً، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.



الباب الثالث

الدِّينُ الحَقّ

منهجٌ متوسّط بين التفريط والغُلُوّ

وفيه ستة فصول:

الفصل الأول: تمهيد عامّ حول الحقائق والنظر إليها.

الفصل الثاني: تمهيد حول مفاهيم التفريط والغلوّ.

الفصل الثالث: بيان التفريط والغلوّ في العقائد والمفاهيم الدينية الأساسية.

الفصل الرابع: بيان التفريط والغلوّ في الأحكام التشريعية.

الفصل الخامس: بيان التفريط والغلوّ في السلوك الديني.

الفصل السادس: بيان التفريط والغلوّ في الولاء.

الفصل الأول

تمهيد عام حول الحقائق والنظر إليها

عرفنا ممّا سبق بيانه في الباب الأول من هذه البصائر أنّ الحقائق البسيطة في الوجود وفي التصوّر الفكريّ نادرة جدّاً، حتى لا تكاد تُدرك أمثلة لها.

وعرفنا أنّ معظم الحقائق في الوجود الخارجي وفي التصوّر الفكري هي من قبيل المركّبات، وضمنها حقائق هي أجزاءٌ منها، ولهذه الأجزاء حدود ومقادير.

وعرفنا أنّ الله قد جعل لكلّ شيء قَدْراً.

ومن التبصير الواجب أن نؤكد أنّ أكثر أخطاء المفكِّرين والعاملين، تأتي من النظرات الناقصات التي تنظر إلى بعض أجزاء الحقيقة المركبة، فتجعل أفكارهم تزحف بغير وعي، حتى تنزلق، فتوسّع حدود الجزء الذي نظروا إليه، وبذلك يأخذ هذا الجزء في تصوّرهم مواقع ليست له، ولا يكون ذلك إلّا عدواناً على حقّ جزءٍ أو أجزاءٍ أخرىٰ من الحقيقة المركبة.

والنظرات الناقصة للحقيقة المركبة، أو النظرات السريعة المتعجلة، أو النظرات التي لا دقّة فيها ولا تتبّع لأجزاء الحقيقة المركبة، ولحدود ومقادير وأبعاد ومواقع هذه الأجزاء، توقع في عدّة أخطاء وأغاليط، منها ما يلي:

١ ـ مدٌّ وزحفٌ تعميمي باطل وراء حدود الحقيقة.

٢ ـ تقليص وحذف وإخراج لبعض الحقيقة عن موقعه الذي يجب أن يكون فيه.

٣ ـ رجٌّ لعناصرِ الحقيقةِ المركبة، حتى يختلط بعضها ببعض، وتنطمس معالم حدود هذه العناصر ومقاديرها وأبعاد كلٍّ منها.

٤ ـ إزاحة للحقيقة عن موقعها إزاحة كاملة أو جزئية.

أمثلة:

١ ـ ونمثّل للحقائق المركَّبة في المعارف الإنسانية بالخرائِط التي توضع للأرض، لرسم حدود ما فيها من قارّات، وبحار، ويابسة، ودولٍ، ومدنٍ، وقرى، وجبالٍ، وسهولٍ، وأنهارٍ، ومزارع، وغير ذلك.

فالنظرة الناقصة أو المتعجّلة أو التي لا دقة فيها ولا تتبّع لأجزاء هذه الحقيقة المركبة وعناصرها، لا بدّ أن تقع في أخطاء رسم حدود أجزاء الأرض، فلا تكون الخريطة الموضوعة على هذا الشكل الخاطىء مطابقة للحقيقة، بل يكون فيها تغيير كثير، وقد يصل التخالف بين الرسم والحقيقة إلى أمور فاحشة جدّاً.

أهونها مدّ حدود بعض الأجزاء، وتقليص حدود أجزاء أخرى، وتغيير النِّسب بين الأجزاء، فتكبر القرية الصغرى، وتصغر المدينة الكبرى، ويصير النهر كالبحر، ويصير البحر كالنهر، وتعظم الشجرة مزاحمةً الجبل في مساحته. وهكذا.

وقد يفحش الخطأ كثيراً حتى توضع القاهرة ضمن حدود الصين، وتوضع دمشق في موقع برلين، ويتبادل البحر والبرّ مواقعهما، ويتبادل القطبان مواقعهما وخصائصهما.

وكثيراً ما يحدث في الحقائق الفكرية نظير ذلك، بسبب أخطاء النظرة الناقصة أو المتعجّلة، أو غير الدقيقة ولا الفاحصة.

٢ ـ ونمثّل أيضاً للحقائق المركّبةِ في الخِبْرات الحضارية بالطبخات التي نُعدّها طعاماً شهيّاً في مطابخنا الراقية ذات الإتقان.

إنّ هذه الطبخات لا يتمّ إعداد كلٍّ منها إلّا من أجزاء معيّنة، ولكلّ جزءٍ من هذه الأجزاء نسبة محدّدة، ومقدار ينبغي عدم تجاوزه، ثمّ لإعداد الطبخة شروط ذات مقادير وحدود من الحرارة، والزمن، والترتيب، وآنية الطبخ، وكيفيّة الصنع، وغير ذلك.

والإخلال بواحد من الأجزاء أو الشروط المطلوبة قد يفسد الطبخة، أو يجعلها دون المطلوب المرغوب فيها.

جاء من لا خبرة له بالطبخ فقال: إنّ شرط الطبخ الجيد اللحمُ الكثير، والسمن الكثير، والرزّ الفاخر، وسخاء نفس الطبّاخ. فوضع اللحم بسخاء، ووضع السمن الكثير بسخاء، وألقى الرزّ الفاخر، وطرح ملحاً وتوابل دون معايير، ودون خبرة بالطبخ، وصبّ ماءً بلا حساب.

ثمّ أوقد على طبخته ناراً عظيمة مدّةً طويلة حتى احترقت. وحينما وجد طبخته محترقة قاسية مالحة حارّة بالتوابل، ككتلة من الصلصال المحترق المملّح المشبَّع بالتوابل، صاح مغضباً، وأخذ يعتب على القدر، لأنه عاكسه في طبخته فلم يساعده، وجعل يندب حظه العاثر، ويلوم قَدَره الجائر.

ما أشدّ جهله وغباءه!!. إنّه هو الذي أساء، وكان عليه أنْ ينعَىٰ ويلوم أو يشتم نظره القاصر، وعمله الجائر، إذ لم يتقيّد فيه بالنظام الذي نظّم الله به كونه.

لقد ظنّ أنّ كثرة اللحم والسمن وجودة المواد تكفي وحدها لصنع طبخة شهية طيبة نافعة، فأساء في ظنّه، لأنّه قصّر في بحثه عن نظام الخلق، وتعجّل الأمور، ولم ينظر نظرة دقيقة فاحصة شاملة، ولم يستفد من تجارب السابقين، فعليه أن يتحمّل نتائج عمله الذي أساء فيه، ولا يلومنّ إلّا نفسه.

إنّ لكل طبخة نظاماً وسنّة ربّانية، وعلى المؤمن العاقل أن يتقيّد في

تعامله مع الأشياء ومع المجتمع البشري بسنن الله التي كشفتها التجربة، أو فهمها أهل البصيرة والاستنباط من دلالات النصوص الدينية، بعد جمعها وتدبُّرها تدبّراً دقيقاً وشاملاً، لا قاصراً ولا منحرفاً ولا متعجّلاً.

فإذا هو استهان بها، ولم يتقيّد بشروطها وأركانها وعناصرها المطلوبة، فخسر النتائج التي يرجوها، فلا يلومنّ إلاّ نفسه، ولا يطرحنَّ عتبه على القَدَر الربّاني، فالله عزّ وجل مع الذين يتقيّدون بمنهجه ونظامه وأوامر سننه الثابتة، وليس مع الذين يعصون في ذلك، وإن كانوا من أهل الإيمان والإخلاص لله في أعمالهم.

فالمتقيدون بمنهج الله عز وجلّ، وأحكام شريعته لعباده، وأنظمته في كونه، وأوامر سننه الثابتة، هم الذين اتّقوا، أو زادوا على مرتبة التقوى فأحسنوا، فكانوا من المحسنين، قال الله تعالى في آخر سورة (النحل ١٦):

﴿ إنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون (١٢٨) ﴾.

٣ ـ ونمثّل للحقائق المركَّبة من أركان العقيدة الإسلامية بصفات الله عزّ وجل.

إنّ الله سبحانه وتعالى مريد يفعل ما يشاء، لا سلطان فوق سلطانه، ولا ندّ لسلطانه، ولا رادّ لقضائه.

ولكن ليس معنى إطلاق إرادته عزّ وجلّ، أنه قد يريد مرادات على خلاف علمه الشامل وحكمته وعدله، لأنه سبحانه وتعالى عليم حكيم عدل، كما هو مريد يفعل ما يشاء.

ومن مقتضى اجتماع صفات الإرادة الحرّة المختارة والعلم والحكمة والعدل أن لا يصدر عن هذه الإرادة إلاّ ما هو حكيم، ولا يتنافى مع علمه الشامل وعدله، فهو سبحانه لا يريد إيجاد المستحيلات، ولا يريد الظلم، ولا يريد خلاف ما التزم به من وعد، ولا يريد ما حرّمه على نفسه، وإلاّ تعطّلت صفة الحكمة، أو صفة العلم الشامل، أو صفة العدل.

مع أنّ الحقيقة في صفات الله عزّ وجلّ حقيقة مركّبة من كلّ صفات الله وأسمائه الحسنى، وهذه الصفات لا تتعارض، ولا تتناقض، ولا يطغىٰ بعضها على بعض.

فلا يصحّ لنا أن نعطّل بعضها من أجل فهمنا الخاطىء لأبعاد وحدود بعضها الآخر.

وكذلك نقول في ذي السلطان الحكيم العادل، وفي القاضي العليم العادل، إنّه يأمر بما يشاء، ويحكم بما يشاء، وهو مع ذلك لا يأمر إلّا بما فيه الحكمة، ولا يحكم إلّا بالعدل، دون إجبار، بل هو يُحسن الاختيار بمقتضى جملة صفاته، ولا تنفرد صفة واحدة فتستأثر وتتسلّط.

وبسبب الخطأ في فهم حدود أجزاء الحقيقة المركبة في الصفات، سقط فريق من المفكرين في الجبر، وهو خطأ فاحش، وفريق آخر في الطرف الأقصى المقابل وهو خطأ، ولم يتنبّه كلٌّ منهما إلى الوسط الحقّ.

٤ ـ ونمثل للحقائق المركبة من المفاهيم الدينية بما وعد الله المؤمنين من النصر المبين على الكافرين.

فالنصر الموعود به مشروط بقيام المؤمنين بجملة واجبات وشروط تكوّن في مجموعها حقيقة مركّبة، وليس من حقهم أن يطالبوا ربّهم بتحقيق الوعد، ما لم يستكملوا في أنفسهم الحقيقة التي جعلها الله سبحانه شرطاً لإمدادهم بالنصر الذي يُحبُّون.

ويخطىء بعض طالبي نصر المؤمنين على الكافرين، فيأخذون جزءاً أو جملة أجزاء غير مستوفية من هذه الحقيقة المركبة التي لكلّ جزء منها حدود ومقادير وشروط كيفيّة، فإذا حقَّقَ هذا الجزء، أو هذه الجملة من الأجزاء غير المستوفية لعناصر الحقيقة المركبة، أخذ يطالب ربّه بتحقيق النصر الذي وعد به، فإذا لم يحقق الله له النصر عتب على ربّه، أو شك في أصل الوعد، أو فُتِن عن دينه.

كأن يأخذ مثلاً مفهوم قول الله عزّ وجل: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبتْ أقدامكم﴾ ويقتصر عليه. مع أنّه خطاب للذين استكملوا كلّ الواجبات والشروط المادّية لمواجهة الأعداء في معركة قتالية، ولم يبقَ عليهم إلّا أن يتحققوا عند القتال بالواجب المعنوي النفسي، الذي يحدّدون به الغاية من قتال أعدائهم، ويضعونه ملْء قلوبهم وتصوراتهم عند القتال، ألا وهو ابتغاء نصرة الله، لا السعي وراء مطامع أنفسهم العاجلة، ومطالبها من الحياة الدنيا.

إنّ مضمون قول الله تعالى: ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ ليس حقيقة مستقلّة بسيطة، إنما هو جزء من حقيقة مركّبة من أجزاء كثيرة، كلّ جزء منها له حقيقة ذات حدود ومقادير، ضمن الحقيقة المركبة الكليّة.

والحقيقة المركبة التي تقع هذه الحقيقة جزءاً من أجزائها، تجمع نظاماً شاملاً للدعوة، ولتكوين القاعدة الإسلامية العريضة، ولإعداد القوى الكافية لمواجهة الأعداء.

وفي بحث «الجهاد في سبيل الله» وبحث «الفهم الإسلامي الصحيح لقضية اتخاذ الأسباب مع التوكل على الله» من هذه «البصائر» شرح كافٍ لهذه القضية.

ولا يغيبنّ عن تصوّرنا أنّ إخلال المسلمين في معركة أحد ببعض الأجزاء من هذه الحقيقة المركّبة، مع استيفائهم لسائر العناصر الأخرى، قد جعل رياح النصر تتحوّل عنهم، مع أنّ الرسول قائدهم فيها.

وكذلك في معركة «حُنَين» فقد كان اغترار المسلمين بكثرتهم سبباً كافياً لتحويل رياح النصر عنهم أوّل الأمر، رغم استيفائهم لسائر العناصر والشروط الأخرىٰ، ورغم كون الرسول ﷺ قائدهم فيها.

وتابعهم القرآن بالنقد والتشريح، وتسجيل ذلك عليهم في كتابه.

وكان فشل المسلمين في أحد، وهزيمتهم أوّلاً في حُنَين، ضمن سنن الله التي لا يجامل فيها أحداً. ثم لم يكن من حقّ أصحاب رسول الله ﷺ أن يعتبوا على ربّهم إذْ أنزل فيهم ما أنزل، مع أنّ الجماعة كلّها قد أصيبت بسبب إخلال بعضهم ببعض الأجزاء الواجبة عليهم من الحقيقة الكليّة، التي يأتي النصر في خاتمتها، ويكون هو الجزء الأخير منها.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الشجاعة والبطولة النادرة جزء مهمٌّ من الأجزاء التي يتحقّق بها النصر، ولكنّها من دون القوة الكافية لمجابهة قوة العدوّ تغدو تهوُّراً سخيفاً، وتورّطاً في أعمالٍ انتحاريّة لا جدوى منها، بل قد تكون ضارّة ومفسدة، وهي في أدنى الحدود كمن يفجّر في الهواء بلا فائدة ذخيرة غالية جدّاً، ونادرة جدّاً، ليستمتع بصوت الانفجار، أو ليرى ناره العظيمة أو دخانه الكثيف.

وقد كان المسلمون الأولون المجاهدون في سبيل الله من السلف الصالح على بصيرة تامّة، من أنّ النصر قد يتحوّل عنهم إذا أخلُّوا بواحد من أجزاء الحقيقة المركّبة المطلوبة منهم، وكانوا إذا تأخّر عليهم نصر الله وفتحه، راجعوا أعمالهم، وبحثوا في أنفسهم عن التقصيرات التي توجد في جيوشهم، أو عن المخالفات التي ربّما وقع فيها بعضهم، ليتداركوا الأمر، وعندئذٍ يأتيهم نصر الله والفتح، ويفرح المؤمنون بتحقيق وعد الله.

إنهم لم يكونوا يشكّون في وعد الله، إنّما كانوا يبحثون عن الأسباب التي يجب عليهم أن يستوفوها حتى يحقّق الله لهم وعده.

٥ ـ ونمثّل للحقائق المركّبة من المفاهيم الدينية أيضاً بمناهج الإصلاح، لتبصير المجتمع الإنساني بمنهج الله، وتربيته على الأخلاق الإسلامية، والسلوك الإسلامي في نواحي الحياة.

لقد تعلّمنا من سنن الله في البناء أنّ البناء لا يتمّ إلاّ بألوف

العمليات، وأنّه لا يتمّ إلاّ وفق مراحل، وأنّ هذه المراحل لا بدّ أن تخضع لنظام ترتيبها الطبيعي.

فلا يجوز لنا أن نعكس ترتيب الأشياء، ونجعلها على خلاف طبائعها، ولا يجوز لنا أن نسير بها على خلاف أنظمتها، فنفرش مثلاً أثاث البناء الذي لم يُبنَ بعدُ في هواء المكان المعدّ له، ثمّ ندهن هواء الجدران والسقوف، ثم نضع السقوف فالجدران، فالعضادات، فالأساس، ثم نحفر للأساس في الأرض.

إنّ الترتيب الطبيعي هو عكس هذا تماماً، فلا يجوز الإخلال بالترتيب الطبيعي ولو جزئيّاً، إنّ الإخلال بالترتيب الطبيعي مفسد، أو معوّق، أو مانع من تحقيق المطلوب كلّيّاً.

ولقد تعلّمنا من سنن الله في المجتمع البشري أنّ الناس متفاوتون في هباتهم وفي خصائصهم، وأنّ الواحد منهم لا يستطيع أن يقوم بكلّ الأعمال، وأنّ أفضل توزيع للأعمال هو ما كان ملائماً لتوزّع الهبات والاختصاصات في الناس، بذلك يقضي النظام الطبيعي الذي فطر الله الناس عليه.

ندخل معملاً من المعامل الكبيرة لصنع آلة ميكانيكيّة، فنرى أنّ هذه الآلة قد تحتاج لمئات العمليات الجزئية، بل لآلافها أحياناً.

ونرى أنّ العمّال موزَّعون إلى وحدات عمل، قد لا يتجاوز تخصّص بعضهم عملية واحدة، إذا أنهاها سلّم القطعة لغيره، وهكذا حتّىٰ تتجمّع الأجزاء كلها في آخر طريق الوحدات عند وحدة التجميع الأخير، وهنا في فقرة الختام نشاهد القطعة الميكانيكيّة جاهزة بكلّ عناصرها، مركبّة تركيبها المطلوب.

وأيّ خلل في أيّ جزءٍ من أجزاء الآلة تكون المسؤولية فيه على وحدة العمل الخاصة بصناعته، ضمن التنظيم العام لوحدات العاملين.

كذلك ينبغي أن تكون خطط دعاة الأمّة الإسلامية وموجّهيها لبناء المجتمع الإسلامي.

فمن يصلح منهم للتعليم يوجّه له، ومن يصلح للتصنيع يوجّه له، ومن يصلح للتربية يوجّه لها، ومن يصلح للإرشاد والنّصح يوجّه له، ومن يصلح لأن يكون جندياً يُعدّ لهذه المهمة، وهكذا إلى سائر الوظائف اللازمة لبناء المجتمع الإسلامي.

ومن الأخطاء الفاحشة المفسدة الإخلال بمقتضيات التوزيع الحكيم، أو تكليف الكلّ بالكلّ، فمثل هذا التكليف يفوّت ميزة الإتقان، وميزة التكامل، وقد يجعل بعض الأعمال تستأثر بكلّ الجهد، وتبقى أعمال أخرى محرومة من أي جهد يوجّه لإنفاذها وإنجازها، وقد تتضارب الأعمال فيبدّد بعضها بعضاً، ويفسد بعضها بعضاً.

وقد توجد أعمال عامّة على الجميع أن يتدرّبوا عليها، وأن يشارك كلٌّ منهم فيها على مقدار استطاعته، كأعمال الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، وكأعمال الدفاع والكرّ والفرّ، وكالقدرة على استخدام الأسلحة المختلفة.

والتنظيم الحكيم كفيل بأن يخصّص لهذه المشاركة وقتاً لا يؤثّر على الوظيفة التخصّصية لكلٍّ منهم.

ومن الجهل الكبير بفقه هذه السياسة التي تقتضيها طبيعة المجتمع البشري توجيه اللوم للعلماء المتفرّغين للعلم والتعليم أيّاً كان اختصاصهم، أو للدعاة المتفرّغين للدعوة إلى الله والنصح والإرشاد، لأنّهم لا يحملون السلاح للقتال في سبيل الله، ولا يخوضون المعارك السياسية مع الخائضين.

إنّ أكثر هؤلاء لا ينفعون في القتال، ولو دخلوه لكان ضررهم أكثر من نفعهم، ولا يصلحون أيضاً للسياسة ولا للإدارة، ولو دخلوا شيئاً من ذلك لكان إفسادهم أكثر من إصلاحهم، لا نقصاً في دينهم أو

إخلاصهم، ولكنّ لأن قدراتهم وهباتهم الفكرية والنفسية ليست مؤهلة للقيام بمثل هذه الأعمال التي تحتاج إلى قدرات خاصة فكرية ونفسية وجسدية تؤهل لها.

حسب العالم المؤهّل للعلم والتعليم فقط وحسب الداعي المؤهل للدعوة فقط أن يقوم كل منهما بوظيفته، فإذا نبغ من العلماء من هو أهل للحرب أو للسياسة أو للإدارة رشّحه المسلمون لذلك. وإذا نبغ من الدعاة المتفرغين للدعوة إلى الله من هو أهل لشيء من ذلك رشّحه المسلمون له، ودفعوه إليه.

وإلّا فعلى هؤلاء وهؤلاء أن يقوموا بوظائفهم التي هم مؤهّلون لها على قدر استطاعاتهم، ويختار كلٌ منهم من الأساليب المأذون بها شرعاً ما يناسب نموذجه وطبعه، بشرط التزامه بالمنهج الربّاني العام، واتّباعه لسنة الرسول ﷺ، في المجال الذي تفرَّغ له من مجالات العمل الإسلامي.

ولكن يحلو للكثيرين إلقاء التبعة على فئة من الناس غير فئتهم، ليحرّروا أنفسهم من التبعة، ويتهرّبوا من مسؤوليات العمل، وكثير منهم لا يؤدّي وظيفة عمل إسلاميّ صحيح من خلال اختصاصه، وما يستطيع من عمل بحسب هباته التي وهبه الله إياها.

وسنة الرسول العملية والقولية تبيّن لنا أنّه كان صلوات الله عليه ينظر في الرجال، فيوجّه كُلًّا منهم لنوع الاختصاص الذي يحسنه من أنواع العمل الإسلامي الكثيرة المختلفة، فيختار القادة الحربيين انتقاء، ويختار أهل الرأي والمشورة، ممن لهم قدرات إدارية وسياسية انتقاء، ويوجّه لحفظ العلم فريقاً يرى فيهم ذلك، ويوجّه لتعلّم لغات الناس وألسنتهم من يرى لديه أهلية ممتازة لذلك.

وحين تنطّح أبو ذرّ رضي الله عنه للإمارة لم يولّه ﷺ، وأبان له أنها أمانة وأنّ هباته الخاصة ضعيفة لا تقدر على حملها، ونصحه بأن لا يقبلها

يوماً من الأيّام، لأنّه لا يقوى على حمل الأمانة.

٦ ـ ونمثّل للحقائق المركَّبة من المفاهيم الدينية أيضاً بالعبادات، فكل عبادة من العبادات الإسلامية حقيقة مركّبة من أركان وشروط، والإخلال بواحد منها قد يفسدها.

وفوق الأركان والشروط سنن وآداب هي من درجات الكمال والإحسان فيها.

٧ ـ ونمثّل للحقائق المركبة بشروط الاجتهاد في الدين لاستنباط الأحكام الشرعية.

فإذا قال قائل: لديّ الإخلاص العظيم، والغَيْرة على الدين، وعندي الإيمان بالله واليوم الآخر، وأنطق باللّغة العربية، والله يرشدني طريقي إذا أنا باشرت استنباط الأحكام الشرعية من النصوص الإسلامية، ومن مصادر التشريع الأخرى.

ولم يكن لديه العلم ولا الأهلية المناسبة لاستنباط الأحكام الشرعية من مصادرها.

أفيجوز عقلاً وشرعاً أن نسمح له بأن يكون مجتهداً يستنبط أحكام الدين بنفسه من مصادر التشريع؟!.

إنّ الإيمان والإخلاص لا يكفيان وحدهما لاستنباط الأحكام الشرعية من مصادرها، فالأهلية للاجتهاد حقيقة مركبة من جملة أجزاء وعناصر، منها: الإيمان، والإخلاص، والعلم بالكتاب والسنة، والاطِّلاع على فقه فقهاء الصحابة والتابعين، والعلم باللّغة وأصولها وضوابطها، وغير ذلك ممّا بيّنه العلماء، مع القدرات الذهنية الخاصة المؤهلة للاستنباط.

فإذا وُجِدت هذه الأهلية للاجتهاد في إنسان جاز له أن يجتهد، بل ربّما وجب عليه أن يجتهد فيما يجدّ من مسائل ومشكلات، ليبين للناس

الحكم الذي يجب عليهم أن يتّبعوه، مستنبطاً من مصادر التشريع.

أمّا من اجتهد أو تنطّح لهذا العمل الخطير الجليل دون أن يكون أهلاً له، فهو معتدٍ جائر، يفتئت على دين الله، ويفتي بغير علم، ويُضر ويُفسد، ويَضل ويُضِل.

٨ ـ ونمثّل للحقائق المركّبة بالأهلية للقيام بالأعمال السياسية، أو الأعمال الإدارية، فهي حقيقة مركبة من أركان وشروط فكريّة ونفسيّة وخلُقية، مع شروط الإيمان والتقوى، ومع وجود الظروف الاجتماعية المواتية.

فلا تكفي فيها الغَيْرة لإقامة الحكم الإسلامي، أو القدرة على الحركة التنظيمية الحزبية، أو القدرة على الدعاية وبثّ الأفكار، أو القدرة على تصيُّد الموالين، أو القدرة على مغالبة الخصوم بمؤامرات الكيد، إلى غير ذلك ممّا مهرته الأحزاب، والتكتلات التي لا تتقي الله في أعمالها.

٩ ـ ممّا سبق يظهر لنا بوضوح أنّ الحقائق الشرعية حلالها وحرامها، وواجبها ومندوبها ومكروهها ذوات حدود:

- فالنقص عن هذه الحدود تفريط.
- والزيادة على هذه الحدود غُلوّ.
- والانحراف عنها في العمل معصية، فإذا كان هذا الانحراف ناقضاً من نواقض الإيمان فهو معصية من درجة الكفر.
- والتغيير في هذه الحدود الدينيّة، أو إدخال مفاهيم ما أنزل الله بها من سلطان، ابتداع وتحريف، فإنْ مسّ شيءٌ من ذلك جانب العقيدة بناقض من نواقض الإيمان فهو كفر. وإن كان في الأحكام والتشريعات فهو افتئات على الدين، وتشريع بما لم يأذن به الله، وهو عدوان على خصائص الربوبيّة، وإن كان غُلُوّاً في عبادات أجناسها مشروعة والغلوّ فيها غير مشروع فهي رهبانية لم يأذن بها الله في دين الإسلام.

قال الإمام ابن تيميّة:

«فإنّ أقواماً استحلُّوا بعض ما حرّم الله، وأقواماً حرَّمُوا بعض ما أحلَّ الله، وكذلك أقوامٌ أحدثُوا عبادات لم يشرعها الله، بل نهىٰ عنها.

وأصل الدين: أنّ الحلال ما أحلّه الله ورسوله، والحرام ما حرّمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله، ليس لأحد أن يخرج عن الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله، قال الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفرَّق بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُون ﴾[١].

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنّه خَطَّ خطّاً، وخَطَّ خُطُوطاً عن يمينه وشماله، ثمّ قال: «هذه سبيل الله، وهذه سُبُل، على كُلِّ سبيل منها شيطانٌ يدعو إليه» ثمّ قرأ: ﴿ وأنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّق بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾.

وقد ذكر الله تعالى في سورتي الأنعام والأعراف ما ذَمّ به المشركين، حيث حرّموا ما لم يحرّمه الله تعالى، كالبحيرة والسائبة، واستحلّوا ما حرَّمه الله، كقتل أولادهم، وشرعوا ديناً لم يَأْذَنْ به الله، فقال تعالى:

﴿ أمْ لَهُمْ شُركاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ الله؟ ﴾[٢].

ومنه أشياء محرّمة جعلوها عبادات، كالشِّرك، والفواحش، مثل الطّواف بالبيت عراة، وغير ذلك» انتهى[٣].

وقال رحمه الله في موضع آخر[٤]:

«والعبادات الدينيّة أُصولُها الصلاة والصيام والقراءة. ولمّا كانت هذه العبادات هي المعروفة، قال: (أي: رسول الله ﷺ) في حديث الخوارج الذي في الصحيحين:

---

(١) الأنعام آية ١٥٣.

(٢) الشورى آية ٢١.

(٣) انظر الفتاوى الكبرى المجلد العاشر ص ٣٨٨.

(٤) الفتاوى الكبرى المجلد العاشر ص ٣٩١ ـ ٣٩٢.

«يَحْقِرُ أحدكُم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءته مع قراءتهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يَمْرُقُونَ من الدين كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّة».

فذكر اجتهادهم بالصلاة والصيام والقراءة، وأنّهم يغلون في ذلك، حتّى تحقر الصحابة عبادتهم في جنب عبادة هؤلاء.

وهؤلاء غَلَوْا في العبادات بلا فقه، فآل الأمر بهم إلى البدعة، فقال: «يَمْرُقُون مِنَ الإِسْلَام كَما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِن الرَّمِيَّة، أينما وجَدْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهم، فإنّ في قَتْلِهِمْ أجراً عِند الله لمن قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَة».

فإنّهم قد استحلُّوا دماء المسلمين، وكفَّرُوا من خالفهم، وجاءت فيهم الأحاديث الصحيحة.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: صحّ فيهم الحديث من عشرة أوجه، وقد أخرجها مسلم في صحيحه، وأخرج البخاريُّ قطعةً منها» انتهى .

وقال رحمه الله في موضع آخر[١]:

«ولا يجوز أن يقال: إنَّ هذا مُستحبٌّ أو مشروع إلّا بدليل شرعي، ولا يجوز أنْ يثبت شريعةٌ بحديث ضعيف، لكن إذا ثبت أنّ العمل مستحبٌّ بدليل شرعي، وروي له فضائل بأسانيد ضعيفة جاز أن تُروىٰ إذا لم يُعْلَمُ أنَّها كذب، وذلك أنّ مقادير الثواب غير معلومة، فإذا رُويَ في مقدار الثواب حديثُ لا يُعرَفُ أنّه كذب، لم يجُزْ أنْ يُكَذَّبَ به.

وهذا هو الذي كان الإمام أحمد بن حنبل وغيره يُرخّصُونَ فيه، وفي رواية أحاديث الفضائل، وأمَّا أن يثبتُوا أنّ هذا عَمَلٌ مستحبٌّ مشروع بحديثٍ ضعيف فحاشا لله.

وما فعله الرسول ﷺ على وجه التعبُّد فهو عبادة يُشْرَعُ التأسِّي به

---

(١) الفتاوى الكبرى، المجلّد العاشر ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

فيه، فإذا خُصِّص زمان أو مكان بعبادة كان تخصيصه بتلك العبادة سُنَّةً» انتهى.

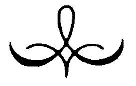
وقال رحمه الله في موضع آخر[1]:

«قول بعض الناس: (الثواب على قدر المشقة) ليس بمستقيم على الإطلاق، كما قد يستدلّ به طوائف على أنواع الرهبانيّات، والعبادات المبتدعة، التي لم يشرعها الله ورسوله، من جنس تحريمات المشركين وغيرهم، ممّا أحلّ الله من الطيبات، ومثل التعمّق والتنطّع، الذي ذمّه النبيّ ﷺ حيث قال: «هَلَكَ المتنطِّعون».

مثل الجوع أو العطش المفرط الذي يضرّ العقل والجسم، ويمنع أداء واجبات أو مستحبّات أنفع منه، وكذلك الاحتفاء والتعرّي، والمشي الذي يضرّ الإنسان بلا فائدة...» اهـ.

واستدرك ابن تيمية رحمه الله، فذكر أنّ العمل المطلوب شرعاً قد لا يتحقّق إلّا بمشقّةٍ زائدة لظروف طارئة، أو أصليّة، وفي هذه الحالة يزيد الأجر بمقدار زيادة المشقة، فقال:

«فكثيراً ما يكثُر الثواب على قدر المشقة والتعب، لا لِأَنّ التعب والمشقة مقصودٌ من العمل، ولكن لأنّ العمل مستلزم للمشقّة والتعب، هذا في شرعنا، الذي رفعت عنّا فيه الآصار والأغلال، ولم يُجْعَل علينا فيه حرج، ولا أُرِيدَ بنا فيه الْعُسر» انتهى.



(١) الفتاوى الكبرى، المجلّد العاشر ص ٦٢٠ ـ ٦٢١.



الفصل الثاني

تمهيد حول مفاهيم التفريط والغلوّ

(١)

أمثلة:

١ ـ الإسراف في الأكل والشرب غلوٌّ يجلب الداء وقد يقتل، والإسراف في الجوع والعطش تفريط قد يوقع في السقم الشنيع وقد يقتل.

والوسط النافع هو الاعتدال من غير إسراف في الزيادة ولا في النقصان.

والاعتدال هنا ذو مراتب: عليا ـ ووسطى ـ ودنيا.

فالعليا هي التي أرشد إليها الرسول ﷺ بقوله: «بحسب آبن آدم لقيماتٌ يُقِمْنَ صُلْبه».

والوسطى ما زاد على اللقيمات اللواتي يُقِمْنَ الصلب حتى المرتبة الدنيا.

والدنيا هي التي بيّنها الرسول ﷺ بقوله: «فإنْ كان لا بدّ فاعلاً، فثلُثٌ لطعامه، وثلُث لشرابه، وثلُثٌ لنَفَسِه».

٢ ـ والإسراف في الكدّ والعمل من دون راحة غلوٌّ مسقم أو مهلك، والإسراف في الراحة والكسل وترك العمل تفريط بحقّ الجسم والنفس مسقم ضارّ، وقد يهلك صاحبه.

والوسط النافع هو الاعتدال من غير إسراف في بذل الجهد، ولا إسراف في الإخلاد إلى الراحة وترك العمل.

والاعتدال هنا ذو مراتب: أدناها مرتبة العمل الواجب، وأوسطها مرتبة العمل المبرور الزائد على الواجب، وأعلاها مرتبة الإحسان في العمل، وهو العمل الكامل الذي لا لهو فيه ولا لعب، مع أخذ الواجب من الراحة ومن الترويح عن النفس.

٣ ـ والإسراف في الحبّ غلوّ ضارٌّ وقد يُهلك صاحبه، والإسراف في ضبط العاطفة تفريط قد يوقع صاحبه في جفاف العاطفة، فالأنانية الشنيعة، فالكراهية الكئيبة والبغض المقيت الضارّ، فالوحشية التي تخشىٰ من كلٍّ شيء، وتبغض كلّ شيء.

والوسط النافع هو الاعتدال من غير إسراف في الحبّ، ولا إسراف في ضبط العاطفة، كما قال الرسول ﷺ: «أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسىٰ أن يكون حبيبك يوماً ما». حديث حسن رواه الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة. ورواه غيرهما.

والاعتدال هنا ذو مراتب، أدناها مرتبة الحبّ الواجب، وأوسطها مرتبة الحبّ المبرور، وأعلاها كمال الحبّ في الله.

وما هو دون المرتبة الدنيا تفريط، وما هو بعد المرتبة العليا منحدر الغلوّ.

٤ ـ والضوء للإبصار إذا نقص عن أقلّ ما يجب في القراءة أضرّ بالبصرِ وآذاه، وربما أضعفه جدّاً حتى تسبّب في انعدامه بعد حين. وإذا زاد جدّاً فتجاوز مرتبة الكمال العليا أجهر البصر وآذاه، وربّما أضعفه، وربّما اختطفه.

وبين الحدّين الأدنى والأعلى ثلاث مراتب: مرتبة واجبة، ومرتبة

حسنة وسطى تقع فيها درجات التوسّع الحسن غير الواجب، وفيها نفع، ثم مرتبة عليا تقع فيها درجات الكمال النسبي، وبعد آخر درجة من درجات هذه المرتبة العليا تهوي دركات الغلوّ الضارّ.

وهكذا ظهر لنا: أنّ بعض الحقائق، لها ضمن حدودها ومقاديرها التي بها تُحقَّق الغايات منها، مراتب دنيا، ووسطى، وعليا.

وظهر لنا: أن النزول عن دنيا هذه المراتب تفريط بأقلّ ما يجب فيها، وهو مذموم، وقد يكون ضارّاً، وأنّ تجاوز حدود علياها غلوّ، وهو أيضاً مذموم، وقد يكون ضارّاً، أو فيه عدوان على ما هو لغيرها من حقائق.

وأضيف أنّ هذه المراتب ربّما يكون كلٌّ منها ذا درجات متفاوتات، فقد علَّمتنا الملاحظة المتكرِّرة للأشياء المادّية والمعنويّة أنّها جميعاً ذات درجات متفاوتات.

الحرارة تبدأ تصاعداً من الصفر، وتنازلاً تحته. والقوّة تتصاعد مع تصاعد الأعداد، ودون أصغر الدرجات انعدام القوّة نهائيّاً وبصفة كلّية. والبصر ذو درجات، والسمع ذو درجات، وسائر الحواس كذلك. والعلم بالشيء ذي الصفات يتفاوت، والإيمان ذو درجات، والكفر ذو دركات. والحبّ والبغض كذلك.

فالتفاضل قاعدة الوجود التي يندر فيها الاستثناء.

(٢)

ويوجد قسم من الحقائق تضيق مسافة حدودها ومقاديرها، فلا نكاد ندرك لها مراتب أو درجات لهذه المراتب، حتى يبدو لنا أنها قوالب لا تحتمل المخالفة بأقلّ المقادير وأدناها، فهي لا تنطبق إلاّ على ما يماثلها تماماً، فما نقص عن حدودها ومقاديرها من أيّ طرف من أطرافها أو جانب

من جوانبها كان تفريطاً، وما زاد على حدودها ومقاديرها من أي طرف من أطرافها أو جانب من جوانبها كان غلوّاً.

أمثلة:

١ ـ فالخوذة إنْ نقصت عن دائرة رأس صاحبها لم تصلح، إذْ لا يدخل الرأس فيها، بسبب التفريط في حقّ الرأس ومقدار دائرته. وإن زادت على دائرة الرأس لم تصلح، إذْ لا تثبت على الرأس، ولا يمسك الرأس بها، بسبب الغلوّ في توسيع بطنها.

٢ ـ والمسامير اللّولبية في الآلات الدقيقة التي جعلت فيها ثقوب لولبية ذات حدود ومقادير شديدة التركيز، لا تصلح ما لم تكن على وفق حدود ثقوبها ومقاديرها تماماً.

فإنْ زادت لم تدخل، وكان ذلك بسبب الغلوّ فيها عن حدودها ومقاديرها.

وإن نقصت دخلت، ولكن لم تؤدّ وظيفة الربط والإمساك المطلوب، وكان ذلك بسبب التفريط بما يجب فيها.

٣ ـ وبعض مفاتيح الأقفال كذلك لا تقبل الزيادة ولا النقص، بل لا يصح فيها إلاّ صورة واحدة كاملة.

وهذه أمثلة تقريبية.

٤ ـ ونواتج الأعمال الحسابية لها قوالب مطابقة لها تماماً، لا تقبل زيادة ولا نقصاً، فما زاد منها عن قالبه كان غلوّاً مرفوضاً، وما نقص منها عن قالبه كان تفريطاً مرفوضاً.

وهذا مثالٌ تحديدي.

٥ ـ وصكوك العقود والعهود يجب أن تطابق مطابقة كاملة ما تمَّ عليه العقد

أو العهد، دون زيادة ولا نقصان، وهو ما بينه الله عزّ وجل بقوله في آية المداينة التي في آخر سورة (البقرة ٢):

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمّىً فاكتبوه، وليكتبْ بينكم كاتب بالعدل، ولا يأبَ كاتب أن يكتب كما علّمه الله، فلْيكتبْ، ولْيُمْلِلِ الذي عليه الحقُّ، وليتّقِ الله ربّه، ولا يبخسْ منه شيئاً ﴾.

وبقوله عزّ وجل فيها:

﴿ ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله. ذلكم أقسط عند الله، وأقوم للشهادة، وأدنى ألّا ترتابوا (٢٨٢) ﴾.

(٣)

التفريط والغلوّ في الدين

أوّلاً: التفريط في الدين يكون بتقليص حدود الله، والنقص من مساحة حقوق الدين، أو بمجافاة هذه الحدود وعدم القيام بأيّ حقٍّ من حقوق الدين.

ويكون التفريط في الدين بسبب عدم الاهتمام بالمحافظة على حدود الله، وعدم الرغبة بالتزامها، أو القيام بحقوق الدين وواجباته، من ضعف الانتماء إلى الدين، أو الولاء له، أو من انعدامهما، وذلك يرجع إلى تناقص الإيمان إلى درجة الصفر، أو إلى غيبوبته عن التصوّر العامل المؤثر.

والتفريط في الدين إنْ لم يكن من مستوى الكفر والجحود، فهو اتباعٌ للهوى، وإيثارٌ للشهوات، وحبٌّ للعاجلة، وتركٌ للآخرة، وقد يصل ذلك إلى مستوى الرغبة بالفجور، وهو الانطلاق الوقح في المعاصي والآثام دون أيّ كابحٍ ضابط.

ثانياً: والغلوّ في الدين يكون بتجاوز حدود الله فيه، توسعاً في مساحة الدين المحدّدة بهذه الحدود.

ويكون الغلوّ في الدين بسبب المبالغة في الاندفاع القوي دون بصيرة، بغيةَ السّبق للظفر بأعلى الدرجات في الدين، واحتلالِ أرفع المنازل، ويرافق هذا الاندفاع حركة متسرّعة هوجاء، يكون معها قفزٌ أرعن، وتعمّق غير محمود، واضطراب في الرؤية، وفساد في تصوّر الحقيقة.

وقد يكون الغلوّ في الدين بسبب سوء فهم حقيقة الدينٍ، إمّا من اجتهادات المغالي نفسه، أو من اجتهادات إمامه وقائده الذي يتّبعه، ومن ذلك إدخال الرأي الشخصي في قضايا الدين وأحكامه وشرائعه، وجنوح الفكر عن الرؤية الصحيحة لحدود الدين، وترك الاتّباع الموقع في الابتداع.

وقد يكون الغلوّ في الدين بسبب الرغبة في احتلال مركز الاحترام والتقديس عند العامّة، الذين يرون الغلوّ في الدين ارتقاء في مراتبه، ولا يفهمون أنّ كمال التديّن بالتزام حدود الدين دون تفريط ولا غلوّ.

ومع الرغبة في احتلال مركز الاحترام والتقديس، تأتي رغبات أخرى، منها منافع دنيوية ماليّة وغيرها، وبعض الغلوّ يكون بمثابة ستور مصطنعة لإخفاء قبائِح ومعاصي من كبائر الإثم.

وبعض الغُلاة منافقون كفرة، مندسّون لإفساد مفاهيم الدين والتحريف فيها.

فالغلوّ في الدين خروجٌ عن حدود الدين، مع زعم الانتماء إليه، وشدّة الولاء له، ويكون من سوء التصوّر وفساده، أو من الكيد للدين والمكر به.

ويصحب الغلوّ دائماً جهل وتعصّب وهوى، وتزيّنُهُ وساوس الشيطان وتلبيسات إبليس.

ثالثاً: وكلٌّ من التفريط والغلوّ يكون في الأركان الأربعة التالية:

١ ـ العقائد والمفاهيم الدينية الأساسية.

٢ ـ الأحكام التشريعية.

٣ ـ السلوك الديني.

٤ ـ الولاء للدين أو باسم الدين.

وفي الفصول التالية شرح للتفريط والغلو في هذه الأركان.



الفصل الثالث

بيانُ التّفريط والغُلُوّ
في العقائد والمفاهيم الدينيّة الأساسيّة

(١)

مقدمة :

إنّ العقيدة الإسلامية تعتمد على الحقّ، والحقّ ذو حدود لها بدايات ولها نهايات، وداخل حدود الحقّ مساحته الفكرية، فما كان وراء حدود الحق فهو الباطل، سواء أكان قبل البدايات أو بعد النهايات، إنّه ليس بعد الحقّ إلّا الضلال.

فمن أخذ ببدايات حدود الحق فعليه أن يستمر داخل الحدود، حتى يستغرق مساحة الحقّ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وعليه أن يكون على حذر من التجاوز وهو يظنّ أنّه يستوفي مساحة الحقّ استغراقاً، فإذا تجاوز الحدود سقط في الباطل لا محالة، وكان ذلك غلوّاً، وعليه أيضاً أن يكون على حذر من إخراج بعض مساحة الحق، واعتبارها ليست منه، فإن فعل شيئاً من ذلك سقط في الباطل لا محالة، وكان ذلك تفريطاً.

فلنبحث في كلٍّ من التفريط والغلوّ في العقائد والمفاهيم الدينية الأساسية :

(٢)

التفريط في العقائد والمفاهيم الأساسية :

ويكون التفريط في العقائد أو في المفاهيم الدينيّة الأساسية، بالتهاون في القضايا التي تدخل في هذه المجالات، والتسامح في عدم الأخذ بها.

ويكون أيضاً بتوسيع حدودها وانسياحها، أو بتقليص حدودها، أو بإزاحة مواضعها، أو بتغيير صفاتها أو شروطها أو أركانها، تهاوناً وقلة مبالاةٍ بالتزام حدود الحقّ، وباستغراق مساحته على قدر الاستطاعة.

هذا التهاون في قضايا العقائد والمفاهيم الدينيّة الأساسية من شأنه أن يفسد هذه العقائد والمفاهيم، ويجعلها عرضة للتحريف أو الابتداع، وبمرور الزمن يدخل في مفاهيم الدين وعقائده ما ليس منها، ويخرج من مفاهيم الدين وعقائده ما هو منها، ويتحوّل الدين فيكون أوضاعاً بشرية تعبث بها الأهواء، ويتلاعب بها الشياطين، وأصحاب المصالح الخاصة، وأهل الأهواء.

وكم من بدع دخلت في مفاهيم الدين وعقائده عند الجهلة، ولدى كثير من الفرق، بسبب هذا التهاون الذي أدّى إلى التفريط، فإلى ألوان من البدع الباطلات، والتخريفات السخيفات.

فلا يجوز التهاون في عقيدة ثابتة عقلاً أو شرعاً بصفةٍ قطعية، كالإيمان بالله وصفاته وكمالاته وأسمائه الحسنى، وكالإيمان بالملائكة والجنّ، والإيمان بسائر الأخبار القطعية من أنباء الغيب الحاضر، أو الغيوب الماضية أو الآتية، وكلّ ما جاءت به قواطع النصوص الدينية ذات الدلالات القطعية، في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وكالإيمان بكلّ ما تواتر عن رسول الله ﷺ وثبت بصفة قطعية، وفي مقدمة ذلك القرآن المجيد الشامل لكل آية منه وجزء آية، والشامل لكل رواياته المتواترة.

ولا يجوز التهاون في أيّة عقيدة يحكم شرعاً على منكرها بالكفر أو بالفسق.

وكذلك لا يجوز التهاون في المفاهيم الدينية المبينة في كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة، كمفاهيم سنن الله التكوينية، أو الجزائية، أو التكليفيّة، وكالمفاهيم الموصولة بالعقائد، والمفاهيم الأخلاقية والتشريعية العامّة، وغير ذلك.

ومن هذا التهاون التقصير في حفظ النصوص، وحفظ مفاهيمها، والتقصر في تبليغها، ونقلها إلى الأجيال، من سَلَف إلى خَلَف.

وبسبب التفريط في الاعتقادات والمفاهيم الدينية تمسّكاً، وحفظاً، وتبليغاً مُوثَّقاً، نُسيت العقائد والمفاهيم الدينيّة الصحيحة المنزّلة على الأمم السابقة، ودخل في أديانهم تحريف كثير، ولو أنها بقيت على أصولها كما أنزلت لاكتشف الناس وحدة الأديان الرّبانية كلّها، وتكميل اللاَّحق منها للسّابق مراعاة لتطوّر المجتمع البشري، وتكامل صور علاقات الناس وتعاملاتهم، واختلاف طرق معاشهم، ونظم حياتهم، ونموّ مداركهم وتجاربهم وخبراتهم.

وقد بيّن الله في القرآن ما دخل في الأديان السابقة من تحريف مقصود، ونسيان جرّ إليه التهاون، فقال عزّ وجلّ بشأن بني إسرائيل في سورة (المائدة ٥):

﴿ فبما نقضِهم ميثاقَهم لَعَنّاهُم، وجعلنا قلوبَهم قاسيةً، يحرّفون الكَلِمَ عن مواضعه، ونَسُوا حظّاً ممّا ذُكّروا به. . . . ﴾(١٣).

وقال عزّ وجل بشأن النصارى في السورة نفسها:

﴿ ومن الذين قالوا: إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم، فنَسُوا حظّاً ممّا ذُكّروا به، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ﴾(١٤).

والتفريط أنْسى كثيراً من الأمم السابقة ما ذُكّروا به على ألسنة رسل ربّهم، فانحرفوا عن الدين انحرافاً كليّاً، فاستحقوا الهلاك، وفي بيان ذلك قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك، فأخذناهم بالبأساء والضرّاء لعلّهم يتضرّعون (٤٢) فلولا إذْ جاءهم بأسُنا تضرّعوا. ولكن قستْ قلوبُهم وزيّن لهم الشيطانُ ما كانوا يعملون (٤٣) فلمّا نَسُوا ما ذُكّروا به فتحنا

عليهم أبوابَ كلِّ شيء، حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتةً، فإذا هم مُبْلسون (٤٤) ﴾.

بالبأساء: أي بالجوع والحرمان من طعام يأكلونه حتى يُحسّوا بالمجاعة.

والضرّاء: أي بالمصائب في الأموال والأنفس.

لعلّهم يتضرّعون: أي لعل البأساء والضرّاء تذكّرانهم بالله، فيؤمنوا به، ويتذلّلوا إليه عابدين له بالدعاء أن يرفع عنهم ما نزل بهم، وأصل التضرّع تذلّل ولد الدابة لضرْعها ليرضع منه. وإذا كان الجوع يدفع ولد البهيمة حتى يتذلّل ويخفض رأسه وجسمه لضرعها، فإنّ المجاعة في الناس والمصائب في الأموال والأنفس أدعَى لأن تجعلهم يتذلّلون إلى ربّهم، فيدعونه أن يكشف عنهم ما نزل بهم.

فإذا هم مبلسون: أي منقطعو الحجّة، يعترفون على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين، وساكتون ذليلون يائسون من النجاة، لاكتشافهم أنّهم مستحقون لما نزل فيهم. يقال: أبلس الرجل، إذا انقطعت حجته، وإذا قنط ويئس من رحمة الله. وإذا تحيّر ودهش. وإذا سكت نادماً يائساً خائفاً حزيناً. ومن ذلك سمّي سفيه الجنّ إبليساً.

والنسيان الذي يسببه التهاون بالواجبات والتفريط فيها، أو يسبّبه الإعراض عن ذكر الله، يحاسب الله عليه ويؤاخذ عليه، وفي بيان ذلك يقول الله عزّ وجل في سورة (طَه ٢٠):

﴿ ومَنْ أعرضَ عن ذِكْري فإنّ له معيشة ضَنْكاً، ونحشره يوم القيامة أعمىٰ (١٢٤) قال: ربِّ لِمَ حَشرتني أعمىٰ وقد كنتُ بصيراً؟ (١٢٥) قال: كذلك أَتَتْك آياتُنا، فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسىٰ (١٢٦) ﴾.

فالإنسان الذي تحدّث عنه هذا النصّ قد كان مؤمناً، فأعرض عن

ذكر الله، فنسي آيات ربّه، فعاقبه الله بالضَّنك في معيشته في الحياة الدنيا، وهو ضيق وعذاب نفسي، ويحشره يوم القيامة أعمىٰ كالكافرين.

فيقول: ربِّ، لِمَ حشرتَنِي أَعمىٰ مثل الكافرين، وقد كنت في الحياة الدنيا بصيراً ذا إيمان.

فيقول الله له: كذلك. أي لقد عاملناك بمثل عملك، أتتك آياتنا فرأيتَها، وعرفت أنها حقّ، وآمنتَ بها، ثمّ أعرضتَ عن الذكر والعبادة والطاعة إعراضاً كاملاً، حتى نسيتَ آياتنا، فكنتَ في حياتك مثل الكافرين فكراً ونفساً وعملاً، فأنتَ الآن تستحق أن تكون أعمى مثلهم، وأن نُعرض عنك كما أعرضتَ، ونُهملك كما أهملتَ آياتنا، فتنساك ملائكة الرحمة فلا ترعاك بما ترعى به المؤمنين.

فالنسيان الناشىء عن الإهمال والتهاون والتقصير نسيان يؤاخذ الله عليه، وهو ما يقتضيه الحقّ والعدل.

ومن التفريط في العقائد ما نلاحظه لدى بعض الفلاسفة المؤمنين بوجود خالق من اعتقادات فاسدة في صفات ذاته أو صفات أفعاله، كاعتقادهم بأن الخالق يعلم الكليّات دون الجزئيات، أو أنه خلق مخلوقاً أعظم، ثم ترك لهذا المخلوق أن يخلق من بعده، ونحو ذلك من خرافة الفلاسفة في قصة العقول العشرة.

(٣)

الغلوّ في العقائد والمفاهيم:

ويكون الغلوّ في العقائد وفي المفاهيم الدينية بمجاوزة حدّ الحقّ فيها، بدافع المبالغة الزائدة عمّا ينبغي، للأخذ بها، والتحمّس لها، ومناصرتها.

وهذا التجاوز لا يكون إلاّ خروجاً إلى الباطل بمقدار نسبة التجاوز.

إنَّه ليس بعد حدود الحقّ من خارج دائرة مفاهيمه، أو مساحتها، أو أرضها، إلاّ الباطل، وإلاّ الضلال.

إنّ الاندفاع العنيف في اتجاه الشيء دون بصيرة ضابطة، وإرادة كابحة، يجعل المندفع يعبر الجهة كلّها بقوّة، حتّى يخرج عن حدّها الثاني الأقصى، وحينما يخرج قد لا يتصوّر أنه خرج.

إنّ حدود الحقّ تناديه بدلائل الحق أن يرجع ولا يتجاوزها، لكنّ اندفاعه الأرعن قد غَشّىٰ على بصره وبصيرته، فجعله مع الباطل والمبطلين، وجعله يوالي أعداء الدين ويناصرهم ويشاركهم في مواقعهم، وهو يحسب أنّه يحسن صنعاً.

ومن الغلوّ في هذا المجال، اللجوءُ إلى الدفاع عن العقائد والمفاهيم الدينيّة بالحجج الباطلة، وبالأكاذيب والافتراءات، حينما لا يجد مناصرها قدرة على تقديم حجج صحيحة وبيانات صادقة.

إنّ الحقّ ليس بحاجة إلى الباطل حتّى ينصره ويؤيده، إنّ تأييد الحقّ بالباطل يفسد قضية الحقّ، ذلك لأنّ من استجاب لدعوة الحق، فآمن به تأثُّراً بالحجج الباطلة، إذا اكتشف يوماً ما أنّ الحجج التي جعلته يستجيب للدعوة فيؤمن هي حجج باطلة، فإنّ نفسه تصاب بالخيبة، فتنزع إلى الرِّدَّة، أو يتحوّل إلى منتفعٍ صاحب مصلحة منافق، ثمّ تعزف نفسه عن توجيه انتباهه لأية حجّة أخرى، وإنْ كانت من أقوى البراهين العقلية أو التجريبية أو الحسيّة، وذلك بسبب غضبه من أسلوب الخديعة التي اتخذت لاستدراجه.

فالهداية إلى الحقّ يجب أن تكون بالحق لا بالباطل، قال الله عزّ وجلّ في الثناء على أمّة الدّعوة إلى الله، الذين يهدون إلى دين الله، من كلّ الأمم السابقة واللاّحقة، في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وممّن خلقنا أمّةٌ يَهْدُون بالحقّ وبه يعدِلون (١٨١) ﴾.

أي: يهدون إلى دين الله وصراط الله بـالحقّ لا بالبـاطل، فـلا يتّخذون الباطل وسيلة يهدون بها إلى دين الله وصراطه.

وهم أيضاً يعدلون في أحكامهم بين الناس بالاستناد إلى قـواعد الحقّ، فهم بالحقّ يعدلون.

وقد يكون الغلوّ في العقائد والمفاهيم الدينية ناتجاً عن وسوسة من وساوس شياطين الجنّ أو الإنس، فيندفع هؤلاء الغُلاة في باطلهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

قال الله عزّ وجل في سورة (الكهف ١٨):

﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء؟! إنّا أعتدنا جهنّم للكافرين نُزُلاً (١٠٢) قل: هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً؟ (١٠٣) الذين ضلّ سعيُهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً (١٠٤) أولئك الذين كفروا بآيات ربّهم ولقائه، فحبطت أعمالهم، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً (١٠٥) ﴾.

فالأخسرون أعمالاً هم الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً.

والغلاة قد ضلّ سعيهم إذ ضلّ فكرهم، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً، وقد يدخلون في صنف الأخسرين أعمالاً، إذا كان غلوّهم مُخْرِجاً لهم عن الدين.

وقد يكون الغلوّ ناتجاً عن طمع بمصلحة دنيوية من هذا الغلوّ، وقد يكون الغلوّ مكراً بالدين وأهله من شياطين الإنس الـذين يدخلون في الدين نفاقاً ليفسدوه من داخله.

وكم من بدعٍ اعتقادية ومفاهيم دينية باطلة دخلت في الدين بسبب الغلوّ.

أمثلة:

المثال الأول: إنّ الغلوّ في تعظيم الرسول ﷺ وتمجيده إلى ما يزيد على البشرية الكاملة، أمرٌ يفضي إلى إعطائه بعض صفات الربوبية أو الألوهية.

وهذا باطل سببه الغلوّ في الاعتقاد، والغلوّ في الاعتقاد قد يفضي بصاحبه إلى الكفر.

ومن ذلك ما وقع فيه النَّصارى بشأن عيسى عليه السلام، إذ اعتقدوا أنَّه ابن الله، أو هو الله، أو هو أحد الأقانيم الثلاثة.

إنّ قضية الإيمان بالله لا تحتمل إلاّ صورة واحدة هي صورة الحقّ، والزيادة عليها غلوّ باطل، والنقص منها عمّا يستطيع الفكر إدراكه تفريط باطل.

ولذلك خاطب الله النَّصارى بقوله عزّ وجل في سورة (النساء ٤):

﴿ يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا في دينكم، ولا تقولوا على الله إلاّ الحقّ، إنّما المسيح عيسى بن مريم: رسولُ الله، وكلمتُه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، فآمنوا بالله ورسله. ولا تقولوا: ثلاثة. انتهوا خيراً لكم. إنّما الله إلَهٌ واحدٌ، سبحانه أن يكون له ولد، له ما في السماوات وما في الأرض، وكفى بالله وكيلاً (١٧١) لن يستنكفَ المسيحُ أن يكونَ عَبْداً لله، ولا الملائكةُ المقرّبون. ومن يستنكفْ عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً (١٧٢) فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورَهم ويزيدهم من فضله. وأمّا الذين استنكفوا واستكبروا فيعذّبهم عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً (١٧٣) ﴾.

فغلوّ النَّصارى في المسيح عيسى عليه السلام هو من الغلوّ في الدين بغير الحق، ونجم عنه عدوان على حقّ الله، فلزم من هذا العدوان التفريط بحق الله، لذلك نهاهم الله عن قضيتين، فقال لهم:

«١ ـ لا تغلوا في دينكم.
٢ ـ ولا تقولوا على الله إلّا الحقّ».

إنّ غلوّهم في عيسىٰ لم يُضف إلى مساحة الحقّ التي لعيسىٰ عليه السلام من مساحة مهملة ليس لها مستحقّ، بل هي مساحة من الحقّ الخاصّ بالله، فكان ذلك غلوّاً في عيسى من جهة، وجَوْراً على حقّ الله من جهة ثانية، فهما غلوٌّ باطل وظلم باطل.

إنّ الإيمان بعيسىٰ عليه السلام دين، ولكن ضمن حدود الحقّ الذي هُوَ له، إنّه عليه السلام كما قال الله:

«١ ـ رسول الله.
٢ ـ وكلمته ألقاها إلى مريم.
٣ ـ وروحُ منه.»

وبعد أن بيّن الله للنصارى حدود حقيقة عيسى عليه السلام، ألزمهم بأن يؤمنوا بالله ورسُله، وبأن لا يقولوا ثلاثة أرباب أو آلهة أو أقانيم، فقال لهم:

«١ ـ فآمنوا بالله ورسُله.
٢ ـ ولا تقولوا: ثلاثة.»

ثم حذّرهم من الاستمرار على غلوّهم في عيسى، وكفرهم بالله، فقال لهم:

«انتهوا خيراً لكم.»

ثم بيَّن لهم من صفات الله ما ينقض مقالتهم في عيسىٰ عليه السلام، فقال لهم:

«١ ـ إنّما الله إلّه واحد.
٢ ـ سبحانه أن يكون له ولد.

٣ ـ له ما في السماوات وما في الأرض.
٤ ـ وكفى بالله وكيلًا.»

ثم بيّن لهم أنّ عيسىٰ نفسه الذي يعبدونه من دون الله ما استنكف ولن يستنكف عن أن يكون عبداً لله، وكذلك الملائكة المقرّبون، فقال تعالى:

«١ ـ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله.
٢ ـ ولا الملائكة المقرّبون.»

ثمّ حذّر الله من الاستنكاف عن عبادته، ومن الاستكبار عنها، وأبان عاقبة المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وعاقبة المستنكفين المستكبرين، فقال الله تعالى:

﴿ ١ ـ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً.
٢ ـ فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.
٣ ـ وأمّا الذين استنكفوا واستكبروا فيعذّبهم عذاباً أليماً، ولا يجدون من دونه وليّاً ولا نصيراً ﴾.

إذن: فعيسىٰ عليه السلام هو عبد الله، ولن يستنكف أن يكون عبداً لله، لأنه رسول مجتبىٰ. فليس هو ثالث ثلاثة، وليس هو ابناً لله، وليس هو الله، ولم يقل للناس اتخذوني وأمّيَ إلٰهين من دون الله، ولم يأمر أحداً بعبادته، وكان هو من العابدين لله:

والإيمان بالله دين قبل الإيمان بعيسىٰ، وهذا الإيمان يجب أن يلزم حدود الحقّ الذي هو لله عزّ وجل، فالله تعالى:

١ ـ إلٰه واحد لا شريك له مطلقاً.
٢ ـ وقد تنزّه عن أن يكون له ولد.
٣ ـ وله ملك السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما.

٤ ـ وهو الوكيل على كلّ شيء، فلم يوكّل سبحانه في ملكه أحداً، وكفى بالله وكيلاً.

فكلّ نقص من هذه الصفات التي هي لله عزّ وجل هو تفريط بحقّ الله، ولمّا كان الغلوّ النصراني في عيسىٰ عليه السلام عدواناً على قضية الإيمان بالله عزّ وجلّ، كان هذا الغلوّ كفراً، ولذلك قال الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة ٥):

﴿ لقد كفر الذين قالوا: إنّ الله هو المسيح ابن مريم، وقال المسيح: يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربّي وربَّكم، إنّه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة، ومأواه النار، وما للظالمين من أنصار (٧٢) لقد كفر الذين قالوا: إنّ الله ثالث ثلاثة، وما من إلَه إلاّ إلَهٌ واحدٌ، وإنْ لم ينتهوا عمّا يقولون ليمسَّنَّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليمٌ (٧٣) أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه؟! والله غفورٌ رحيمٌ (٧٤).

ما المسيح ابن مريم إلاّ رسولٌ قد خَلَت من قبله الرسل، وأمُّه صدِّيقة، كانا يأكلان الطعام. انظر كيف نبيّن لهم الآيات، ثم انظر أنّى يؤفكون (٧٥).

قل: أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً، والله هو السميعُ العليمُ (٧٦).

قل: يا أهل الكتاب، لا تغلو في دينكم غير الحقّ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلّوا من قبل وأضلّوا كثيراً، وضلّوا عن سواء السبيل (٧٧) ﴾.

وهؤلاء القوم المشار إليهم هم اليهود ومن على شاكلتهم، فقد ضلّوا في عقائدهم، ونقلوا ضلالاتهم إلى غيرهم فأضلّوا كثيراً، بإفسادهم في الأرض، وضلّوا عن سواء سبيل الله لعباده، الذي بيّن لهم فيه منهاج سلوكهم في الحياة، وهو المنهاج الذي يحقق لهم السعادة.

ونظير غلوّ النصارى في عيسىٰ عليه السلام ما وقع فيه بعض غلاة

اليهود، من اعتقادهم في شأن العُزَير أنه ٱبن الله، وقد سبقهم في مثل هذا الغلوّ قومٌ من الذين كفروا من قبل، قال الله عزّ وجل في سورة (التوبة ٩):

﴿**وقالت اليهود** عزيزٌ ابن الله، وقالت النصارىٰ المسيح ٱبن الله. ذلك قولُهم بأفواههم يضاهِئون قول الذين كفروا مِنْ قَبْلُ. قاتلهم الله أنّى يُؤفكون (٣٠)﴾.

يضاهئون: أي **يشابهون** ويشاكلون.

ونظير ذلك غلاة الشيعة، في شأن عليّ وذرّيته، واعتقاد الجزء الإلٰهي فيهم، أو إعطائهم صفة العصمة التشريعية.

وأشنع غلاة الشيعة هم الذين استجابوا للدعوة الباطنيّة، فغلَوْا في عليّ ابن أبي طالب وذرّيته، ثمّ انسلخوا من الدين كلّه، وسقطوا بذلك في حبائل اليهود، الذين دبّروا مكايد كثيرة لإفساد الإسلام، من داخل صفوف المنتسبين إليه، فدسُّوا فيهم منافقين منهم، وأخذ هؤلاء المنافقون يعبثون بالجاهلين وبالفاسقين، ويوجّهون أهل الأهواء لإفساد عقائد الإسلام وشرائعه.

المثال الثاني: ومن الغلوّ في الاعتقاد غلوّ أهل الجبر، انتصاراً لصفة قدرة الله على كلّ شيء، وصفة أنّ الله يفعل ما يريد، وأنّ الله خالق كلّ شيء، ضدّ صفات عدل الله وحكمته ورحمته وأنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة، وأنه لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها. كما سبق بيان ذلك مطوّلاً.

وفي مقابل غلوّ أهل الجبر، قامَ غلوُّ نفاة القَدَر (المعتزلة) انتصاراً لصفات عدل الله وحكمته ورحمته، وأنه لا يظلم أحداً مثقال ذرّة، وأنّه لا يكلِّف نفساً إلاّ وسعها، ضدّ ما ثبت لله من أنّه عزّ وجلّ خالق كلّ شيء، وأنه محيط بكلّ شيءٍ عَلماً، وأنّ كلّ شيءٍ بقضاء وقَدَر، حتى العَجْز والكَيْس. وقد سبق بيان ذلك مطوّلاً أيضاً.

المثال الثالث: ويغلو بعض الجهلة المنتمين إلى السلفيّة، أو بعض الدخلاء للمغنم، في موضوع الصفات، حتى يقعوا في التجسيم وتشبيه الله بخلقه في خصائص الحادثات، في مقابل غلوّ بعض المؤوِّلين للصفات الذين يصلون إلى تعطيل كثير من الصفات التي أثبتها الله لنفسه، أو أثبتها الرسول ﷺ له، مع أنه لا يوجد أيّ موجب لتأويل النصوص فيها.

المثال الرابع: ومن الغلوّ في الاعتقاد غلوّ المشركين، فهو إمّا غلوٌّ فيمن جعلوه شريكاً في الألوهية من أنبياء وأولياء وصالحين، ثم انسحب ذلك على أوثان هؤلاء وأضرحتهم وأشيائهم، أو أشياء تتصل بهم من قريب أو من بعيد، ثم كان لهذه الأشياء تقديسها الخاصّ بها في أوهام المشركين وضلالاتهم. وإمّا غلوٌّ في تعظيم الله وإجلاله بفهم خاطىءٍ، جعل المشركين يتصوّرون أنّ من التجنّي على مقام الله العظيم الدخول في بابه، والتذلّل عند أعتابه، وسؤال جنابه، إلّا عن طريق الوسطاء الذين يتقرّبون بهم إلى الله زُلْفى.

مع أن الله عزّ وجل لا يحتاج إلى وسطاء، وليس بينه وبين أيّ عبد من عباده حجاب، ولا بوّاب، ولا باب، إلّا باب الدعاء والمناجاة، والعمل الصالح بعد الإيمان.

المثال الخامس: ويغلو بعض الجهلة من عوامّ المسلمين في تعصبهم وعدائهم لليهود الكفرة، الذين كادوا الإسلام والمسلمين كيداً عظيماً، فيعادون بني إسرائيل جميعاً، حتّى المؤمنين السابقين منهم، وحتى أنبياء الله الذين نؤمن بهم، ونحبّهم، ونعظّمهم، ونعتقد أنّ الإيمان بهم جزءٌ من أركان العقيدة الإسلامية.

كأنّ القضية قضية قوميّة عرقية، وليست قضية دينيّة ربّانية.

وبهذه المناسبة، أذكر قصة بَعْثة تبشيريّة من النَّصارى، ذهبت إلى جماعة من البدو المسلمين الجهلة لتنصِّرهم، فتودّدت لهم أوّلاً، وقدّمت لهم

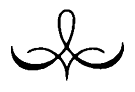
الهدايا وأشياء ممّا يحبّون ويرغبون، حتى أَنِسَ البدو بهم، واستلطفوهم.

ولمّا شعرت البَعْثة بأنها حظيت بودّ جماعة البدو لها، أخذت تبشّرهم بالعقيدة النصرانية، وبدأت بالإيمان بالله عزّ وجلّ، فقبل البدو هذه الفكرة، لقد كانوا يؤمنون بها من قبل، ثم انتقلت البَعْثة بهم إلى محاولة إقناعهم بأنّ عيسىٰ عليه السلام هو ابن الله.

وهنا صاح جمهور البدو صيحة واحدة: هذا كذب، بل محمد هو ابن الله.

فانصرفت البَعْثة، وظهر أنّ هذه الجماعة الجاهلة من البدو لا يعرفون من الدين إلّا الانتساب إلى الإسلام، والتعصب لمحمد ﷺ، والغلوّ في تعصبهم. فإذا غلا النصارى في عيسى فزعموا أنّه ابن الله، غلَوْا هم في محمد فقالوا: بل محمد هو ابن الله.

مع أنّ كلًّا من الأمرين كفر وباطل، وزور ومنكر من القول.



الفصل الرابع

بيان التفريط والغلوّ
في الأحكام الشرعيّة

(١)

مقدمة:

إنّ الأحكام التشريعية الدينية حقائق دينية ذات حدود ربّانية، غايتها امتحان الطاعة لله والرسول فيها، وهي موجهة للمكلّفين.

فلا يجوز فيها النقص عمّا شرع الله ورسوله، ولا الزيادة على ما شرع الله ورسوله إلّا بإذنٍ شرعي.

وأحكام الله تُفهم بالنصّ الصريح، أو بفحوى النّصّ ودلالته الضمنية، أو بالقياس على ما ثبت في النص، أو بكونه نوعاً من أنواع قاعدة كلّية عامّة من كليّات الدين، كقاعدة وجوب الالتزام بالحق والعدل في الحكم والقضاء بين الناس. وكقاعدة تحريم أكل أموال الناس بالباطل، وكقاعدة تحريم ما غلب ضرره على نفعه، وكقاعدة أن الأصل في الأشياء التي لا ضرر فيها الإباحة.

ومن أحكام الله وجوب طاعة من أمر الله بطاعته من الناس، إذا أمر هذا أو نهىٰ في قضايا أذن الله له بأن يأمر فيها أو ينهى، ويكون ذلك فيما لم ينزّل الله فيه حكماً تكليفيّاً بأمرٍ أو نهي، ولم يبيّن الرسول ﷺ حكمه، ولم يجعل الله أو رسوله فيه للناس حقوقاً خاصة محترمة لا يجوز العدوان عليها، كحقوق الأنفس، والأموال، والأعراض.

وإذا كانت الفرائض الدينيّة أموراً واضحات لا يجوز تضييعها، والمحرّمات الدينيّة أموراً واضحات لا يجوز انتهاكها، فإنّ لأحكام الله ورسوله من بعد الفرائض والمحرّمات حدوداً لا يجوز تخطّيها ولا تجاوزها دخولاً ولا خروجاً.

عن أبي ثعلبة الخشني ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال:

«إنّ الله تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثُوا عنها».

قال النووي: حديث حسن رواه الدارقطني وغيره.

ووصف القرآن بعض ما أنزل من أحكام بأنها حدود الله، لنفهم أنّ سائر ما أنزل من أحكام تشريعية تدخل تحت عنوان «حدود الله»، وإليك الشواهد:

١ ـ ففي سورة (البقرة ٢) خاطب الله الذين آمنوا، فوجّه لهم أحكاماً تتعلّق بجناية القتل، وأحكاماً تتعلّق بالوصية، وأحكاماً تتعلق بالصيام، والاعتكاف في المساجد، وقال في آخرها:

﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها. كذلك يبيّن الله آياته للنّاس لعلّهم يتّقون (١٨٧) ﴾.

فنهى هنا عن الاقتراب من حدود الله نهي إرشادٍ، لأنّ من اقترب من الحدود أوشك أن يقع فيها.

٢ ـ وفي سورة (البقرة ٢) أيضاً بيّن الله أحكاماً كثيرة تتعلّق بموضوعات مختلفة: في النفقة ـ والقتال في سبيل الله ـ والقتال في الشهر الحرام ـ وفي الخمر والميسر ـ وفي شأن اليتامىٰ ـ وفي النكاح ـ وفي المحيض ـ وفي معاشرة الزوجات ـ وفي الأيمان ـ وفي الإيلاء ـ وفي الطلاق ـ وفي

العدّة ـ ثم قال عزّ وجل بعد بيان هذه الأحكام:

﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون (٢٢٩) ﴾.

فنهى هنا عن تعدّي حدود الله نهي تحريمٍ جازم، بدليل قوله تعالى: ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾.

ثم أحال في ضمن بيان حكم جواز رجوع الزوجة المطلّقة ثلاثاً إلى زوجها الأوّل، بعد أن يطلّقها الثاني، إلى أنّ هذا الجواز مشروط بأن يظنّا أنهما سيقيمان حدود الله، وهي حدود أحكام المعاشرة الزوجية، وواجبات كلٍّ من الزوجين نحو الآخر، وفي ذلك قال الله تعالى عقب الآية السابقة:

﴿ فإنْ طلّقها فلا تحلّ له من بعدُ حتى تنكح زوجاً غيره، فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنّا أن يقيما حدود الله، وتلك حدود الله يبيّنها لقوم يعلمون (٢٣٠) ﴾.

٣ ـ وفي سورة (النساء ٤) بيّن الله أحكاماً تتعلّق بأموال اليتامىٰ، وأحكاماً تتعلّق بالنكاح، والصَّدَاق، وأموال السفهاء، وتقسيم المواريث، ثمّ قال بعد بيانها:

﴿ تلك حدود الله، ومن يطع اللهَ ورسولَه يدخلْه جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. وذلك الفوز العظيم (١٣) ومن يعصِ اللهَ ورسولَه ويتعدّ حدودَه يدخلْه ناراً خالداً فيها، وله عذابٌ مُهين (١٤) ﴾.

٤ ـ وفي أوّل سورة (الطلاق ٦٥) بيّن الله الطلاق المشروع، ووجوب إحصاء عدّة المطلّقة، ونهىٰ عن إخراج المطلّقات من بيوت أزواجهن، وعن خروجهن بأنفسهنّ، إلاّ أن يأتين بفاحشة مبيّنة، ثم قال عزّ وجل:

﴿ وتلك حدود الله، ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه (١) ﴾.

ثم ذكر في السورة نفسها أحكاماً تتعلّق بالمطلقة الرجعيّة، وبعدّة المطلَّقات على اختلاف أحوالهن، وبسكناهنّ، وبالإنفاق على المطلقات الحوامل، لنعلم أنّ هذه الأحكام داخلة في عموم حدود الله، فهي تابعة لما جاء في الآية الأولى منها.

٥ ـ وفي سورة (المجادلة ٥٨) بيّن الله أحكام الظِّهار، وما على المظاهِر إذا أراد أن يعود لما قال بالنقض، ثم قال عزّ وجل:

﴿ وتلك حدود الله، وللكافرين عذاب أليم (٤) إنّ الذين يحادّون الله ورسوله كُبِتُوا كما كُبتَ الذين من قبلهم. وقد أنزلنا آياتٍ بيناتٍ، وللكافرين عذابٌ مهينٌ (٥) ﴾.

كبتوا: أي أنزل الله بهم الخزي والذلّ والغمّ.

ثم بيّن الله في السورة نفسها أحكام التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وأحكاماً تتعلّق بآداب المجالس، ومناجاة الرسول، وأحكاماً تتعلّق بموالاة أعداء الله.

ثمّ اشتدّ على الذين يحادّون الله ورسولَه، ويوادّون من حادّ اللهَ ورسولَه، لأنّ هؤلاء هم المعتدون على حدود الله من الدرجة القصوى، فقال عزّ وجل:

﴿ إنّ الذين يحادّون اللهَ ورسولَه أولئك في الأذلِّين (٢٠) ﴾.

٦ ـ وفي سورة (التوبة ٩) ذمّ الله عزّ وجلّ منافقة الأعراب ـ وهم البُداة الجُفاة ـ وأبان أنّهم أسوأ حالاً من منافقة الحاضرة، وأنّهم أجدر ألّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فقال تعالى:

﴿ الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً، وأجْدَرُ ألّا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله. والله عليم حكيم (٩٧) ﴾.

وفي السورة نفسها أثنى الله على المؤمنين الذين يبذلون أموالهم

وأنفسهم في سبيل الله، ويقومون بألوان العبادات ويلازمون المحافظة على حدود الله، وبشرهم بالجنة، فقال عزّ وجل في شأنهم بعد بيان جهادهم بأنفسهم وأموالهم:

﴿ التائبون، العابدون، الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله. وبشّر المؤمنين (١١٢) ﴾.

فمن صفات هؤلاء المبشّرين بالجنة، والمأذون للرسول ﷺ بأن يبشّرهم بالجنة أنّهم يحافظون على حدود الله بصفة دائمة.

وحدود الله ينبغي حفظها بمستويَيْن:

الأول: بعدم الاقتراب منها، وذلك في مستوى الحذر والورع والكمال الإيماني، والبعد عن مزالق الخطر.

والدليل، قول الله تعالى: ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ فالنهيُ هنا نهيُ ترغيب بالأكمل، وإرشاد إلى الأفضل، والأخذ بالأحوط.

الثاني: بعدم تجاوزها، ومن دخل الحدّ تجاوزه حتماً، لأنّه لا يدخل فيه إلاّ بأن يمسّ منطقة الحرام.

وهذا المستوىٰ هو مستوى التكليف الجازم الذي يُعاقب مخالفه.

والدليل: قول الله تعالى: ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾.

وقول الله تعالى: ﴿ ومن يَعْصِ اللهَ ورسولَه ويتعدّ حدودَه يُدخلْه ناراً خالداً فيها، وله عذاب مُهين ﴾.

وقول الله تعالى: ﴿ ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾.

فالنهي عن تجاوز حدود الله أو تعدّيها نهيٌ تحريميّ قطعاً، بدليل ترتيب العقاب، ووصف المتعدي بأنه ظالم.

أحكام التحليل والتحريم والوجوب بغير دليل شرعيّ كافٍ افتئات على الله وافتراء على دينه:

ومن تعدِّي حدود الله ما يلي:

أ - تحريم ما أحلّ الله.
ب - تحليل ما حرّم الله.
جـ - إيجاب ما لم يوجبه الله.
د - استباحة ترك ما أوجب الله.

وقد شدّد الله في شأن أحكام الناس في التحريم والتحليل والإيجاب، من غير دليل شرعي كافٍ للحكم، وبيّن أنه افتراء على الله، لأنه سبحانه هو وحده الذي له الخلق، فهو الذي له الأمر، وهو الذي له الحكم.

إذن فالتحريم الديني له، والإيجاب له، والإباحة له. إنِ الحكم إلاّ لله. والحكم التشريعي من خصائص الألوهيّة، والطاعة في الأحكام التشريعية عبادةً لله صاحب الحكم، فلا يجوز الإشراك به، قال الله تعالى في سورة (يوسف ١٢) حكاية لمقالة يوسف لصاحبيه في السجن:

﴿ إنِ الحكم إلاّ لله، أمر ألاّ تعبدوا إلاّ إياه، ذلك الدين القيِّم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٤٠) ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (يونس ١٠):

﴿ قل: أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق، فجعلتم منه حراماً وحلالاً؟! قل: ءآلله أذن لكم أم على الله تفترون؟! (٥٩) وما ظنّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة. إنّ الله لذو فضل على الناس ولكنّ أكثرهم لا يشكرون (٦٠) ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (النحل ١٦):

﴿ فكلوا ممّا رزقكم الله حلالاً طيّباً، واشكروا نعمةَ الله إن كنتم إيّاه تعبدون (١١٤) إنما حرّم عليكم الميتةَ، والدمَ، ولحمَ الخنزير، وما أُهلَّ لغير الله به. فمن اضطُرّ غير باغٍ ولا عادٍ فإنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ (١١٥) ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذبَ: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ، لتفتروا على الله الكذبَ. إنّ الذين يفترون على الله الكذب لا يُفلحون (١١٦) متاعٌ قليل ولهم عذابٌ أليم (١١٧) ﴾.

فأبان الله في هذه النصوص أنّ التحليل والتحريم بغير دليل شرعي أو إذن من الله افتراءٌ على الله، وكذب عليه، وأنّ الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون، وأنّ لهم عذاباً أليماً.

ولمّا كانت العامّة من اليهود والنصارى، يتّبعون في دينهم أحكام التحليل والتحريم التي يصدّرها لهم أحبارهم ورهبانهم، وصفهم الله بأنهم قد اتّخذوا أحبارهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله، فدلّ بذلك على أن التحليل والتحريم من خصائص الربوبيّة، وأنّ طاعة الأتباع في ذلك شرك في العبادة، قال الله عزّ وجل في سورة (التوبة ٩):

﴿ اتّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله والمسيحَ آبن مريم. وما أُمروا إلّا ليعبدوا إلٰهاً واحداً لا إلٰه إلّا هو سبحانه عما يشركون (٣١) ﴾.

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طُرُق، عن عديّ بن حاتم الطائي، أنّه لمّا بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام، وكان قد تنصّر في الجاهلية، فأُسرتْ أخته وجماعة من قومه، ثمّ منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها، فرجعت إلى أخيها فرغّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عديٌّ إلى المدينة، وكان رئيساً في قومه طيّء ـ وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم ـ فتحدّث الناس بقدومه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عديٍّ صليب من فضة، والرسول ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ اتخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله ﴾.

قال عدي: فقلت: إنّهم لم يعبدوهم، فقال النبي ﷺ:

«بلىٰ، إنّهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم».

(٢)

التفريط في الأحكام التشريعية:

ويكون التفريط في الأحكام التشريعية باستباحة فعل ما حرّم الله، أو باستباحة ترك ما أوجب الله، أو باعتبار ما رغّب الله في فعله ندباً أو رغّب في تركه ندباً كالمباحات المطلقة التي يستوي فعلُها وتركها حكماً.

ومن التفريط حمل ما أمر الله به أمر إلزام ورتّب العقاب على تركه على أنه أمر ندب، وحمل ما نهىٰ الله عنه نهي إلزام ورتّب العقاب على تركه على أنّه نهي ندب.

ومن التفريط في الأحكام التشريعية التلاعب بدلالات النصوص، للتخفيف من درجة الحكم التشريعي الذي يستفاد منها، اتِّباعاً للأهواء والشهوات، أو إرضاءً لأصحاب الأهواء والشهوات، وكذلك الحكم بغير ما أنزل الله، إرضاءً لأهواء ذوي السلطان أو الجاه، أو المال، أو موالاةً ومناصرةً للأقربين أو للإخوان والأصحاب والأصدقاء، أو للعشيرة أو للقوم ونحو ذلك.

كتحليل الرِّبَا، أو بعض أبواب منه، وإباحة بعض المسكرات، والإذن بجمع الصلوات على غير الصور التي رخّص فيها الرسول ﷺ، وكتهوين أمر أكل أموال الناس بالباطل باسم الاشتراكية الإسلامية.

وكتهوين أمر أنواع الظلم والاحتكارات والغبن الفاحش، تأثُّراً بمنهج الرأسمالية، أو اتباعاً للأهواء والمطامع الخاصة، ومطامع وأهواء ذوي السلطان أو المال أو الجاه.

ومن التفريط في الأحكام التشريعية إنزالُ مرتبة المحرّمات الكبائر إلى مستوى المحرّمات الصغائر، وإنزال المحرّمات الصغائر إلى مستوى المكروهات، وإنزال مرتبة الفرائض التي هي من أركان الإسلام وتركها من الكبائر، إلى مستوى الواجبات العادية التي يعتبر تركها من الصغائر، وإنزال مرتبة الواجبات إلى مستوى المندوبات.

ومن التفريط في الأحكام التشريعية تتبُّع الآراء الاجتهادية الضعيفة، التي تخالف اجتهادات جمهور علماء المسلمين، دون بحث استدلاليّ خاصّ في المسألة، أدّى بالباحث المأذون له بالاجتهاد إلى ترجيح الرأي المخالف.

ومن التفريط في الأحكام التشريعية تتبّع الرخص في المذاهب، أو تتبّع أسهل الآراء فيها، لمجرّد التخفف من ثقل التكاليف، ودون بحث استدلاليّ خاصّ في المسألة أدّى بالباحث المأذون له بالاجتهاد إلى ترجيح القول بالرخصة، أو الحكم الأسهل.

وقد ظهرت نزعات اجتهادية معاصرة، اعتمدت على حيلة المرونة في النصوص الدينية، وهدفها مسايرة القوانين الوضعية، وحمل النصوص الدينيّة حملاً متكلّفاً على قبولها، مع أنّ البحث المتجرّد في النصوص لا يسمح بهذا الحمل المتكلف.

وهذا من التفريط في الأحكام التشريعية، وعدم الاهتمام بالبحث عن حكم الله حقّاً، أخذاً من الدلالات الصحيحة للنصوص، وهو في الحقيقة تفلّت من ربقة أحكام الدين، مع مصانعته بأسلوب العمل بنصوصه وفق فهم مقبول، وأوّل هذا النوع من مصانعة الدين التفريط في أحكامه، وآخره النفاق الباطني الذي هو انسلاخ كليٌّ من الدين ومروقٌ منه.

وقد حذّر الله من التفريط في أحكامه فقال عزّ وجل في سورة (المائدة ٥):

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا لا تُحلُّوا شعائر الله، ولا الشهر الحرام، ولا الهدي ولا القلائد، ولا آمّين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربّهم ورضواناً (٢) ﴾.

ويقاس على هذه الأمور كلُّ ما حرّمه الله، فإنّه لا يجوز استحلاله، واستحلاله من التفريط في الدِّين، وكذلك كلُّ ما فرضه الله وأوجبه، فإنه لا يجوز استباحة تركه، فاستباحته من التفريط في الدين.

إنَّ استباحة فعل ما حرّم الله فعله وثبت لدينا بصورة قطعيّة ردّة عن الدين وكفر. وكذلك استباحة ترك ما فرض الله فعله، وثبت لدينا بصورة قطعية، وكذلك تحريم ما أحلّه، أو إيجاب ما لم يوجبه الله، وثبت حكم الله فيه بصورة قطعيّة، كلّ ذلك ردّة عن الدين وكفر.

وقد ذمّ الله الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحقّ، قال الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة ٩):

﴿ قاتِلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الذين أوتوا الكتاب حتّى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون (٢٩) ﴾.

وذمّ المشركين الذين كانوا يتلاعبون بالأشهر الحُرُم، فينسئون بعضها بحسب أهوائهم، فيحرّمون منها ما أحلّ الله، ويحلُّون ما حرّم الله، فقال عزّ وجلّ في سورة (التوبة ٩):

﴿ إنّما النسيءُ زيادةٌ في الكفر يُضَلُّ به الذين كفروا، يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً، ليواطئوا عدّة ما حرّم الله، فيحلّوا ما حرّم الله، زُيِّن لهم سوء أعمالهم، والله لا يهدي القوم الكافرين (٣٧) ﴾.

(٣)

الغلوّ في الأحكام التشريعيّة:

ويكون الغلوّ في الأحكام التشريعيّة بالتحريم من غير دليل كافٍ للتحريم، وبالإيجاب والفرضيّة من غير دليل كافٍ للإيجاب والفرضية.

فقد يكون الدليل - إنْ صحّ - لا يعطي أكثر من حكم الندب أو الكراهة، وليس من الورع جعل المكروه حراماً، ولا جعل السُّنَّة واجباً، بل هو غلوٌّ في الدين لا يأذن الله به، وهو افتئات على الله سبحانه وتعالى.

إنّ الورع يكون بالالتزام بترك المكروه عملاً، وبالمواظبة على فعل السنّة عملاً، دون رفع أحكامهما عن مستواها الذي دلّت عليه أدلة استنباط الأحكام الشرعية.

ومن الملاحظ أنّ كثيراً من المتصدّين للدعوة يُصدّرون أحكاماً دينية يحرّمون فيها أعمالاً، أو يوجبون فيها أعمالاً، وهذه الأحكام ما أنزل الله بها من سلطان، إنّما يتبعون فيها شبهات أدلّة، أو هوى أنفس. فإمّا أن يعتمدوا على تفسير خاطىء، أو بحث ناقص، أو حديث ضعيف، أو حديثٍ مُعارَضٍ بحديثٍ آخر، أو مُعارَضٍ بدليل أقوى منه.

وذلك من عدم الأهلية الكافية للإذن بالاجتهاد في استنباط أحكام الدين.

ومن هؤلاء من يتوهّم أنّه لا بأس بتحريم المكروه، أو إيجاب السُّنَّة، ويرون هذا التشدّد يخدم الدين، والحقيقة أنّ في هذا العمل تجنّياً على دين الله، وتعدّياً لحدود أحكام الله فيه. وقد ثبت في الصحيح من كلام الرسول ﷺ قوله:

«يَسِّروا ولا تُعسّروا، وبشّروا ولا تُنفِّروا».

وبعض هؤلاء المتشدّدين يرون العامّة يعظّمون الذين يغالون في

الدين، ويعتقدون أنّهم أكثر وَرَعاً، وأخلص لله، فيمجّدونهم ويفضّلونهم، ويسمعون منهم فتاواهم، ويغدقون عليهم التبجيل والاحترام، وقد يغدقون عليهم الهدايا والأموال. لذلك فهم يميلون في فتاواهم إلى التشدّد، والحكم بأصعب الأقوال عند الفقهاء المجتهدين، ويلجؤون إلى التظاهر بالتورّع عن بعض المباحات، رغبة في امتلاك قلوب العامّة، والسيطرة على نفوس الذين لا علم لهم بالدين.

ونسمع دائماً عن دُعاة وداعيات أحكاماً متشدّدة كثيرة، توجب أو تحرّم في الدين ما لا نجد له دليلاً، وإنْ وجدنا له شبهة دليل ظهر لنا أنّ الحكم ناتج عن سوء فهم، أو اعتماد حديث لا يصح الاعتماد عليه، أو أخذ ظواهر نصوص دون رجوع إلى سائر الأدلة الشرعية، أو اعتماد قولٍ لبعض الفقهاء خالفه فيه آخرون، أو غير ذلك ممّا يحتاج تفصيله إلى استعراض كثير من مسائل علم الخلاف الذي أُلّفت فيه كتب ضخمة، ووضع له علم أصول الفقه.

ومن الغلوّ في هذا المجال التعصب المذهبي، أو التعصب للرأي الاجتهادي الذي يتوصّل إليه المأذون بالاجتهاد، مع وجود مذاهب أخرى معتبرة، تقول بخلاف رأي المذهب، أو بخلاف الرأي الاجتهادي الذي توصّل إليه المأذون بالاجتهاد. أمّا غير المأذون له بالاجتهاد فهو مفتئت على دين الله ابتداءً.

وأكثر ما يكون غلوّ الغلاة في الشكليّات والظواهر، كالغلوّ في الطهارة الحسّية والتبرُّؤ من النجاسات المادّية، والغلوّ في أحكام اللّباس والزينة، والغلوّ في أحكام اللّحوم المحرّمة، والغلوّ في أحكام الشعور ما يُقصّ منها وما يُعفى، وما يُنتف وما لا يجوز نتفه أو حلقه، وكشكليات الاقتداء بالرسول ﷺ في طريقة أكله وشربه ومشيه ولباسه.

وهؤلاء الغُلاة كثيراً ما يتهاونون في أمور الكبائر المجمع على تحريمها، ولا يحذّرون الناس منها، كالغيبة، والنميمة، والقذف، والحسد المحرّم،

والتماس العيوب للبرآء، وتدبير المكايد ضدّ خصومهم من المؤمنين، أو ضدّ من يحسدونهم ويبغضونهم، ودسّ الدسائس ضدّهم، والوقوف في طريق صعودهم، والوشاية عليهم لدى ذوي السلطان لا سيما الظَّلَمة منهم، وإثارة الفتن بين المسلمين، وأكل أموال الناس بغير حقّ، وقبول الرشاوى، ومنع الزكاة، وجفاف العاطفة على الفقراء والبؤساء وذوي الحاجات، واستخدام المراكز الإدارية للمصالح الشخصية أو الحزبية، إلى غير ذلك من أمور كثيرة، هي من الدين بمثابة الأساس والقواعد والأركان.

أدلة قرآنية:

في استنكار تحريم ما لم يحرّمه الله من زينة الله التي أخرجها لعباده أنزل الله نصوصاً قرآنية متعددة منها ما يلي:

١ ـ قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف ٧):

﴿ يا بني آدمَ خُذوا زينتَكم عند كلّ مسجد، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين (٣١) قل: من حرّم زينةَ اللهِ التي أخرج لعباده والطيِّباتِ من الرزق. قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يومَ القيامة. كذلك نفصّل الآياتِ لقومٍ يعلمون (٣٢) قل: إنّما حرّم ربّي الفواحشَ ما ظهر منها وما بطن والإثمَ والبَغْيَ بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطاناً، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون (٣٣) ﴾.

ففي هذا النصّ تنديد بالذين يحرّمون من زينة الحياة الدنيا ما لم يُحرّمه الله من ملابس ومآكل ومشارب ومساكن ونحو ذلك. وتوجيه العناية للاهتمام بالمحرّمات الجوهرية التي حرّمها الله، وهي الفواحش ما ظهر منها كالزنىٰ، وما بطن منها كالحسد المحرّم وإرادة الشرّ بالناس. والإثم كشرب الخمر وتعاطي الميسر. والبغي بغير الحق كالقتل بغير حق، وأكل أموال

الناس بالباطل، والغيبة، والقذف، وإيذاء الناس في أجسادهم أو أعراضهم.

وجاء في أسباب نزول النص ما يلي:

أ ـ عن ابن عباس قال: كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عُراة، يصفِّرون ويصفِّقون، فأنزل الله: ﴿قل: من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده﴾ فأمر بالثياب.

ب ـ وقال السُّدِّي: كان الذين يطوفون بالبيت عُراة يحرّمون عليهم الوَدَك ما أقاموا في الموسم.

الودك: هو الدسم والدهن.

وهذه الأحكام الجاهلية فيها تحريم لما أحلّ الله، خرج به المحرّمون عن منهج الله، واستحقوا به الذّمّ الشديد.

٢ ـ وقال عزّ وجل في سورة (يونس ١٠):

﴿قل: أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق، فجعلتم منه حراماً وحلالاً؟. قل: آلله أذنَ لكم أم على الله تفترون؟! (٥٩) وما ظنّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة؟ (٦٠)﴾.

أي: هل يظنُّون أنّ الله عزّ وجل سيُعفيهم من المسؤولية ولا يعاقبهم على افتراءاتهم، في التحليل والتحريم دون إذن منه، ومن غير دليل يستندون إليه.

إنّ تدخّل الناس في التحليل والتحريم باسم الدين قد أوصل المشركين إلى ابتداع تحريمات غلَوْا فيها وهي حلال في شرع الله، وكان ذلك منهم افتراءً على الله، لأنّ الله عزّ وجل هو وحده الذي له التحريم والتحليل، إنِ الحكم إلاّ لله، فليس لأحد أن يحلّل أو يحرّم أو يشرِّع في دين الله شيئاً.

٣ ـ وفي بيان الأحكام الجاهليّة التي حلّل فيها المشركون وحرّموا ما لم يأذن به الله قال الله عزّ وجل في سورة (الأنعام ٦):

﴿وقالوا: هذه أنعام وحَرْث حِجْرٌ لا يطعمها إلّا من نشاءُ بزعمهم، وأنعام حُرِّمت ظهورها، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه، سيجزيهم بما كانوا يفترون (١٣٨) وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصةٌ لذكورنا ومحرَّمٌ على أزواجنا، وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاءُ. سيجزيهم وصفَهم. إنَّه حكيمٌ عليمٌ (١٣٩) قد خسر الذين قتلوا أولادهم سَفَهاً بغير علم، وحرّموا ما رزقهم الله افتراءً على الله، قد ضلّوا وما كانوا مهتدين (١٤٠)﴾.

حِجْر: مصدر حجر الشيء إذا منعه، وهو بمعنى اسم المفعول، أي: محجور، بمعنى ممنوع، وهو يساوي كلمة حرام.

فحرّموا أنعاماً وحرّموا حَرْثاً، وجعلوها لأصنامهم، فلا يجوز أن يطعم منها في زعمهم إلّا من يشاءون، ولهم في ذلك أحكام جاهليّة يفترونها على الله.

وحرّموا ركوب بعض الأنعام، وكانوا يذبحون لأوثانهم أنعاماً فلا يذكرون اسم الله عليها، وإنما يذكرون اسم أوثانهم.

وجعلوا بعض ما في بطون الأنعام من أجنّة قبل أن تولد حلالاً للذكور وحراماً على الإناث، إلّا إذا كان ميتة فهو حلال للذكور والإناث.

وحرّموا بعض ما رزقهم الله من أنعام افتراءً على الله.

٤ ـ وجاء ذكرٌ تفصيليٌّ للأنعام التي حرّمها أهل الجاهليّة في سورة (المائدة ٥) فقال الله عزّ وجلّ:

﴿ما جعل الله من بَحِيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حامٍ؛ ولكنّ الّذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون (١٠٣)﴾.

البحيرة:

البحرُ عند العرب هو شقّ الأذن، فالبحيرة هي مشقوقة الأذن من الأنعام، فعيلة بمعنى مفعولة.

وفي البحيرة المحرّمة عند العرب ثلاثة أقوال:

القول الأول: قال الشافعي: كان العرب إذا نُتجت الناقة عندهم خمسة أبطن إناثاً، بحرت أذنها فحُرّمت.

القول الثاني: كانوا إذا نُتجت الناقة خمسة أبطن، فإن كان الخامس ذكراً بحروا أذنه فأكله الرجال والنساء، وإنْ كان الخامس أنثى بحروا أذنها، وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها.

القول الثالث: كانوا إذا نُتجت الناقة خمسة أبطن، شقّوا أذنها وحرّموا ركوبها ولبنها.

ولعلّ كلّ هذه الصور كانت عند العرب.

السائبة:

هي الناقة أو البعير تسيَّب بنذر ينذره مالكها، فلا يحبس عن رعي ولا ماء، ولا يركبه أحد.

وقيل: هي التي تُسيّب لله فلا قيد عليها، ولا راعي لها.

وقيل: هي التي تابعت بين عشر إناث ليس بينهنّ ذكر، فعند ذلك تُسيّب، فلا يركب ظهرها، ولا يُجزّ وبرها، ولا يَشربُ لبنها إلاّ ضيف.

الوصيلة:

هي الناقة إذا ولدت أنثى بعد أنثى. وقيل: هي الشاة كانت إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكراً فهو لآلهتهم، وإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم. إلى غير ذلك من أقوال تتضمن أحكاماً جاهليّة سخيفة حول المراد من الوصيلة.

الحامي:

هو الفحل إذا ركب ولد ولده، ويقال: هو الذي ينتج من صلبه عشرة أبطن قالوا: قد حمىٰ ظهره، فلا يُركبُ ولا يُمنع من كلأ.

وهكذا ابتدع المشركون غلُوّاً في الدين فحرّموا ما لم يحرمه الله في دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

فكلّ تحريم في المآكل والمشارب والألبسة والمساكن دون إذنٍ شرعي، وليس للمحرّم فيه برهان من الله، هو افتراءٌ على اللهِ وافتئات في الدين، والتذرّع ببعض الأحاديث الضعيفة، أو التي لا تقوى على إثبات حكم التحريم لا يُغني من الحقّ شيئاً.

غلوّ النصارىٰ في الأحكام:

ومن غلوّ النصارىٰ تحريمهم تعدّد الزوجات دون نصّ ديني، وإنما هو حكم كنسيٌّ بابَوِيٌّ، صدّره رجال الكهنوت من عند أنفسهم، على خلاف حكم الله في التوراة وسائر كتب العهد القديم.

أمّا كتب العهد الجديد فليس فيها حكم تحريم تعدّد الزوجات.

ومن غلوّ النصارى في الأحكام ما لديهم من الرهبانية التي ابتدعوها، فما رعَوها حقّ رعايتها، ومن هذه الرهبانية التزام بعضهم بترك الزواج ترهّباً وتقرباً إلى الله عزّ وجل، وحكم بعض طوائفهم بتحريم الزواج على من يدخل سلك الترهّب في الأديرة والكنائس، ومنها السياحة في الأرض وترك الإقامة في المدن والقرى، ومنها اتخاذ صوامع للعبادة في الجبال بعيداً عن الناس والاختلاط بهم.

وربما كان أصل ذلك عندهم نذوراً ينذرونها ويلتزمون بها، ويرون أنّ الالتزام بهذه النذور واجب، ولو لم تكن نذوراً في الطاعات المشروعة.

وهذه النذور كانت معروفة عند بني إسرائيل، ومنها نذر الصوم عن الكلام، ونذر ما يأتيهم من مواليد لخدمة المسجد الأقصىٰ، ونحو ذلك.

وقد بيّن الله أنّ رهبانيتهم التي غلَوْا فيها إنّما هي من الأمور التي ابتدعوها من عند أنفسهم، فإذا كانت نذوراً والأصل في النذور بغير المعاصي عندهم وجوب الالتزام بها، فإيجابها عليهم تابع لالتزامهم بها عن طريق النذر الموجب.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحديد ٥٧):

﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذرّيتهما النبوّة والكتاب، فمنهم مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسقون (٢٦) ثمّ قفّينا على آثارهم برسُلِنا، وقفينا بعيسىٰ آبن مريم وآتيناه الإنجيل. وجعلنا في قلوب الذين اتَّبعوه رأفةً ورحمة، ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلّا ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حقّ رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثيرٌ منهم فاسقون (٢٧) ﴾.

فالذين اتَّبعوا عيسىٰ عليه السلام بصدق، قد جعل الله في قلوبهم بقانونه القدريّ عدّة صفات، وسببها ما اقتبسوه من رسول الله عيسىٰ عليه السلام في خلقه وسلوكه، وهذه الصفات هي:

١ ـ **الرأفة**: عاطفة أخص من الرحمة، وأشدّ رقّة، ولا تكاد تكون مع الكُرْهِ والبغض.

٢ ـ **الرحمة**: رقّة في القلب، وقد تجتمع مع الكره والبغض، فقد يرحم الإنسان من يكرهه أو يبغضه.

٣ ـ **الرهبانية**: غلوٌّ في ترك متاع الحياة الدنيا، والزهد في لذّاتها، كالالتزام بترك الزواج، والسياحة في الأرض، والاعتزال في الصوامع للخلوة والعبادة.

إنّ هذه الصفات موجودة بشكل عامّ في الذين اتَّبعوا عيسىٰ عليه السلام بصدق، ولا يقتضي وجودها فيهم أنها موجودة كلّها أو بعضها في كلّ فردٍ منهم، بل قد تكون موزّعة فيهم وعلى مستوى الصادقين الذين

آمنوا منهم بعيسىٰ أنّه عبد الله ورسوله، وآمنوا بالإنجيل الحقّ الذي أنزله الله عليه، وهو غير الأناجيل المعتمدة عند النصارى بعد التحريف.

أ ـ فمنهم من لديه رأفة، وهي رحمة شديدة قلّما تقترن بكُرهٍ أو بغض المرؤوف به.

ب ـ ومنهم من لديه رحمة يرحم بها حتى من يكره ويبغض من الناس.

جـ ـ ومنهم من ابتدع رهبانية فدرجت عليها طوائف منهم.

ويرىٰ المفسّرون أنّ الاستثناء الذي في قول الله تعالى: ﴿إلّا ابتغاء رضوان الله﴾ ليس من عموم قوله تعالى: ﴿ما كتبناها عليهم﴾. ويؤوِّلون النصّ على أنّه استثناء منقطع، أو استثناء من عموم محذوف، ويقدّرونه على أحد وجهين:

الوجه الأول: تقديره: ما ابتدعوها إلّا ابتغاء رضوان الله، فما رعَوها حقّ رعايتها.

الوجه الثاني: تقديره: ما كتبنا عليهم إلّا ابتغاء رضوان الله.

وإذا لاحظنا احتمال النذر، وأنّ من أحكام النذر في شريعتهم وجوب الالتزام به، ولو كان نذراً في المباحات، أو في غير ترك الواجبات وفعل المحرّمات، فإننا نرىٰ أنّ الاستثناء يمشي على ظاهره من غير تأويل ولا تقدير. وعندئذٍ يكون معنى النصّ كما يلي:

ورهبانية ابتدعوها والتزموا بها عن طريق النذور، دون أن يكون لهم فيها اتّباع مشروع لنصٍّ في الإنجيل، أو فيما قبله من كتب أهل الكتاب، أو اتّباع لعيسىٰ عليه السّلام في منهج سنّه لهم، وهذه الرهبانية ما أوجبناها عليهم بإلزامهم بالعمل بنذورهم، إلّا ابتغاء رضوان الله في عدم نقض ما نذروه لله تعالى.

لكنّهم في جملتهم ما رعوها حقّ رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم،

وعملوا بمقتضىٰ إيمانهم، فوفَّوا نذورهم، والتزموا بما كتب الله عليهم، آتيناهم أجرهم، ولكنهم كانوا قلّة، وكثير منهم فاسقون، لم يلتزموا بمقتضيات إيمانهم، ولم يوفُّوا نذورهم، ولم يلتزموا بما كتب الله عليهم، أي: فلهم جزاؤهم بالعدل.



الفصل الخامس

بيان التفريط والغلوّ

في السلوك الديني

(١)

مقدمة :

الأصل في السلوك الديني الاتّباع لا الابتداع، وكمال هذا السلوك إنّما يكون بالاتّباع الأمثل لأحكام الله، ولسنة رسوله ﷺ القولية، والعمليّة، والتقريرية.

فما نقص عن درجات الكمال في السلوك كان تقصيراً وزهداً في مرتبتي البرّ والإحسان، أو في مرتبة الإحسان.

وما نقص عن ذلك من دائرة التقوى كان تفريطاً وتهاوناً، ومعصيةً لله تعالى.

أمّا ما زاد على الاتّباع الأمثل، وعلى كمال هذا السلوك، فهو غلوٌّ، وتجاوز لحدود كمال السُّنَّة.

وإذا كان هذا الزائد من غير جنس ما أذن به الشارع عموماً فهو ابتداع مرفوض حتماً، وهو ضلالة.

ولا يكون الزائد غالباً إلّا مصحوباً بتقصير أو تفريط بعمل آخر يقتضيه الاتّباع الأمثل، وهو من التغيير والتعديل في نِسَب مساحات الأعمال المحدّدة في خريطة العمل الإسلامي، والمبيّنة في كتاب الله وسنة رسوله القولية والعملية والتقريرية.

وإذا طغَت الزيادة التي جاء بها الغلوّ على فرض أو واجب فأخذت نصيبه كانت معصية، وكانت زيادة مرفوضة حتماً، وغير مقبولة عند الله.

وكذلك إذا أفضت إلى ارتكاب محرّم من المحرّمات، كالذين يتركون الزواج زهداً في متاع الحياة الدنيا، فيقعون في الزّنا، أو يعملون عمل قوم لوط، وكالذين يتركون تعدّد الزوجات تورّعاً، وهم من الذين لا تكفيهم زوجة واحدة، فيرتكبون المحرّمات، ويقعون في الكبائر.

* * *

إنّ خريطة العمل الإسلامي تشتمل على صنفين من المساحات:

الصنف الأول: ما ينبغي عمله.

الصنف الثاني: ما ينبغي تركه.

وكلٌّ من هـذين الصنفين يقع في ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: مساحات تشتمل على أحكام الواجبات على اختلاف درجاتها، وأحكام المحرّمات على اختلاف درجاتها.

ومرتبة التقوى تلزم بالمحافظة عليها تماماً، فالواجبات: كالصلوات المفروضة، والزكاة، والحجّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد المفروض، والإحسان للوالدين، وصلة الرحم، وأداء الحقوق الواجبة، والمحافظون عليها هم المتقون.

والواجبات على درجات، بعضها نسبة الإلزام فيه أكثر من بعض.

والمحرّمات: كالقتل، والسرقة، وأكل أموال الناس بالباطل، والزنا، والـقذف، والغيبة، والنميمـة، والحسد المحـرّم، والإضرار بـالناس، وإيذائهم، وغير ذلك من المحرّمات الكثيرة، والمحـافظون عـلى تركهـا واجتنابها هم المتّقون.

والمحرّمات تتنازل في دركات، فبعضها أشدّ تحريماً من بعض.

المرتبة الثانية: مساحات أخرى تشتمل على أحكام المندوبات والمكروهات، ومرتبة البرّ تحثّ على مراعاتها، وتشجّع للتنافس في درجاتها.

والبرّ من مراتب الكمال في السلوك الإسلامي، وأجر البرّ عند الله عظيم.

وأعمال البرّ على درجات بعضها أرفع من بعض وأعظم أجراً.

والحريصون على الارتقاء في درجات مرتبة البرّ هم من تحقّقوا بمرتبة التقوى أوّلاً، ثمّ تطلّعوا إلى الزيادة عليها، وتسابقوا في درجات مرتبة البرّ المتفاوتات.

والمتسابقون في درجات هذه المرتبة هم الأبرار الذين يفعلون المندوبات ويتركون المكروهات، ولا يكون هؤلاء المتسابقون أبراراً ما لم يكونوا متّقين أوّلاً، فالمرتبة الأدنى شرط للمرتبة الأعلى.

المرتبة الثالثة: مساحات ثالثة فوق مساحات مرتبة البرّ، وهي تشتمل على أحكام أمور فعلها أو تركها هو الأحسن والأفضل والأولى، وهي من الإحسان الذي يعبد فيه العابد ربّه كأنه يراه.

ومرتبة الإحسان تحثُّ على مراعاة هذه الأمور الفُضْلىٰ فعلاً أو تركاً، وتشجّع للتنافس في درجاتها.

والإحسان مرتبة عُليا من مراتب الكمال في السلوك الإسلامي، وهي مرتبة جليلة، تدعو السابقين وأهل الهمم العالية إلى التسابق والتنافس فيها، والارتقاء في درجاتها، وهي مرتبة الأنبياء والصدِّيقين، وأجرها عند الله أعظم الأجر، ومنزلتها في الجنّة أرفع المنازل.

وأعمال الإحسان على درجات بعضها أرفع وأعلىٰ من بعض.

والحريصون على الارتقاء في درجات مرتبة الإحسان هم من تحقَّقوا فعلاً بمرتبتي التقوى والبرّ، ثمّ تطلّعوا إلى الزيادة على مرتبة البرّ، واتجهوا

للتسابق في درجات مرتبة الإحسان، وهي درجات بعضها أرفع من بعض.

والمتسابقون في درجات هذه المرتبة هم المحسنون، ولا يكون العاملون محسنين ما لم يكونوا متّقين أبراراً.

* * *

هذه صورة إجمالية لخريطة العمل الإسلامي، وليس من حقّ أيّ فرد أن يتلاعب ويغيّر في المساحات التي رسمها الشارع فيها.

فمن فعل شيئاً من ذلك كان جانياً، أو مقصّراً، أو مخطئاً مضيّعاً ما هو الأفضل عند الله.

وأكمل العمل هو الاقتداء الأمثل برسول الله ﷺ، فقد جعله الله للناس الأسوة الحسنة في كلّ شيء، في قوله، وفعله، وخلقه، ومعاملاته، وحركاته، وسكناته، وكلّ حياته.

وقد نقل أصحابه الكرام لنا صورة متكاملة عن سيرته صلوات الله عليه، فهو المثل الأعلى، وكلٌّ من عدّل، أو غيّر، أو نقص، أو زاد في الصور التي يقدّمها للعمل الإسلامي، ويصف فيها خريطة السلوك الإسلاميّ الأفضل، زاعماً أن ما قدّمه مطابق لصورة المثل الأعلى، فقد أفسد أو شوّه أو نقص من الكمال بمقدار ما أحدث.

* * *

ولا بدّ أن نلاحظ أنّ التقصير في السلوك هو طبيعة الناس، ولكن على المقصّر أن يعترف بتقصيره.

وحين يكون التقصير إخلالاً بحقوق مرتبة التقوى، أي تفريطاً بحدود الواجبات والمحرّمات، فإنه يكون معصية لله تعالى.

وحين يكون التقصير من حدود مرتبة البرّ أو من حدود مرتبة

الإحسان، فإنّه يكون زهداً في الخير العظيم والأجر الجسيم، وإيثاراً لبعض متاع الحياة الدنيا على أجر الآخرة العظيم.

وقد يكون التقصير ناشئاً عن نظرات فاسدات، نجم عنها تعديل في خريطة العمل الإسلامي، وكثيراً ما يزعم صاحب هذا التعديل الفاسد أنه يحسن صنعاً، وهو في الحقيقة مخالف للسنة، ومغيّر لحدودها.

ولا عذر لمن يغيّر أو يعدّل في خريطة العمل الإسلامي، ما لم يكن له اجتهاد مقبول، ضمن ضوابط الاجتهاد وقواعده، وكان من المأذونين شرعاً بأن يجتهد في استنباط الأحكام من مصادر التشريع الإسلامي.

إنّ مخالفة حدود السُّنَّة ابتداع وليس اتّباعاً، هذه حقيقة، لكنّ مخالفة هذه الحدود تختلف أحكامها بنسبة المخالفة.

فإن ترك المخالف بها واجباً أو فعل محرّماً كان ذلك حراماً قطعاً، وهو ضلالة لا محالة.

وإن ارتكب المخالف بها المكروهات، ولم يزعم أنّ ما فعله هو الأفضل والأكمل في السنة، فقد فوّت على نفسه السبق في درجات مرتبة البرّ، إذا كان هو من المتّقين.

وإن ارتكب المخالف بها ما هو خلاف الأولى، ولم يزعم أنّ ما فعله هو الأفضل في السُّنّة، فقد فوّت على نفسه السبق في درجات مرتبة الإحسان، إذا كان هو من المتّقين الأبرار.

أمّا التغيير مع زعم أنّه هو الأفضل دون دليل شرعي، فهو تشريع على الله ورسوله، فيما لم يأذن به الله، وهو افتئات في الدين، ولو كان تغييراً في غير حدود الواجبات والمحرّمات.

أمّا من كان له دليل شرعي فإنه مجتهد مخطىء، بشرط أن يكون مأذوناً بالاجتهاد، إذْ توافرت فيه شروطه.

وأخيراً لا بدّ أن نلاحظ أنّ الغلوّ لا يكون إلّا على حساب تغيير النِّسَب في خريطة العمل الإسلامي، الذي كان الرسول ﷺ فيه هو الأسوة الحسنة، والمثل الأكمل.

(٢)

التفريط في السلوك الديني:

عرفنا مما سبق في المقدمة مفهوم التفريط في السلوك الديني، وظهر لنا أنه على ثلاثة أحوال:

الأولى: النقص عن الالتزام بفعل الواجبات وترك المحرمات، وهذا النقص إخلال بحقوق مرتبة التقوى، وحذف لبعض مواقع من مساحتها.

وفي هذه الحالة من معصية الله عزّ وجل بمقدار النقص والتفريط، ويبدأ بارتكاب الآثام، ويتفاقم حتى درجة الفسوق.

الثانية: النقص من مراعاة فعل المندوبات وترك المكروهات، وهذا النقص يفوّت على صاحبه من درجات مرتبة البرّ بمقدار نسبته.

الثالثة: النقص من مراعاة فعل الأولى والأفضل والأحسن، وترك خلاف الأولى والأفضل والأحسن. وهذا النقص يفوّت على صاحبه من درجات مرتبة الإحسان بمقدار نسبته.

* * *

وممّا لا شكّ فيه أنّ الأبرار قليلون، وأنّ المحسنين نادرون جدّاً، وجلّ الناس من المؤمنين لا يرتقون عن مرتبة التقوىٰ، فإن فعلوا شيئاً من مرتبي البرّ والإحسان فقلّما يكفيهم للتعويض عمّا قصّروا فيه ونقصوه من حقوق مرتبة التقوىٰ.

والنسبة العظمى من المؤمنين مقصّرون بحقوق مرتبة التقوى، وظالمون لأنفسهم، يخلطون عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

ولولا فضل الله على المؤمنين بعصمتهم من المعاصي معونةً منه عزّ وجلّ لهم، وبرحمته إياهم بالغفران والعفو، ما زَكَىٰ منهم من أحد أبداً. قال الله تعالى في سورة (النور ٢٤):

﴿ يا أيّها الذين آمنوا لا تتّبعوا خُطُواتِ الشيطان. ومن يتّبع خُطواتِ الشيطان فإنّه يأمر بالفحشاء والمنكر، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زَكَى منكم من أحدٍ أبداً، ولكنّ الله يُزَكّي مَنْ يشاء، والله سميع عليم (٢١) ﴾.

* * *

ومن التفريط الشنيع في السلوك الديني ارتكاب المعاصي الكبرى، وظلم الناس، والبغي في الأرض بغير الحقّ، اتباعاً لأهواء النفوس وشهواتها، وقد يوصل هذا إلى حدود الكفر بالله، ثمّ ينقل إليه بعد انطماس البصيرة وطغيان الهوى، واتخاذه إلَهاً من دون الله، ونسيانه سوابق فضله عليه، ففي وصف الذين يلجؤون إلى الله عند الشدائد، فيدعونه مخلصين له الدين، ويعطونه المواعيد في دعائهم: لئن أَنْجَيْتَنا لنكونَنَّ من الشاكرين، فلمّا أنجاهم ووصلوا إلى منطلق الأمان والرخاء، إذا هم يَبْغون في الأرض بغير الحق، قال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس ١٠):

﴿ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ. يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾.

ومن التفريط في السلوك الدينيّ النفسيّ الظَّنُّ بالله غَيْرَ الْحَقّ، وربّما اقتربَ إلى مُسْتوىً يَخْدِشُ قاعدة الإيمان في نفس صاحب الظنّ، لذلك وصف الله المنافقين في عَرْضِه بعض أحداث معركة أحد، بأنّهم يظنّون بالله غَيْرَ الْحَقِّ ظنَّ الجاهلية، فقال عزّ وجلّ في سورة (آل عمران ٣) خطاباً للذين آمنوا:

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ: هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ من شَيْءٍ؟ قل: إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا

يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا. قُلْ: لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥٤)﴾.

فالظنُّ باللهِ غير الحقِّ إنْ لم يصِلْ إلى مستوى خدش الإيمان، فهو من التفريط في حقّ الله على عباده في جانب السلوك النفسيّ، بل هو في الغالب على حافّةِ الكفر أو داخلٌ فيه والعياذ بالله.

وقلّما يتنبَّهُ المسلمون لهذا التفريط الخطير، وهو أشدّ من التفريط بالمعاصي الظاهرة.

* * *

(٣)

الغلوّ في السلوك الديني:

وعرفنا أيضاً ممّا سبق في المقدمة مفهوم الغلوّ في السلوك الديني، وهو الزيادة على الاتّباع الأمثل، وعلى كمال هذا السلوك في أيّ حدٍّ من حدوده، وأيّ جانب من جوانبه.

فمن يترك كسب الرزق من الطرق المباحة ليتفرّغ للعبادة المحضة، مع أنه هو وأسرته بحاجة إلى الاكتساب، فقد زاد في السلوك الديني عن حدود العبادة المحضة زيادة طغَت على ما يجب عليه من كسب، وتَرَك الواجب ليغلو في أعمال عبادة هي من جنس العبادات المأذون بها شرعاً، لكنّ صرف الجهد والوقت فيها غير مأذون به، نظراً إلى أنّ هذا الجهد وهذا الوقت هما من حقّ اكتساب الرزق الواجب عليه.

وبرنامج العمل الإسلامي يقتضي توزيع الجهد على الأعمال المطلوبة، بحسب مقتضيات هذه الأعمال، فالله تبارك وتعالى قد جعل للعبادة المحضة أوقاتاً أوجب فيها السعي لأداء العبادة الواجبة، فإذا أتمّ المسلم عبادته الواجبة وسنتها الراتبة، فإنّ الله تبارك وتعالى يأمره بأن يمشي في مسلك من مسالك الأرض، ويبتغي من فضل الله مطالب حياته.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الجمعة ٦٢):

﴿ يا أيّها الذين آمنوا إذا نُودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعَوْا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (٩) فإذا قُضيتِ الصلاةُ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون (١٠) ﴾.

ففي هذا النصّ القرآني يأمرنا الله عزّ وجلّ بأن نسعىٰ إلى شهود الصلاة من يوم الجمعة، وذكر الله فيها، وترك أعمالنا الدنيوية في هذه الساعة، ولمّا كان أهم ما يجذب الإنسان إلى هذه الأعمال الدنيوية البيع الذي فيه ربح من غير جهد كبير، فقد خصّه الله بالذكر.

فإذا قضيت الصلاة فإنّ الله عزّ وجلّ يأمرنا بأن ننتشر في الأرض، ونبتغي من فضل الله رزقنا ومطالب حياتنا.

* * *

وحين لا تطغىٰ الزيادة التي جاء بها الغلوّ على فرض أو واجب، ولا تفضي إلى ارتكاب محرّم، وتكون من جنس ما أذن به الشارع، كقيام اللّيل كلّه للذكر والعبادة، فإنّ هذا الغلوّ مخالف للسُّنَّة لا محالة، وزهد بما هو الأكمل والأفضل عند الله، وليس هو الاتِّباع الأحسن لرسول الله ﷺ.

ثم إذا قصّر المغالي بسبب غلوّه هذا في أعمالٍ أخرىٰ من أعمال البرّ ذات النفع الأكبر له، أو للإسلام، أو للمسلمين، كان غلوّه غير محمود حتماً، بل هو بمثابة إيثار الفلوس القليلة على الدنانير الكثيرة.

وداعيه في الأنفس يرجع إلى الاستجابة لهوى من أهواء النفس، في نوع العمل الذي غَلاَ فيه، لا ابتغاء الاتّباع الأفضل لمنهج كتاب الله عزّ وجلّ، وسنة رسوله ﷺ. أو يرجع إلى تصوّر خاطىء للأفضل عند الله، كالذين يتصوّرون أنّ زيادة الأجر إنما تكون بزيادة المشقة وتعذيب النفس عبادةً لله تعالى، مع عدم الحاجة إلى ذلك، كمن يحجّ ماشياً وهو

مستطيع أن يحجّ راكباً، وكمن يُصلّي في الشمس تعذيباً لنفسه، وعنده ظل يستطيع أن يصليَ فيه، وكمن يكلّف نفسه الصيام في السَّفر الشاقّ في صيف شديد الحرّ وقد أذن الله له بأن يفطر، ورخّص له في ذلك.

* * *

أمثلة للغلوّ:

● ومن الغلوّ السفر للحجّ كلّ عام، والغلوّ بأداء العمرة وتكريرها كثيراً، وبذل الأموال في هذا السبيل، مع أنّ مجالات إسلامية كثيرة بحاجة ماسّة إلى هذه الأموال لنشرِ دين الله، وبثّه بين الناس، وتعليم الجاهلين به. كما أنّ مؤسساتٍ خيرية كثيرة تحتاج إليه، وإقامتها أنفع للمسلمين وأحبّ عند الله وأفضل.

لكن قد تتحقق بالسفر إلى الحجّ منافع دنيوية تكون هذه الدافع الضمنيّ غير المصرّح به.

وقد يكون هوى النفس بالسفر، وتعلّقها بالأماكن، ورغبتها بأن يقال: حجّ كذا وكذا مرّة، واعتمر كذا وكذا مرّة؛ قد زيّن لها هذا الغلوّ، وجعلها تؤثر المفضول على الفاضل، أو تؤثر السنة على الواجب أحياناً.

● ومن هذا الغلوّ الحرص على تقبيل الحجر الأسود، مع ارتكاب معصية الله في مدافعة المسلمين والمسلمات وإيذائهم، والتعرّض لانتهاك حرمة من حرمات الله عند بيت الله.

ونظيره الحرص على الصلاة عند مقام إبراهيم، مع ارتكاب معصية إيذاء الطائفين والطائفات والإضرار بهم.

● ومن الغلوّ في السلوك الديني الإفراط في التطوّع، كالتحنّث بالأوراد والأذكار والخلوات التأمُّليّة، مع ترك مطلوب آخر هو الأولى والأفضل في خريطة العمل الإسلامي، وجدول التقسيم الزمني، وتوزيع الجهد على مختلف الأعمال.

فإن طغَى هذا الغلوّ فأفضىٰ إلى ترك بعض الواجبات، أو إلى ارتكاب بعض المحرّمات، كان ذلك حراماً، ومعصية لله تعالى، لأنّ الاشتغال بالتطوّع مع ترك الواجب أو فعل المحرّم، قد جمع تفريطاً بموجبات التقوى من جهة، وغلوّاً لم يأذن الله به في تطوّع لا هو من مرتبة البرّ ولا هو من مرتبة الإحسان.

وإن طغىٰ فأفضىٰ إلى ترك ما هو الأفضل عند الله في برنامج توزيع الأعمال، كان ذلك مخالفاً للسنة، ومخالفاً لكمال المطلوب، وربّما كان اتباعاً لهوى النفس، أو وسوسة من وساوس الشيطان، أو تلبيساً من تلبيسات إبليس.

● ومن الغلوّ في السلوك الديني إطالة الصلاة في ركوعها وسجودها إلى حدّ السأم ونفور النفس، بإجهادها إلى حدّ الإعياء وغلبة النوم، أو إلى تنفير المقتدين إذا كان المغالي إماماً، أو عالماً أو رجلاً يُقتدى به.

● ومن الغلوّ في السلوك الديني ترك اللّحية على سجيتها دون تهذيب، لا سيّما إذا كانت من اللِّحىٰ الغزيرة النامية الضخمة، فهو أمر ينافي جمال المظهر المطلوب في سنة الرسول ﷺ، وبعض هؤلاء الغُلاة تضرب لحاهم إلى سرّتهم.

● ومن الغلوّ في السلوك الديني المبالغة الشديدة في تحرّي القبلة، إلى حدّ إضاعة وقت كبير، كان من الخير والأفضل شغله بالصلاة والذكر.

● ومن الغلوّ في السلوك الديني، صيام الدهر، أو طيّ الصيام بصومٍ يومين فأكثر دُون إفطارٍ في الليل، أو قيام اللّيل كلّه دون راحة، والتقشّف المضني للجسد، أو القاتل له، أو ترك الزواج تقرّباً إلى الله تعالى.

* * *

نصوص في بيان المنهج النبويّ القصد:

وفي بيان المنهج النّبويّ القصد، الذي يُوزِّع فيه السلوك توزيعاً عادلاً بحسب الحقوق والواجبات، وردَتِ السنة النبوية القولية والعملية والتقريرية، ومن النصوص الواردة في هذا المجال ما يلي:

١ ـ روىٰ البخاري ومسلم عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال:

جاء ثلاثة رهطٍ إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبيّ ﷺ، فلمّا أُخْبِروا كأنّهم تقالّوها ـ أي: رأوها قليلة ـ وقالوا: أين نحن من النبيّ ﷺ وقد غُفِر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر؟.

قال أحدهم: أمّا أنا فأصلّي اللّيل أبداً.
وقال آخر: وأنا أصوم الدهر فلا أفطر.
وقال آخر: وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوّج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال:

«أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟. أمَا والله إنّي لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكنّي أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزَوّج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

٢ ـ وروى البخاري ومسلم عن أنس قال: دخل النبي ﷺ المسجد، فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فَتَرت تعلّقت به، فقال النبي ﷺ:

«حلُّوه، ليُصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فَتَر فليرقدْ».

٣ ـ وروى البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إذا نَعَسَ أحدُكم وهو يُصلّي فليرقُد حتى يذهب عنه النوم، فإنّ أحدكم إذا صلّى وهو ناعس لا يدري لعلّه يستغفر فيسبّ نفسه».

٤ ـ وروى البخاري عن أبي جُحَيفة قال: آخى النبيّ ﷺ بين سَلمانَ وأبي الدّرداء، فزار سَلْمانُ أبا الدرداء، فرأى أمَّ الدرداءِ مُتَبَذِّلة، فقال لها: ما شأنُكِ؟. قالت: أخوك أبو الدّرداء ليس له حاجة في الدنيا.

فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال له: كُلْ فإنّي صائم. قال: ما أنا بآكلٍ حتى تأكلَ. فأكَلَ.

فلمّا كان اللّيل ذهب أبو الدّرداء يقوم. فقال: نَمْ. فنامَ. ثُمَّ ذهب يقوم، فقال: نَمْ.

فلمّا كان آخر اللّيل، قال سلمانُ: قُم الآن. فصلَّيا.

فقال له سلمان: إنّ لربّك عليك حقّاً، وإنَّ لنفسك عليك حقّاً، ولأهلك عليك حقّاً، فأعطِ كلّ ذي حقٍّ حقَّه.

فأتى أبو الدرداء النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سَلْمان».

٥ ـ وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّ النبي ﷺ دخل عليها، وعندها امرأة، قال: «مَنْ هٰذِه؟».

قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها. أي: أنها تصلّي نوافل كثيرة.

قال: «مَهْ، عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتّى تملّوا».

قالت عائشة: وكان أحبّ الدِّين إليه ما داوم صاحبه عليه.

رواه البخاري ومسلم

مَهْ: كلمة نهي وزجر، أي لا تَغْلو هكذا في العبادة.

لا يملّ الله حتى تملّوا: أي لا يملّ الله من عطاء الثواب والأجر، حتى تملُّوا أنتم من فعل الخير. ولكنّ الزيادة عن الطاقة المعتادة منفّرة للنفوس ومملّة. لذلك كان الأفضل مراعاة الاستطاعة والطاقة، ونشاط النفس للقيام بالعمل.

٦ ـ وروى البخاري عن ابن عبّاس، قال: بينما النبي ﷺ يخطب، إذ هو برجل قائم.

فسأل عنه؟

فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعدَ ولا يستظلّ ولا يتكلّم، ويصومَ.

فقال النبي ﷺ:

«مُروهُ فليتكلّمْ، ولْيستظِلّ ، ولْيقعدْ، ولْيُتِمَّ صَوْمه».

٧ ـ وروى مسلم عن جابر بن سَمُرة قال: كنتُ أُصلّي مع النبي ﷺ الصلوات، فكانت صلاتُه قَصْداً، وخطبته قَصْداً.

قصداً: أي متوسّطة، ليست طويلة ولا قصيرة.

٨ ـ وروى مسلم عن ابن مسعود، أنّ النبي ﷺ قال:

«هلَكَ المتنطِّعُون، هَلَكَ المتنطِّعُون، هلك المتَنطِّعُون.».

قالها ثلاثاً.

المتنطّعُون: هم المتعمّقون المشدّدون في غير موضع التشديد، وهم الغُلاة في السلوك الديني.

٩ ـ وروى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«إنّ الدين يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادّ الدِّينَ أحدٌ إلّا غلبه، فسدِّدوا، وقاربوا، وأبْشِرُوا، واستعينوا بالغَدْوة والرَّوْحَة وشيءٍ من الدُّلْجة».

وفي رواية له:

«سدّدوا، وقاربوا، واغْدُوا ورُوحُوا، وشيءٌ من الدُّلْجَـة، القصدَ القصدَ؛ تبلُغوا».

الغَدْوة: السير أول النهار.

الرّوحة: السير آخر النهار.

الدُّلجة: آخر الليل.

أي: استعينوا على العبادة بالقيام بها في أوقات نشاطكم وهمة نفوسكم، ساعة عند الصباح، وساعة عند المساء، وساعة عند آخر اللّيل.

ولا تجهدوا أنفسكم، وليكن عملكم قصداً، أي: وسطاً، لا فاتراً أو بارداً، ولا شديد الحرارة وباجتهاد بالغ، فالسير الوسط المعتدل هو الذي يوصل إلى الغاية المقصودة: «القصدَ القصدَ تبلغوا».

١٠ ـ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ قال: أُخبِرَ النبيُّ ﷺ أني أقولُ: والله لأصومَنّ النهار ولأقومنَّ اللّيلَ ما عِشْتُ.

فقال رسول الله ﷺ:

«أنت الذي تقول ذلك؟!».

فقلت له: قد قلتُهُ بأبي أنت وأمّي يا رسول الله.

قال: «فإنّك لا تستطيع ذلك، فصُمْ وأفطر، ونَمْ وقُمْ، وصُمْ من الشهر ثلاثة أيّام، فإنّ الحسنة بعشر أمثالها، فذلك مثل صيام الدهر».

قلت: فإنّي أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فصُمْ يوماً، وأفطر يومين».

قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فصمْ يوماً وأفطر يوماً، فذلك صيام داود عليه السلام، وهو أعدل الصيام»، وفي رواية: «وهو أفضل الصيام».

فقلت: فإني أطيق أفضل من ذلك.

فقال رسول الله ﷺ: «لا أفضل من ذلك»[١].

قال عبدالله بن عمرو بن العاص: ولأن أكون قبلتُ الثلاثة الأيّام التي قال رسول الله ﷺ أحبُّ إليّ من أهلي ومالي.

وفي رواية أنّ الرسول ﷺ قال له:

«ألم أُخْبَرْ أنّكَ تصوم النهار وتقومُ اللّيل؟».

قلت: بلى يا رسول الله.

قال: «فلا تفعل، صُمْ، وأفطر، ونَمْ وقُمْ، فإنّ لجسدِك عليكَ حقّاً، وإنّ لعينَيْكَ عليك حقّاً، وإنّ لزوجك عليك حقّاً، وإنّ لِزَوْرِك[٢] عليكَ حقّاً، (وفي رواية: وإن لولدك عليك حقّاً)، وإن بحسْبكَ أنْ تصومَ من كلّ شهرٍ ثلاثة أيّام، فإنّ لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإنّ ذلك صيامُ الدهر».

قال عبد الله: فشدَّدتُ فشُدِّدَ عليّ، قلت: يا رسول الله، إنّي أجد قوّة.

قال: «صُمْ صيام نبيّ الله داودَ ولا تزِدْ عليه».

قلت: وما كان صيام داود؟

قال: «نصف الدهر».

فكان عبدالله يقول بعدما كبر: يا ليتني قَبلْتُ رخصة رسول الله ﷺ.

وفي رواية أخرىٰ أنّ الرسول ﷺ قال له:

«أَلَمْ أُخْبَرْ أنّكَ تصومُ الدهرَ، وتقرأ القرآن كلّ ليلة؟».

فقلت: بلىٰ يا رسول الله، ولم أرد بذلك إلّا الخير.

---

(١) أبان الرسول ﷺ في هذا، الحدّ الأعلى الذي يكون ما زاد عليه غلوّاً غير محمود.

(٢) زورك: أي لزائريك.

قال: «فصم صوْمَ نبيِّ الله داود، فإنَّه كان أعبدَ الناس واقرأ القرآنَ في كلِّ شهر».

قلت: يا نبي الله، إنّي أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فاقرأهَ في كلّ عشرين».

قلت: يا نبيّ الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فاقرأ في كلّ عشرٍ».

قلت: يا نبي الله، إنّي أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فاقرأه في كلِّ سَبْعٍ ولا تزدْ على ذلك».

قال عبد الله: شَدَّدتُ فَشُدِّد عليّ، وقال لي النبي ﷺ:

«إنَّكَ لا تدري لعلَّكَ يطول بك عمرٌ».

قال عبد الله: فصرتُ إلى الذي قال لي النبي ﷺ، فلمّا كبرتُ وَدِدْتُ أني كنت قبلتُ رخصة نبي الله ﷺ.

وجاء في رواية أنّ النبي ﷺ قال:

«لا صامَ من صام الأبد، لا صامَ من صَامَ الأبد، لا صَامَ مَنْ صَامَ الأبد». ثلاثاً.

وجاء في رواية أنّ النبي ﷺ قال:

«أحبّ الصيام إلى الله صيام داود، وأحبّ الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سُدسه. وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفرّ إذا لاقىٰ».

قال النووي في رياض الصالحين: كلّ هـذه الروايـات صحيحة معظمها في الصحيحين، أي في البخاري ومسلم، وقليل منها في أحدهما.

١١ ـ عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له من حديث في حصى الرمي :

«وإياكم والغلوّ في الدين، فإنّما أهلك من قبلكم الغلوّ في الدين».

أخرجه النسائي وابن ماجه وصحّحه ابن خُزَيمة وابن حِبّان والحاكم.

١٢ ـ وروى البخاري عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن الوِصال في الصوم، فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله، قال:

«وأيّكم مثلي؟! إني أبيتُ يُطعمني ربّي ويَسقينِ».

فلما أبَوْا أن ينتهوا عن الوِصال، واصل بهم يوماً ثم يوماً، ثم رأوا الهلال، فقال:

«لو تأخَّر لزدتكم».

كالتنكيل لهم حين أبَوْا أن ينتهوا. والهلال هو هلال شوال الذي انتهىٰ به شهر الصوم.

والوصال في الصوم هو الإمساك عن المفطرات في الليل أيضاً مع النهار، حتى يصوم الصائم يومين أو أيّاماً بلياليها. وهذا من خصائص الرسول ﷺ. وجاء تعليله بأنّ الرسول ﷺ يبيت عند ربّه: «لَهُ مُطْعِمٌ يُطعِمُهُ وسَاقٍ يَسْقِيهِ» كما جاء بهذا اللفظ عند البخاريّ عن أبي هُريرة.



الفصل السّادس

بَيَان التّفريط وَالغُلُوّ في الوَلاء

(١)

مقدمة:

إنّ الولاء للدين أو لله والرسول يجب أن يكون بالحقّ، وينبغي أن يكون ضمن حدود مراتب التقوىٰ والبرّ والإحسان.

وكذلك الولاء لمن أمر الله بطاعته، فيجب أن يكون بالحقِّ، وضمن حدود مراتب التقوى والبرّ والإحسان، ويجب أن يلاحظ فيه ابتداءً أن يكون ضمن حدود طاعة الله والرسول، وأن لا يكون فيه معصية لهما، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وطاعة الرسول من طاعة الله حتماً، لأنه معصوم عن أن يأمر أو ينهىٰ إلّا متقيّداً بحدود طاعة الله.

والذين أمر الله بطاعتهم بعد الرسول هم أولوا الأمر منا، والوالدان، والزوج من قِبَل زوجته.

ومن طاعة الله والرسول الرجوع إلى أهل الذِّكْر، وأهل استنباط أحكام الدين من العلماء المجتهدين المشهود لهم بالعلم والتقوى والورع والقدرة على استنباط الأحكام من مصادر التشريع.

ولهذا الولاء حدود، كما أنّ لكل شيء في الوجود الحادث حدوداً، فما نقص عن حدود الولاء المطلوب فهو تفريط مذموم، وما زاد على حدود كمال الولاء المشروع فهو غلوٌّ مذموم، وقد يُفضي الغلوُّ في الولاء إلى

الكفر، أو الفسوق، أو الوقوع في الإثم والهبوط عن مرتبة التقوىٰ، وقد يُفضي إلى ترك السُّنَّة أو ارتكاب المكروه والزهد في مرتبة البرّ، وقد يُفضي إلى ارتكاب خلاف الأولى والأفضل والأحسن، والزهد في مرتبة الإحسان.

(٢)

التفريط في الولاء:

ويكون التفريط في الولاء بصُوَرٍ كثيرة:

● كالتفريط بالانتصار لدين الله، خوفاً، أو تهاوناً، أو تكاسلاً، أو موالاةً ومصانعة لأعداء الله. فإذا دعا داعي الدفاع عن الدين، أو الجهاد بالحقّ في سبيل الله كما أمر الله، لم يستجب صاحب التفريط لدعوة الداعي.

● وكالتفريط في نُصرة المستضعفين من المسلمين، إذا تعرّضوا لظلم، أو إكراه على الكفر، أو الفسوق أو ارتكاب الإثم.

وفي الحضّ على هذه الصور من صور الولاء للدين وللمؤمنين، قال الله عزّ وجلّ في سورة (النساء ٤):

﴿ وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان، الذين يقولون: ربَّنا أخرِجْنا من هذه القرية الظالمِ أهلُها، واجعل لنا من لَدُنْكَ ولِيّاً، واجعل لنا من لَدُنْكَ نصيراً (٧٥).

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت. فقاتلوا أولياء الشيطان، إنّ كيد الشيطان كان ضعيفاً (٧٦) ﴾.

● ومن التفريط في الولاء لدين الله وحزبه موادّة أعداء دين الله، ولو كانوا من أقرب الأقربين، وفي التحذير من هذه الصورة من صور التفريط في الولاء، وبيان فضل الملتزمين بحدود هذا الولاء، قال الله عزّ وجلّ في سورة (المجادلة ٥٨):

﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادّون من حادّ الله ورسولَه، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءَهم أو إخوانَهم أو عشيرتَهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم برُوحٍ منه، ويدخلهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، رضي الله عنهم ورضُوا عنه. أولئك حزبُ الله، ألَا إنّ حزب الله هم المفلحون (٢٢)﴾.

● ومن التفريط في الولاء لدين الله وحزبه اتخاذ بِطانة من الكافرين أو المنافقين، يُستشارون وتُكشف لهم الأستار والأسرار، كأمناء السر، والمستشارين، ومربّيات الأطفال، وقهرمانات القصور، ونحو هؤلاء ممّن يتمكّنون من الإطّلاع على الأسرار والدخائل، وهم مخالطون مداخلون، متودّدون مصانعون.

وفي النهي الشديد عن هذا التفريط قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران ٣):

﴿يا أيّها الذين آمنوا، لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خَبالًا، ودّوا ما عَنِتُّم، قد بَدَتِ البغضاءُ من أفواههم، وما تُخفي صدورهم أكبر. قد بيّنا لكم الآياتِ إنْ كنتم تعقلون (١١٨) ها أنتم أولاء تُحبّونهم ولا يُحبّونكم، وتؤمنون بالكتاب كلّه وإذا لقوكم قالوا: آمنّا، وإذا خَلَوْا عضّوا عليكم الأناملَ من الغَيْظ. قل: موتوا بغيظكم، إنّ الله عليم بذات الصدور (١١٩) إنْ تمسَسْكم حسنةٌ تسُؤْهم، وإن تُصبكُم سيّئةٌ يفرحوا بها، وإنْ تصبروا وتتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً، إنّ الله بما يعملون محيط (١٢٠)﴾.

● ومن التفريط في الولاء لدين الله وكتابه مجالسةُ الذين يخوضون في آيات الله، كفراً بها، وطعناً أو استهزاءً، دون القيام بالانتصار الواجب لدين الله، أو مفارقة مجلس الخائضين في أضعف الإيمان.

وفي ذلك أنزل الله في مكة قوله في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وإذا رأيتَ الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم، حتى يخوضوا في حديث غيره، وإمّا ينسينّكَ الشيطانُ فلا تقعد بعد الذكرىٰ مع القوم الظالمين (٦٨) ﴾.

والخطاب في هذه الآية يعمّ كلّ مؤمن، بدليل النصّ التالي الذي أنزله الله عزّ وجلّ في العهد المدني، وضمّنه الإشارة إلى آية الأنعام السابقة، وهو قوله تعالى في سورة (النساء ٤):

﴿ بشّر المنافقين بأنّ لهم عذاباً أليماً (١٣٨) الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أيبتغون عندهم العزّة؟. فإنّ العزّة لله جميعاً (١٣٩) وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آياتِ الله يكْفَرُ بها ويُسْتَهزأُ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره. إنّكم إذاً مثلُهُمْ. إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنّم جميعاً (١٤٠) ﴾.

فحذّر ربُّنا عزّ وجلّ من مغبّة مجالسة الذين يخوضون في آيات الله كافرين بها ومستهزئين، واعتبر هذا من صفات المنافقين، ونقضاً لقاعدة الولاء لله عزّ وجلّ ولكتابه، والنصيحة لهما.

وأشار إلى ما كان قد أنزل بهذا الخصوص في الكتاب، وهو ما كان قد أنزله في العهد المكّي، أي آية الأنعام.

ونلاحظ أنّ التعبير الذي جاء في آية (الأنعام ٦) قد كان بصيغة: ﴿ يخوضون في آياتنا ﴾ أمّا في (النساء ٤) فقد جاء التعبير بصيغة: ﴿ آياتِ الله يُكْفَرُ بها ويُسْتَهزأ بها ﴾ وعلمنا قطعاً أنّ هذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ يخوضون في آياتنا ﴾ بدليل ما جاء في آية (النساء ٤) وهو قوله تعالى: ﴿ حتى يخوضوا في حديثٍ غيره ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿ وقد نزّل عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آياتِ الله يُكْفرُ بها ويُستهزأُ بها، فلا تقعدوا معهم ﴾.

ونلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ قد حمّل المؤمنين مسؤولية فهم المراد من

الخوض في آيات الله، أنه خوض بشرٍّ ضدّ آيات الله، وذلك إمّا كفرٌ بها، أو كفرٌ واستهزاء.

● ومن التفريط في الولاء لحزب الله الإعراض عن استعمال المؤمن القوي الأمين الناصح لله ولرسوله وللمسلمين، واستعمال من ليس كذلك من الأقربين، أو من رفقاء التكتّل أو الحزب أو الجماعة، أو من الذين يقدّمون خدمات شخصية أكثر، أو يقدّمون خضوعاً وتذلُّلاً أوفر، أو يُظهرون حُبّاً وولاءً، أو يُطبّلون ويُزَمّرون بالإجلال والتعظيم والثناء، أو يتزلَّفون بالرُّشىٰ المادّية أو المعنوية، أو يُناصرون مناصرة عمياء على غير تقوى من الله.

إلى غير ذلك ممّا لم يجعل الله له رجحاناً، ولم يُنزّل به سلطاناً.

(٣)

الغلوُّ في الولاء:

● ويكون الغلوّ في الولاء بمجاوزة حدّ الحقّ في المناصرة والتأييد.

كالانتصار لقضية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، ومسائل الدين الأخرى، بالأكاذيب والمفتريات، والقصص الخرافية، وحيل السحر، والادّعاءات الغيبية الكاذبة.

مع أنّ الدين الحقّ لديه من براهين الحقّ، وأدلّة الحقّ، ما يكفي للانتصار له بها، فلا يجوز الانتصار له بالباطل، ولا بالأكاذيب.

إنّ الدين الحقّ ليس بحاجة إلى الباطل والأكاذيب والخرافيات لينتصر بها، وإنّما الذي يحتاج إلى مثل هذه الأمور هو الباطل.

ومن الحقائق الثابتة أنّ الحقّ ينصر بعضه بعضاً، فالحقّ من العلوم

التي يتوصل إليها الناس بوسائلهم، سينصر حتماً الحقائق الدينية المتعلّقة بالموضوع نفسه.

أمّا الباطل فلا يجد ما ينصره إلّا من جنسه، الحقّ ينصُر الحقَّ فقط، والباطل لا ينصره إلّا الباطل.

وقد علّمنا الله أن نُحقَّ الحقَّ، ونُبطلَ البَاطل، ولو رأينا أنّ الباطل قد يكون وسيلة لنُصرةِ الحقّ، قال الله عزّ وجل في سورة (الأنفال ٨):

﴿ ويريد الله أن يُحقَّ الحقّ بكلماته ويقطعَ دابر الكافرين (٧) ليُحقَّ الحقَّ ويُبطلَ الباطل، ولو كره المجرمون (٨) ﴾.

أن يحقّ الحقّ بكلماته: وكلماته عزّ وجل كلّها حق فهو «يقول الحقّ».

فإذا كان الله عزّ وجلّ يريد أن يُحقّ الحقّ ويبطل الباطل، بكلماته التي هي حقّ، فكيف يكون لمؤمن بالله أن يستخدم الباطل لنصرة الحقّ، والله يطالبنا بأن نبطل الباطل مهما كان شأنه، إنّ استخدامه لنصرة الحقّ إحقاقٌ له مع أنه باطل، وهذا أمرٌ ينافي منهج الله لنفسه، وشريعته للمؤمنين به وبكتابه وبرسوله.

ومن صفات الله عزّ وجل أنّه يتّبع الحقّ قصّاً، أي تتّبعاً تامّاً لكلِّ الجزئيات والعناصر، قال الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ إنِ الحكمُ إلّا لله يقصُّ الحقّ وهو خير الفاصلين (٥٧) ﴾.

يَقُصُّ الحق: أي يتتبعه بدقائقه.

وأثنى الله عزّ وجلّ على الذين يهدون بالحق، ولا يستخدمون الباطل في هدايتهم، وبالحقّ وحده يعدلون، لأنّ العدل لا يمكن أن يكون إلّا على قاعدة الحقّ، فقال تعالى في سورة (الأعراف ٧):

﴿ وممّن خلقنا أمّةٌ يهدون بالحقّ وبه يعدِلون (١٨١) ﴾.

وإذا كان الكافرون يجادلون بالباطل ليُدحضوا به الحقّ، فإنّ المؤمنين، يجادلون بالتي هي أحسن، وذلك هو الجدال بالحقّ.

● ويكون الغلوّ في الولاء لله بإعطاء بعض صفاته أكثر من حقّها، كادّعاء أنّ الله قادر على خلق المستحيلات العقلية، مثل إيجاد شريكٍ ندٍّ مكافىءٍ له سبحانه وتعالى.

● ويكون الغلوّ في الولاء لدين الله، بكراهية الأديان الرّبّانية الأخرى، وبعدم الإيمان بها، وبمحاربة كلّ ما يتصل بها ولو كان حقّاً منزّلاً من عند الله، مع أنها في أصولها حقٌّ منزّل من عند الله، لكنّ الله عزّ وجل قد أنهى العمل بها، وأوجب العمل بالدين اللاحق.

وإبعاداً عن مثل هذا الغلوّ أوجب الله في أسس العقيدة الإسلامية، الإيمانَ بكل ما أنزل الله من كتاب، وبكل الأنبياء والمرسلين الذين بعثهم لجميع الأمم السابقة، سواءٌ أجاءنا علم بهم، أو لم يأتنا.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشورى ٤٢) وهي مكيّة:

﴿ شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ: أن أقيموا الدين، ولا تتفرّقوا فيه. كبرُ على المشركين ما تدعُوهم إليه. الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من يُنيب (١٣) وما تفرّقوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، ولولا كلمةٌ سبقت من ربّك إلى أجلٍ مُسمًّىٰ لقُضيَ بينهم. وإنّ الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شكٍّ منه مُرِيب (١٤) فلذلك فادعُ، واستقم كما أُمرت، ولا تَتّبع أهواءهم، وقُلْ: آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأُمرتُ لأعدلَ بينكم. اللهُ ربُّنا وربُّكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حُجَّةَ بيننا وبينكم، اللهُ يجمع بيننا، وإليه المصير (١٥) ﴾.

فأبان هذا النصّ القرآني وحدة أصول الشرائع الربّانية، وأنّ الله قد شرع في هذا الدّين ما وصّى به نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، وأضاف

إلى ذلك ما أوحىٰ إلى محمد ﷺ فأكمل به الدين.

وأمر الله رسوله في هذا النصّ بأن يعلن إيمانه بما أنزل الله على رسُله من كتاب، فقال له: ﴿ وقل: آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ أي: وبما بعث من رسول، لأن الكتب المنزّلة إنما بلّغها رسُل الله.

ثم أنزل الله عزّ وجل قوله في سورة (البقرة ٢) وهي مدنية:

﴿ آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون، كلٌّ آمن: بالله، وملائكته، وكتبه، ورسُله، لا نُفرّق بين أحد من رُسُله. وقالوا: سمعنا وأطعنا. غفرانَك ربّنا وإليك المصير(٢٨٥) ﴾.

● ويكون الغلوُّ في الولاء للرسول ﷺ بحبِّه أكثر من حبّ الله، أو بإفراده بالرسالة والنبوّة دون سائر رسُل الله وأنبيائه.

كما فعل اليهود بالنسبة إلى رسُلهم ضدّ عيسىٰ وضدّ محمد عليهما الصلاة والسلام، وتبعهم في ذلك النصارى ضدّ محمّد ﷺ.

أو بإعطاء الرسول بعض صفات الألوهية، كما فعل النصارى.

● ويكون الغلوُّ في الولاء للكتاب الرّبّاني باعتباره هو الكتاب المنزّل من عند الله، وإنكار ما نزل قبله أو بعده من كتب ربّانية، كما فعل اليهود بالإنجيل والقرآن، انتصاراً للتوراة وسائر كتب العهد القديم. وكما فَعل النصارى بالقرآن انتصاراً للإنجيل والتوراة وسائر كتب العهد القديم.

● ويكون الغلوّ في الولاء لشخصٍ أو جماعة أو حزب بالمناصرة بالباطل، والحكم بالباطل، مع أنّ الإسلام ينهىٰ عن ذلك ويحذّر منه، ويأمر بالعدل، ولو كانت الجهة التي يمنحها المؤمن ولاءه أحبّ الناس إليه، ديناً، أو أخوة وصحبة،أو قرابة،وكانت الجهة المخالفة أعدَى الأعداء له.

وفي التحذير من هذا الغلوّ نادى الله المؤمنين بقوله في سورة (النساء ٤):

﴿ يا أيّها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقِسْط شُهداءَ لله، ولو على أنفسكم أو الوالدَيْن والأقربين. إنْ يكن غنيّاً أو فقيراً فالله أولىٰ بهما، فلا تتّبعوا الهوَى أن تعدِلُوا. وإن تلْوُوا أو تُعرِضُوا فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً (١٣٥) ﴾.

ثم ناداهم بقوله عزّ وجلّ في سورة (المائدة ٥):

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شُهداء بالقِسْط، ولا يَجْرِمنّكم شنئَانُ قومٍ على ألّا تعدلوا. اِعدلوا هو أقربُ للتقوى، واتقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون (٨) ﴾.

مِنْ تكامل هٰذين النّصين يظهرُ لنا أنّ الله أمر الذين آمنوا بأن يكونوا قوّامين لله وبالقسط، وشهداء لله وبالقسط، ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين، فكيف بسائر الناس.

ونهى الله الذين آمنوا عن اتباع الهوىٰ منحازين عن ميزان العدل، وهذا الانحياز يكون بوجهين:

أحدهما: أن يَلْوُوا عنه ولو ليّاً يسيراً، وقال الله تعالى في بيانه: ﴿ وإن تلْوُوا ﴾.

وثانيهما: أن يعرضوا إعْراضاً كاملاً، وقال الله تعالى في بيانه: ﴿ أو تُعرضوا ﴾.

وفي التحذير من الوجهين ختم الله آية (النساء ٤) بقوله: ﴿ فإنّ الله كان بما تعملون خبيراً ﴾.

فالولاء للأشخاص أو للجماعات لا يجوز أن يكون بحالٍ من الأحوال على حساب واجب العدل.

وفي آية (المائدة ٥) حذّر الله الّذين آمنوا من أن يحملهم بغضهم المتحرّك المتهيّج لقوم على ارتكاب جريمة الجَوْر ومجافاة واجب العدل، مهما

بدا لهم أنّ القوم لا يستحقون إلّا المعاملة بالظلم، باعتبار أنهم أعداء، وأنّ ظلمهم لا يتنافىٰ مع التقوى، فقال تعالى:

﴿ولا يجرمنكم شنئان قومٍ على ألّا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾.

أي فالعدل ولو مع الأعداء، ولو مع تصوّر أن ظلمهم وعدم العدل معهم لا ينافي التقوى، هو أقرب للتقوى.

وكم يقع أصحاب الولاء للأشخاص أو للجماعات أو للأحزاب من المسلمين، في هذا الغلوّ الشنيع الذي حذّر الله منه تحذيراً شديداً حتى مع أعداء الدين، فكيف بالمؤمنين المخالفين في الرأي، أو في التنظيم، أو في التكتل.

إنّه من الأمراض الشائعة التي يحجب الله بها نصره عن الذين يرون أنّهم ينصرونه وينصرون دينه، وهم في منهج ولائهم لله ولرسوله وللمؤمنين يعصون أوامر الله ونواهيه.

ويتولّد عن الغلوّ في الولاء التعصّب الذميم، والمناصرة بالباطل، وتبرير أعمال الشخص أو الجماعة أو الحزب دون وجه حقّ، ولو كانت هذه الأعمال من المعاصي والآثام، أو من الأخطاء الفاحشة.

ويتولّد عن الغلوّ في الولاء العمىٰ الحزبي، أو العمىٰ المذهبي، الذي يجعل صاحبه لا يرىٰ عيوب أصحاب الولاء والانتماء، فيندفع لمناصرتهم بالثقة العمياء، ودون تحرٍّ لوجه الحقّ. وإن رأى العيوب بنفسه، أو كشفها له أحد الناصحين، أسرع إلى تبريرها بالباطل، وبزخرف من القول.

وأستعمل كلمة العمىٰ هنا لأني أرى أنّ العمى قضية نسبية، فكل الناس عميان عمىً نسبي، وذلك بالنسبة إلى الموجودات التي لا يَرَوْنها ويراها غيرهم، كلّ الناس لديهم درجة من العمىٰ بالنسبة إلى الغيبيات التي لا يرونها، كالجنّ والملائكة، والعوالم النائية والقوى الروحية وغير ذلك

من أمور كثيرة، منها ما تكشفه الأجهزة العلمية الدقيقة.

إنّ درجة الإبصار التي لدى الناس محدودة جدّاً، وأهل البحث العلمي يتخذون الآلات عكازات تهديهم إلى معرفة بعض ما هو في عالم الغيب بالنسبة إلى قدرات أبصارهم وسائر حواسّهم، فسائر الحواس الظاهرة والباطنة شأنها كشأن البصر، وكذلك البصيرة النفسيّة والقلبيّة.

والغلوّ في الولاء مع العمى الحزبي المذهبي يجعل صاحبه يقوم بأعمال تحطيم غير المنتمين إلى الشخص، أو الحزب، أو المذهب الذي ينتمي إليه، ويحاول إلصاق النقائص والعيوب فيهم، وتعويق أعمالهم، وإيقاف نشاطهم، ودفن كلّ حسناتهم، ونشر قبائحهم، واتّهامهم بالباطل، وتشويه سمعتهم بين الناس، وتحقير أعمالهم، وتوهين شأنهم.

وجَذْر كلّ ذلك يرجع إلى الأنانيّة القبيحة الفرديّة، أو الجماعيّة، أو الحزبيّة، ويرجع إلى الحسد الذميم، وهما من النقائص الخلقيّة المنافية للأخلاق الإسلامية الحميدة، التي أمر الله بها، ونهى عن أضدادها.

ولا يعفي الإنسانَ من المسؤولية الدينية زعمُه أنه ينتصر لدين الله، أو لرسول الله، أو لمن أمر الله بمناصرته والدفاع عنه.

إنّ نصرة المسلم لأخيه المسلم واجبة، ولكنّه حين يكون مبطلاً أو ظالماً، فإنّ نصرته تكون بردعه عن الظلم، وردّه إلى صراط الحق، ذلك هو الولاء الحقّ له ولدين الله.

فالولاءات الشخصيّة، أو التجّمعيّة، أو الحزبيّة، لا يجوز فيها الغلوّ، ولا الانتصار بالباطل ضدّ الحق، وكلّ ما يقدّمه أصحاب الولاء من مبرّرات لتأييد الانتصار بالباطل ضدّ صاحب الحقّ، فهي لا تنفع عند الله شيئاً، ولا تعفيهم من المسؤولية، ولا تدفع عنهم العقوبة الرّبانية العادلة، لأنها من قضايا الظلم لعباد الله، وظلم الناس للناس لا يتركه الله من دونِ قصاص بالعدل، لا سيما إذا كانت عدواناً على غير معتدٍ، وتجنّياً على

مسلم في حقٍّ من حقوقه، لصالح الشخص الذي كان له الولاء، أو لصالح فرد من أفراد الجماعة التي كان لها الولاء، أو لصالح الحزب أو الجماعة بشكل عام.

وكثير من المسلمين قد حلّ بهم في هذا المجال داءُ الأمم من قبلهم، وقد نزل فيهم بسببه بلاء كثير، وشرّ مستطير، وعاقبهم الله بسببه بتبديد طاقاتهم، وتفريق جماعاتهم، وإلقاء العداوة والبغضاء فيما بينهم، وضرب قلوب بعضهم ببعض، ثمّ حَرَمهم الله من الظفر بثمرات أعمالهم، إذْ فقدت الجوهرة الحقيقية التي بها يمنح الله عباده النتائج التي يحبّونها، هذه الجوهرة هي الإخلاص لله في الأعمال، وصدق العمل ابتغاء مرضاته.

إنّ الولاء الحزبي المناصر بالباطل، يميت في جماعة الحزب وفي أفراده ركن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجعل الحزبيّ ينصر الحزب ورفيق الحزب فوق نصرته للحقّ، وقد يعلّل ذلك تعليلاً دينيّاً في فتوى غير شرعية، بأنّ الغرض من نصرة الحزب بوجه عامّ نُصرةُ الدين، أو نُصرةُ الحقّ الكلّي الأكبر، فلا مانع من التجاوز في الجزئيات من أجل هذا الهدف الأكبر والأهمّ، لذلك فهو يسكت ويداري، أو يدافع ويبرّر، وهنا تنزل عقوبة الله وفق سنته الدائمة، فيضرب قلوب بعض أفراد الحزب ببعض، ويمزّقهم، ويَلْبسهم شِيَعاً، فيخلطهم خَلْطاً متنافراً يضرب بعضهم بعضاً.

وهذا ما حذّر منه الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي، وقال الترمذي فيه: حديث حسن:

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنّ أوّل ما دخل النقصُ على بني إسرائيل، أنّه كان الرجل يلقى الرجل، فيقول: يا هذا اتّق الله ودَعْ ما تصنع، فإنّه لا يحلّ لك، ثمّ يلقاه من الغد وهو على حاله، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلمّا فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض».

ثم قال:

﴿ لُعنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لَبئسَ ما كانوا يفعلون، ترى كثيراً منهم يتولّوْنَ الذين كفَروا، لبئسَ ما قدّمت لهم أنفسُهم أنْ سخط الله عليهم، وفي العذاب هم خالدون، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أُنزل إليه ما اتّخذوهم أولياء، ولكنَّ كثيراً منهم فاسقون ﴾[1].

ثم قال ﷺ:

«كلّا ـ والله ـ لتأمُرُنّ بالمعروف، ولَتَنْهَوُنّ عن المنكر، ولتأخُذُنّ على يَدِ الظالم، ولتأطُرُنَّه على الحقّ أَطْراً، ولتَقْصُرُنَّه على الحقّ قصراً، أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكُم على بعض، ثمّ ليلْعنكُمْ كما لعنهم».

* * *

إنّ داء الغلوّ في الولاء الشخصي أو الحزبي، قد جلب إلى المجتمعات الإسلامية ما يلي:

أ ـ جلب التعصّب المذهبي، فأفسد أحوال أتباع المذاهب الفقهية، وجعلهم ينتصرون لرأي أئمتهم أو فقهاء مذاهبهم، أكثر من انتصارهم لكتاب الله وسنة رسل الله ﷺ.

ب ـ وجلب التعصّبَ للشيوخ، سواء أكانوا علماء، أو مربِّين على السلوك الإسلامي، والتهذيب الخلقي، والتدريب على العبادة والصفاء الروحي.

وهذا التعصّب للشيوخ أفسد أحوال الشيوخ والتلاميذ معاً، فجعل التلاميذ يعمَون عن عيوب شيوخهم، حتى يروهم قدِّيسين، ويكرهون

---

(١) سورة (المائدة) الآيات (٧٨ ـ ٨١).

نظراءهم أو من هم أفضل منهم، متى أحسّوا بمنافستهم لهم في المجتمع.

وجعل الشيوخ يستغلّون ثقة تلاميذهم بهم ثقة عمياء، وقد ينحرفون بهم عن مراضي الله إلى تحقيق مصالح أنفسهم، وللتغشية الكاملة على الأبصار، والهيمنة التامّة، وسلب إرادة المريد سلباً كاملاً، حتى تعارف الشيوخ على قاعدةٍ اعتبروها أساسيّة في التربية، ألاَ وهي ضرورة أن يكون المريد بين يدي شيخه كالميّت بين يدَيْ مُغَسِّله.

جـ ـ وجلب أيضاً التعصّبَ الحزبي، للحزب أو للأفراد المنتمين إليه. وهذا التعصُّب الحزبي قد جعل الحزبيين يعمون عن عيوب قادة الحزب، وعن عيوب المنتسبين إليه، مهما كانت شنيعة وخطيرة.

وقد يكون بعض المنتسبين إلى الحزب منافقين أصحاب مصالح، وقد يعمل بعض هؤلاء على تهديم أهداف الحزب من الداخل.

والتعصّب الحزبي جعل أصحابه يحاربون من لم ينتمِ إلى حزبهم، مهما كان صالحاً تقيّاً، عاملاً للإسلام، مخلصاً في عمله يبتغي رضوان الله. وعلّم الحزبيين وسائل المكر والحيل الخفية لضرب الآخرين، ولو كانوا من المؤمنين المتّقين.

والتعصب الحزبي جعل الحزبيين يفضّلون كلمة الانتماء إلى حزبهم ولو نفاقاً، على قناطير العمل الإسلامي الصالح الذي يُرضي الله عزّ وجل، ممن لم ينتم إلى حزبهم، وجعلهم يؤثرون هذا المنتمي لمجرّد انتمائه على غيره مهما كان ذلك عالماً مخلصاً يبتغي رضوان الله والجنة، فعيبه الأكبر أنه لم ينتمِ إليهم.

* * *

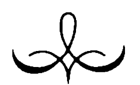
ولا نجاة من هذا الداء الذي جلبه الغلوّ في الولاء إلاّ بمعالجته بالدواء الإسلامي، الذي تُقاس فيه الأمور بمقياس الحقّ والعدل، أين كان الحقّ، وحيث استقام ميزان العدل.

هذا هو منهاج الله ورسوله الذي يجب بمقتضاه النظر إلى المسلمين جميعاً بمنظار واحد، هو منظار الحقّ والعدل. والمسلمون جميعاً بموجبه متساوون في الحقوق والواجبات. ويجب بمقتضاه طرح الولاءات الشخصية، أو التكتليّة، أو الحزبيّة، في اللحظة التي تكون فيها منافية للولاء لله ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم.

ولا مانع بعد ذلك من الإحسان لذوي القربىٰ، وللإخوان في الله، وللجماعة المتعاونة على فعل الخير، ولكن بشرط أن لا يكون ذلك على حساب صاحب حقّ من المسلمين.

عندئذ يكون الله معهم، وناصرهم، ومؤيّدهم على أعدائهم، إذْ بذلك تتحّدُ كلمتهم، ويلتمُّ جمعهم، وتتعاظم قوتهم، وتقوم بينهم أواصر الإخاء والحبّ في الله، ولا يدبّ فيهم داء العداوة والبغضاء والتنازع، ولا عوامل التفرّق وتمزيق الصف.

أيها الإخوة الأحبّة، اتّقوا الله تُنصروا، وتظفروا، وتربحوا، ويؤتكم من خير العاجلة ما تحبّون، مع ما يدّخر لكم من أجر عظيم تنالونه يوم الجزاء الأكبر.



الباب الرابع

الجهادُ في سبيل الله

وفيه أربعة فصول

الفصل الأول: تعريف الجهاد ومجالاته.
الفصل الثاني: أهداف الجهاد في سبيل الله وعناصره وشروطه.
الفصل الثالث: محاولات التحريف في مفاهيم الجهاد في سبيل الله.
الفصل الرابع: توجيه حول قضيتنا الفلسطينية المعاصرة.

الفصل الأول

تعريف الجهاد ومجالاته

(١)

تعريف الجهاد:

الجهاد لغة: كالمجاهدة، تقول: جاهد يجاهد مجاهدة وجهاداً. أي: بذل جهداً فيه معنى المغالبة أو المنافسة لمعارض يشارك ببذل الجهد، مغالباً، أو منافساً، أو مقاوماً صادّاً.

هذا ما تدلّ عليه صيغة: (فاعل يفاعل مفاعلة وفعالاً) كقاتل يقاتل مقاتلة وقتالاً. ففي دلالة الصيغة معنى المشاركة على سبيل المغالبة أو المنافسة أو بذل الجهد من جهة والمقاومة له من جهة أخرى.

وفي الجهاد على هذا المعنى يبذل عادةً جهد زائد، وقد يطلق الجهاد ويراد منه مجرّد بذل الجهد الزائد، ولو لم يكن في مقابله مشارك مغالب أو منافس أو مقاوم.

والجهاد في سبيل الله: تعبير داخل في عموم المعنى اللّغوي بشكل عامّ، إلّا أنّ له قيداً عامّاً، هو أن يكون في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وقيوداً تفصيلية لكلّ نوع من أنواع الجهاد، وهذه القيود مبيّنة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفيما استنبطه علماء المسلمين وفقهاؤهم.

وسبيل الله: هو دينه، وصراطه الذي رسمه لعباده حتى يسيروا فيه، ويدخل في ذلك: أحكام العقائد، وأحكام العبادات، وأحكام المعاملات

والأخلاق، والآداب، والنُّظم، وسائر أحكام الشريعة الربّانية للناس.

وسبيل الله أيضاً ابتغاء مرضاته، في اتّباع أوامره واجتناب نواهيه، والتقيد بأحكام شرعيته، والوقوف عند حدوده.

المراد من الجهاد في سبيل الله:

من استعراض النصوص القرآنية المشتملة على مادة: «جاهد يجاهد مجاهدة وجهاداً» يتبيّن لنا أنّ المراد من الجهاد في سبيل الله: أن يبذل المؤمن المسلم في سبيل الله، ممّا يملك من جهدٍ، أو طاقة، أو مالٍ، أو أيّ شيء ذي نفع أو ذي تأثير ما، سواءٌ أكان ذلك من نفسه، أو من ماله، أو من أي شيءٍ يخصّه، أو من أيّ شيء له عليه سلطةٌ ما.

ويكون هذا البذل في سبيل الله حقّاً، حين يكون بهدف نشر دين الله، والدعوة إليه، وتبليغه للناس، أو تأليف القلوب عليه، أو نصرته وتأييده، أو الدفاع عنه، أو إعلاء كلمة الله في الأرض، أو إقامة شريعة الله ومنهاجه الذي رسمه لعباده وحدّد حدوده، مع ابتغاء رضوان الله في كلّ ذلك.

(٢)

مجالات الجهاد في سبيل الله:

من التعريف السابق يتبيّن لنا أنه يدخل في الجهاد في سبيل الله كلُّ مجالات البذل التالية وأشباهها، من كلّ مأذون شرعاً ببذله:

الأول: بذل المال كثيراً كان أو قليلاً في سبيل الله وابتغاء مرضاته، لتحقيق هدف من الأهداف الآنفة الذكر.

الثاني: بذل طاقة الفكر في البحث والتأمل، لنصرة دين الله، وشرح آيات كتاب الله، وإيضاح تعاليمه، واستنباط الأحكام الشرعية من مصادر

التشريع، والتأمّل والدراسة والبحث لمعرفة الأدلّة العقلية والتجريبيّة المؤيّدة للحقّ الذي جاء به الدين، وللتعرّف على الخطط الحكيمة للدعوة إلى الله، والجدال بالتي هي أحسن، ووضع خطط السِّلم، وخطط الحرب الدفاعيّة والهجوميّة، واستنباط الأفكار اللازمة لإعداد القوى المتفوقة على قوىٰ أعداء الإسلام، وغير ذلك من الأعمال الفكرية التي تخدم بالحق قضية دين الله لعباده، ورسالة رسوله محمد ﷺ للناس أجمعين.

ونحو ذلك ممّا يخدم قضية الدين وقضايا المسلمين مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجل.

الثالث: بذل قدرات اللّسان في البيان النافع المؤثِّر، لنشر دين الله، وتبليغه للناس، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي التلطُّف بالناس لتأليف قلوبهم على الإسلام وجذبهم إليه، واستخدام الأدب الرفيع والكلام المعسول للتأثير على النفوس والأفكار في مجال الدعوة إلى الله، وفي ضبط اللّسان وكفّه عمّا يؤذي وينفّر من المسلمين ومن الإسلام.

ومن الجهاد في مجال اللّسان الصمت أحياناً، حين يكون الصمت واجباً والكلام ضارّاً، ويكون هذا من الجهاد، باعتبار أنّ ضبط اللّسان أحياناً لا يكون إلّا ببذل جهد نفسي كبير، ويتطلّب قوة إرادة فائقة، ولعلّ ضبط اللّسان عند الثرثار أشدُّ عليه من كلام يجرُّه إلى حتفه.

ونحو ذلك ممّا يخدم قضية الدين وقضايا المسلمين مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجل.

الرابع: بذل قدرات الكتابة والتأليف، في كتابة الموضوعات الإسلامية، ذات النفع تعليماً أو إقناعاً، أو تذكيراً، أو توجيهاً، أو موعظة حسنة، وفي التأليف، والتصنيف، والترجمة، والنشر، لتوجيه الناس وتعريفهم بالحقّ، ودعوتهم إلى دين الله، والتقيّد بأحكام شريعته، ورفع

لواء صراطه المستقيم، وإقامة الحكم الإسلامي في الأرض، ونحو ذلك مما يخدم قضية الدين وقضايا المسلمين مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجلّ.

الخامس: بذل حركة الجسد، في المشي، والسعي، والسفر، والتنقل في الأرض، وغير ذلك من حركات لخدمة الأهداف السابقة نفسها، سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة، أو بجمع المال من الباذلين، أو بخدمة الدعاة إلى الله من المسلمين الأكفياء للدعوة، أو بدعوة الناس لحضور مجالسهم، والاستماع إلى كلمات الحق، أو بمساعدة أيّ عامل يخدم قضية من قضايا الدين أو قضايا المسلمين، مع ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل.

السادس: التضحية بشهوات النفس ولذّاتها وراحتها، أو لـذّات الجسد وشهواته وراحته، للانصراف لخدمة قضية ما تدخل فيما تحتاجه رسالة الإسلام، ومصالح الأمّة الرّبانية المسلمة، مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجل.

السابع: الاجتهاد في إعداد المستطاع من القوى المادّية والمعنوية، والخطط اللازمة لذلك، أو المساعدة في عمل يهدف إلى هذه الغاية، بأيٍّ لون من ألوان المساعدة، مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجل.

الثامن: التضحية بالحياة كلّها، إذا اقتضى أمر الدين ذلك، وصار ما يُجْنىٰ من نفع للإسلام أو للمسلمين أعظم من حياة الفرد الذي يضحّي بنفسه، ولهذه التضحية بالحياة صور كثيرة، منها الصور التالية:

أ ـ كلمة حق تقال عند سلطان جائر، فيغضب السلطان، فيقتل قائلها.

ونفع مثل هذه التضحية عظيم جدّاً، وفي كلّ وقت، مهما كان الضغط على الإسلام شديداً، ومهما كانت قوة المسلمين ضعيفة، وهذا النفع يبرز في انتشار فكرة الحقّ، وامتدادها في الجماهير، لأنّها تنزلق على أسباب عطفهم عليه إذ قُتل مظلوماً، فتدخل إلى قلوبهم وهم لا يشعرون.

وقد ضرب الرسول ﷺ لنا مثلاً لهذه التضحية قصة غلام أصحاب

الأخدود، والأمثلة من التاريخ عليها كثيرة جدّاً، وفي كلّ وقت كانت سبباً في انتشار فكرة صاحب التضحية، ومُنِي الظالم الطاغي الباغي بعكس ما كان يريد، لقد كان يريد بقتل الداعي إلى الحق قتل كلمة الحق، فإذا بالداعي يُقتل، ولكن كلمة الحقّ تحيَىٰ في قلوبِ الجماهير، وتتوالد وتتكاثر وتنتشر، ويكثر أنصارها والمؤيدون لها والمؤمنون بها.

حتى التضحية من أجل المذهب الباطل قد يكون لها بعض هذا الأثر في الجماهير.

ب ـ الدخول في صفوف الأعداء على سبيل التجسّس، لمعرفة ما لديهم من كيد ضدّ الإسلام أو المسلمين، فإذا اكتشف أمْرهُ فقتل كان شهيداً مجاهداً في سبيل الله، بشرط أن يبتغي بعمله رضوان الله عزّ وجل.

جـ ـ المجابهة القتالية المأذون بها شرعاً، حينما تدعو الدواعي لذلك، وتتكافأ القوى إجمالاً، وتحين الفرصة المواتية، ويغلب على ظنّ القيادة الإسلامية المفوّضة بالبَيْعة الشرعية، وعلى ظنّ أهل مشورتها، إمكان النصر، بالنظر إلى الأسباب المادية والمعنوية التي يملك الناس إعدادها.

أمّا الأسباب الغيبيّة فأمرها متروك إلى الله، ويجلبها صدق التوكّل على الله والاستغفار، والدعاء، والتضرع، وإخلاص النية لله، ويمدّ الله بها بالمقدار الذي تقتضيه حكمته عزّ وجل.

(٣)

استعراض النصوص القرآنية في الجهاد:

أولاً: في العهد المكيّ أنزل الله في الجهاد النصوص التالية مرتبةً وفق مراحل التنزيل:

١ ـ أول نصوص الجهاد نزل في أواسط المرحلة المكية أو قبلها، وهو قول

الله عزّ وجل في سورة (الفرقان ٢٥) خطاباً للرسول ﷺ ثم للمسلمين من بعده، في معرض الحديث عن القرآن:

﴿ ولقد صرّفناه بينهم ليذّكروا. فأبا أكثر الناس إلاّ كفوراً (٥٠) ولو شئنا لبعثنا في كلّ قرية نذيراً (٥١) فلا تُطِعِ الكافرين. وجاهدهم به جهاداً كبيراً (٥٢) ﴾.

ولقد صرّفناه بينهم ليذّكروا: أي ولقد صرّفنا القرآن بينهم ليتعظوا، وتصريف القرآن تنويع أساليب البيان فيه، وأساليب الدعوة إلى الحق، وأساليب الجدال بالتي هي أحسن، وتنويع ذكر الأمثال والأشباه والنظائر للإقناع بالحق، وليقاس عليها ما لم يذكر في القرآن، كما قال تعالى في سورة (الاسراء ١٧):

﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليذّكروا وما يزيدهم إلاّ نفوراً (٤١) ﴾.

وقال فيها أيضاً:

﴿ ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كلّ مثل فأبىٰ أكثر الناس إلاّ كفوراً (٨٩) ﴾.

وكما قال تعالى في سورة (الكهف ١٨):

﴿ ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كلّ مثل، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً (٥٤) ﴾.

و (الكهف) نزلت بعد (الإسراء).

فدلّ التتابع في بيان التنويع في القرآن لأساليب الإقناع والتذكير والموعظة، على تصاعد حال غير المستجيبين لدعوة الرسول، من (نفور) كما في الآية الأولىٰ من الإسراء إلى (كفور) كما في الآية الثانية من الإسراء إلى (مكابرة جدلية) كما جاء في آية الكهف، رغم كلّ ما جاء في القرآن من

تصريف وتنويع في أساليب الدعوة.

ولكثير من المفسرين آراء أخرى في المراد من قوله تعالى: ﴿ولقد صرّفناه بينهم ليذّكروا﴾ في سورة (الفرقان)، التي نتدبر النصّ منها؛ إلاّ أنها جميعاً بعيدة عمّا تدلّ عليه السورة في النظرة الكلية إليها، وعمّا يدلّ عليه موضوع التصريف للقرآن الوارد في سور أخرى.

وقد أبان الله من أنواع تصريفه لأساليب الدعوة في القرآن تنويع الوعيد فيه، فقال تعالى في سورة (طه ٢٠):

﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربيّاً، وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يُحدثُ لهم ذكراً (١١٣)﴾.

وأبان أيضاً تنويع الحجج، فقال عزّ وجل في سورة (الأنعام ٦):

﴿قل: أرأيتم إنْ أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم، من إلـه غير الله يأتيكم به؟. انظر كيف نصرّف الآيات ثمّ هم يصدفون (٤٦) قل: أرأيتم إن أتاكم عذابُ الله بغتة أو جهرة، هل يُهلَكُ إلاّ القوم الظالمون؟ (٤٧)﴾.

وبعد بيانات جدليّة طويلة قال عزّ وجلّ أيضاً في السورة نفسها:

﴿قل: من يُنَجِّيكم من ظلمات البرّ والبحر تدعونه تضرّعاً وخُفيةً: لئن أنجانا من هذه لنكوننّ من الشاكرين؟ (٦٣) قل: الله ينجيكم منها ومن كلّ كرب، ثم أنتم تشركون (٦٤) قل: هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم، أو من تحت أرجلكم أو يَلْبِسَكُمْ شِيعاً، ويُذيق بعضكم بأس بعض. انظر كيف نُصرِّف الآيات لعلّهم يفقهون (٦٥)﴾.

يَلْبِسَكُم شيعاً: أي يخلطكم أحزاباً وفرقاً متنافرة متعادية متقاتلة.

ثم قال تعالى في السورة نفسها بعد عرض أدلة كثيرة على وجوده وعظيم صفاته، ومنها علمه وحكمته وعدله وقدرته:

﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم، فمن أبصر فلنفسه، ومن عمِيَ فعليها، وما أنا عليكم بحفيظ (١٠٤) وكذلك نُصرِّف الآيات، وليقولوا: دَرَسْت، ولنبيّنَهُ لقومٍ يعلمون (١٠٥) ﴾.

ولا تُطِعِ الكافرين: أي ولا تستجيب لرغباتهم ومطالبهم المتعنّتة، كقولهم الذي حكاه الله قبل هذا النص من سورة (الفرقان) نفسها بقوله تعالى:

﴿ وقال الّذين كفروا: لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة. كذلك لنثبِّت به فؤادك، ورتّلناه ترتيلاً (٣٢) ﴾.

وكقولهم الذي حكاه الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿ لولا أنزل إليه مَلَك فيكون معه نذيراً (٧) أو يُلْقَى إليه كنزٌ، أو تكون له جنة يأكل منها ﴾.

وجاهدهم به جهاداً كبيراً: أي وجاهد الكافرين بالقرآن جهاداً كبيراً.

ومجاهدة الكافرين بالقرآن، لا تكون بحمل القرآن ومقاتلتهم به، ولا تكون بمجرّد ترتيله وتلاوته، ولا تكون بقراءته عليهم على سبيل الرُّقْية، ليكون شفاءً لهم من الكفر.

إنّما تكون باستخدام أدلته، وأساليب بيانه، وشرح حججه وجدليّاته، والاستفادة من طرائق ترغيبه وترهيبه، واتّباع منهجه في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وعرض مفاهيمه، مع اقتفاء حكمة الله التي تكشفها مراحل تنزيل القرآن.

وهذا الجهاد بالقرآن يجب أن يكون جهاداً كبيراً مستمراً، ويجب على المؤمنين القيام به في كلّ حين، وهو منهاج الدعوة إلى الله الذي لا ينقطع ما دام في الأرض مؤمنون وكافرون، ولو مع قيام الجهاد بالقوى العسكرية المسلّحة بالحديد والنار ووجود الفرصة المتاحة لذلك.

فالجهاد بالفكر هو القاعدة، وهو الأساس، أمّا الجهاد بالأسلحة المادّية فضرورة يُوجبها واقع الصراع الذي يفرضه دعاة الباطل والضلال، والطغاة والبغاة والمفسدون في الأرض، وهو يشبه في الطبّ الأعمال الجراحية الخطيرة، ويشبه في الدفاع المدني عمليّات إطفاء الحريق، ويشبه في الأمن الداخلي مكافحة اللصوص، والمجرمين، وقطاع الطرق، والصائلين والبغاة.

وقبل الأمر بمجاهدة الكافرين بالقرآن جهاداً كبيراً، نزل الأمر بالتذكير بالقرآن.

والتذكير بالقرآن نوع لطيف من أنواع الدعوة إلى الله، وهذا يكون في أوائل مراحل الدعوة إلى الله، بالنسبة إلى الفئة التي تُوجّه لها الدعوة، كما نستفيد ذلك من مراحل التنزيل، فقال عزّ وجلّ لرسوله في آخر سورة (ق ٥٠) بعد أمره بأن يصبر على ما يقولون:

﴿ نحن أعلم بما يقولون. وما أنت عليهم بجبّار. فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد (٤٥) ﴾.

ولا بدّ أن نكون على بيّنة بأنّ خطاب الرسول هو خطاب لجميع المؤمنين، ما لم يكن الأمر من خصائص الرسول ﷺ بدليل خاصّ.

فخطاب الرسول ﷺ بأن ينذر بالقرآن، وبأن يجاهد الكافرين به جهاداً كبيراً، خطاب يعمّ جميع المؤمنين، وهذا التكليف مستمرّ لم ينقطع، ولن يقطع ما دام في الأرض مؤمنون وكافرون، ونزول الأمر بالقتال في المرحلة المدنية بعد هذه النصوص المكية لا يوقف العمل بمضامينها ولا استمراريّة هذا العمل، فالدعوةُ إلى الله، والجهادُ بها، وبالقرآن، هما القاعدة وهما الأساس، وهما الوظيفة الدائمة، والرسالة المستمرّة للمسلمين، فهم أمّة الدعوة إلى الله، وهم أمّة تبليغ رسالة رسول الله ﷺ، وهم الشهداء على الناس بهذا التبليغ يوم الدين.

٢ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (لقمان ٣١):

﴿ ووصّينا الإنسان بوالديه، حملته أمُّه وَهْناً على وهْنٍ، وفِصاله في عامين، أنِ اشكرْ لي ولوالديكَ إليّ المصير(١٤) وإنْ جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تُطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتّبع سبيل من أنابَ إليّ، ثمّ إليّ مرجعكُم، فأنبِّئكم بما كنتم تعملون (١٥) ﴾.

فكشف هذا النصّ أعنف معركة جهادية على النفس الإنسانية، لما فيها من صراع داخلي تشتبك به أقوىٰ العلاقات الإنسانية، وأعظمها حقوقاً وواجبات، إنّها معركة مجاهدة إيمانية بين الابن المؤمن ووالديه الكافرين، اللّذين يجاهدانه على أن يترك دينه الحقّ، ويشرك بالله، ويعود إلى الضلالة والغيّ، بعد الهداية والرشد.

ودلّ النصّ هنا على أنّ مجاهدتهما له مقرونة باستخدام سلطتهما عليه، وتأثير نفوذهما الاجتماعي على سلوكه، والإصرار عليه بأمرهما ونهيهما. دلّ على هذا قوله تعالى في النصّ: ﴿ وإنْ جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ فاستخدم كلمة (على) لما فيها من معنى الاستعلاء والتكليف واستخدام سلطة الأمر والنهي.

واكتفى النصّ في هذه المعركة الجهادية بين الابن المؤمن ووالديه الكافرين، بتكليف المؤمن أمرين:

الأمر الأول: عدم طاعة والديه الكافرين في دعوتهما له أن يشرك بالله.

الأمر الثاني: أن يصاحب والديه في الدنيا بما هو معروف في مصاحبة الوالدين، فيرفق بهما، ويؤدّي لهما حقوقهما من النفقة والخدمة، والطاعة في غير معصية الله، وهذا يقتضي عدم الإغلاظ عليهما في دعوتهما إلى الله.

ومن بدائع هذا النصّ ونظائره، تمجيده لدلائل العلم والمعرفة

الإنسانية، في قضية هي من أصول الدين وبدهيّاته، إذ قال عزّ وجلّ:

﴿ وإنْ جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾.

فأضاف فقرة: ﴿ ما ليس لك به علم ﴾ مع أنّ أحداً لا يملك دليلاً علميّاً يثبت فيه لله شريكاً.

إذن: فالله يرضى لنا أن نتّبع مناهجنا العلمية الصحيحة الصادقة، ولا يطالبنا بمخالفتها، ويُشعرنا بذلك حتى في أهمّ قضية من قضايا الدين، التي هي من الحقائق الظاهرة، ذات الأدلة القطعيّة البرهانية.

* * *

٣ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (النحل ١٦):

﴿ ثمّ إنّ ربّك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا، ثم جاهدوا وصبروا. إنّ ربّك من بعدها لغفور رحيم (١١٠) ﴾.

نزلت هذه الآية بمناسبة الذين فتنوا في دينهم في مكة، إذْ تعرّضوا لضغوط المشركين عليهم، ولإيذائهم، ومجاهدتهم لهم بالعنف حتى يرتدوا عن دينهم، ويعودوا إلى الشرك بالله. أو خافوا أن يتعرّضوا لمثل ذلك فكتموا إسلامهم، وأسرّوه في أنفسهم، وكانوا لا يملكون قوّة دفاع عن أنفسهم.

فكان من هؤلاء من ارتدّ، كعبد الله بن أبي سَرْح، وكان منهم من قال كلمة كفر تقيّة، وقلبه مطمئنّ بالإيمان، كعمّار بن ياسر، وكان منهم من أسلم واستخفى بإسلامه، فلم يظهره أمام قومه.

وهؤلاء قد دعاهم الله في هذه الآية إلى الهجرة، لضعفهم عن مقاومة ضغط المشركين وأذاهم، ثم إلى الجهاد في الثبات على الإيمان والدعوة إلى الله، والصبر على المشقّات التي يتعرّضون لها من أجل إيمانهم،

وفي هجرتهم، وفي دعوتهم إلى الله، ووعدهم سبحانه بأن يغفر لهم ما كان منهم من ضعف إرادة، أو ضعف تحمّل، ووعدهم بأن يشملهم برحمته.

فالمجاهدة هنا تبرز فيها معاني مقاومةِ ضغوط طغاة الكافرين، على الضعفاء المؤمنين، وتحمّلِ مشقاتِ الهجرة، والغربة، والدعوة إلى الله حيثما حلّوا، وحيثما ارتحلوا.

* * *

٤ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ في أواخر العهد المكيّ قوله في آخر سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا، وإنّ الله لَمَعَ المحسنين (٦٩) ﴾.

من الواضح أنّ الجهاد المراد في هذه الآية هو جهاد المقاومة لضغوط أعداء الإسلام من المشركين، وجهاد الصبر، وجهاد اتّخاذ السُّبُل للهجرة والفرار بالدين.

وفي هذه الآية إشارة ضمنيّة للضعفاء الذين فُتنوا في دينهم، أن يتّخذوا أيّ سبيل، ليتخلّصوا بالهجرة من ضغوط الكافرين ذوي السلطان والجبروت في مكة، فإذا فعلوا ذلك بإحسان وتصرّف حكيم، هداهم الله إلى سُبُل نَجاتهم وسلامتهم، وإنّ الله لمع المحسنين، أمّا الذين لا يُحسنون التّصرف، فيتحرّكون لتحقيق غاياتهم تحركاً أهوج طائشاً، ولا يتخذون الشروط السببيّة الملائمة، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يعدهم بأن يكون معهم.

ويقع كثير من المؤمنين السُّذّج في غلط فاحش حيال هذه الحقيقة، فيسيئون التصرّف، ولا يتخذون الشروط السببيّة الملائمة، ويطالبون الله بأن يكون معهم حامياً وناصراً، تصوّراً منهم أنّ الإحسان في العمل بمفهوم الدين قاصر على جوانب خاصة تتعلّق بالعبادات المحضة، ولا ينطلقون مع الأبعاد الكاملة لقول الرسول ﷺ في تعريف الإحسان: «أن تعبد الله كأنّك

تراه». ويغفلون عن قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء»[١].

فالله سبحانه وتعالى يعلّم المؤمنين في هذه الآية، أن يكونوا محسنين في اتّخاذ الأسباب المناسبة للهجرة من بلدٍ يفتنون فيه بدينهم، حتى يكون معهم ساتراً وحافظاً وناصراً.

وضرب الرسول ﷺ بعد ذلك المثل الكامل في هذا الموضوع، حين أذن الله له بالهجرة.

إنّ الله عزّ وجل يكون مع الذين يحسنون التصرف في أعمالهم ويتقنونها، ولا يكون مع المتساهلين ولا الفوضويين، ولا الذين لا يتقنون أعمالهم، ولا يتخذون أفضل الوسائل لما يبتغون من خير.

وغير وارد إطلاقاً تفسير السّبُل في قول الله تعالى في هذه الآية: ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلَنا ﴾ بالسُّبُل الدينيّة. بل هي سُبُل سلامتهم ونجاتهم وخلاصهم من أعدائهم في الحياة الدنيا، وسُبُل هجرة آمنة، معها تأمين سبُل الرزق والمعاش. وذلك لما يلي:

نحن نعلم من البيان القرآني أنّ سبيل الله في الدين واحدة غير متعدّدة، وأنّ الله عزّ وجلّ قد أمر في قضية الدِّين باتّباع سبيله الواحدة غير المتعدّدة، فالنصوص التي تحدّثت عن منهج الله في الدين جاءت كلّها بلفظ المفرد لا الجمع.

كلُّ ما جاء في القرآن من ذلك بلفظ «الصراط» جاء مفرداً، فصراط الله لم يأتِ مجموعاً مرّة واحدة، وبلفظ «المنهاج» لم يأت إلّا مرة واحدة مفرداً، وبلفظ «السبيل» نلاحظ أنّ كلّ النصوص التي يتضمن السياق أنّ المراد تعاليم الدين قد جاء اللفظ فيها بالإفراد، ولم يأت مجموعاً إلّا في موضوعات سبُل الأرض وسبُل الرزق ونحو ذلك، وهي النصوص التالية:

---

(١) رواه مسلم.

١ ـ قول الله عزّ وجل في سورة (النحل ١٦):

﴿ وأوحىٰ ربّك إلى النحل: أنِ اتّخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومِمّا يَعْرِشون (٦٨) ثمّ كُلِي من كلّ الثمراتِ، فاسْلُكي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً ﴾.

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل ١٦) أيضاً:

﴿ وألقَىٰ في الأرض رواسي أن تميدَ بكم، وأنهاراً وسُبُلاً لعلكم تهتدون (١٥) ﴾.

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه ٢٠):

﴿ الذي جعل لكم الأرض مَهْداً، وسلَك لكم فيها سُبُلا . . . . . (٥٣) ﴾.

٤ ـ وقوله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء ٢١):

﴿ وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم، وجعلْنَا فيها فجاجاً سُبُلاً لعلّهم يهتدون (٣١) ﴾.

٥ ـ وقوله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف ٤٣):

﴿ الذي جعل لكم الأرض مَهْداً وجعل لكم فيها سُبُلاً لعلكم تهتدون (١٠) ﴾.

٦ ـ وقوله عزّ وجلّ في سورة (نوح ٧١):

﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً (١٩) لتسلكوا منها سُبُلاً فِجَاجاً (٢٠) ﴾.

يضاف إلى ذلك أنّ الله عزّ وجل أمر باتّباع سبيله، ونهى عن اتّباع السُّبُل، لأنّها تتفرّق بالناس عن سبيل الله، فتقذفهم إلى المتاهات ذات اليمين وذات الشمال. وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة (الأنعام ٦):

﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه، ولا تتّبعوا السُّبُل فتفرّق بكم عن سبيله، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتّقون (١٥٣) ﴾.

فهذه الآية حاسمة في الموضوع، وما أظنّ أنّ حجّةً تستطيع أن تنهض بعد بيان هذه الآية.

ولم يبق لدينا إلاّ ثلاث آيات نستطيع أن نخرّجها وفق هذه القاعدة القرآنية.

الآية الأولى: آية (العنكبوت ٢٩) التي نحن في صدد تدبّرها، وقد ظهر لنا المراد منها بتوفيق الله.

والآية الثانية: هي قول الله عزّ وجل في سورة (المائدة ٥):

﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (١٥) يهدي به الله من اتّبع رضوانه سُبُلَ السَّلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم (١٦) ﴾.

سُبُلَ السلام: أي طرق السلامة والنجاة في أمور دنياهم، ولكيلا نفهم أنّها سُبُل في الدين قال الله تعالى في آخر الآية: ﴿ ويهديم إلى صراط مستقيم ﴾.

والآية الثالثة: هي قول الله عزّ وجل في سورة (إبراهيم ١٤) حكاية لمقالة الرسل لأقوامهم:

﴿ وما لنا ألاّ نتوكّل على الله وقد هَدَانا سُبُلنا؟! ولنصْبِرَنَّ على ما آذيتمونا، وعلى الله فليتوكّل المتوكلون (١٢) ﴾.

هذه الآية تتحدّث عن أنواع الضغوط الآثمة الظالمة، وأنواع الأذىٰ، التي كان يتعرّض لها الرسُل من قبل الكافرين الطغاة من أقوامهم، والتي جعلت الرُّسُلَ عليهم السلام يعلنون توكّلهم على الله، ويعلنون أنه لا يوجد أيّ داعٍ لليأس من النجاة من ظلم الكافرين لهم، وقد هداهم الله

سُبُلهم لتحقيق هذه النجاة، فأمامهم الخروج من أرض الكفر والظلم إذ أذن الله لهم بذلك، وقد دلّ على هذا الآية التالية لها، وهي قول الله تعالى:

﴿ وقال الذين كفروا لرسُلهم: لنخرجنّكم من أرضنا، أو لتعودُنّ في ملتنا، فأوحى إليهم ربُّهم لنُهلكَنّ الظالمين (١٣) ولنُسكننّكمُ الأرض من بعدهم. ذلك لمن خاف مقامي. وخاف وعيد (١٤) ﴾.

ويظهر بجلاء أنّ هذا النصّ من سورة (المائدة ٥)، يحكي قصة مشابهة تماماً، لما جاء في آية (العنكبوت ٢٩) التي نتدبّرها، وقد ظهر أنّ المراد من السُّبُل فيها سُبُل النجاة والسّلامة الدنيوية من إرهاب الكافرين أعداء الدّين.

وبهذا يكون الموضوع قد استجمع أطرافه كلّها، وظهر المراد بتوفيق الله ومعونته.

* * *

٥ ـ وفي أوّل سورة (العنكبوت ٢٩) أنزل الله إحدى عشرة آية مدنية، مع أنّ السورة فيما عدا هذه الآيات مكية.

وهذه الآيات تحدّثت عن فتنة المؤمنين في دينهم، فتابعت حركيّة الموضوع الذي جاء في سورة (النحل ١٦) والذي من أجله ألمح الله عزّ وجلّ للمفتونين في دينهم في الآية التي سبق شرحها من سورة (العنكبوت ٢٩) بأن يجاهدوا جهاد الهجرة والصبر والتحمُّل، وأن يحسنوا التصرف في ذلك، ويتخذوا أحكم السبل والوسائل والأسباب، ليكون الله معهم ساتراً وحامياً وحافظاً وناصراً، وليهديهم سُبُل نجاتهم وسلامتهم.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿ الۤمۤ (١) أحسبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا: آمنا، وهم لا يُفتنون؟ (٢) ولقد فتنّا الّذين مِنْ قَبْلهم، فليعلمَنَّ الله الذين صدقوا

وليعلَمَنَّ الكاذبين (٣) أمْ حَسِبَ الذين يعملون السيئاتِ أن يسبقونا؟. ساءَ ما يحكمون (٤) من كان يرجو لقاء الله فإنّ أجل الله لآتٍ، وهو السّميع العليم (٥) ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه، إنّ الله لغنيٌّ عن العالمين (٦) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفّرَنَّ عنهم سَيّئَاتهم ولنجزينّهم أحسنَ الذي كان يعملون (٧) ووصّينا الإنسان بوالديه حُسْناً، وإن جاهداك لتُشرك بي ما ليس لك به علم فلا تُطِعْهما، إليّ مرجعكم فأُنبّئكم بما كنتم تعملون (٨) والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين (٩) ومن الناس من يقول: آمنّا بالله، فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، ولئن جاء نصر من ربّك ليقولُنّ: إنّا كُنّا معكم. أوَ ليس الله بأعلمَ بما في صدور العالمين (١٠) ولَيَعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلَمَنّ المنافقين (١١) ﴾.

فبسطت هذه الآيات ما يتعلّق بفتنة الذين يقولون: آمنا، صادقين في إيمانهم. إنّهم يفتنون في دينهم من قبل أعداء الدين، فيؤذونهم لأنّهم آمنوا، ويوجِّهون ضدّهم الضغوط المتنوّعة، ليرتدوا عن الإسلام، ويعودوا كافرين مشركين.

والفتنة في الدين مصيبة تتكرّر في المجتمعات البشرية، وهي من مظاهر الصراع الدائم بين الحقّ والباطل، والخير والشرّ، والإيمان والكفر.

والله عزّ وجلّ لا يتدخّل تدخُّلاً مباشراً لتغيير هذه الظاهرة المتكرّرة في المجتمعات البشرية، لأنّ حكمته تعالى تقتضي أن يمتحن عباده، حتى يعلم الذين صدقوا في الانتماء إلى الدين، ويعلم الكاذبين الذين حرّكتهم المطامع أو المخاوف الدنيوية، أو دفعتهم نفحات عارضات لا ثبات لها.

لكنّ قُوى الكافرين مهما عظمت وفاقت قوة المؤمنين، فهي لن تسبق قوة الله حين تقتضي حكمته بأن ينصر أولياءه الصادقين، وينزل بأسه على الذين كفروا وفسقوا وطغَوا في الأرض.

فعلى المؤمنين إذن: أن يجاهدوا ليؤكّدوا صدق إيمانهم، والمجاهدة هنا في هذه المرحلة تكون بالصبر، والثبات، واتخاذ الوسائل للخلاص من الفتنة، بالهجرة إلى دار الإسلام التي أصبحت في المدينة آمنة مطمئنّة للمؤمنين.

ونلاحظ أنّه بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وقيام دولة الإسلام فيها، ضعفت نوعاً ما شوكة المشركين في مكة، فصار ضغط الآباء على أبنائهم الذين يسلمون أقلّ ممّا كان عليه قبل ذلك، لقد كان فيه معنى الاستعلاء والقهر، فأنزل الله يومئذٍ خطاباً للابن المؤمن:

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾.

وكانت وصية الله للابْنِ بهما في حدود: ﴿ وصاحبهما في الدنيا معروفاً ﴾.

أمّا بعد أن قامت دولة الإسلام في المدينة، وغدا ضغط الوالدين فيه معنى استخدام وسائل الحيلة والملاينة للإقناع والتحويل عن الإيمان برفق، الأمر الذي دلّ عليه قوله تعالى في النصّ المدني:

﴿ وإن جاهداك لتُشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾.

فاستخدم حرف (لـ) لا حرف (على) كما كان في النصّ المكي - ففي هذا الوضع جاءت وصية الله للابن بوالديه، أرقى من مجرّد المصاحبة بالمعروف، إذ جاءت بصيغة:

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حُسْناً ﴾.

ولا بدّ أن نلاحظ أنّ الحُسْنَ الذي أوصىٰ الله به أرقىٰ من مجرّد المصاحبة بالمعروف.

وأمّا الوالدان الموافقان في الدين الحقّ، فقد أوصى الله الابن

بالإحسان إليهما، و(الإحسان) أرقى مرتبة من (الحسن) الذي هو أرقى مرتبة من (مصاحبتهما في الدنيا معروفاً).

والوصية بالإحسان إلى الوالدين نجدها في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف ٤٦):

﴿ ووصّينا الإنسان بوالديه إحساناً، حملته أمّه كُرهاً ووضعته كُرهاً، وحَمْله وفِصَاله ثلاثون شهراً، حتى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة، قال: ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ، وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأصلح لي في ذرّيتي، إنّي تُبتُ إليك، وإنّي من المسلمين (١٥) ﴾.

ونلاحظ أيضاً في النصّ الذي نتدبّره من أوائل سورة (العنكبوت) أنّه قد تعرّض للّذين لا يثبتون حينما يفتنون في دينهم، لأنّ إيمانهم لم يكن ذلك الإيمان الصّادق الثابت الراسخ، فإذا أوذوا من قبل طغاة الكافرين لأنّهم أسلموا، ظنّوا بالله الظنون، فقال تعالى في شأنهم:

﴿ ومن الناس من يقول: آمنا بالله. فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾.

أي فهو بسبب ضعف إيمانه أو نفاقه يتّهم حكمة الله بتمكين الكافرين من تعذيبه، ويلقي المسؤولية على القضاء والقدر.

وقد جاء التعليق القرآني على هذا الصنف من الناس بقوله تعالى:

﴿ أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾.

أي: من صدق إيمان، أو ضعفه الشديد، أو كذبه.

إنّ من حكمة الله في تمكين الكافرين من إيذاء المؤمنين وتعذيبهم أن يكشف الصادقين في إيمانهم، ويكشف المنافقين، ويكشف من هم بين

الفريقين السابقين من ضعفاء الإيمان، وبياناً لذلك قال الله عزّ وجل في آخر النصّ:

﴿ ولَيَعْلَمنَّ الله الذين آمنوا، ولَيعلَمَنّ المنافقين ﴾.

* * *

ثانياً: وفي العهد المدني أنزل الله عزّ وجلّ في الجهاد النصوص التالية مرتّبة وفق مراحل التنزيل:

١ ـ في أوّل سورة مدنيّة وهي سورة (البقرة ٢) أنزل الله تعالى بشأن الجهاد في سبيل الله قوله:

﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم (٢١٨) ﴾.

هذه الآية أضافت إلى معنى الجهاد في أفكار المسلمين جهاد القتال في سبيل الله، انسجاماً مع حركيّة العمل الإسلامي لبناء الأمة الرّبّانية ونشر الإسلام في الأرض.

فصار الجهاد في سبيل الله يعني جهاد الدعوة إلى سبيل الله بكل وسائلها، وعلى وفق منهج القرآن، وجهاد الصبر والثبات، وجهاد الهجرة في سبيل الله، وإن أخذت الهجرة عنواناً مستقلاً، وجهاد القتال في سبيل الله، متى قامت دواعيه وتهيّأت وسائله، وأذن به منهج الله للمؤمنين.

والدليل على إضافة معنى القتال في سبيل الله، في عموم الجهاد في هذه الآية، أنّها قد نزلت بعد آيات الأمر بمقاتلة المعتدين من السورة نفسها، وهي قول الله عزّ وجل، خطاباً للذين آمنوا:

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إنّ الله لا يحبّ المعتدين (١٩٠) واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم، والفتنة أشدّ من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتّى

يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين (١٩١) فإن انتهَوا فإنّ الله غفور رحيم (١٩٢) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فإن انتهَوْا فلا عُدوان إلاّ على الظالمين (١٩٣) الشهرُ الحرام بالشهرِ الحرام، والحُرُمات قِصاص، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم، واتّقوا الله، واعلموا أنّ الله مع المتقين (١٩٤) وأنفقوا في سبيل الله، ولا تُلْقوا بأيديكم إلى التَّهلكةِ، وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين (١٩٥) ﴾.

فأمر الله عزّ وجلّ في النصّ المسلمين بقتال من يقاتلهم من الكافرين، ونهاهم عن الاعتداء.

وأبان سبحانه أنّ الإخراج من البيوت والأموال وبلد الوطن من أجل الدين، هو بمثابة القتال الذي يؤذن معه بالقتال.

ونهىٰ عن القتال عند المسجد الحرام في مكّة، إلاّ إذا بدأ الكافرون بذلك.

وأبان أنّ الفتنة في الدين والإكراه على الكفر أشدّ من القتل، فهي من الأمور التي يُؤذن بالقتال لدفعها أو رفعها.

وحدّد غاية القتال بارتفاع الفتنة في الدّين والإكراه على الكفر.

وبيّن أنّ الزمان الذي يحرم فيه القتال ـ وهي الأشهر الحرُم ـ مثل المكان الذي يحرم فيه القتال، فمن اعتدى بالقتال فيه جاز مقابلته بالمثل قصاصاً.

وأبان عزّ وجلّ واجب الإعداد للقتال قبل البدء به، وأبرز قيمة بذل المال لتحقيق هذه الغاية، فقال تعالى: ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ﴾. وكلُّ خبير بالحروب يعلم بداهة أن أوّل خطوة من خطواتها، البدءُ بجمع الأموال اللازمة لها، ورصدُ الميزانيّة التي تقتضيها، ولا يكون ذلك إلاّ

بإنفاق الأمّة لهذه الغاية، ثم يكون التدريب وإعداد القوة اللازمة، ورسم الخطط الحربية، إلى غير ذلك من أمور.

وألجم الله العواطف الثائرة الغاضبة، حتى لا تثور في غير جدوى بعد الإذن بالقتال، وحتى لا تندفع برعونة، قبل استكمال الإعداد الكافي لخوض المعركة، فقال تعالى:

﴿ ولا تُلْقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾.

فالأمر بالقتال مشروط بالبدء باتّخاذ أسبابه الكافية، هذا ما يدلّ عليه النصّ، وهذا ما يقتضيه العقل، وهو ما تثبته التجارب.

ولمّا كانت قضية الإعداد للحرب ليست من العبادات العاديّة التي يكفي فيها المقدار الأدنى، وهو مقدار التقوى، بل ينبغي لها الإتقان إلى درجة الإحسان، قال الله عزّ وجلّ في آخر فقرات النص:

﴿ وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين ﴾.

وأنزل الله عزّ وجل في سورة (البقرة ٢) أيضاً، بعد عدّة آيات من النصّ السابق قوله تعالى:

﴿ كتب عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم، وعسىٰ أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم، وعَسَىٰ أن تحبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢١٦) يسألونَك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه؟. قُلْ: قتالٌ فيه كبيرٌ. وصَدٌّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرام وإخْراجُ أهله منه أكبرُ عند الله. والفتنة أكبر من القتل. ولا يزالون يُقاتلونكم حتّى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا. ومن يرتَدِدْ منكم عن دينه فيمتْ وهو كافرٌ فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (٢١٧) ﴾.

وعقب هذا النصّ أنزل الله قوله:

﴿ إنّ الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمةَ الله، والله غفور رحيم (٢١٨) ﴾.

فحين نفهم أنّ النصّ قد أضاف في حركيّة الجهاد معنى القتال، فإننا لا بدَّ أن نفهم أنّ المعاني الأخرى للجهاد باقية ومستمرة، ولكن أضيف إليها معنى القتال.

فهو إذن منذ الآن يدخل في حساب مدير الحركة العامّة، فيقرّره إذا دعت الحاجة القصوى إليه، وكانت الاستعدادات له مكافئة لاحتمالات النصر، وفق نظام الأسباب والمسبّبات، وبيانات الله ورسوله.

* * *

٢ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجل في آخر سورة (الأنفال ٨) ثاني سورة مدنية، قوله تعالى:

﴿ إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والّذين آوَوْا ونصروا أولئك بعضُهم أولياءُ بعض، والذين آمنوا ولم يُهاجروا ما لكم من وَلَايَتِهم من شيءٍ حتّىٰ يُهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكُمُ النَّصرُ، إلّا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق. والله بما تعملون بصير (٧٢) والذين كفروا بعضهم أولياءُ بعض. إلّا تفعلُوه تكن فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير (٧٣) والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقّاً، لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم (٧٤) والذين آمنوا من بعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم، وأولوا الأرحام بعضُهم أولىٰ ببعض في كتاب الله، إنّ الله بكلّ شيء عليم (٧٥) ﴾.

فجاء التركيز في هذا النصّ على قضيتي الجهاد بالأموال والأنفس، بعد قضيّة الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام.

وقد عرفنا أن الجهاد بالأموال لإعداد القوة اللازمة سابق للجهاد

بالأنفس في معارك القتال، أمّا في غير معارك القتال وما أشبهها، فإنّ الجهاد بالأنفس فكراً، وجسداً، ولساناً، وقلماً، قد يكون سابقاً للجهاد بالأموال، ولا يَغِبْ عن تصوّرنا ما للجهاد بالأموال من قيمة عظيمة في كلّ المشاريع الإسلامية، وأهمُّها مشاريع الدعوة إلى الله، ونشرِ دين الله، وتبليغه للناس أجمعين، وتعليم علوم الدين، عن طريق المعلّمين والدعاة، أو عن طريق مختلف وسائل الإعلام، وفي مقدمتها نشر الكتاب الإسلامي المناسب لمستويات القرّاء.

وفي هذا النص بيان لأحكام الموالاة بين المسلمين، بحسب اختلاف الأحوال، والأحكام التي اشتمل عليها النصّ، تتلخص بما يلي:

الحكم الأول: المهاجرون والأنصار الموجودون في دار الإسلام كتلة واحدة، متآخون، متناصرون، متعاونون، متساعدون، متباذلون، بعضهم أولياء بعض. فالموالاة بينهم تامّة، تشمل التناصر، والتآخي، والتعاون، والتساعد على تأمين مطالب الحياة، وكلّ ما يدعم صلة الإخاء في جسديّة واحدة.

فالمهاجرون قد جاهدوا بأموالهم وأنفسهم مع هجرتهم واغترابهم عن ديارهم، والأنصار قد آوَوا المهاجرين ونصروهم، وبذلوا لهم من أموالهم ومن معوناتهم الجسدية، وعاملوهم معاملة إخوانهم من النسب، وأفضل.

دلّ على حكم الموالاة التامة بين عناصر هذا الفريق قول الله تعالى في النص:

﴿ إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آوَوْا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض ﴾.

الحكم الثاني: ويوجد فريق آخر من المسلمين، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا في سبيل الله إلى دار الإسلام، بل بقُوا في دار الكفر.

فهؤلاء ليس بينهم وبين أهل دار الإسلام من المهاجرين والأنصار

موالاة، لانقطاع الصلة، وتعذّر قيام موالاة بينهما، إذ لا يملك كلٌّ من الفريقين الحرّية الدولية في أن يُمدّ الفريق الآخر بالمناصرة الدائمة، والمعونة والمساعدة المتشابكة في إخاء جماعي، تبرز آثاره في الممارسات اليومية.

لكنّ هذا الفريق الذي آمن ولم يهاجر، إذا أوذي في الله من أجل دينه، وضغط عليه الطغاة الكافرون في بلد إقامته، في أمر دينه، وطلب النصرة من جماعة المسلمين أهل دار الإسلام، فإنّ على جماعة المسلمين في دار الإسلام أن ينصروه في هذا الأمر، بشرط أن لا يتعارض ذلك مع عهد خاص بين أهل دار الإسلام وذوي سلطان بلد هذا الفريق المستنصر.

وقد دلّ على هذا الحكم قول الله عزّ وجلّ في النص:

﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من وَلايتهم من شيءٍ حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر، إلاّ على قومٍ بينكم وبينهم ميثاق، والله بما تعملون بصير ﴾.

الحكم الثالث: لا موالاة بين الذين آمنوا والذين كفروا، فالذين كفروا بعضهم أولياء بعض، والانفصال في عناصر الولاء المتبادل قائم دائم بين المؤمنين والكافرين، دلّ على هذا قول الله في النص: ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ﴾.

ولكنّ قطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين لا يقتضي منع المؤمنين من أن يبرّوا الكافرين ويقسطوا إليهم، إذا لم يُقاتلوهم في الدين ولم يخرجوهم من ديارهم، بدليل قول الله عزّ وجل في سورة (الممتحنة ٦٠):

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتُقسطوا إليهم، إنّ الله يحبّ المقسطين (٨) إنّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين، وأخرجوكم من دياركم، وظاهروا على إخراجكم، أن تَوَلَّوهم، ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون (٩) ﴾.

الحكم الرابع: من استدرك أمره من المؤمنين الذين لم يهاجروا إلى دار الإسلام، فهاجر إلى دار الإسلام، وجاهد مع المجاهدين، فإنّ أحكام الفريق الأول تُجرىٰ عليه، فتكون له حقوق الموالاة كاملة، ويكون عليه أيضاً واجبات هذه الموالاة، وكذلك من آمن بعد ذلك وهاجر وجاهد في سبيل الله.

دلّ على هذا الحكم قول الله تعالى في النص:

﴿ والذين آمنوا من بعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾.

الحكم الخامس: أحكام الموالاة العامّة بين المؤمنين، والتي سبق بيانها، لا تتعارض مع أولوية الموالاة بين أولي الأرحام من المؤمنين، فأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله، ومنها أحكام التوارث، فالأحكام العامة لا تتعارض مع الأحكام الخاصَّة، ما دام الخاصّ داخلاً في العام، فأولوا الأرحام المقصودون هم من المؤمنين أيضاً، ولكنّ لهم الأولويّة في الموالاة، لحقّ الإسلام ولحقّ الرحم.

وقد دلّ على هذا الحكم قول الله تعالى في النصّ:

﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾.

وأبان النصّ أنّ الإخلال بأحكام الموالاة التي فرضها الله ينشأ عنه فتنة في الأرض وفساد كبير.

فالفتنة في الأرض تحصل إذ يرىٰ الكافرون تفرق المؤمنين، وعدم موالاة بعضهم لبعض، فيتسلّطون على أجزاء منهم، فيفتنونهم في دينهم، فلا يناصرهم إخوانهم المؤمنون ولا يؤونهم، فيضعف المفتونون عن المقاومة، فيتأثّرون بالضغوط، فيكفرون، فيحصل فساد كبير.

وفي بيان ذلك قال الله عزّ وجل في النص:

﴿ إلّا تفعلوه تكنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير ﴾.

وخصّ الله الفريق الأول بالثناء فقال في شأنهم: هم المؤمنون حقّاً، ومنحهم المغفرة، ووعدهم برزق كريم في الحياة الدنيا، فقال عزّ وجل في النص:

﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوْا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقّاً، لهم مغفرة ورزق كريم ﴾.

* * *

٣ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ خطاباً للمؤمنين في سياق التعليق على أحداث معركة أحد، قوله في سورة (آل عمران ٣):

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلَون إنْ كنتم مؤمنين (١٣٩) إن يمسَسْكم قَرْحٌ فقد مسّ القوم قَرْحٌ مثله، وتلك الأيّام نداولها بين الناس، وليعلمَ الله الذين آمنوا ويتخذَ منكم شهداء والله لا يحبّ الظالمين (١٤٠) وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحقَ الكافرين (١٤١) أم حَسبتُم أنْ تدخلوا الجنة ولمّا يعلِم اللهُ الذين جاهدوا منكم ويعلمَ الصّابرين (١٤٢) ﴾.

قَرْح: أي جراح.

نداولها بين الناس: أي نجعلها إقبالاً وإدباراً، ونعمة ومصيبة، ونصراً وهزيمة، فحكمة امتحان الناس تقتضي ذلك، ولولاه لما كان للارادات الحرّة خيار في الإيمان والكفر، والطاعة والمعصية، ولكانت قوانين الجزاء المعجَّل ـ لو كانت حتمية ـ كقوانين طبائع الأشياء لا يخالفها ولا يعصيها من يتعامل معها، لكنّ الله عزّ وجلّ قد شاء أن يأخذ الامتحانُ مداه الصحيح، فستر جزاءه بالتداول بين الناس، كما ستر مقاديره بالأسباب، لتكون الاستقامة ثمرة الإيمان بالغيب، الذي يدلّ عليه برهانُ العقل، لا برهان الحسّ.

وليعلم الله الذين آمنوا: أي فصدقوا جهاداً وصبراً، وليعلم أيضاً

ضعفاء الإيمان والمنافقين. فالبلايا كواشف.

ويتّخذ منكم شهداء: أي وليكرم فئة منكم بالشهادة، ليمنحها عنده كرامة الشهداء، ما دامت أعمارهم قد انتهت، وآجالهم قد حلّت، فَلأَنْ يموتوا شهداء خير لهم.

وليمحّص الله الذين آمنوا: التمحيص التنقية والتخليص من العوالق الضارّة وكلّ ما لا نفع فيه، فإزالة وَبَرِ الحبل حتى يكون أملس ناعماً تمحيص، وإزالة ما في نفس المؤمن من عوالق تميل به إلى الدنيا وزينتها وغنائمها تمحيص، وإزالة ما في القلوب من شبهات تمحيص، وإزالة آثار الذنوب تمحيص أيضاً.

فالمصائب تمحّص المؤمن، لكنّها للكافر الذي مَرَد على الكفر والعناد ماحقة، ولذلك قال تعالى: ﴿ ويمحق الكافرين ﴾.

أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين: أي: بل أظننتم أنّ دخول المؤمنين في أيّة معركة مع الكافرين كافٍ لمنحهم النصر، وفيهم المؤمن الصادق، وفيهم ضعيف الإيمان، وقد يوجد بينهم منافقون، وفيهم المجاهدون الصادقون وضعفاء الجهاد، وفيهم الصابرون والذين لا صبر عندهم، وهم على درجات متفاضلات؟؟.

أفيصحّ أن تمرّ المعركة دون كشف الدرجات، وتسجيل أحوال السابقين والمقصّرين، بظواهر مادّية مشهودة، وأن يحاسب الجميع حساباً واحداً؟.

إنّ هذه الأمور المقصودة من الامتحان لا تتحقق إلّا بضواغط الامتحان بالمصائب، حتى مستوى مصيبة هزيمة المؤمنين في معاركهم الحربية مع الكافرين، ولكنّ العاقبة للمؤمنين حقّاً.

فالجهاد في هذا النصّ يبرز فيه التركيز على الجهاد في معارك القتال.

* * *

٤ ـ ثم أنزل الله عزّ وجل أوائل سورة (الممتحنة ٦٠) بمناسبة خيانة حاطب بن أبي بلتعة، إذْ أرسل كتاباً مع امرأة لقريش يعلمهم فيه بعزم الرسول ﷺ على فتح مكة، وأعلم الله رسوله بالأمر، فبعث الرسول من أدرك المرأة، وأخذ منها الكتاب، واستدعَى الرسول حاطباً وحاكمه، ثم عفا عنه لسابقته في الإسلام، ولأنه كان من أهل بدر، فقال تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتَّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء، تُلقون إليهم بالمودّة، وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ، يُخرجون الرسول وإيّاكم؛ أنْ تؤمنوا بالله ربّكم، إنْ كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي، تُسِرُّون إليهم بالمودّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواءَ السبيل (١) ﴾.

تُلقون إليهم بالمودّة: لقد كان ما فعله حاطب تودّداً منه لكبراء قريش من أجل أهله ورحمه في مكة، الذين ليس لهم فيها عزوة، وقد أصابه من أجلهم الضعف البشري، فسقط في معصيته هذه، ولم يكن ذلك منه حبّاً لِلْكافرين، ولذلك جاء التعبير: ﴿ تلقون إليهم بالمودّة ﴾.

إنْ كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي: أي إن كنتم خرجتم يوم خرجتم مهاجرين فراراً بدينكم من اضطهاد مشركي مكة لكم، جهاداً في سبيل الله.

فوصف الله الهجرة من البلد ابتغاء مرضاة الله جهاداً في سبيله، فأكّد هذا النصّ المدنيّ مضمون جهاد الهجرة في سبيل الله.

واعتبر هذا النصّ الكتابة للكافرين بما يضرّ مصلحة جماعة المسلمين موالاة لأعداء الله، إذْ قال: ﴿ لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة ﴾ وكان أمر حاطب أن كتب كتاباً وأراد أن يصل إلى المشركين وهم أعداء الله.

فالإسرار بالمودّة من الموالاة، وتقديم الظِواهر التي تشعر بالمودّة من الموالاة.

* * *

٥ ـ وأنزل الله عزّ وجل قوله في سورة (النساء ٤):

﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلًا وعد الله الحُسْنى. وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً (٩٥) دَرجاتٍ منه ومغفرةً ورحمة، وكان الله غفوراً رحيماً (٩٦) إنّ الذين توفّاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا: فيم كنتم؟. قالوا: كنّا مستضعفين في الأرض. قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنّم وساءت مصيراً (٩٧) إلاّ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا (٩٨) فأولئك عسَىٰ الله أن يَعْفُوَ عنهم، وكان الله عَفُوّاً غفوراً (٩٩) ومن يهاجر في سبيل الله يَجِد في الأرض مُراغَماً كثيراً وسَعَة، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يُدْركه الموتُ فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفوراً رحيماً (١٠٠) ﴾.

غير أولي الضرر: أي غير أولي الأعذار الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا، ولا يقدرون على النهوض للجهاد.

يجد في الأرض مُرَاغَماً كثيراً وسعة: أي مُهَاجَراً يهاجر إليه[1] ومكاناً يتحوّل إليه ويقيم فيه، عوضاً عن موطنه الذي منع فيه من أن يكون حُرّاً في دينه، فمن هاجر في سبيل الله من وطنه ومَسْكِنِه وماله، وجد في الأرض مَكاناً آمناً مُحَصَّناً مَحْميًّاً، ووجد مُهَاجراً يهاجر إليه.

يقال لغة: راغم الرجل قوْمَه، إذا نبذهم وهجرهم، وأصل المادّة

(١) المهاجَر: موضع المهاجرة.

من محاولة كلٌّ أن يرغم أنف صاحبه ويُكرهه، وأعجزُهما يفرُّ ويهاجر، فيُرْغِم أنف نِدّه بالهرب.

فالمهاجر حين يُهاجر عن البلد التي فيها من يُريد إرْغامه على الكفر، هو «مُراغِم» بصيغة اسم الفاعل وهو يحاول أن يغلب أنداده بالهرب والمهاجرة، فالمكان الذي يُهاجر إليه ويُراغِمُ أندادهُ فارّاً إليه يُسمَّىٰ «مُرَاغَماً» كما يُسمَّىٰ «مُهَاجَراً».

فبدل وطنه يَجِدُ مُراغماً كثيراً، وبدلَ المال يَجِدُ سَعَةً في الرزق.

هذا النص تشعر الآية الأولى منه كما فهمَ المفسرون أنّ الجهاد المراد فيها هو الجهاد بالأموال والأنفس، في قتال الكفّار والإعداد له، ويؤيّد هذا المعنى الآية السابقة لها من السورة نفسها.

لكنّ الآيات اللاحقة المبنيّة عليها تفيد أن الهجرة في سبيل الله مرادةٌ في عموم الجهاد في سبيل الله في الآية الأولى.

فالهجرة جهاد، والبقاء في بلد الكفر مع محاولات الإرغام عليه قعود، والمهاجر قد فضّله الله في الدنيا درجة علىٰ القاعد، أمّا في الآخرة فأجره عظيم، وهو يمثّل درجاتٍ كثيرات في جنّات النعيم.

وبهذا نلاحظ أنّ الجهاد في المرحلة المدنيّة لم يتخلّ عن معانيه المتعدّدة، ليختصّ بجهاد القتال.

إنّ القضية قضيّةُ حركيَّةِ عملٍ بحسب مقتضيات الواقع البشري، ومقتضيات الدعوة، وبناء الأمّةِ الإسلامية، ثم العمل لإقامة دولة الإسلام.

وهذه تختلف باختلاف الواقع من حين لآخر، وليس لدى العمل الإسلامي طبعة واحدة يجب التزامها في كلّ ظرف مهما اختلفت الظروف.

هذا هو منطق الدين، وهو منطق العقل وهو منطق التجربة.

٦ ـ ثم أنزل الله عزّ وجل سورة (محمد ٤٧) وتسمى سورة (القتال) وتسمى سورة (الذين كفروا) وما جاء فيها من جهاد يبرز فيه الجهاد بالقتال، وحركيّة القتال في هذه السورة تدلُّ على وصول المسلمين في هذه المرحلة إلى مستوى الفريق الأعلى، الذي ليس من شأنه أن يضعف، أو يصيبه الوَهَن، فيكون البادىء بالدعوة إلى السّلم، فيعطيَ عدوّه فرصة إملاء شروطه المهينة. ولكن عليهم أن يصبروا ويصابروا، فإذا فعلوا ذلك، أمّدهم الله بمعونته، وجعلهم هم الظافرين العالين على عدُوّهم في آخر الأمر.

والآية التي فيها ذكر الجهاد من هذه السورة، هي قول الله عزّ وجل:

﴿ ولنبلونّكم حتّى نعلمَ المجاهدين منكم والصابرين ونبلُوَ أخباركم (٣١) ﴾.

أي: ولَيَمْتَحِنَنَّ الله المسلمين حتى يكشف المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيله، ويكشف الصابرين منهم. ويميّزهم عن غيرهم بفضل الجهاد والصبر، وبكشف هؤلاء وتمييزهم تنكشف أيضاً أحوال المتخاذلين، وأحوال البخلاء الذين لا ينفقون في سبيل الله، وأحوال المعوّقين والمنافقين.

ونَبْلُوَ أخباركم: أي ونكشف أخباركم، وأخبارُ الناس هي الأحاديث والأقوال التي تبيّن ما فعلوا وما كسبوا من عمل أو قول ظاهر أو خفي.

وقد تتبّعَ الله الجماعة الإسلامية في عهد التنزيل، فعلّق على كلّ حادثة لهم وموقعة ذات شأن، فكشف حال المؤمنين الصادقين، وأحوال ضعفاء الإيمان، وأحوال المتخاذلين، وأحوال العصاة، وكشف أحاديث النفوس والنيّات، وكشف المنافقين، فمنها ما أنزله في القرآن صريحاً

واضحاً، ومنها ما كنّى عنه كناية، أو ألمح إليه إلماحاً، أو ذكره تعريضاً، وكلّ ذلك من كشف الأخبار.

والله عزّ وجلّ في منهاج تربيته للأمّة الإسلامية القدوة، لم يجامل منها أحداً، لأنّ في متابعة كشف الأخبار بعد الأحداث تأصيلاً للحق، وإبرازاً وإيضاحاً للعبرة، ورسماً لطريق المستقبل، فما لم تكشف أخبار الأحداث، وما لم يُميَّزْ الصواب والخطأ فيها، والاستقامة والانحراف، فإنّ الأخطاء والانحرافات ستتكرّر، وتمرّ الأحداث دون أن تُستفاد منها العظات.

* * *

٧ ـ ثم أنزل الله عزّ وجل قوله في سورة (الحج ٢٢):

﴿ وجاهدوا في الله حقّ جهاده. هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج. ملّة أبيكم إبراهيم. هو سمّاكم المسلمين من قبل. وفي هذا، ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس. فأقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، واعتصموا بالله، هو مولاكم فنعمَ المولىٰ ونعم النصير(٧٨) ﴾.

من الظاهر أنّ الأمر بالجهاد في هذه الآية يبرز فيه بوضوح جهاد الدعوة، لا جهاد القتال.

فالاجتباء للأمّة الإسلامية هو اجتباء لتبليغ رسالة الرسول ﷺ، كما أنّ الرسول ﷺ قد اجتباه الله لتبليغ رسالته للناس. وإيصالُها للناس أجمعين يكون عن طريق من آمن برسالته، وهم الدّعاة من الأمّة الإسلامية.

ويوضح هذه الدلالة قول الله تعالى في الآية: ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾.

فالرسول يشهد على من بلّغه من أمته ما أنزل الله عليه وأمره بتبليغه، وهؤلاء يشهدون على من بلّغوا من الناس، وهكذا تتابع سلسلة

التبليغ، ومع كلّ تبليغ شهادة يشهد بها منْ بلّغ يوم الحساب على من تبلّغ من الناس.

فالآية هنا تبيّن الوظيفة الأولى والأساسيّة للأمة الإسلامية بين الأمم، وهي وظيفة تبليغ دين الله والدعوة إليه.

* * *

٨ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الحجرات ٤٩):

﴿ قالت الأعراب: آمنّا. قل: لم تؤمنوا ولكن قولوا: أَسْلَمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم. وإنْ تطيعوا اللهَ ورسولـه لا يَلِتْكُمْ من أعمالكم شيئاً إنّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ (١٤) إنّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. أولئك هم الصادقون (١٥) ﴾.

فالجهاد الذي يدلّ على الإيمان الصادق، والذي يظهر أنه هو المراد في هذا النصّ، هو الجهاد الشامل لكلّ أنواع الجهاد، الذي فيه بذل الجهد الشاقّ على الأنفس، ومنه مجاهدة النفس وأهوائهـا وشهواتهـا، لاقتحام عقباتها، ومنه جهاد الدعوة إلى الله، ومنه جهاد الانفاق في سبيل الله، للدعوة وللقتال، ومنه جهاد الإعداد للدفاع والحرب، ومنه جهاد القتال في سبيل الله وهو ذِرْوة سِنامه، ومعلوم أنّ قيمة ذروة السنام شرطها سـلامة سائر أعضاء الناقة أو الجمل، وتوافر القوى اللازمة لها.

* * *

٩ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ في قوله لرسوله في سورة (التحريم ٦٦):

﴿ يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين واغلُظْ عليهم ومأواهم جهنّم وبئس المصير (٩) ﴾.

لقد جمع الله في هذه الآية الكفّار والمنافقين، وأمر الرسول ﷺ بأن يجاهدهم جميعاً، ومعلوم أنّ الرسول لم يؤمر بمجاهدة المنافقين بالقتال. فدلّ

هذا على أنّ المجاهدة المرادة هنا هي المجاهدة بوسائل الدعوة المختلفة.

ويظهر أن المرحلة في هذا الدور قد تجاوزت مراحل القول اللّين، والملاطفة، والمخاشنة المتوسطة، والمجادلة بالحجج والبراهين، واستخدام شيء من العنف الكلامي، واقتضىٰ الارتقاء في الأسلوب إلى الهجوم بالقول الغليظ على جاهلياتهم، وعلى قبائحهم الخلقيّة والسلوكيّة، وعلى انحرافاتهم الفكريّة، وعلى الباطل الذي يكابرون في الإصرار عليه.

* * *

١٠ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (الصف ٦١):

﴿ إنّ الله يحبّ الذين يقاتلون في سبيله صفّاً كأنّهم بنيان مرصوص (٤) ﴾.

وقال فيها أيضاً بشأن أعداء دين الله:

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون (٨) هو الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحقّ ليظهرَه على الدين كلّه ولو كره المشركون (٩) يا أيّها الذين آمنوا، هل أدلّكُم على تجارة تُنجيكم من عذابٍ أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفرْ لكم ذنوبكم ويدخْلكم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيّبة في جنّات عدنٍ ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبّونها نصرٌ من الله وفتحٌ قريب، وبشّر المؤمنين (١٣) ﴾.

وفي هذا النصّ يبرز من عناصر الجهاد في سبيل الله عنصر الجهاد بالقتال، والإعداد لهُ الذي يستدعي بذل المال اللازم له.

* * *

١١ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله في سورة (المائدة ٥):

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في

سبيله لعلكم تفلحون (٣٥) إنّ الذين كفروا لو أنّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبّل منهم ولهم عذاب أليم (٣٦) يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم (٣٧) ﴾.

لدى التدبّر في هذا النصّ نلاحظ أنّ الجهاد المراد فيه هو جهاد النفس، بفعل الصالحات، وترك السيئات، والاستزادة من الخيرات الباطنة والظاهرة التي ترضي الله تعالى.

والخُطوات اللازمة للتزوّد بالزاد العظيم للآخرة تبدأ بالتقوى، وتكون بالخوف من عقاب الله ونقمته وسخطه، والتقوى تدفع المتّقي لاتخاذ الوسيلة التي تقيه، والوسيلة الواقية هي العمل الصالح، ويكون باجتناب ما نهى الله عنه، وفعل ما أمر الله به، وتلك هي الخطوة الثانية. لكنّ ابتغاء هذه الوسيلة محفوف بالمكاره، وهذه المكاره تظهر بكبح النفس عن أهوائها وشهواتها ونزعاتها ونزغاتها، وبإلزامها أن تتحمّل المشقات وتجتاز العقبات اقتحاماً، وذلك لا يتمّ إلّا بالمجاهدة، فالمجاهدة للنفس هي الخطوة لتحقيق الوسيلة المبتغاةَ، الكفيلة بتحقيق الوقاية المنشودة.

وهكذا يظهر التسلسل المنطقي بين العناصر:

فالإيمان بالله واليوم الآخر من شأنه تحريكُ محور الخوف من الله.

والخوفُ يولّدُ الرغبةَ الصادقة باتقاء المخوف منه.

والرغبةُ باتقاء المَخُوف منه تولّد إرادة اتّخاذ الوسيلة الواقية.

وتحقيق المراد هذا لا يتم إلّا بمجاهدة النفس في سبيل الله.

فمن فعل ذلك أصاب فلاحاً بتوفيق الله ورحمته.

وهكذا جاء النصّ مرتّباً ترتيباً منطقيّاً بديعاً: ﴿ يا أيها الذين آمنوا، اتقوا الله، وابتغوا إليه الوسيلة، وجاهدوا في سبيله، لعلكم تفلحون ﴾.

١٢ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة ٩) عشر آيات فيها ذكر الجهاد، وهي آيات يبرز في معظمها أنّ المراد التوجيه للجهاد بالقتال في سبيل الله والإعداد له، مع عدم توقف أنواع الجهاد الأخرى، فقد جاء في هذه السورة إعادة ما جاء في سورة (التحريم ٦٦) وهو قول الله عزّ وجل في سورة (التوبة ٩):

﴿ يا أيّها النبيّ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنّم وبئس المصير(٧٣) ﴾.

ليستفاد أنّ تعاظم حملات الجهاد بالقتال لا تُلغي ولا توقف أنواع جهاد الدعوة.

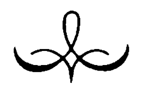
وجاء فيها آيات عامّة تشمل كلّ أنواع جهاد النفس، وجهاد الأعداء بوسائل الدعوة، وجهاد الأعداء بوسيلة القتال في سبيل الله.

وسورة (التوبة ٩) لم ينزل بعدها من السور إلا سورة (النصر ١١٠) فهما آخر السور التي نزلت من القرآن.

* * *

وهكذا دلّت نصوص الجهاد في سبيل الله في المرحلة المدنية، وبعد نزول قول الله عزّ وجلّ: ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ على أنها ذات حركيّة متموّجَة، توجّه حيناً للجهاد بالقتال، وتوجّه حيناً آخر لجهاد الدعوة، أو لجهاد النفس بالتزام منهج الله في السلوك الظاهر أو الباطن.

فالتوجيه ذو حركيّة تلائم الوضع ومقتضياته، وليس كالقطار الذي لا يسير إلاّ على سكّة حديدية ثابتة.



الفصل الثاني

أهداف الجهاد في سبيل الله

عناصره وشروطه

(١)

موجباته من الواقع البشري

في الواقع البشري القائم على الصراع المستمرّ الدائم بين الحقّ والباطل، والخير والشر، والإيمان والكفر، والعدل والظلم، والقائم بين دعاة وحماة الحقّ والخير والإيمان والعدل، وبين المبطلين والأشرار والكفار والظالمين الطغاة؛ تدعو الضرورة بُناةَ الحضارة الإنسانية المثلىٰ، الملتزمين منهج الله، والمتحركين بأوامره، إلى اتّخاذ وسيلة الجهـاد في سبيل الله، ليتسنّىٰ لهم إقامة هذه الحضارة على الإيمان بالحق والتزامه، والإيمان بالخير والتزامه، وإقامة العدل، ورفع الظلم وقمعه، ونشر الإحسان بين الناس، وردع المبطلين والأشرار والكفّار والظالمين الطغاة.

وليتسنّىٰ لهم تأمين من يريدون اتّباع دين الله من أن يفتنوا في دينهم من قِبَل طُغاة الكفر بالله واليوم الآخر.

وليتسنّى لهم تأمين الدّعوة إلى دين الله، وتبليغُها للناس أجمعين، ليؤمن حرّاً مختاراً من ألقىٰ السّمعَ وعقل، وهو حريص على سعادة نفسه يوم الدين، ونجاتها من عذاب الله الأليم.

وهم يسعون لتحقيق هذه الغايات على مراحل متدرجة، وفق السنّة

التي علَّمَهُم الله إيّاها في تدرّج أحكام التشريع، وبحسب الاستطاعة التي يَملكونها في كلّ مرحلة من مراحل العمل.

ولولا قاعدة الجهاد في سبيل الله التي هي من سنن الله في كونه ومن أحكامه في شرائعه لعباده المؤمنين، لَمَا ترك الهدّامون الأنانيّون الكفرة بالقيم الحقيقية، والمنتشرون في طول الأرض وعرضها، فرصةً لإقامة حضارة خيِّرة في المجتمع البشري، أساسها الحق والخير والجمال الحقيقي، ومنهجها نشر العلم وإقامة العدل، وإسعاد الناس، ومقاومة الفحشاء والمنكر والبغي.

لولا قاعدة الجهاد في سبيل الله لفسدتِ الأرض، ولهدّمت بيوت الله التي ترفع لعبادته، قال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة ٢):

﴿ ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لفسدتِ الأرض. ولكنّ الله ذو فضل على العالمين (٢٥١) ﴾.

وقال الله تعالى في سورة (الحج ٢٢):

﴿ ولولا دفعُ اللهِ الناس بعضهم ببعض لَهُدِّمت صوامعُ وبِيَعٌ وصَلَواتٌ ومساجدُ يذكر فيها اسم الله كثيراً. ولينصُرَنّ اللهُ من ينصُرُه إنّ الله لقويٌّ عزيز (٤٠) الذين إنْ مكّنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة، وآتَوُا الزّكاة، وأمروا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكر. ولله عاقبة الأمور (٤١) ﴾.

(٢)
غاية الجهاد في سبيل الله

فالجهاد في سبيل الله يهدف إلى غاية نبيلة مثالية، بعيدة عن الأنانيات الشخصية، والرغبات النفسية، والمصالح القومية، باستثناء حالة الدفاع عن الحقّ المشروع.

إنّ الجهاد في سبيل الله يهدف إلى إعلاء كلمة الله في الواقع الإنساني

الذي منح فيه الإنسان حريّة الاختيار لحكمة الابتلاء في الحياة الدنيا. مع أنّ كلمة الله هي العليا في كلّ شيء أوّلاً وآخراً، وهي الكلمة النافذة لا محالة متى اقترنت بقضائه وقدره جلّ وعلا.

وكلمة الله التي يطالب المؤمنون بالجهاد في سبيل الله لإعلائها هي ما جاء في شريعته لعباده من أوامر ونواهي، وتجمعها كلمة: «لا إلٓه إلاّ الله». ويُجمل مبادئها في تعايش المجتمع البشريّ قول الله عزّ وجل في سورة (النحل ١٦):

﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ، وينهىٰ عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكّرون (٩٠) ﴾.

والمسلمون ينظرون إلى مخالفيهم نظرة شفقة ورحمة، ما لم يمارس هؤلاء المخالفون عداوتهم للمسلمين بشكل عملي.

المخالفون في نظر بناة الحضارة الإسلامية جاهلون ومرضى، والرسالة الخيّرة التي يحملها العلماء الأصحاء إنما هي تعليم الجاهلين، وتطبيب المرضى، ومساعدتهم، والرفق بهم، والأخذ بأيديهم في طريق الصحة والسلامة الفكرية والقلبية والنفسيّة والجسدية.

فإذا لم تُجدِ الوسائل الهيّنة الليّنة، البيانيّة والتربويّة، على اختلاف صورها وأشكالها الترغيبيّة والترهيبيّة لإصلاح نفوس أعداء رسالة الحضارة الإسلامية، وتجميد عداوتهم، وهدم أحقادهم، وصرفهم عن مكايدهم للإسلام والمسلمين، فإنّ الضرورة قد تدعو بناة هذه الحضارة إلى أن يلجأوا إلى وسائلٍ أخرى تترقىٰ فيها أساليب العنف شيئاً فشيئاً، مع ضبط النفس، وعدم اتباع الهوى، ومع الرغبة الملحّة بالانتصار للحقّ فقط، دون أن تتدخّل عوامل نفسيّة أخرى.

وقد يغدو فريق من مخالفي رسالة الحضارة الإسلامية المثالية في الواقع البشري أعداءً معلنين عداوتهم، متربّصينَ بالمسلمين، أو شاهري

أسلحتهم في وجوههم، وفي مواجهة هؤلاء يجد حملة رسالة الحضارة الإسلامية أنفسهم أمام أمر لا مناص منه ولا مفرّ، يفرض عليهم أن يكونوا مدافعين، أو مهاجمين بما لديهم من قوىً مادّية ومعنويّة.

وأمام هذا الأمر الذي لا مفرّ منه في الواقع الإنساني فإنّ من واجب حَمَلة رسالة الحضارة الإسلامية المُثْلى أن يتخذوا وسائل الدفاع الكافية، والمبادهة في بعض الأحيان قبل المباغتة، مع التزام شروط رسالتهم الرّبّانية التي يضطلعون بمهمّاتها.

وحين يحمل المسلمون الصادقون رسالة الجهاد ـ كما أمرهم الله ـ لبناء الحضارة الإسلامية المثلى، فإنهم يعملون على الدعوة إلى دينهم، ونشر تعاليمه ومبادئه وقيمه وتعميمها على الناس، حبّاً للخير، وغَيْرةً على بني الإنسان، وطاعة لله عزّ وجل، ثمّ العمل على إقامة الحقّ والعدل بين الناس، والحكم بما أنزل الله، والسعي في جلب كلّ صنوف الخير للمجتمع البشري على حبّ ورحمة وإخاء.

وحين يكونون صادقين مع الله في جهادهم، فإنّهم لا يبتغون منه ثراءً، أو مجرد الرغبة بالانتصار والغلبة للتفاخر، أو السعي وراء السلطان والعلوّ في الأرض، إلّا أن تكون هذه الأمور وسيلة للغاية الأساسية، وهي إعلاء كلمة الله في الأرض.

والغاية المثالية العظيمة التي هي هدف الجهاد في سبيل الله لا يخدشها ما يلزم عنه من أمور مادية ترافق حركته، دون أن تكون مقصودة في الأصل لرسالته.

فقد يفضي الجهاد إلى تحقيق مغانم مادّية، وإلى ضرورة بسط سلطان المجاهدين الفاتحين، لإقامة الحقّ والعدل والدعوة إلى الخير، وفعل الخير، وتأمين حرّية انتشار دين الله. نظراً إلى طبيعة الأحوال الإنسانية التي تقتضيها ظروف الجهاد والفتح من جهة، وظروف عناد أعداء دين الله

وصراعهم للحقّ وكيدهم له ومكرهم به من الجهة المضادّة، مع إلحاح الدواعي المثالية التي توجب إضعافهم كبحاً لجماح الشرّ والفتنة، فالفتنة لصدّ الناس عن الدين الحق ودفعهم إلى موبقات الشرّ والإثم والفساد في الأرض أشدّ من القتل.

ومع ذلك فإنّ رسالة الجهاد تظلّ في جميع الأحوال رسالةً مثالية، لا تهدف في أساسها إلى إرضاء شهوة الحكم عند أمّةٍ ضدّ أخرى، أو كسب مغانم لها، أو تسليط شعب على شعب.

ومتى تحوّل الجهاد عن غايته الرّبّانية إلى الغايات الإنسانية الأخرى، المتصلة بالمطامع المادّية، أو الغرائز والشهوات والأهواء النفسية، أمسى شكلًا من أشكال المحاولات العدوانية لسيطرة بعض الناس على بعض، واستغلالهم واستذلالهم واستعبادهم ونهب ثرواتهم وتسخيرهم بغير حقّ.

ولقد عرف تاريخ البشرية من هذه الأشكال في بحر الزمن أمواجاً كثيرة مقبلة أو مدبرة، تبعاً لرياح المطامع والشهوات والأهواء الأنانية، مع الشعور بالقوة القادرة على التغلّب والاستيلاء.

ومن أقبح صورها القائمة الآن في أيّامنا هذه صور العدوان المسلّح الظالم الآثم الذي تمارسه الصهيونية العالمية وابنتها غير الشرعية دولة إسرائيل، والذي تمارسهُ دولة الاتحاد السوفيتي في الشعب الأفغاني المسلم، ويحمل إثم هذه الممارسات أيضاً كلّ من ناصرها وأيّدها علانيةً أو سرّاً، من الشرق أو من الغرب.

وحينما ينحرف الجهاد عن غايته التي حدّدها الله في رسالاته، فإنّ الله عزّ وجلّ يكلُ القائمين به إلى أنفسهم، وإلى إمكاناتهم الإنسانية البحتة، ويحجب عنهم العَوْن والمدد والتأييد، ويقذف في قلوبهم الرعب، ويطرحهم مع حشد الأمواج البشرية التي تتلاطم في حدود إمكاناتها المادية

الخالية من القوى المعنوية المؤثرة في تحقيق النصر بتوفيق الله ومعونته «وما النصر إلاّ من عند الله».

وكذلك حينما يستثمر المجاهدون في سبيل الله الفتح والنصر لغير الغاية التي قام الجهاد المقدّس من أجلها، فإنّ الله يكلُ المنتصرين إلى أنفسهم، ويرفع عنهم يد التثبيت والمعونة، فتموج بهم الأرض من تحتهم، وترتجّ بهم العروش التي اعتلوها، وتأتيهم إنذارات الانهيار، ليصلحوا نيّاتهم وأعمالهم. فإذا استمرّوا في الانحراف عن الطريق الذي حدّده الله لهم، آذنهم الله بنقمته، وأنزل بهم عذابه، فدالت دولتهم، وانهارت قوتهم، وظفر بهم عدوّهم.

(٣)

خطوات الجهاد في سبيل الله ووسائله

وبنظرة إجمالية عامّة إلى خُطوات الجهاد في سبيل الله ووسائله، ينكشف للباحث المتأمّل أنّها ذات نسق مثاليّ رائع.

فهي أوّلاً تبدأ بمجاهدة النفس، ثم تثنّي بمجاهدة الآخرين، ومجاهدة الآخرين تبدأ بوسائل الدعوة المختلفة، التي تتدرّج من الأخفّ إلى الخفيف، فإلى الشديد فالأشدّ، وتراعي في كلّ ذلك أحوالهم النفسيّة والاجتماعيّة، ومكانتهم ومنازلهم في أقوامهم، وتنتهي هذه الوسائل في آخر الأمر بالقيام بأعمال القتال، وفق الدواعي التي تقتضيه، من دفاع، أو كسر أسوار طغاة جبابرة تحجب عن الشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها نفوذ أنوار الحقّ والهداية إليها.

أمّا جهاد النفس فيكون بمقاومة جهلها وانحرافاتها الفكرية والاعتقادية بالعلم والمعرفة الحقة، وبمقاومة شهواتها الجامحة وأخلاقها الجانحة، بوسائل التربية الإسلامية الفضلى، والتزام السلوك الأقوم

والتدرُّب عليه، حتى يكون عادةً متمكنة، وخلقاً مكتسباً.

وقد كان الصدر الأول من المسلمين يسمّون جهاد النفس الجهاد الأكبر، فإذا قفلوا من معركة من معارك القتال مع عدوّهم قالوا: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، أي: إلى مجاهدة نفوسهم في مجالات شهواتها وأهوائها ومطامعها، وهو جهاد أطول مدىً، واستمراريته أثر العواطف الثابتة، لا الانفعال الآنيّ الثائر.

وأمّا جهاد الآخرين فله وسائل شتّى، يرتقي المجاهد فيها على سلّم متعدّد الدرجات، وليس كلّ مخالفٍ عدوّاً ما لم يمارس عدوانه بشكل عملي.

إنّ المخالفين في نظر حَمَلة لواء الجهاد في سبيل الله الصادقين هم جاهلون ومرضى، والرسالة الخيّرة التي يحملها العلماء الأصحّاء المؤمنون الذين يبتغون للناس الخير والسعادة، إنما هي تعليم الجاهلين، وتطبيب المرضى، والرفق بهم، ومساعدتهم والأخذ بأيديهم في طرق المعرفة الصحيحة، والصحة والسلامة.

لذلك تعيّن على هؤلاء المجاهدين أن يبدؤوا من أول درجة من درجات سلّم الجهاد، وهي درجة الدعوة إلى الله على بصيرة، ضمن الأساليب الحكيمة.

ووسائل الدعوة إلى الله، تشمل كلّ ما يمكن أن يوصل فكرة الحقّ وتطبيقاته إلى عقول المعارضين ونفوسهم وأعمالهم، ممّا أذن الله به من وسائل.

كالدعوة الحكيمة باللسان، تعليماً، وإقناعاً، وجدالاً بالتي هي أحسن. وكالدعوة الحكيمة عن طريق الكتابة والنشر، في نثر الكلام وشعره. وكالدعوة العاملة الصامتة، عن طريق الأسوة الحسنة، والمعاملة الفاضلة، والتخلُّق بالأخلاق الكريمة. وكالدعوة عن طريق التعليم النافع

وما يرافقه من تربية إسلامية عظيمة مؤثرة. وكالدعوة عن طريق بذل عَرَض الحياة الدنيا من مالٍ أو متاع، أو بذل الخدمات والمعونات، لتأليف القلوب على الخير، وإزالة حواجز الكراهية والنُّفرة من النفوس، وجلبها إلى تقبّل الهداية والسير على صراط الله المستقيم.

وبالجملة: فإنَّ على المجاهد الداعي إلى الله أن يتدرّج في وسائل الدعوة، وأن ينزلَ الناس منازلهم، وأن يقتديَ بأساليب الدعوة التي قام بها أنبياء الله ورسله.

وحين لا تُجدي الوسائل الهيّنة اللّينة البيانيّة والتربويّة والترغيبيّة المختلفة، فإنّ الضرورة تدعو إلى اللجوء إلى وسائل أخرى تترقى فيها أساليب العنف شيئاً فشيئاً، مع ضبط النفس وعدم اتّباع الهوى، والرغبة بالانتصار لله فقط، دون تدخّل عوامل نفسيّة أخرى.

فمن هذه الوسائل استخدام القوّة، ويكون ذلك بتسخير قوى الدولة المعنوية ثمّ المادّية لهداية الناس إلى الخير، وإلزام المنتسبين إلى الإسلام أو الخاضعين لحكمه بتطبيق أحكامه التشريعية، كلٍّ بحسبه.

ولاستخدام قوى الدولة المعنوية والمادية وجوهٌ تطبيقية كثيرة:

فمنها إصدار القرارات والتنظيمات الإدارية، وتوجيه الأوامر المكتوبة، وترتيب الجزاءات المعنوية والمادّية، واعتبار الالتزامات الدينية جزءاً من الكفاءات التي تدخل في شروط التوظيف والترقيات، واعتبار عدم الالتزام بها إخلالاً بالواجبات المسلكية التي تستدعي الإنذار ثم المعاقبة، ومنها تنفيذ الأحكام الشرعية على الجُناة والمجرمين، إلى غير ذلك من وسائل كثيرة.

وقد يغدو فريق من مخالفي الإسلام أعداءً متربّصين أو محاربين، لذلك يجد حَمَلة الجهاد في سبيل الله أنفسهم أمام أمرٍ لازبٍ لا مفرّ منه، أمام مواجهة الكيد بالكيد، والقتال بالقتال، والحرب بالحرب.

إنّهم في الأصل دُعاة هُداة، معلّمون ناصحون، وأطبّاء مخلصون يعالجون الأمراض البشرية النفسية والفكرية والسلوكية بالدواء الربّاني الذي أنزله الله في شريعته لعباده، ولكن ماذا يفعلون إذا فرض عليهم المخالفون الذين رفضوا دعوتهم أن يتخذوهم أعداءً، إذْ واجهوهم على نُصحهم وتعليمهم وإرادة الخير لهم بالعداء والكيد والقتال والحرب؟.

إنّ حملة لواء الجهاد في سبيل الله مكرهون أمام هذا على أن يتخذوا وسائل الدفاع الكافية، وأن يلجؤوا في بعض الأحيان إلى خطّة المبادهة قبل أن يباغتهم أعداؤهم بما يكرهون، وهم مع ذلك مسؤولون أمام ربّهم عن التزام شروط رسالتهم الربّانية التي يضطلعون بمهماتها.

ماذا يفعل حَمَلة رسالة الجهاد في سبيل الله، الذين يريدون الخير والسعادة والنجاة للنّاس كلِّ الناس، دون إكراهٍ في الدين، إذا تعرّضوا لعدوان الآخرين وبَغْيهم، ووجدوا أنفسهم وديارهم وأموالهم هدفاً للطامعين الطغاة البغاة، وأخذ هؤلاء يمكرون بهم، ويدبّرون لهم المكايد، وينصبون لهم الشباك والشراك ليصطادوهم، ويأكلوهم فريسة سهلة؟.

إنّه لا سبيل إلّا أن يعدّوا العدّة الكبرى التي ترهب أعداءهم وآخرين من دونهم، ويدفعوا عن أنفسهم إذا تعرّضوا لأية مكيدة حربيّة حارّة أو باردة، ويأخذوا الأمور بقوابلها قبل أن تستفحل ضدّهم الشرور، ويحبطوا تدبيرات أعدائهم السرّية بالمبادهة، ويكسروا الأسوار الشرّيرة، التي تحجب نور الهداية عن الشعوب المظلومة المقهورة المغلوبة على أمرها.

هذا حقٌّ دعت إليه شرائع الله للناس، وهو حقٌّ منطقي مقبولٌ في سنن المجتمع البشري، وتقرّه العقول القانونية الحصيفة ولا تستنكر ممارسته.

(٤)

الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله في التوراة والإنجيل والقرآن

ولقد ظهرت الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله في الأديان الربّانية الثلاثة، التي جاء بها موسى وعيسى ومحمّد عليهم الصلاة والسلام، وكان ظهورها فيها بشكل بارز قوي، يدلّ على ذلك قول الله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة. يقاتِلون في سبيل الله فَيَقتُلون ويُقتَلُون. وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببَيْعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم (١١١) ﴾.

أمّا موسى عليه السلام فقد طلب من بني إسرائيل أن يباشروا الجهاد في سبيل الله، ويدخلوا الأرض المقدّسة مقاتلين، ليحقق الله لهم الفتح والنصر على عدوّهم الوثني، فرفضوا طلبه وقالوا له كما جاء في سورة (المائدة ٥):

﴿ يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها، فاذهب أنت وربُّك فقاتلا إنّا هَهُنا قاعدون (٢٤) ﴾.

فلما رفضوا قضى الله عليهم أن يتيهوا في الأرض أربعين سنة، وتوفي موسى وهارون عليهما السلام دون أن يباشر بنو إسرائيل الجهاد في سبيل الله الذي أمرهم به موسى عليه السلام، ثم قاموا به في عهد طالوت بشكل إقليميّ محدود، ونصرهم الله على الوثنيين، ولمّا فتح الله عليهم وأظفرهم بالملك، وتمتّعوا بخيراته، وانتهت موجة الملك النبوي بانتهاء عهدي داود وسليمان عليهما السلام، استكان بنو إسرائيل وفسدوا، وتحوّلت غاية الجهاد الحقّ في نفوسهم من رسالة ربانيّة إلى غايات ماديّة وقومية عنصرية بحتة، وأخلدوا إلى الأرض وضرب الله قلوب بعضهم

بعض، ودالت دولتهم وسلّط الله عليهم من شتتهم وقتل من قتل منهم واستعبد من استعبد.

وأمّا عيسى عليه السلام فقد دعا قومه إلى الجهاد، وباشر منه المراحل الأولى، وهي الدعوة اللّسانية، والجدال بالتي هي أحسن، وتجميع القاعدة البشرية الأولى لبناء المجتمع الربّاني. ولكن لم تمرّ عليه مدّة من الزمان كافية تمكّنه من أن ينتقل من طور جهاد الدعوة إلى طور جهاد النضال والكفاح المسلّح، إذْ رفعه الله إليه بعد ثلاث سنوات فقط من بَدْء دعوته.

لكنّ مفاهيم القتال الديني ظلّت عالقة في أذهان المتنسبين إلى المسيح، مع ما أصاب المسيحية من تحريفات كثيرة مسّت جذورها الاعتقادية وأحكامها التشريعيّة. واستناداً إلى بقايا هذه المفاهيم التي ضاعت صيغتها الصحيحة، قام المسيحيون في تاريخهم الطويل بحروب دينيّة كثيرة، خرجوا فيها عن كلّ قواعد الرحمة الإنسانية، وواجبات الوفاء بالعهود والوعود، ومارسوا فيها إكراه الناس على التنصّر، وإلّا فالقتل على أقبح صورة همجيّة هو مصيرهم، ونشير هنا إلى ما جرى في الأندلس، وإلى الحروب الصليبية وما جرى فيها من ممارسات يخجل العالم المسيحيّ اليوم من أن تنسب إليه أو إلى أجداده.

وأمّا الذين اضطلعوا بأعباء الجهاد في سبيل الله، وأعمال الفتح بشكل واسع في التاريخ وعلى ما يجب، فقد حدّثنا القرآن منهم عن ذي القرنين، وحدّثنا منهم عن جهاد الرسول محمد ﷺ، وعن جهاد الذين معه ممن آمن به وصحبه، وحدّثنا التاريخ عن جهاد المسلمين وفتوحاتهم المشرّفة بعد الرسول ﷺ.

قال الله تعالى في شأن ذي القرنين في سورة (الكهف ١٨):

﴿ ويسألونك عن ذي القرنين؟ قل: سأتلو عليكم منه ذكراً (٨٣) إنّا

مكّنّا له في الأرض وآتيناه من كلّ شيءٍ سبباً (٨٤) فأتبع سبباً (٨٥) حتى إذا بلغ مغربَ الشمس وجدها تغرب في عينٍ حَمِئة ووجد عندها قوماً. قلنا: يا ذا القرنين إمّا أن تعذّب وإمّا أن تتخذ فيهم حُسناً (٨٦) قال: أمّا من ظلم فسوف نعذّبه ثمّ يردُّ إلى ربّه فيعذّبه عذاباً نُكراً (٨٧) وأمّا من آمن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى، وسنقول له من أمرنا يسراً (٨٨) ﴾.

فهذا النصّ القرآني يَدُلُّ على أنّ ذا القرنين قد قاد جيوش الجهاد في سبيل الله، وقام بأعمال الفتح الديني على نطاق واسعٍ جدّاً.

وأخبرنا القرآن أيضاً عن الجهاد في سبيل الله الذي قام به محمد رسول الله ﷺ والمسلمون معه في غزواته، وكان به ظهور الإسلام قويّاً عزيزاً، ونجد ذلك في مواطن متعدّدة من القرآن الكريم، منها سورة الأنفال، وسورة آل عمران، وسورة التوبة.

وحدّثنا التاريخ باستفاضة واسعة عن الجهاد الذي قام به المسلمون بعد الرسول محمد ﷺ في عصورهم الزاهرة الأولى، وبعض العصور التالية، فكان بها الفتح المبين، وتمكين الدين ضدّ أعدائه الكثيرين المتواطئين عليه في مشارق الأرض ومغاربها.

ونقول اليوم: إنّ المسلمين لن يستطيعوا أن يرفعوا عن صدورهم ضغط أعدائهم، وأعداء دينهم الكثيرين، ما لم يراجعوا دينهم، ويلتزموا بما يوجبه عليهم، ويجاهدوا في سبيل الله حقّ جهاده.

فقد ثبت في الصحيح أنّ ذِرْوة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله.
وثبت في الصحيح أنّ للمقاتل في سبيل الله بصدق من الضمان الإلهي أن يدخله الله الجنة، وأن ينال ما لا يوصف من أجر عظيم عنده. أو يعود لأهله نائلاً ما نال من غنيمة وأجر.

(٥)

شروط الجهاد في سبيل الله بالقتال

إنّ الجهاد في سبيل الله بالقتال ليس حركة انفعالية غضبيّةً تستدعيها ظروف طارئة، وليس مظهراً من مظاهر ردود الأفعال التي يستدرج العدو بها المسلمين إلى فخٍّ مخفي يكون قد نصبه لهم، وليس تعبيراً عن حقد دفين ورغبة بالانتقام وإراقة الدماء، ولكنه واجب يقوم به المسلمون وهو كُرْهٌ لهم، وهم لا يتمنّون لقاء العدوّ، بَيْدَ أنهم إذا دعاهم الواجب فلاقوا عدوّهم ثبتوا متوكلين على الله ذاكرين له، وكانوا ذوي بأس شديد.

وحين لا يجدون أنفسهم قادرين على مواجهة عدوهم للنقص الكبير في عددهم أو عدّتهم فإنهم لا يتورّطون ولا يورّطون جماهير المسلمين بالدخول في معركة لا يترجّح فيها احتمال النصر على احتمال الهزيمة بحسب الظواهر السببية التي جعلها الله من سننه في كونه، مضافاً إليها عطاء القوى المعنوية التي يختصّ الله بها المؤمنين دون غيرهم.

وقد وضع الله نسبتين عليا ودنيا يترجّح معهما النصر للمؤمنين، متى توافرت الشروط اللازمة للقتال جهاداً في سبيل الله.

أمّا النسبة العليا فهي أن يكون المؤمنون الصادقون الصابرون بمقدار عُشْر أعدائهم، فهم مؤهلون لتحقيق النصر على عدوّهم الذي تزيد أعداده على أعدادهم بنسبة عشرة أضعاف. ولكن شروط هذه النسبة العليا قلّما تتحقّق في مجتمع إسلامي، إنها تتطلّب أن تكون الجماعة المقاتلة كأمثال النخبة الممتازة من أصحاب رسول الله ﷺ.

وأمّا النسبة الدُّنْيا التي يقبل فيها أضعف الإيمان في مجموعة مقاتلة، فهي أن يكون المؤمنون المقاتلون بمقدار نصف أعدائهم في مجموع القوة.

وكلّما ارتقت نسبة الإيمان والصدق والإخلاص في المقاتلين زادت

النسبة المرشَّحة لتحقيق النصر، فينتصر المؤمنون المقاتلون على ثلاثة أضعافهم، فأربعة أضعافهم فأكثر من ذلك إلى عشرة أضعافهم، وقد ينتصرون وعدوّهم أكثر من ذلك بفضل من الله، وفي أحوال نادرة، ولكن ليس من حقّ القيادة أن تدفع الجيش الإسلامي المقاتل إلى ورطة لا يترجّح معها احتمال النصر، أو يكون احتمال الهزيمة هو الاحتمال الأغلب في مجرى السنن الربّانية.

وقد دلَّ على النسبتين العليا والدنيا وأشار إلى ما بينهما قول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يا أيّها النبي حرّض المؤمنين على القتال. إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين. وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا، بأنهم قوم لا يفقهون (٦٥) .

الآنَ خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضَعْفاً. فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين. وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين (٦٦) ﴾.

ففي أضعف الإيمان يجب على المؤمنين أن لا يترددوا في التصدّي لعدوّهم إذا كان عدده ضعف عددهم وكانت قواه كذلك، لأنهم مرشَّحون في هذه الحالة لاغتنام النصر، ولكن عليهم أن يلتزموا بالواجبات والشروط التي أمرهم الله بها قبل القتال وأثناء القتال.

فمن الشروط الواجب توافرها قبل القتال ما يلي:

الشرط الأول: إعداد المستطاع من القوة، والاجتهاد في إعدادها حتى تربو على قوة العدو، من مالٍ، وسلاحٍ، ورجالٍ، وخبراتٍ، وعلومٍ ومعارف، وغير ذلك. والهدف من إعداد المستطاع من القوة إرهاب عدوّ الله وعدوّ المؤمنين، وآخرين من دونهم يخفون عداوتهم والله يعلمهم، وفي التكليف المتضمّن هذا الواجب قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوّ الله وعدوّكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم. الله يعلمهم. وما تنفقوا من شيءٍ في سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون (٦٠) ﴾.

الشرط الثاني: اتخاذ مختلف الوسائل السلميّة التي يمكن أن تحقّق الأهداف من دون قتالٍ ولا حرب. قال الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وإن جَنَحُوا لـلسَّلْم فاجنَح لها وتوكَّلْ على الله. إنّه هو السميع العليم (٦١) ﴾.

وقد أمَرَ الله بقبول سياسة السَّلْم مع احتمال أن تكون هذه السياسة من الأعداء خطّةً من خِطَط المخادعة التي يمارسونها، وفي ذلك يقول الله تعالى عقب الآية السابقة:

﴿ وإنْ يريدوا أن يخدعوك فإنّ حَسْبَكَ الله. هو الذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين (٦٢) ﴾.

الشرط الثالث: أن يكون القتال لإعلاء كلمة الله، فقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال:

«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

فكلُّ قتال لا تكون غايته إعلاء كلمة الله فإنَّه ليس قتالاً في سبيل الله.

وهذا الشرط يشمل تحديد الباعثِ على الخروج إلى القتال وإعلانِ الحرب، والمطلبَ الذي يُراد تحقيقه في الدنيا، والغاية القصوى المرجوّة عند الله.

فالباعث هو الإيمان بالله والتصديق برسله، أمّا من خرج للقتال في سبيل ضلالات شيطانية إلحادية، أو في سبيل وثنيّات مادّية، أو أوهام قوميّة أو عنصريّة أو طبقيّة أو نحو ذلك، فإنه يعرِّض نفسه إلى تهلكتين:

تهلكة الموت أو القرح في الدنيا، وتهلكة العذاب الأليم في الآخرة.

والمطلب المرادُ تحقيقه في الدنيا هو نشر دين الله، وإعلاء كلمته.

والغاية القصوى المرجوّة عند الله هي نيل رضوانه، وبلوغ جنته، والظفر بما أعدّ الله من أجرٍ عظيم للمجاهدين المقاتلين في سبيله. وأمّا الظفر في الدنيا فهو أمرٌ إنْ قضاه الله فتلك حُسنى عاجلة أكرم الله بها المؤمنين المجاهدين في سبيله، وإنْ لم يقضِه الله لحكمة هو يعلَمُها فقد حقّق المؤمنون غايتهم القصوى، وهي نيل رضوان الله وجنته، والأجر العظيم الذي أعدّه للمقاتلين في سبيله، ولذلك خاطب الله المؤمنين بقوله في سورة (النساء ٤):

﴿ ولا تَهنوا في ابتغاءِ القوم. إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون، وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليماً حكيماً (١٠٤) ﴾.

ومن الشروط الواجب توافرها أثناء القتال ما يلي:

الشرط الأول: وحدة الغاية، وذلك بأن تكون غاية المقاتلين واحدة، وهي ابتغاء مرضاة الله، بالعمل لنشر دينه، وإعلاء كلمته، والحكم بما أنزل لعباده، وقد دلّ على هذا الشرط قول الله تعالى للمؤمنين في سورة (التوبة ٩):

﴿ انفروا خفافاً وثقالاً، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (٤١) ﴾.

وقول الله تعالى للمؤمنين في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله فإن انتهَوْا فإنّ الله بما يعملون بصير (٣٩) ﴾.

الشرط الثاني: وحدة صفّ المقاتلين وتماسك جماعتهم، وذلك لأنّ تفرّق صفوف المقاتلين دون خطّة موحّدة جامعة مبدّد للقوى، موهن

للعزائم، ممكّن للعدوّ من أن يظفر بكل قسم على حِدَة. وقد دلّ على هذا الشرط قول الله تعالى في سورة (الصف ٦١):

﴿ إنّ الله يحبّ الـذين يقـاتلون في سبيله صفّـاً كـأنهم بنيـان مرصوص (٤) ﴾.

ووحدة الصف لها صـور شتى تختلف باختـلاف أساليب الحـرب ووسائل القتال، وهي تخضع لما تقرره غرفة العمليات الحربية المشرفة على توجيه الجيش المقاتل.

الشرط الثالث: الاعتماد على الله في تحقيق النصر، وعدم الاغترار بالنفس، وهذا الشرط مهمٌّ جدّاً لإحراز النصر، لأنّ الاعتماد على الله مع ملاحظة أوامره بوجوب بذل قصارى الجهد لنيل تأييده ونصره، من شأنه أن يضاعف القوّة، ويزيد من إمكانات القتال لدى حَمَلة رسالة الجهاد في سبيل الله.

أمّا الاغترار بالنفس فإنّه يفضي إلى الاستهانة بقوة العدوّ، ومع الاستهانة يحصل التهاون والتبـاطؤ والتواكـل، وهذه من أبـرز عوامـل الخذلان ومسبّباته، وقد دلّ على هذا الشرط من القرآن قول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وما النّصر إلاّ من عند الله، إنّ الله عزيز حكيم (١٠) ﴾.

وقـول الله تعـالى للمؤمنـين أصحـاب رسـول الله ﷺ في سـورة (التوبة ٩):

﴿ لقـد نصركم الله في مـواطن كثيرة، ويـوم حُنَين إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغْن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحُبت، ثُمّ ولّيْتُمْ مُدْبرين (٢٥) ﴾.

الشرط الرابع: شدّة البأس في القتال، وذلك لأنّ شدّة البأس تجعل

قلوب الأعداء فريسة الخوف والهَلَع، ومتى وجد الخوف سبيله إلى القلوب سالكاً انهارت قوى الهجوم، ثمّ تنهار من ورائها قوى الدفاع والمقاومة والصمود، ويفضّل المقاتل حينئذٍ الفرار أو الاستسلام، وقد دلّ على هذا الشرط قول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ فإمّا تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم مَنْ خلفهم لعلَّهم يذّكرون (٥٧) ﴾.

إنّ قوله تعالى: ﴿ فشرّد بهم مَنْ خلفهم ﴾ يدلّ على الإلزام بإيقاع البأس الشديد في العدوّ المقاتل، حتى تنخلع قلوب الذين من خلفه ذعراً، فيشردوا ويفرّوا من وجوه المقاتلين من المسلمين، طلباً للسلامة، وإيثاراً للعافية، ومخافة أن يقع بهم مثل هذا البلاء العظيم.

الشرط الخامس: الثبات والمصابرة وعدم تولية الأدبار، مع الاعتصام بالإكثار من ذكر الله تعالى، وذلك لأن من طبيعة الثبات والمصابرة أن يفُلاّ حدّ العدوّ المقاتل، ويسقياه كؤوس اليأس من الظفر، وبذلك تنهار قوته فيفرّ أو يستسلم.

ويساعد على الثبات والمصابرة الاشتغال بذكر الله، والأمل بمدده المادّي والمعنوي. ويدلّ على هذا الشرط قول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨):

﴿ يا أيّها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون (٤٥) ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (الأنفال ٨) أيضاً:

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتُم الذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار (١٥). ومن يولّهم يومئذٍ دُبره إلاّ متحرّفاً لقتالٍ أو متحيّزاً إلى فئة؛ فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنّم وبئس المصير (١٦) ﴾.

الشرط السادس: طاعة القيادة، وعدم التنازع في الأمر، وذلك لأنّ فَقْدَ الطاعة يجعل القيادة غير قادرة على استعمال القوى في مواجهة العدوّ، فتجمد القوى أو تتصارع فيما بينها، أو تستعمل في غير صالح المعركة، وذلك من أسباب الفشل الكبرى، كما أنّ التنازع في الأمر باختلاف وجهات النظر في القتال يؤدّي إلى هذه النتائج نفسها التي تسبب الفشل، وليس من شأن حملة رسالة الجهاد في سبيل الله العصيان والتنازع، وقد دلّ على هذا الشرط قول الله تعالى خطاباً للمؤمنين في سورة (الأنفال ٨):

﴿ وأطيعوا الله ورسوله، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا إنّ الله مع الصابرين (٤٦) ﴾.

وقول الله تعالى في سورة (آل عمران ٣):

﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسّونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبّون، منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة، ثمّ صرفكم عنهم ليبتليَكم ولقد عفا عنكم. والله ذو فضل على المؤمنين (١٥٢) ﴾.

وبتحقيق هذه الشروط يستطيع حَمَلة رسالة الجهاد في سبيل الله أن يظفروا دائماً بالنصر على أعداء الإسلام، لأنّ الله قد وعدهم بذلك، والله لا يخلف الميعاد.

وحين لا يتحقّق لهم النصر فلا بدّ أن يكونوا قد أخلّوا ببعض الشروط، ولم يلتزموا ما فرض الله عليهم، وعليهم في مثل هذه الحالة أن يراجعوا حساب أنفسهم وأعمالهم، ومدى تطبيقهم لمنهج الله، فحكمة الله غير متّهمة، ولا يمنح الله تأييده ونصره على خلاف السُّنَن العامّة التي تخضع لنظام الأسباب والمسبّبات الكونية إلّا تحقيقاً لوعده، ومعونة للذين يستحقون هذه المعونة بما في قلوبهم من إيمان وصدق وغَيْرة على دين الله ورغبة بإعلاء كلمته، وبما في أعمالهم من طاعة واستقامة على صراط الله المستقيم.

ومقالة الذين يقولون: «نحن أفضل بـإسلامنـا من أعدائنـا رغم معاصينا ومخالفاتنا الكثيرة، فَلِمَ لا ينصرنا الله عليهم؟!» مقالة ساقطة غير صحيحة، لأنّ عطاء النصر بمخالفة نظام الأسباب والمسببات الكونية المعتادة، لم يتكفّل اللهُ به إلاّ للذين يحققون في أنفسهم الشروط التي ألزم بها لاستحقاق تنفيذ الوعد بالنصر.

فمن أخلّ بها وكله الله لنفسه ولأسبابه الكونية، حتى يتّعظ ويراجع حسابه، ويعود إلى الاستقامة على منهج الله.

إنّ النصر على خلاف السنن المعتادة لا تُـراعىٰ فيه الأفضليـات النسبيّة، بل تُراعَىٰ فيه الاستقامة المستطاعة على منهج الله، بذلك قضت حكمة الله.

إنّ المسلمين ورسول الله قائد معركتهم مع عدوّهم لمّا أخلّوا ببعض الشروط، حوّل الله رياحَ النصْر عنهم في معركة أُحد، وفي بداية معركة حُنَين، وأبان لهم في القرآن سبب ذلك.

ومن سنن الله أنّ المسلمين إذا أسرفوا في معاصيهم لربّهم سلّط الله عليهم بعض أعدائهم من الكَفَرة، لتأديبهم وتربيتهم، وليتّعظوا ويراجعوا دينهم، فإذا تابوا إلى بارئهم واستقاموا وغيّروا ما بـأنفسهم، تاب الله عليهم، وعادت عوائد مدده وتأييده ونصره إليهم، وليس هذا التسليط تفضيلاً من اللهِ لهؤلاء الذين سلّطهم على المسلمين، إنّما هو بمثابة تسليط الحشرات على بني آدم، مع أنّ الله قد كرّم بني آدم وجعلهم في أحسن تقويم، ولكنّ طبيعة العقاب والتأديب قد تستخدم فيها وسائل ليس لها قيمة في ذاتها، إنّ العصا التي تضرب بها ولدك لتأديبه ليست أكرم أو أفضل عندك من ولدك.

فما على المسلمين أمام الأحداث الجاثمة على صدورهم، والنكبات المتوالية عليهم، إلاّ يفهموا حكمة الله فيما تجري به مقاديره ويتعظّوا بها.

(٦)

الروح المعنوية لدى المجاهدين في سبيل الله

لدى المقارنة بين الجيوش المقاتلة في التاريخ الإنساني، لا بدّ أن يلاحظ الناظرون إلى قِيَم الروح المعنوية فيها أنّ جيوش حَمَلة رسالة الجهاد في سبيل الله بصدق تتمتع بأعلى نسبة منها.

إنّ المجاهدين في سبيل الله حينما تلجئهم الضرورة إلى أن يقفوا موقف المقاتلين في مواجهة أعدائهم وأعداء دينهم، فإنّ الروح المعنوية سترتفع في قلوبهم ونفوسهم ارتفاعاً عالياً جدّاً.

وذلك لأنهم يتلمَّسون في أنفسهم أنّ الباعث لهم على القتال أنبل غاية تقصد، ويَجدون أنفسهم مندفعين إلى التقيّد بشروط القتال التي حدّدها الله لهم، وأمرهم بالتزامها، ويشعرون بأنّ شوقاً يقذف بهم إلى الظفر بما وعدهم الله من النصر المؤزر أو الشهادة ودخول الجنة.

إنّه ما من جيش استجمع كلّ ذلك إلّا نزع الله الجبن من قلوب أفراده، فأصبحوا لا يخشون الموت، ولا يهابون خوض غمار الحرب مهما حمي وطيسها، وبهذه القلوب والنفوس المشحونة بالشوق إلى لقاء الله والجنة فإنّهم يقبلون على القتال وهم شديدو البأس، ثابتو الأقدام.

وعندئذٍ يجد هذا الجيش معونة الله المعنوية والمادّية مصاحبة له مهما كرّ أو فرّ في مساجلات القتال.

ومن المستبعد جدّاً أن يُصاب جيشٌ من هذا النوع في وقت من أوقاته بالضعف أو التخاذل أو الوَهَن، ما دام مستجمعاً للشروط التي بيَّنها الله للقتال في سبيله.

كيف يصابُ مثل هذا الجيش المؤمن بالضعف أو التخاذل والوهَن، وهو على يقين بأنّ وعد الله للصادقين معه، والمخلصين له، لا بدّ محقّق حتماً، فالله لا يخلف الميعاد؟.

إنّ مثل هذا الجيش لا بدّ أن يكون شديد الثقة بتحقق الغاية التي ينشدها. كيف لا يكون كذلك وهو فيما يقوم به إنما يقاتل عدوّ الله وعدوّ دينه، وعدوّ رسالة الخير التي أمر الله بها عباده؟! وهو مؤمن عميق الإيمان بأنّه يقاتل بإذن الله وأمره، مؤيّداً بعون الله وقهره، موعوداً بأجـر الله ونصره.

ومن أجل ذلك ترتفع قوة المقاتلين في سبيل الله بنسبة ما في قلوبهم من إيمان وصبر، وصدق مع الله، حتى يكون الواحد كفؤاً للعشرة من العدوّ في الحدّ الأعلى، وكفؤاً لاثنين من العدوّ في الحدّ الأدنى.

هكذا تكون قوة المؤمنين الصابرين، بخلاف الذين يخرجون بَطَراً ورئاءَ الناس، ويقاتلون حميّة وعصبية، أو يقاتلون للفخر والعلوّ في الأرض بغير الحق، أو يقاتلون ليُثنىٰ عليهم بين الناس بالشجاعة، أو بغية الوصول إلى مال، أو الحصول على شهوات ولذّات، أو الوصول إلى مجدٍ دنيوي لا يهدف إلى غاية من غايات الجهاد في سبيل الله بصدق، أو يقاتلون في سبيل فردٍ أو جماعة من الناس، أو غير ذلك من أمور لا تعادل بحالٍ من الأحوال بذل الروح في سبيلها.

إنّ الذين يخرجون إلى القتال لمثل هذه الغايات إنْ يخرجوا وهم غافلون عمّا سيعرّضون أنفسهم إليه، أو طاعة لقادتهم الذين إن عصَوهم قتلوهم، فما أسرع ما يدبّ الذعر إلى قلوبهم، وما أسرع ما يصيبهم الخوف الشديد والهَلَع. ثمّ إنهم في أغلب الأحوال متى وجدوا لأنفسهم منفذاً للفرار من المعركة أخذوا سبيلهم إليه، إلاّ أن يغلب على ظنّهم أنهم بقوّتهم المادّية منتصرون، أو أنّ عدوهم ضعيف أو جبان، أو أن يقوم في أنفسهم أنَّهم قد أمسَوا ملزمين بالقتال، وإلاّ قتلوا وأبيدوا.

ومن أجل ذلك نلاحظ أنّ الجيوش التي لا تحمل رسالة الجهاد في سبيل الله بصدق تعاني أكبر ما تعاني ممّا يُسمّىٰ عند العسكريين بفقد الروح المعنوية، وتحاول قياداتها رفع هذه القوة بوسائل مختلفة دعـائية ونفسيـة

ومادّية، ومن الوسائل المادّية ما يتمّ به سلب الشعور العاقل عند الجنديّ المقاتل، عن طريق المسكرات. ولكنّ كلّ وسائلهم لا تحقق بعض النتائج التي يحققها الإيمان.

أمّا الجيوش التي تحمل رسالة الجهاد في سبيل الله بصدق فإنها قلّما تصاب بفقد الروح المعنوية العالية، ولو لم يتحقّق لها الظفر المادّي على العدوّ، لأنّ كلّ مقاتل فيها يعتقد أنه قد ظفر بما يقاتل من أجله، وهو بلوغ رضوان الله، واستحقاق الأجر عنده، وأنه يقاتل لغاية هو يرجوها ويطلبها، ولم يفرض عليه القتال لمصلحة غيره من الناس. أمّا النصر المادّيّ فيعتقد أنه بيد الله يؤتيه من يشاء لحكمة يعلمها، وحكمة الله غير متّهمة في قلوب المؤمنين.

(٧)

الجهاد في سبيل الله في تاريخ بناة الحضارة الإسلامية

حدّثنا التاريخ عن الجهاد الصادق في سبيل الله، بمختلف وسائله التي تبدأ بجهاد النفس، فجهاد الدعوة إلى الله، وتصل في مداها الأقصىٰ إلى الجهاد بالقتال لإعلاء كلمة الله، وإقامة الحق والعدل في الأرض، وتثبيت قواعد الحكم الإسلامي. بدءاً بجهاد الرسول محمد ﷺ والذين آمنوا معه، وقد توّج الله هذا الجهاد بظهور الإسلام واستعلائه في شبه الجزيرة العربية.

ثم تابع مسيرة الجهاد في سبيل الله المؤمنون الصادقون بعد وفاة الرسول ﷺ، فأثمر جهادهم فتحاً مبيناً لعشّاق الخير، وناشدي الحضارة المجيدة، وأثمر نصراً عزيزاً للبؤساء والمظلومين ومهضومي الحقوق.

وكان من عطاء هذا الجهاد الصادق المخلص، أنّه منح الاكفياء للمساهمة في بناء الحضارة المثلى أرضاً مستقرة آمنة، وزمناً مباركاً فيه،

فأخذوا يبذلون ما لديهم من طاقة وجهد في بناء الصرح الخالد، الذي دفعتهم إلى بنائه أسس الإسلام الراسخة، التي تدعو إلى كلّ ما هو حقّ وخير وابتكار وإبداع جميل لا شرّ فيه. والتي لا تفرق في الأخوة الإيمانية الإسلامية بين الأقوام والشعوب واللغات والألوان، ولا تفرق بين الطبقات، وتتيح فرص العمل والسبق والارتقاء، لكل المسلمين المؤمنين على سواء.

وامتدّ الإسلام باستمرار حركة هذا الجهاد، وامتدت معه أصوله الحضاريّة شرقاً وغرباً، وحقّق المسلمون به معجزة الفتح التاريخية، التي كادت تضمّ بين جناحيها معمور الأرض في مشارقها ومغاربها. وكان ذلك في أقصر حقبة عرفها تاريخ الفتوحات في الأرض، كما حقق المسلمون من كلّ الأجناس والأعراق انطلاقة حضاريّة فكريّة وخلقيّة وسلوكيّة، علميّة وتطبيقيّة عظيمة أفادت منها الحضارة الغربية الحديثة كثيراً.

واستمرّ أمر المسلمين كذلك، حتى تسرّب إلى نفوسهم مرض الانحراف عن الهدف المثاليّ الحقّ، الذي حدّدته لهم أسس الإسلام الاعتقادية والتشريعية، فدخل إلى قلوبهم داء الوَهَن، والطمع بالدنيا، وحبّ الشهوات، والتثاقل عن الجهاد في سبيل الله، والإخلاد إلى الأرض، فوكلهم الله إلى نفوسهم، وألقى الخلاف بينهم، وضرب بين قلوبهم، وسلّط عليهم عدوّهم.

ولكنّ حركة المدّ والجزر في البحر الزاخر من المسلمين المنتشرين في الأرض، كانت توقظهم بين حين وآخر إلى ما يجب عليهم نحو رسالتهم الربّانية الدينية الحضاريّة العظمى، من الجهاد في سبيل الله جهاداً حقّاً، مستوفياً كامل شروطه وأركانه، فكانت سوانح اليقظة هذه كافية لصدّ أعدائهم عنهم، وردّ كيدهم في نحورهم، وإبقاء هيكل الدولة الإسلامية العامّ مهيباً مرهوب الجانب.

وبين ضعف هذا الكيان وعوامل اليقظة ومظاهرها، لاحظ أعداء

الإسلام عقيدته القوية الراسخة، التي تجعل جيوش حَمَلة رسالة الجهاد في سبيل الله كأنها الجبال الراسيات قوّةً وثباتاً، وامتحنوها عمليّاً خلال قرون صارعوا فيها المسلمين بكـل وسيلة من وسائـل القتال المكثف العَنيف، وكانت النتيجة أن مسَّتهم صدمة عنيفة من الذُّعر والدَّهَش والحَيْرة، ثمّ لم يجدوا سبيلاً إلى تفتيت هذه القوة المعنوية الهائلة، إلاَّ أن يأتوا إلى جيوش حَمَلة رسالة الجهاد الإسلامي الصادق، فيفرِّغوها من سرّ قوتها الحقيقية، ويحرِّفوا معاني الجهاد في سبيل الله داخل نفوسها، وأفكارها، وقلوبها، وفي ممارساتها العملية التي تنتظم حركة حياتها.

الفصل الثالث

محاولات التحريف في مفاهيم الجهاد في سبيل الله

(١)

مقدمة:

اتّخذ أعداء الإسلام والمسلمين محاولات ذكية جدّاً، مكروا بها مكراً كُبّاراً، لإلغاء ركن الجهاد في سبيل الله من واقع المسلمين، عن طريق التحريف في مفاهيمه وتفريغه من مضامينه، ونزع سرّ قوته الحقيقية، ووضع قوى خُلّبيّة باردة مكانها، يسهل عليهم أن يوجّهوا ضدّها ضرباتهم القاصمة.

لقد وجّه الأعداء جهوداً جبّارة لإزالة قوة الإيمان بالله من نفوس المسلمين، ولتهديم البواعث الإسلامية الحقيقية على الجهاد في سبيل الله. وأتبعوا ذلك بإلغاء شروط القتال في سبيل الله. ووضعوا مكان كلّ ذلك قوى صوريّة تعطي أصواتاً عظيمة مدوّية، ولكنّها لا تحدث إلّا أثراً يسيراً، وقد لا تحدث أيّ أثر إلّا أثراً ضدّ حاملها. ووضعوا مكان الشروط الرّبانية شروطاً أخرى، فجعلوا في محلّ الاعتماد على الله الغرور بالنفس، والاعتماد على إمدادات الدول الطامعة ذات المصالح الشخصية، وأحلّوا محلّ ذكر الله عبارات طاغوتية إلحاديّة أو قوميّة أو عنصريّة أو طبقيّة إلى غير ذلك من دوائر أنانيّة صغرىٰ، وأحلّوا أيضاً محلّ ذكر الله أغاني مشحونة بتبجحات حقيرة. وبرّدوا حرارة الاندفاع الحقيقي إلى الجهاد في سبيل الله بصدق. وفرّقوا صفوف المسلمين، وأفسدوا بينهم وبين قادتهم، ففقدت

الجيوش المسلمة بذلك عناصر قوتها الحقيقية. فكيف يتم لها الظفر بعد ذلك على أعدائها؟!.

فمن محاولات التحريف في مفاهيم الجهاد في سبيل الله التي كادنا بها أعداء الإسلام كيداً كبيراً ما يلي:

(٢)
استغلال ردود الأفعال الناتجة عن توجيه الاتهام

حين لم تظفر القوى المعادية للإسلام برفع ركن الجهاد في سبيل الله من عقول المسلمين وقلوبهم ونفوسهم، اتخذوا لـهدم هذا الركن سلاح مهاجمة الإسلام عن طريق المستشرقين، وذلك باتِّهامه بأنه لم ينتشر بالدعوة والتبشير والإقناع بأنه حقّ، وإنَّما انتشر بالقتال والسيف وإكـراه الناس عليه.

واستغلالاً لردود الأفعال الناتجة عن توجيه هذا الاتِّهام، استطاع المستشرقون والمبشِّرون الذين أطلقوا فريته أن يستدرجوا بعض المسلمين الغيورين على إسلامهم، وأن يسخّروا بعض عملائهم من أبناء المسلمين للدفاع عن فكرة الجهاد في سبيل الله بمفاهيم مبتدعة، تحصر الجهاد في سبيل الله ببعض مجالاته، وببعض دوائره، وتزعم أن الإسلام لا يسمح بتجاوز هذه المجالات، وهذه الدوائر.

فمن ذلك ادّعاؤهم بأنّ الحروب الإسلامية لم تكن إلّا حروباً دفاعيّة فقط، وربّما تقاصرت هذه المجـالات في دعوات بعض المـذعورين من اتهامات الأعداء، حتى أمست واقفة عند حدود جهاد النفس، أو جهاد الدعوة البيانيّة.

وبذلك ينهدم شطر عظيم من ركن الجهاد في سبيل الله، الذي دلّت عليه النصوص الإسلامية، ومفاهيم المسلمين الأوَّلين، ودلّت عليه وقائع

الفتوحات الإسلامية العظمىٰ التي طبَّقت هذه المفاهيم.

واستفادت القوى المعادية للإسلام فوائد عظيمة من هدم هذا الشطر من ركن الجهاد في سبيل الله.

وتذرّع أصحاب الأفكار المبتدعة الجديدة بالحقيقة الإسلامية التي أعلنها الله بقوله في سورة (البقرة ٢):

﴿لا إكراه في الدين، قد تبين الرشد من الغيّ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم (٢٥٦)﴾.

وبهذا الهدم الجزئي الذي تضمنه هذا الفهم الدخيل المبتدع تعطّل من مجالات الجهاد في سبيل الله الشطر الذي تكون الغاية منه نشر الدين، وإبلاغه للعالمين، وكسر الأسوار التي تحجب الحقّ عن أن يصل إلى أسماع الغافلين المتعطِّشين إلى المعرفة من الشعوب المغلوبة على أمرها، الراغبة بالخلاص من ظلمات الجهل، وسلطان الحكومات الآثمة الظالمة، التي تحجب عنها النور، وتفرض عليها مطالب أهوائها، وتمنعها من تنسُّم أية حقيقة تخالف ما تمليها عليها بالقوة.

أمّا الإكراه في الدين فلا مجال له بحال من الأحوال، لأنّ أوّل أسس الدين عقيدة في القلوب، ومحال أن تُكره القلوب إكراهاً مادّيّاً على أن تعتقد عقيدة ما، وإعلان القرآن عن هذا فيه من الروعة ما يسكت كلّ لسان.

إنّ جانب الإيمان الذي هو الأساس في الدين مَثَله كمثل عواطف الحبّ والكراهية، إنها جميعاً أمور لا تقبل الإكراه المادّي. نعم قد تجلبها وسائل أخرى، لكنّ الإكراه ليس وسيلة إلى جلبها بحال من الأحوال، بل الإكراه وسيلة منفِّرة.

ولكنّ هذا لا يستلزم حصر الجهاد في سبيل الله ببعض جوانبه

كالدفاع فقط، أو كجهاد الدعوة، أو جهاد النفس، أو نحو ذلك.

إن الضرورة في المجتمع البشري قد تدعو إلى القتال، انتصاراً لحقّ المظلومين بأن يتنسموا حرّية التعرف على ما يحييهم، ويرفع عنهم حَيْف الطُّغاة، ويريهم نور الحق والهداية، ليدينوا بالدين الذي يرتاحون إليه وتؤمن به قلوبهم.

حينما يكون شعب من الشعوب أو طائفة من الناس مغلوبين على أمرهم، محكومين بسلطة قاهرة، تحجب عنهم كلّ حقيقة، وتحرمهم من ممارسة حقّ حرّيتهم فيما يعتقدون وفيما يعملون، ولا تسمح لدعاة الحقّ والهداية أن يدخلوا إليهم، ويبصّروهم بالحقّ الذي آمنوا به وهم يحملون رسالة الدعوة إليه، فإنّ الواجب الإنساني العام الذي تفرضه الأخوة الإنسانية، يوجب على حَمَلة رسالة الحقّ والهداية والخير أن تنتصر للمظلومين، وتقاتل حتى تكسر أسوار السجون التي أقامها الطُّغاة البُغاة عليهم، وحتى تحطّم أسلحة الإرهاب والتعذيب التي يُعذَّبون بها، وحتى تمزِّق الحجب التي تحجب عنهم نور الشمس، وتحبس عنهم نسمات الحياة السعيدة، وحتى تطلقهم من إسارهم فيكونوا أحراراً في اختيار الدّين الذي يدينون به، ونظام الحياة الذي يسيرون عليه.

بعد هذا البيان لا يجد العقلاء المنصفون حاجة للاعتذار عن ركن الجهاد في سبيل الله، بقتال الطغاة البغاة الظَلَمة المستبدِّين الذين يكرهون الناس على ما لا يريدون.

وكل محاولة للقصّ من أطراف هذا الركن العظيم، وحصره ببعض مفاهيمه تحريف في دين الله.

إنّ قضيَّة الجهاد في سبيل الله بالقتال لتأمين رسالة الدعوة وحمايتها وإقامة العدل قضية حقٍّ ربّاني، وإنّ غايته من أشرف الغايات وأنبلها. ولولا أن ألجأت إليه الضرورة في المجتمع الإنسانيّ الظالم الآثم، الذي

يتحكّم فيه الطغاة البغاة الجبابرة أصحاب الأهواء، الذين يجعلون أنفسهم أرباباً من دون الله، لما كان له وجود في شرائع الله. ذلك لأنّ أساس هذه الشرائع الرّبّانية كلّها قائم على القاعدة المعلنة في قول الله تعالى:

﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾.

ثم من وراء ذلك الجزاء بالثواب أو بالعقاب يوم الدين.

ومن عجيب المفارقات أنّ كثيراً من الذين يشنِّعون على الإسلام في شأن هذا الركن العظيم، يمارسون هم أقبح صور الإكراه في الدين، وأقبح صور التعصُّب ضدّ المسلمين، ويستخدمون ضدّهم كلّ وسائل العنف لإلزامهم بأن يتركوا دينهم وعقائدهم ومفاهيمهم، ويحرمونهم من كثير من حقوقهم الشخصية والاجتماعية والاقتصادية، ويوجّهون ضدّهم حروب إبادة جماعيّة، ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، مع أنَّ المسلمين لم يكن منهم عبر تاريخهم الطويل الذي كانوا فيه هم أصحاب القوة والدولة إلّا الرحمة، والعدل، والتسامح، وحسن التعايش، في تعاملهم مع مخالفيهم في الدين الذين كانوا تحت سلطانهم، أو كانوا شركاءهم في الإدارة والحكم، وكثيراً ما كان الحَيْف والكيد يأتيهم من هؤلاء المخالفين.

(٣)

خطّة تفريغ الجهاد في سبيل الله من مضامينه باصطناع البدائل

وممّا لجأ إليه أعداء الإسلام والمسلمين في محاربة ركن الجهاد في سبيل الله، تفريغ هذا الركن من مضامينه ومن معانيه السامية، ومن أسسه وبواعثه التي تمدّ المسلمين بطاقة كبرى من الإقدام والصمود والصبر والمصابرة.

وذلك بصرف المسلمين عن الغاية التي يقاتلون في سبيلها إلى غايات مختلفات أخرى بعيدة كلّ البعد عن معاني الإسلام ومفاهيمه الساميات،

وليس في مضمون هذه الغايات المحدَثة ما يدفع المسلم حقّاً إلى التضحية الصادقة، والفداء المتفاني، والشجاعة المتفوّقة، والثبات لدى ملاقاة الأعداء في قتال جادّ.

ومن هذه الغايات المحدَثة التي أحلّوها محلّ الغايات الإسلامية، أو زحفت بنفسها بعد تواري الغايات الإسلامية، وغيابها عن تصوّرات جماهير المنتسبين إلى الإسلام، عباراتُ الوطنية، وعبارات القومية المضيَّقة أو الموسعة، وعبارات شعارات أخرىٰ خُلّبية زائفات، كعبارات البسالة، والشجاعة، والحميّة، والأخلاق الثوريّة، والعمل الخلّاق، والمصلحة الحقيقية للشعب المتمثل بالطبقة الكادحة وقيادتها الاشتراكية التقدميّة الرائدة، وخلق الإنسان المناضل لبناء المجتمع الثوريّ الرائد، وما أشبه ذلك من رسوم ألفاظ منتفخة فارغة المضمون، وجاهليّات هشّة ضعيفة الأثر، لا تستطيع أن تقف على أقدامها ـ إن كان لها أقدام ـ تجاه غايات ثابتة مركّزة ذات قوة.

لقد رأينا لليهود على ما هم عليه من انحلال خلقي وتشتّت في الأرض، قضيّةً في هذا العصر، لها غاية مركّزة، تدعمها قوى معنوية ذات جذور تاريخية دينية، وبها استطاعوا أن يجمعوا طاقات أشتاتهم، ويستغلُّوا مواقع وجودهم في كل دول العالم، وتأثيراتهم الماديّة والمعنويّة الفكريّة والعاطفيّة، لإقامة دولتهم العنصرية التي تلبس أردية الحاخامات الدينية، وتذرف دموع صلوات الندم والفرحة على حائط المبكىٰ، وتقاتل بكل عدوان وبَغْي كلّ من يقف في طريق مطامعها، وتصارع الرأي العالميّ بعنادٍ وإصرار ومكر وشراء للضمائر.

أمّا المسلمون عرباً وغير عرب فقد أريد لهم أن تكون قضاياهم مشتّتة مضطربة مائعة، تموج بها شعارات محدَثة، وتقذف بها ذات اليمين مرّة وذات الشمال أخرى، وليس لها أصالة ولا جذور في نفوس الشعوب المسلمة، ولا تدعمها قوىً معنويّة من دينهم وعقيدتهم وتاريخهم. ومن

أجل ذلك نكبوا بما نكبوا به من قبل أعدائهم.

فَهَلْ إلى رجعة من سبيل، نعود فيها إلى غاياتنا ومفاهيمنا الإسلامية، التي تحمل لنا في ثناياها كلّ الحلول لمشكلات شعوبنا الإسلامية، وتدفع بنا إلى صفّ القيادة والريادة في العالم، وتخلّص المقهورين والمظلومين من براثن الطغاة الجبّارين في الأرض، وتخلّص التائهين والتائهات من أجيالنا من عذاب الغربة والحَيْرة والضَيْعة، ومن أودية الهلاك.

(٤)

حيلة الربط الدوري بين ركن الجهاد في سبيل الله وبين إقامة الحكم الإسلامي

ومن الخطط التي اتخذها الأعداء، واستدْرج إليها بعض أبناء المسلمين، وكثيرٌ منهم قبلها وروّج لها عن حسن نيّة، حيلة الربط الدوري بين الجهاد في سبيل الله بالقتال وبين إقامة الحكم الإسلامي الصحيح.

والنتيجة التي تحصل من هذا الربط أن لا يباشر المسلمون الجهاد في سبيل الله بالقتال مهما دعت الدواعي إليه، حتى يقيموا الحكم الإسلامي، وبما أن الحكم الإسلامي المنفِّذ لكل أحكام الله وشرائعه لعباده لا يستطيع أن يقوم في الأحوال الراهنة في كثير من بلدان العالم الإسلامي إلاّ عن طريق الجهاد في سبيل الله حتى حدوده القصوى؛ إذن فلا بدّ أن يتساقط طرفا الدَّور، فلا يقوم الحكم الإسلاميّ المطلوب، ولا يباشر المسلمون الجهاد في سبيل الله كما ينبغي، ويدور المسلمون بهذه الحيلة الفكرية في حلقة مفرغة، ليس لها طرف يمسكون به حتى تبدأ منه خطّة عملهم.

وقامت نظريّات جديدة تبنّاها بعض المسلمين، وهذه النظريات تنادي بأن الجهاد في سبيل الله حقٌّ، وركن من أركان الإسلام لنشره

وصيانته، ولكن لا يصح مباشرة هذا الركن فيما وراء جهاد النفس وجهاد الدعوة السلميّة الهادئة قبل توافر شروطه الأساسية، والمنطق عند هذا الحدّ سليم لا اعتراض عليه، وقد سبق شرحه في هذه البصائر.

ولكن عند الحديث عن الشروط يعملون على انتحال شروط بعيدة المنال في ظروف المسلمين الحاليّة، ثمّ يعملون بكلّ وسيلة على جعل هذه الشروط مستحيلة الوقوع أو كالمستحيلة.

كما يعملون على ربط هذه الفئات التي تنادي بهذه النظريات بهم ربطاً محكماً، يجعل كلّ أنواع النشاط التي تقوم به تحت اسم الإسلام كمن يحرث في البحر، تُمتصّ بالجهد طاقاته، ولا تؤثر في الماء محاريثه، وينتهي الأمر إلى تعطيل ركن الجهاد في سبيل الله بالقتال نهائيّاً، وإبقائه كمادّة معطّلة عن التطبيق في دستور نظري.

على أننا نؤكد أنّه لا يصح مباشرة الجهاد بالقتال قبل توافر شروطه، من تحديد الغاية الأساسية، وإعداد العدّة المطلوبة للمواجهة، والقيام بواجب الجهاد بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وانتظار الفرص الملائمة.

ولكن على المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها أن يخطّطوا، ويساهموا في الإعداد التامّ لردّ صور العدوان التي يبيِّتها ضدهم أعداؤهم من الشرق ومن الغرب وممّا بينهما، ليوقعوا في شَرَكهم كلّ بلد من بلدان العالم الإسلامي، وعلى المسلمين أن لا يتوانَوا في القيام بهذا الواجب لحظة واحدةً، فهم اليوم في سباق القوة، والإعداد الحقيقي لأسلحة الردع والصمود والجهاد في سبيل الله بصدق، إنما ينظرون إلى أواخر الصفوف المتقدِّمة في العالم المعاصر بالمناظير بعيدة المدىٰ حتى يروها وهم خلفها. إنّ الأمر لا يحتمل التريّث والصبر والأناة، ولكنّ اللحوق بالركب، ثمّ السبق، من الأمور الممكنة التي تتوافر لديهم أسبابها الماديّة، فما عليهم إلّا

أن يفتحوا كنوز أسبابهم المعنوية، ويغترفوا منها، ويبلؤوا المسيرة الجادة متوكِّلين على الله، ومن يتوكَّل على الله فهو حَسْبُه.

(٥)
خطّة اصطناع المنظَّمات العميلة الأجيرة

استمرت جيوش الاحتلال الاستعماري في البلدان الإسلامية تنام على أشواك القلق والاضطراب والفزع من مباغتة المقاومة التي يقوم بها المجاهدون المسلمون ضدّ الغزاة.

وبحثوا عن سرّ هذه المقاومة العنيدة المستمرّة، والفداء الذي لم ينقطع، فوجدوا أنّ من أركان الإسلام لنشره وصيانته وحماية المسلمين وبلادهم من أيّ تسلّط غير إسلامي، ركن الجهاد في سبيل الله، الذي يغذّيه في قلب المسلم إيمانه الراسخ بما أعدّ الله للمجاهدين في سبيله من أجر عظيم عنده، فهو إن لم يظفر في الدنيا بالنصر، ظفر في الآخرة برضوان الله والجنّة.

ولذلك وجّه الاستعماريّون جهوداً عظيمة في خطط متعدّدة الشُّعَب لغزو هذا الركن العملي الخطير من أركان الإسلام الاجتماعية، ولإضعاف أثره في صفوف المسلمين، وهدم بواعثه في قلوبهم.

وفكّروا وقدّروا وخطّطوا، ثم استخدموا لهدم هذا الركن عدّة أسلحة، وعملوا على إلغائه ورفعه كلّيّاً، وجرّبوا أن ينشروا بين المسلمين عقائد جديدة تفسر النصوص الإسلامية المصادر للتشريع بحسب أهوائهم، وتنادي بالأخوّة الإنسانية، دون تفريق بين الأديان القائمة، والمذاهب الفكرية المصطنعة، وتفسّر الإسلام بأنه واحد من هذه الأديان المنتشرة في الأرض، يدعو إلى المحبّة، وإلى التآخي العامّ بين البشر، مهما كانت مذاهبهم واتجاهاتهم وأعمالهم ومعتقداتهم، وما هو بدين قتال وسفك

دماء، وأمّا القتال الذي حصل في صدر الإسلام فقد كان عمليّة مرحليّة فقط، انتهى دورها بانتشار الإسلام في العالم، وأضافوا إلى ذلك أخلاطاً اعتقادية تنسف الإسلام من أساسه.

واستأجروا للقيام بتنفيذ هذا المخطط أجراء ضمن صفوف المسلمين بألوان شتّى وصُوَر مختلفة، وظهر بعض هؤلاء الأجراء بأثواب قادة سياسيين، وظهر بعضهم بأثواب مصلحين دينيين، وابتدع بعضهم ديناً جديداً دعا إليه، وجمع فريقاً من المرتزقة عليه.

فظهرت البهائية في إيران ثم امتدت، وظهرت القاديانيّة في الهند ثم امتدت، وكلّ منهما قد ضمّن أخلاطه الاعتقادية الملفقة إلغاء ركن الجهاد في سبيل الله، ودعا إلى التعايش بمحبّة وإخاء وتعاون مع السلطات الاستعمارية الكافرة، التي تمتصّ خيرات البلاد، وتنشر مبادئها باعتبارها أمّة غالبة مستعمرة.

أمّا البهائية: فهي نِحْلة جديدة ظهرت في جسم الأمة الإسلامية بتدبير من اليهود وبعض الدول الاستعمارية، وبإمدادات من صانعي المكيدة لقادة هذه النِحْلة بالأموال، وتيسير المصالح، ومختلف أنواع وصور الدعم والتأييد.

وهذه النِحْلة الأجيرة لأعداء الإسلام والمسلمين والتي يوجّه قيادتها منافقون منهم قد قامت بتلفيق دين جديد بعقيدته وشريعته، تحت قناع الإصلاح الديني والاجتماعي المزيّف، وباسم التآخي العام بين الناس على اختلاف أديانهم وقومياتهم ومذاهبهم.

ولهذه النحلة (البهائية) صلة في مفاهيمها بما يلي:

أ ـ بالإباحيّة من جهة.

ب ـ وبطرح الفوارق الدينية من جهة ثانية.

جـ ـ وبإلغاء مبدأ الجهاد في سبيل الله من جهة ثالثة.

وأمّا القاديانيّة: فهي نِحْلة جديدة أيضاً، عملت بما تستطيع من خدمة مأجورة من قبل المستعمرين لهدم العقائد والشرائع الإسلامية التي يخدم هدمها مصالح المستعمرين في بلاد المسلمين، وكان لتأسيس هذه النحلة بين المسلمين تحت ستار دينيّ هدفان رئيسيان:

الهدف الأول: تفريق وحدة المسلمين، وتوهين قوتهم، وهدم مبادئهم وعقائدهم.

الهدف الثاني: تمكين الدولة المستعمرة من بسط نفوذها على البلدان الإسلامية التي اغتصبتها، لا سيما الهند التي نشأت هذه الطائفة فيها. ومن أسباب هذا التمكين إلغاء ركن الجهاد في سبيل الله.

ومما جاء في رسائل «ميرزا غلام أحمد القادياني» زعيم هذه الطائفة العميلة قوله:

«لقد قضيت معظم عمري في تأييد الحكومة الإنكليزية ونصرتها، وقد ألّفت في منع الجهاد ووجوب طاعة أولي الأمر الانكليز، ما لو جمع بعضه إلى بعض لملأ خمسين خزانة».

وكذلك يعملون لإلغاء هذا الركن الإسلامي العظيم الذي هو حصن الأمة الإسلامية المكين.

(٦)
خطّة التوريط والإحباط

وربّما دسّ دُهاة المكر وأخباث شياطين الناس بين صفوف المسلمين المتحمّسين لإسلامهم مَنْ ينفخ في نار حماستهم ويؤجّجها، ويتظاهر منافقاً بالغَيْرة الشديدة على الإسلام والمسلمين، ويثير غضبهم، ويزيّن لهم ضرورة التحرّك السريع للقتال في سبيل الله، من أجل رفع طغيان قائم، وبَغْي جاثم، أو لإقامة حكم الإسلام في الأرض، ويزعم لهم أنّ أمر

القتال قد صار واجباً شرعيّاً وأمراً حتميّاً، ولو لم يكن لدى الثُّلّة المؤمنة المخلِصة إلّا القوة القليلة اليسيرة، التي لا تكفي في ميزان القوى السببية للتغلّب على خمسة في المئة من قوى الكفر الطاغية التي يريدون قتالها لإسقاطها.

ويندفع المتحمّسون للإسلام الغيورون عليه برعونة وقصر نظر، وغفلة عمّا يراد لهم، وهم يجهلون فقه الجهاد في سبيل الله بالقتال، ثمّ يتّخذون من بينهم رؤساء لا علم لهم بالدين، فيستفتونهم فيفتونهم بغير علم، ويتّهمون علماء الدين بالتخاذل وقصور الهمة، أو بممالأة أعداء دين الله ومصانعتهم، ويصدّرون أحكامهم على علماء الدين بصيغة تعميميّة ظالمة لمجرّد مخالفتهم لهم في الرأي.

ولا أبرّىء فئة العلماء بالدين، فقد يكون فيهم ـ أو فيمن يُشار إليه أنّه منهم ـ متخاذلون أو قاصرو الهمّة، أو ممالئون لذوي السلطان المحاربين للدين، فشأنهم كشأن كلّ فئة من الناس فيهم الصالح وغير الصالح، ولكنّ النقد والتلويم والتأثيم أمور لا يجوز أن تتجاوز حدودها، فيؤخذ المحسن بجريرة المسيء، ويُدان الصالح بجريرة الطالح.

والأصل حمل المسلم على براءة الذّمة وحُسْن النيّة وإن خالف في الرأي، ما لم تثبت إدانته، أو يظهر في أعماله أمارات قويّة تشير إليه بالإدانة، وتلصق به التهمة، وهذا في غير القضايا الشخصية التي هي من المعاصي بين العبد وربّه، ما لم يكن مجاهراً فيها.

ويوجّه هؤلاء المتحمّسون المخلصون ـ إن شاء الله ـ نقدهم الشديد للذين يُشارُ إليهم أنّهم من علماء الدين، ويحمّلونَهم إثمَ القعود عن الجهاد في سبيل الله بالقتال، ويجعلون من أنفسهم مفتين وقضاةً بغير إذن شرعي، فيفتون ضدّهم، ثمّ يحكمون عليهم بأحكام قضائية مستندة إلى فتاواهم، ثمّ يصدّقون هذه الأحكام من عند أنفسهم، ثم يُنَفِّذون هذه الأحكام، ويقولون: هذه أحكام الله.

والله عزّ وجل لم يأذن لهم بشيء من ذلك.

ويريد هؤلاء المتحمّسون الغيورون على الإسلام والمسلمين والمخلصون ـ إن شاء الله ـ ممّن يُقال: إنّه عالم بالدّين، أن يكون جنديّاً في القتال، وقائداً عسكريّاً، ومخطّطاً حربيّاً، وعبقريّاً سياسيّاً، وماهراً في أعمال التنظيم والإدارة، ومفكّراً بارعاً، ومجتهداً في استنباط أحكام الدين من مصادر التشريع، وأن يكون كلّ من تحتاج إليه الأمّة الإسلامية من كفاءات لاستعادة مجدها العظيم. هذا غلط فاحش، وفساد في الرأي.

ولا بدّ أن نلاحظ أيضاً أنّ معظم أذكياء أبناء المسلمين قد انصرفوا في العصور المتأخرة عن علوم الدين، واتّجهوا لعلوم الدنيا، وكثير منهم سار في ركاب أعداء الله، وبقي للعلوم الإسلامية قلّة قليلة جدّاً، لا يجوز عقلاً ولا واقعاً تكليفها فوق قدراتها، ولا دفعها للقيام بمهمّات لا تُحسنها، ولئن قامت بها أساءت وأضرّت، فالأمّة إنّما تتكامل بتوزيع الاختصاصات على وفق القدرات والكفايات.

ومن الغباء أن نطالب كلّ إنسان بأن يُحسن كلّ الاختصاصات مهما كان عبقريّاً وذا مواهب رفيعة، فكيف بأناس عاديين، تتفاوت نِسبُ كفاياتهم وقدراتهم، شأنهم في ذلك كشأن سائر الفئات من الناس، مع ملاحظة أنّ الأجيال الذكيّة موجهة بعوامل كثيرة للزهد في الدراسات الدينية، وحمل رسالة العلوم الإسلامية والدعوة إلى سبيل الله عزّ وجل.

وفي دوّامة هذه المفاهيم المختلطة التي التبس فيها الحقّ بالباطل، والمقترنة بالحماسة الصادقة، والانفعال الثائر، والأعصاب المتوتّرة، والغضب المهتاج، والطموح الأرعن، يتابع المحرّكون في الخفاء شياطين التوريط والإحباط أعمالَهم في مدّ اللّهب بالوقود، وقد لا يكون المحرّك الشيطان إلّا شخصاً واحداً ستر نفسه بأقنعة لا يعرفها ولا يكشفها إلّا شيطان مثله.

وهدف الخطّة الخبيثة تحريك الثلّة المتحمّسة الغيورة الضعيفة لممارسة

أعمال القتال برعونة ضدّ قوّةٍ كبيرة لا قِبَلَ لهم بها إلاّ بمعجزات خوارق. وتزيّن الخطّة لهؤلاء المتحمّسين الثائرين أنّهم مطالبون شرعاً بالقتال، وليسوا مسؤولين عن النظر إلى ميزان القوى السببيّة ولا عن النتائج، ويندفع المغرورون فيخلطون في عرض الأدلّة لما زُيّن لهم بين الحقّ والباطل، وتلتبس عليهم الأمور، ويحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً.

والغاية الأخيرة التي يهدف إليها شياطين المكر توريط الثلّة المؤمنة المتحمّسة بتحرّكات قتالية تنتهي بالهزائم والنكبات للمسلمين، واتخاذُها قوّة جذبٍ تشدُّ إلى فلكها أشباهَها ونظائرها من الأغرار الطموحين، وقذفُهم على دفعات في أتون الورطات التي تنتهي بالهزائم والنكبات، ومع كلّ نكبة إحباط جزئي للهدف الكامن في ضمير الأمّة ووجدانها العميق.

وبتكرار التوريط وحلول النكبات، وإصابة النفوس بالإحباطات الجزئية، تتراكم الإحباطات، حتى تصل النفوس إلى مرحلة اليأس الكامل، أو الشكّ في دين الله، ما لم يقم أهل العقل والإيمان باستدراك الأمر، وكشف الأسباب الحقيقية للهزائم، وإبراز مواطن الخطأ والصواب.

وحين تَصِل جماهير المسلمين في شعورها العامّ أو الغالب إلى مرحلة اليأس من تحقيق الهدف الكامن في ضميرها، يرى شياطين المكر بالإسلام والمسلمين أنّهم قد وصلوا فعلاً إلى عزل ركن الجهاد في سبيل الله عن أفكار المسلمين ونفوسهم إلى أجل بعيد، مع فتنة كثير من أبناء المسلمين عن دينهم، إذْ كانوا يرون أنّ الله سينصرهم بالمعجزات والخوارق، ويظنون أنّ ذلك وعدٌ قطعه الله على نفسه في كلّ الأحوال، ولا يرون لهذا الوعد من الشروط إلاّ شرط نهوض الثلّة المؤمنة لنصرة دين الله بالقتال.

وهذا كما عرفنا من بحوث هذه البصائر جهل بالدين، وسوء فهم لنصوصه.

ومن المؤسف جدّاً أنّ هذا الجهل المؤيّد بفتاوى فئات تصدّت للقيام

بحركة إسلامية قتالية، قد أخذ طابع قضية إسلامية مقرّرة، فحين لا يتحقق في نظر الأتباع ما كان قد قيل لهم فآمنوا به، يعودون على الدين كلّه فيكذّبون به، ويغفلون عن تصحيح أخطائهم وأخطاء قادتهم.

وقد يصعب على القادة والأتباع اتهّام أنفسهم بأنهم كانوا مسيئين في فهم الدين، أو الاعتراف بذلك، وإعلانهم الرجوع إلى الحقّ.

وممّا لا شكّ فيه أنّ مصيبة الأمّة في فتنتها عن دينها أكبر من كلّ مصائب الهزائم والنّكبات.

ويكفّر عن كلّ ذلك التوبة، والاعتراف بالخطأ، وإعلان الرجوع إلى الصواب، ومن كان جاهلاً فعليه أن يرجع إلى أهل الذِّكْر، وأهل الاستنباط.

* * *

الفصل الرابع

توجيه حول قضيتنا الفلسطينية المعاصرة

إنّ عدوّنا لخطير جدّاً، فوق ما يتصوّر كلّ المتفائلين، الذين يُلقون تبعة نكبتنا به على تأييد دولٍ كبرى له، فيستهينون به، ويوجّهون أنظارهم لغيره.

إنهّم كالذي يحاول تدمير المدفع الذي تأتيه من قبله الطلقات، وينسىٰ مستخدم المدفع، المستخفي وراءه، وعنده بعد تدمير كلّ مدفعٍ يستخدمه مدفع خَلَفٌ له، وبعد تعطيل أثرِ كلِّ قذيفة يطلقها قذيفة بديلٌ لها.

إنّ عدوّنا هو شيطان الإنس الأكبر الخبيث الفطن اليقظ، المتحرّك العامل في كلّ موقع.

إنّه خطير جدّاً، لا يستهين به ويهوّن من شأنه إلاّ جاهل به وبمكايده، أو غبيٌّ لا يعرف ولا يدرك قيم القوى الخفية، أو أجير من أجرائه.

إنّه يستخدم كلّ حيل الذكاء، وكلّ وسائل الرذائل، وليس له مبدأ خلقيّ يمكن أن يكون قاعدة للتعامل معه عليها.

إنّه قادر على أن ينقض كل عهد، ويخفر كلّ ذمّة، ويكذب في كلّ قضية، ويخادع في كلّ قول وعمل، ليحقق أهدافه ويصل إلى غايته.

إنّه لينّ الملمس مسكين متلوّن بلون الجوّ الذي يكون فيه إذا ضعف، وهو خشن فظّ غليظ قاسي القلب جبّار ظالم فتاك إذا استعلىٰ.

إنّه استطاع بمكره وكَيْده وخبثه وحيلته أن يكون هو الحكومة الخفيّة في العالم، وأن يوجّه السياسات كلّها وفق مصلحته الخاصة، ويستثمرها لتحقيق أهدافه. واستطاع بمؤامراته الشيطانية ذاتِ الأسباب الكثيرة المتنوعة والمتضادّة في أشكالها الظاهرة أن يتربّع على هامة أعظم القوى المسلّحة في الشرق، وأن يقبض على نواصي أعظم القوى المسلحة في الغرب.

في الدكتاتوريات هو الدكتاتور المستبدّ، أو الراكب على أكتاف الدكتاتور المستبدّ.

وفي الديمقراطيات هو شيطان الجماهير، وموجّهها، والمستغلّ لها، ومستثمر عواطفها وانفعالاتها وغفلاتها ومعظم أصوات ناخبيها.

وفي الرأسماليات هو الرأسمالي الأكبر، وواضع نظريّاتها، وموجّه معظم مؤسّساتها، وصاحب حصّة المرابي فيها جميعاً، والشريكُ الذي يأكل من الربح ورأس المال، ولا يتحمّل من الخسارة شيئاً.

وفي الاشتراكيات هو الاشتراكيّ الأكبر، وواضع نظرياتها، ومنظم منظماتها، ومؤسساتها، وموجّهها وممّولها ومحرّكها.

وفي الشيوعيّة هو الشيوعيّ الأكبر، وواضع نظرياتها وفلسفاتها، ومحدّد مفاهيمها، ومنظِّم منظماتها، وباني مؤسساتها، وموجهها وممّولها ومحرّكها، والمتربّع على هامتها.

إنّ عدوّنا الخبيث الفطن اليقظ، والمتمسكن الجشع، استطاع أن يكون مدير المال في العالم، وآكل حصة الأسد منه.

واستطاع أن يكون مدير الإعلام في العالم، والموجّه لدفته، والمستثمر له، وأن يكون مدير الفنون في العالم على اختلافها، والموجّه لها وفق خططه المدمّرة للشعوب، وأن يكون قمّة المنظمات ذاتِ المحافل أو النوادي أو المجامع العالمية، كالماسونية، والروتاري، والليونز.

واستطاع أن يكون مصدّر المبادىء والمذاهب الفكرية الفلسفية، والاجتماعية، والنفسية، والاقتصادية، والسياسية، الإلحادية الهدّامَةِ المدمّرة للشعوب.

واستطاع أن يكون المندسّ المنافق في المجتمعات المعادية له بطبيعة مفاهيمها وعقائدها وتاريخها، وأن يكون العابث فيها تحريفاً وتجسّساً، وإفسادَ مخططات، واسترضاءَ قيادات وزعامات، وتوجيهَها لما يحقّق أهدافه ومخططاته السرّيّة.

إنّ الذين يتقنون تبعيّتهم أو عمالتهم للشرق الشيوعي يجدون أنفسهم بعد حين يتحرّكون بتوجيه هذا العدوّ الخبيث الشيطان، ثم يجدون أنفسهم بين فكّي فخٍّ من فخاخه.

وإنّ الذين يتقنون تبعيّتهم أو عمالتهم للغرب يجدون أنفسهم بعد حين أنهم كانوا عملاء في الحقيقة لهذا العدوّ الخبيث الشيطان، وأنهم بين فكي فخٍّ من فخاخه.

هذا موجز صفات عدوّنا الخطير، شيطان الإنس الأكبر، الخبيث الفطن اليقظ، والمتحرّك العامل في كلّ موقع.

* * *

ومع ذلك فإنّ عدوّنا الخطير هذا أهون مما يتصوّر كلّ المتشائمين المذعورين الانهزاميين. إنّ الانتصار عليه ولو طال الزمن لا يتطلّب أكثر من أن نستخدم بصدق وإخلاص سلاحاً واحداً فقط، وهذا السلاح هو الذي يمكّننا من كلّ الأسلحة الأخرى، ويجعلها بأيدينا، وييسّر سبُلنا إليها، حتى الأسلحة الذرّية الفتاكة، إنّه السلاح الذي استخدمه رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ وأصحابُه من بعده، إنّه سلاح الإيمان الصادق بالله، والعملِ بالإسلام، والتزام هَدْي القرآن، والسير على منهج الرسول ﷺ في السِّلْم والإعداد والحرب.

١ ـ إنّ العلمانية التي يأخذ بها فريق من أبناء المسلمين سلاح خُلَّبيٌّ يجرّ من خيبة إلى خيبة، ومن نكسة إلى نكسة، ومن نكبة إلى نكبة، لأنّ عدونا هو الموجّه لهذا السلاح ضمناً، فهو لا يحرّكه ضدّ نفسه، إنّما يحرّكه حينما نستعمله ضدّ أنفسنا، ولو خدعنا فترة من الزمن بانتصارات وهميّةٍ عن طريقه.

لقد جرّبت تركيّا ذاتُ المجد العظيم الذي كان يرهب الشرق والغرب سلاح العلمانية، فحطّم علمانيوها به الخلافة الإسلامية، وقطعوا به وشائجهم بالإسلام والمسلمين، ومرّت قرابةُ ثلثي قرن فلم ينفعهم سلاح العلمانية بأي تقدّم حضاري أو صناعي. ولو أنّ القيادات التركية استبقت سلاح محمد بن عبد الله ﷺ وحافظت عليه، وسارت على منهجه، واستبرأ الأتراك من الانحرافات التي دخلت فيهم عن طريق المندسّين وأصحاب الأهواء، لكانوا اليوم هم الدولة العظمى في العالم مع سائر المسلمين.

٢ ـ وإنّ القومية التي فُتن بها فريق من أبناء المسلمين سلاحُ خلّبيٌّ وهمي، يجرّنا من خيبة إلى خيبة، ومن نكسة إلى نكسة، ومن هزيمة إلى هزيمة.

وقد جرّب العرب والترك هذا السلاح فلم ينفعهم بشيء، ولم يمنحهم غير الهزائم المتلاحقات، والنكبات المتتاليات. وطبيعيٌّ أن يقدِّم هذا السلاح هذه النتائج، لأنّ عدوّنا هو الموجه والمحرّك له ضمناً، فهو لا يحرّكه ضدّ نفسه، إنما يحرّكه حينما نستعمله ضدّ أنفسنا، وحينما يضرب به بعضنا بعضاً.

لقد أعلن سلاح القوميّة أن طريقه إلى تحرير فلسطين هو تحرير البلاد العربية ثم الإسلامية من الإسلام، ومن سائر ما أُطلق عليه اسمَ الرّجعيات.

فماذا جنى علينا هذا السلاح ذُو الأثر العكسي؟.

لقد جنى الفرقة، والصراعات الداخليّة، والعداوةَ والبغضاء بين فصائل شعبنا، وبين شعوب أمتنا الكبرى، وصنع لنا الهزائم، وأنزل بنا النكبات، ومكّن أعداءنا من رقابنا، وجعل أعداءَ الإسلام هم القابضين على نواصي كثير من شعوبنا، وهم الذين يديرون أمورَ سِلْمِنا وأمورَ حربنا.

٣ ـ وإنّ الاشتراكية أو الشيوعية سلاحٌ خلّبيٌّ، كثير الزخرف، عظيم الزَّيْف، ذو أثر عكسي.

ولا يمكن أن يجرّنا هذا السلاح إلّا إلى هزائم ونكساتٍ ونكبات، لأنّ عدوّنا الشيطان هو القابع داخل غرفة عمليات هذا السلاح، وهو الموجّه له والمحرّك له ضمناً، فهو لا يحرّكه ضدّ نفسه، أو ضدّ مخططاته، وقد يخدعنا لنكتسب الثقة به، فيمكّننا من بعض انتصاراتٍ جزئيّة وهميّة، أو من حيازة بعض أثقال قوة عسكرية، لكنْ إذا جدّ الجدّ وحَزَب الأمر وجدنا أنفسنا بين فكّي فخّ صنعناه بأيدينا، نتلوّىٰ من الألم، ونتلاوم فيما بيننا، ويضرب بعضنا بعضاً، ويتساقط قتلانا شهداء الزيف الاشتراكيّ أو الشيوعي، الذي لم نجنِ منه مجداً دنيويّاً ولا ظفراً، وإنما جنينا منه هزائم وخسائر، وانحساراتٍ عن مواقع كانت لنا، فأمست تحت سلطان عدوّنا. أمّا عند الله فالخسارة أعظم، والخزي أكبر، ولعذاب الآخرة أشدّ.

لقد أعلن سلاح الاشتراكية أنه يريد تحرير فلسطين عن طريق تحرير الجزيرة العربية وسائر البلدان العربية من الرجعيّة الإسلامية، ومن قيم الإسلام البالية. فماذا جرّ لنا هذا السلاح الخائن الأحمق غير الهزائم، وماذا وضع على رؤوسنا وظهورنا غير النكبات وغير الخزي والعار.

ماذا فعل لنا سلاح الاشتراكية في حروبنا مع إسرائيل؟! إنّه كَمَثَل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلمّا كفر قال إنّي بريء منك. لّما جدّ الجدّ وحزب الأمر انحاز سلاح الاشتراكيّة إلى عدوّنا الصهيوني يحميه ويؤمنه، ويخدعنا لتقع أسلحتنا التي اشتريناها منه بما اقتطعناه من العيش الضروري

لأمتنا غنيمة في يد عدوّنا بشحمها ولحمها، وما حرب الأيام الستة عنّا ببعيدة.

٤ ـ وكذلك الاستغراب والتبعيّات لزخرف الإباحيّة الغربيّة، التي تتلاطم فيها أمواج الحريّات الشخصية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسيّة، بأبنيتها القائمة على أوهام فلسفات مزخرفة بالأباطيل، وحيلِ الأصباغ والأصوات والصور، بعد أن انهارت لديها قواعد العقائد الرّبانية والقيم الأخلاقية الصحيحة.

إنّ هذا الاستغراب سلاح خُلَّبِيٌّ ذُو أثرٍ عكسيّ أيضاً، ولا يمكن أن يجرّ إلّا إلى هزائم وانتكاساتٍ وتبعياتٍ ذليلة حقيرة.

وعلينا أن نكون على يقين بأن عدوّنا الشيطان هو القابع داخل غرفة عمليات هذا السلاح، فهو الموجّه والمحرّك له ضمناً، وهو لا يحرّكه ضدّ نفسه أو ضدّ مخططاته، وقد يخدعنا حيناً من الزمن ببعض الظواهر الأوّلية لنكتسب الثقة به، فإذا جدّ الجدّ وحَزَب الأمر وجدنا هذا السلاح موجَّهاً ضدَّنا، يقاتل به بعضنا بعضاً، ويدمّر به بعضنا بعضاً. وعدُوّنا هو الغانم لأسلاب المتقاتلين منا، بعد أن كان هو الرابح في صفقات الأعتدة العسكرية التي اشتريناها.

ربّما كان عدوّنا هو بائع العتاد، والموجّه له، وكم وجدنا أنفسنا نوجّهه لمقاتلنا، فنقتل به أنفسنا، ونخرّب به بيوتنا بأيدينا، ونحسب أننا نحسن صنعاً، ويفخر حمقى كلّ فريق منّا بانتصاراته على الفريق الآخر، والعدوّ على منصّة المتفرجين يضحك، ويشجع كلّ فريق على نِدّهِ، وبين يديه الأزرار السرّية اللاسلكية، يوجّه عن طريقها سَيْر المعركة على ما يريد، ووفق الخطط التي كان قد رسمها من قبل، ويتابع فيها بذكاء خبيث حادّ لعبة التوجيه الشيطاني، ليضمن لنفسه أفضل النتائج بأقل التكاليف، وأقل نسبة من الخسائر.

وقد جرّبنا سلاح التبعيّة للغرب، فلم يصنع لنا إلّا الهزائم والنكبات

والانتكاسات مُحلَّاةً بقشُور الحضارة الغربية، ويوسوس لنا هذا السلاح الخلبيّ بأن نبذل كلّ جهودنا وأموالنا لتحرير البلاد الإسلامية من الإسلام ومبادئه وتعاليمه ونظمه، قبل أن نفكّر بتحرير فلسطين من اليهود.

٥ ـ أمّا سلاح محمد بن عبدالله إذا تسلّحنا به، وكنّا على يقظة تامّة، فمنعنا المنافقين من الأعداء أو أجرائهم من أن يندسّوا فيه، أو من أن يتوصّلوا إلى مراكز التوجيه أو التأثير على ذوي التوجيه فيه، فهو السلاح الوحيد الذي يضمن لنا النصر المحقق بإذن الله، ويحقق لنا السَّبْق الماديّ والمعنويّ والحضاريّ.

وهذا هو السلاح الوحيد الذي تعزف جماهيرنا ـ مع الأسف ـ عن التسلّح به واستخدامه، وتعمل قوى الشرق والغرب متكاتفة على إبعادنا عن استخدامه، وإبادة أنصاره، وتحطيم دعاته، أو تمزيقهم، أو إسكاتهم وقطع ألسنتهم بشراء ضمائرهم، أو استغلال نقاط الضعف فيهم.

وهذا السلاح هو السلاح الوحيد الذي جاء وعد الرسول ﷺ بانتصار حملته على يهود. روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبىء اليهوديّ من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجرُ والشجرُ: يا مسلمُ، يا عبدالله، هذا يهوديّ خلفي، فتعالَ فاقتله، إلّا الغرقد فإنّه من شجر اليهود».

فلنرتقب النصر على اليهود في فلسطين، وعلى الحكومة الخفية التي تحكم العالم من وراء ستار (وهي حكومة أحبار يهود) إذا تسلّحنا بهذا السلاح صادقين مخلصين، وحتى ذلك الحين علينا أن نذوق آلام ما تجنيه أنفسنا، وعلينا أن نرتقب تلاحق النكبات والهزائم، فالأسلحة التي نستخدمها، كلٌّ منها له فوهتان: فوهة خلبيّة موجّهة شطر عدوّنا، وفوهة حقيقيّة قاتلة موجّهة ضدّ أنفسنا ومبادئنا وشعوبنا وأرضنا وعرضنا وذاتيّتنا

وكياننا كلّه، وكلُّ ضربة نضربها فيها تدفع صوتاً ضدّ العدوّ، وتـدفع رصاصة ضدّ صدورنا.

ويقول بعض الحمقى: إذا كان هذا السلاح قد قتل منّا هذا العدد الكبير حينما ضربْنَا به، دون أن يحدث ضدنا صوتاً مخيفاً لنا، فكم قتل من عدوّنا مع هذا الصوت الهائل الذي أطلقه وهو متوجه شطره؟.

* * *

ليست أثقال القوى العسكرية ولا القنابل الذرّية هي أخطر أسلحة عدوّنا الشيطان. بل أخطر أسلحته وأمضاها وأفعلها في الشعوب ما أعلنته قيادته الخفيّة، في مقرّراتهم السرّية.

إنّ أخطر أسلحته زيوف الأفكار التي تسوق المؤمنين بها وتقودُهم إلى الدَّمار، وإطلاقُ الأهواءِ والغرائز والشهوات والأنانيات الفردية والحزبيّة والقوميّة والعنصريّة والطائفيّة، على رعوناتها، وأطماعها، وشرهها، ونهمها، وشبقها، بعد تحطيم قواعد الإيمان بالله، وتحطيم أبنية الأخلاق الفردية والاجتماعية، وتحطيم النظم الإداريّة القادرة بجذورها الأخلاقية على أن تجمع الجماهير وتجعل لها كياناً ذا قوة.

إنّ زيوفَ الأفكار إذا استحكمت وانطلقت معها الأهواء والغرائز والشهوات والأنانيّات على رعوناتها، أخذت تعبث بكل القيَم، وتدمّر مؤسساتها، وتستخفّ بالفضائل، وتتصادم وتتصارع فيما بينها بالعداوة والبغضاء والتحاسد، ثم تتقاتل فيما بينها بكلّ شراسة، ثمّ يفتك بعضها ببعض، ثمّ يدمّر بعضها بعضاً، ثمّ تخرّب مُدُنها ومصانعها وبيوتها بأيديها، ثمّ ما يتبقّىٰ لديها تبيده أو تستولي عليه قوى العدوّ الشيطان التي ظلّت في مخابئها آمنةً سليمة، ترقب الشوط الأخير للتصفية، حتى تنقضّ وهي في عنفوان قوتها، فتستحوذ على ما تبقّىٰ أسلاباً وغنائم.

هذه هي أخطر أسلحة عدوّنا الشيطان الأكبر شيطان الإنس، الذي

نستعيذ بالله منه ومن جنوده ونظرائه حين نتلو قول الله تعالى: ﴿قل: أعوذ بربِّ الناس. ملكِ الناس. إلَهِ الناس. من شرّ الوسواس الخنّاس. الذي يوسوس في صدور الناس. من الجنّة والنَّاس﴾.

إنّ هدفه الذي يرى أنه سيمكّنه من السيطرة على العالم سيطرة كاملة علنية، أن ينسف قوى الأفراد والشعوب غير اليهودية من جذورها.

وبالتحليل الفكري والعلميّ التجريبي يظهر لكل ذي عقل ورشد، أنّ القوة الحقيقية للأفراد والشعوب، ترجعُ إلى ثلاثة جذورٍ رئيسية:

الجذر الأوّل: الإيمان بالحقيقة الكبرى للوجود، نشأةً، وغايةً، ومصيراً.

وهذه الحقيقة لا توجد كاملة خاليةً من الشوائب، صافيةً من الأكدار، إلّا في قواعد الإيمان وأركانه التي جاء بها الإسلام.

ومع وجودها ناقصة مشوّهة ممزوجة بالانحرافات والشوائب من الباطل، لدى أتباع ديانات ربانيّة محرّفة، فإنّ لها فيهم قوّةً ما ناقصة بمقدار ما دخل فيها من شوائب وتحريفات.

ولذلك تعمل أجهزة المكر للشيطان الأكبر شيطان الإنس على نسفها، لتحرم هؤلاء الأتباع من القوى النسبيّة التي تمنحهم إياها بقايا عقائد الإيمان المشوّهة المحرّفة.

أمّا الهمّ الأكبر للعدوّ فهو نسف الإيمان الذي جاء به الإسلام من جذوره.

وزيوف الأفكار والمذاهب الفلسفيّة والنفسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة تجعل أوّل مقرراتها محاربة الإيمان بخالق مدبّر يحاسب ويجازي، ونشرَ الإلحاد بالله، وإقامة المجتمعات على أساس الفكر المادّي الذي يجحد بالله، وينكر كلّ الغيبيات النابعة من قاعدة الإيمان بالله

الخالق الرازق المهيمن المحيي المميت المحاسب المجازي.

الجذر الثاني: الأخلاق الفردية والاجتماعية القائمة على ابتغاء مرضاة الله وثوابه، أو على أسس الحقّ والخير والجمال.

وابتغاء مرضاة الله وثوابه يجعل المسلم العامل بشرائع الإسلام يلتزم حتمًا بالأخلاق القائمة على أسس الحقّ والخير والجمال، بصورتها الكاملة المثلى.

والمتخلّقون بالأخلاق الإسلامية الذين يبتغون بها رضوان الله تعالى يملكون أكبر نسبة من القوة المعنوية الفردية والاجتماعية الغالبة لسائر القوى الإنسانية المعنوية.

وآخرون يلتزمون بمكارم أخلاق مطابقة لما جاء به الإسلام، أو سائرة في طريقها مع نقص في نسبتها، أو انحراف في بعضها، يملكون من القوة المعنوية بمقدار ما لديهم من قيم خلقية صحيحة.

ولذلك تعمل أجهزة المكر للشيطان الأكبر شيطان الإنس على نسف فضائل الأخلاق ومكارم الشِّيَم من جذورها الفكرية والنفسية، إلى تطبيقاتها في السلوك.

وتتولى زيوف الأفكار والمذاهب الفلسفية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية هَدْمَ جذور الأخلاق الفكريّة والنفسيّة، بما تصدّره من أفكارِ نسبيّة الأخلاق، أو أخلاق القوة، أو أخلاق المنفعة، أو اتهامِ الأخلاق بأنها من مفرزات البورجوازية، أو الإقطاعية، أو الرأسمالية، أو الامبريالية، أو الرجعية، لخدمة مصالحها الطبقيّة، إلى غير ذلك من اتهامات تُصدَّر بصيغة شتائم، دون تحليل علمي منطقي، أو براهين فكرية، أو أدلّة تجريبية واقعية.

وتتولى هدم تطبيقات فضائل الأخلاق وسائلُ الغمس في الممارسات غير الأخلاقية، عن طريق المرأة، والخَمْرة، والقمار، والمخدّرات، والمال،

ورغبات التكاثر والتفاخر والمباهاة، ورغبات التسلّط والوصول إلى الحكم، واللّهو واللعب والترف، واسترضاء الأهواء والشهوات، وإثارة الأنانيّات والنعرات القوميّة والعنصريّة والطائفيّة، وإشعال نيران التحاسد والتباغض والتنافر، وغرس بزور الأحقاد والضغائن.

وتتولى وسائل المكر الخفي شراء الضمائر بشيء مما يرضي النفوس التي ضعفت لديها قواعد الإيمان، وجذور الأخلاق، فيمسي أصحابها أتباعاً أو أجراء لمن اشتراها أو استأجرها.

الجذر الثالث: النظُم الإدارية القائمة على جذور أخلاقية ترمي إلى رعاية مصالح الأفراد والجماعات.

أمّا النظم الإدارية القائمة على الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، فهي العدوّ الأعظم لعدوّنا الشيطان الأكبر شيطان الإنس، ولسائر المخالفين المنتشرين في طول الأرض وعرضها.

لذلك فهم يسعَون متَّفقين لمنع قيام حكم إسلامي صحيح سليم، ولتحطيمه إن وجدت بوادره، والمكر به من كلّ جانب.

وأمّا النظم الإداريّة الأخرى التي لها جذور ما أخلاقيّة، وتسعى بنسبةٍ ما لإسعاد شعوبها، فالحكومة الخفية في العالم، التي يديرها شيطان الإنس الأكبر، تسعى للقبض على نواصيها، وهزّ كيانها من الداخل، حتى تضعف وتتداعى، ثم تَسقُط سقوطاً كليّاً في أيديها.

وهذَا ما يحلُم به يهود لحكم العالم أجمع حكمًا سافراً.

* * *

إنَّ الالحاد، أو العلمانية، أو الاشتراكيّة، أو الشيوعيّة، أو القوميّة، أو العنصريّة، أو الرأسماليّة، أو الرادكاليّة، أو الوجوديّة، أو التبعيّة العمياء للغرب أو للشرق، ستجعل ظهورنا مطايا لمحتلي فلسطين ولليهودية العالمية، بعد أن تكون مطايا للصليبية أو للإلحاد، أو لغير ذلك من قادة

زيوف الأفكار والمذاهب في العالم، ثم ستدفع بنا هذه الزيوف الفكرية والمذهبية إلى حضيض المذلَّة والمهانة والعبودية والتمزق، وستضرب بعضنا ببعض والعدوّ يتفرّج علينا ضاحكاً، ساخراً منا، هازئاً بنا، فرحاً بانتصار مخططاته ومؤامراته، يرقب الساعة التي يحلُّ بنا فيها الدمار الماحق.

ومن وراء ذلك أيضاً مَقْتُ الله وسَخَطه وعذابه الأليم يوم الدين.

أمّا إذا استرجعنا إسلامنا عقيدةً وشريعة ونظاماً وحكمًا، فإننا سنجد حينئذٍ عدوّنا مذعوراً يرجفُ فؤاده، ويخشى سَطْوة: «وقل جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً».

إنّ الباطل يكون زهوقاً إذا جاء الحقُّ، أمّا إذا أصررنا على التزام مناهج الباطل، فالباطل الأقوى سلاحاً والأكثر كَيْداً ومكراً هو المنتصر لا محالة على الأضعف سلاحاً، والأقلّ كيداً ومكراً، والمتفرّق المتنازع.

إنّ عدوّنا يعلم أكثر من كثير من شعوبنا وقياداتنا حقيقة قوّة الإسلام، لو أخذ المسلمون به، لذلك فهو يرى أنّ سلاحه الأكبر ضدّنا هو أن يصرفنا عن الإسلام.

ولنرجع إلى التاريخ لنأخذ منه الشواهد والعِبَر، نحن قد فتحنا بالإسلام فلسطين، وطردنا الغاصبين، وفتحنا بالإسلام الأندلس، وأقمنا فيها حضارة رائدة أفاد منها الغرب، وأقام على مثل أسسها الحضارية المادّية حضارته التي برزت منجزاتها الكبرى في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. ونحن بترك الإسلام استطعنا أن ننحسر عن الأندلس انحساراً كلّيّاً، وبجدارة أهل الخيبة والخذلان. ونحن بترك الإسلام استطعنا أن نتعادى ونتحاسد ونتجزّأ، ونهدم الخلافة الإسلامية، ونرضى بالجهل والذلّة والمهانة، ونتقاتل، ويكون منّا الأجراء والخائنون، ثمّ استطعنا بجدارة أهل الخيبة والخذلان والفسق والعصيان أن ننهزم في فلسطين، ونسلّمها لليهود.

وجدير بالنكبات أن تتلاحق ما لم نراجع ديننا، ونستمسك بكتاب

ربّنا، وبسنّة نبينا ﷺ، وما لم نقم نظم مجتمعاتنا على أساس أحكام الله وشريعته لعباده، وما لم ننبذ زيوف الأفكار وانحرافات السلوك التي سيطرت على معظم أبناء شعوبنا التي تنتسب إلى الإسلام.

* * *

لنكن على يقين بأنّه لا سبيل لنا إلى تحرير فلسطين إلاّ الجهاد في سبيل الله، بعد اتخاذ الوسائل لهذا الجهاد، وأوّل وسائله التزام منهج محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام.

ومنهجه يتلخص بصدق الإيمان، وصحة النية، وصدق العزيمة، وتطبيق الإسلام، وإعداد المستطاع من القوة إلى حدّ السبق والتفوّق العسكري، أو التكافؤ، وحين تكون الاستطاعة الحقيقية أقلّ من ذلك فإنّ الله عزّ وجل يُمدّنا من لدنه بما يحقّق لنا السَّبْق والتفوّق، ثم النصر المؤزر.

وجنود الله المادّية والمعنوية لا يعلمها على وجه الإحاطة إلاّ هو، ومن جنوده تبارك وتعالى إلقاء الرعب في قلوب الأعداء «وما النصر إلاّ من عند الله».

ولنكن على يقين أيضاً بأنّ القتال مع العدوّ قضية حتمية لا مناص منها. إنّ مطامع عدوّنا لا تنتهي عند حدّ، وتوقفه عندما يسمّيه بالحدود الآمنة توقُّف مرحلّي فقط، فكلّما وجد نفسه قادراً على استيعاب توسُّعات جديدة اصطنع ألف علة، واعتذر بألف عذر لذلك، وسيأمر بعض عملائه من داخل صفوفنا بالقيام بأعمال استفزازيّة ذاتِ مظاهر بطولية خادعة لبعض جماهيرنا، ليتخذ هذه الأعمال إحدى المبرّرات لقيامه بمباغتات جديدة، يضم فيها مساحات جديدة من الأرض إلى ما كان قد احتلّه من قبل، وأقام عليه مستعمراته المحصَّنة، ويضع دول العالم وهيئة الأمم المتحدة تحت الأمر الواقع، الذي يأخذ مبرّر وجوده من استمراره بسلطان القوة.

وسينقل نظرية الحدود الآمنة إلى مواقع جديدة، وهكذا دواليك،

حتى يحقق حلمه من الفرات إلى النيل أوّلاً، ثم إلى منابع البترول، ثم إلى أوروبا، ثم إلى حكم العالم حكمًا سافراً مباشراً.

فالإعداد الإسلامي لحرب أو حروب قادمة مع هذا العدوّ الخطير، وترقُّبُ هذه الحروب باستمرار أمرٌ لا مندوحة عنه، وقضيةٌ يراها العاقل ببصيرته كما لو كان يراها رؤيا العين ببصره.

والإعداد الإسلامي لحرب أو حروب قادمة لا يكفي فيه شراء الأسلحة وتكديسها من هنا وهناك.

إنّ هذا الإعداد يوجب علينا إعداد الأمّة المسلمة المقاتلة، هذه أولى قضايا الإعداد، وهي تتضمن تدريب المسلم الملتزم بإسلامه على كلّ فنون القتال، وعلى كلّ أسلحته، مع المتابعة المستمرّة لحركة التطوّر في السلاح، ويجب في هذا الإعداد غربلة صفوفنا الداخليّة، وإبعاد من لا يؤمن بقضية الإسلام عن «مِلاكِ» الإعداد، حتى لا يكوِّن في يوم من الأيّام وإن طال الزمن «طابوراً» يعمل داخل صفوفنا لصالح عدوّنا بوجهه المنافق المخادع الكالح.

ثم إنّ هذا الإعداد يوجب علينا بناء مصانع الأسلحة المتطوِّرة داخل بلدانا، مع مسيرة النهضة الصناعية العامّة التي تبني للسلم وللحياة الآمنة المطمئنّة السعيدة، وعلينا في هذا أن نتابع كلّ مبتكر جديد، خفّ وزنه وعظم فعله، وكان إرهابه للعدوّ أشدّ، فربّ سلاح خفيف يحمله ويستعمله جندي واحد، هو أشدّ نِكاية بالعدوّ وتدميراً لآلياته الكبرى من كتلة حديدية عملاقة قيمتها عشرات الملايين، ومديرو حركتها والعاملون فيها عدد من القادة والجنود، لم يحسنوا استعمالها حتى تدربوا عليها مدّة طويلة، وأُنْفِقت عليهم من أجل ذلك أموال طائلة. ولا غروَ أنّ صنع السلاح الذري للارهاب به يجب أن يكون جزءاً من خطة تصنيع السلاح، فالسلاح الذري عند العدوّ لا يرهبه إلّا سلاح ذريٌّ مكافىء.

ولا يدخل في الاعداد المطلوب إعداد العنتريات الفارغة التي تتحكَّم بها أهواؤها وشهواتها، وبرعونةٍ تجرح العدوّ فتستثيره لِيَقْتُلَ، ثمّ تجدُ نفسها غير قادرة على النكاية الفعلية بالعدوّ، فتحاول أن تحقق ذاتها وتبرّر وجودها بصور شتىّ من التسلّط داخل شعوبها على العزّل والآمنين، وتقودها الأوهام إلى استخدام ما في أيديها من أسلحة وما حصلت عليه من تسلّط في انتهـاب اللذّات المحرّمـة، والانغماس في الشهـوات المحظورة، وسلب الأموال لمصالح أهوائها الخاصّة، بحيلةِ أنهّا في خطّ النار لحماية البلاد من العدوّ، والقيام بالكفاح المسلح ضدّه بغية تحرير البلاد منه. إنّ إعداد هذه العنتريات الفارغة لأمرٌ خارجٌ عن خطة الإعداد الإسلامي، إنّه مناسبة ملائمة لاعداد قُطّاع الطرق الذين يحاربون الله ورسوله ويعيثون في الأرض فساداً، وهؤلاء يعطون أثراً عكسيّاً، ومبرّراً لإلغاء أصل فكرة الكفـاح المسلَّح، ويجعل من كان يبذل بالأمس لهم يبذل اليوم للتخلّص منهم.

* * *

إنّ السِّلْم مع هذا العدوّ بالذات معناه الاستسلام والخنوع من طرف واحدٍ فقط، هو طرفنا نحن، أمّا هو فلا يؤمن بقضية السِّلْم أبداً، وإن خادع بالدعاية له، وحرّض دولاً كبرى على الدعوة إليه، إنّ شعارات السِّلْم بالنسبة إليه شعاراتُ نفاقٍ فقط، وذلك لأنّ آماله المكتومة، ومطامعه الخفيّة، ومطالبه المتجدِّدة لا تتحقق إلّا بالخديعة، ومتابعة تفوّقه العسكري باستمرار، ثم بالحرب كلّما اطمأنّ إلى أنّه هو المرشّح للانتصار والظفر.

فالحذرَ الحذرَ من أن نسقط في خديعة دعوة السِّلْم، بعد أن سقطنا حيناً من الدهر في خديعة القوميّة، وخديعة الاشتراكية، وخديعة العلمانية، وخديعة الإلحاد، وخديعة التحرّر من القيم البالية، وخديعة التبعيّة للغرب الصليبي الموجّه، وخديعة التبعيّة للشرق الشيوعي، أو الثقة به، وسقطنا في خديعة الحروب التي جرّتنا إليها زيوف شتىّ، لنذوق آلام الخيبة بعد

الخيبة، والنكسة بعد النكسة، والهزيمة بعد الهزيمة، فنصل إلى مرحلة اليأس فالاستسلام.

وفي تقديري أنّ ذلك قد كان خطّة مرسومة، سار فيها عملاء، ومتعاطفون معهم، ومغرورون مهووسون جاهلون بسنن الاجتماع البشري التي دلّت عليها أحداث التاريخ، ومغفّلون كثيرون، وأهل بصيرة لا يملكون إلّا المسايرة والتأييد، وإلّا اتهّموا بالخيانة العظمى، ولم تَنْجَلِ الرؤية إلّا بعد مرور الأحداث، وصحوة الأفكار من وقع الصدمات.

وكان الغرض من هذه الخطة المرسومة أن تصل شعوبنا إلى هذه المرحلة بالذات، مرحلة اليأس فالاستسلام، وعندئذٍ يحقّق العدوّ هدفاً عظيمًا من أهدافه التي تمكّنه من التوسّع الذي وضعه في خطته للمستقبل.

فعلينا أن نقرّر من الآن: إمّا نكون عبيداً لحكم اليهود، أو طريدين مشرّدين من بلادنا أو قتلى. وإمّا أن نكون أمّةً مسلمةً حقّاً تُعِدُّ فِعلًا وبجدٍّ الحريص على الحياة والمجد وابتغاء رضوان الله لحرب النصر من الآن. وعلينا مع هذا الإعداد أن لا نستعجل النتائج، وأن نحقق إسلامنا أوّلًا، ونخطط بصبر وسعة صدر وبنفس طويل للحرب المقبلة المنصورة بنصر الله.

أمّا الفقاعات التي تتعلّق بها الآمال لمدة وجيزة، ثم تخلّف الخيبة حينما تنفجر بأصوات الهزيمة، فإنهّا لعبة تقع ضمن مخطط العدو، أو ممارسة جاهلة غبيّة يمارسها مراهقو الكفاح، وهم منعزلون عن البصيرة الإسلامية، والقيادة الواعية الرشيدة.

إنّ من التآمر الخائن مع العدوّ، أو من الغباء الكبير، أن ندخل حرباً بإرادتنا مع عدوّنا، ونحن نعلم أنّ احتمال الهزيمة راجح على احتمال النصر، وكذلك حينما ندخل لعبة استعراض العضلات، أو لعبة التظاهر الفارغ لغرض كسب سياسي أو مالي من غير جهة العدوّ، ونحن لا نقصد

حرباً أو لا نقدر عليها، فنعطي بذلك عدوّنا مبرّراتِ حربنا التي ينتصر فيها علينا.

إنّ من أخطر وسائل الحرب النفسية التي نمارسها نحن بأيدينا ضدّ شعوبنا، تفريغَ شحنات الأمل بالنصر، وترسيبَ ركام اليأس، وذلك بإثارة الأمل والتفاؤل، واتباعه بمشاعر الخَيْبة والانكسار.

إنّ تكرير هذه الحركة النفسية في لعبة التجارب الخاسرة تولّد اليأس القاتل لا محالة. وبعد اليأس القاتل يأتي الاستسلام الحزين.

فإذا كنا لا نريد أن نصل إلى مرحلة الاستسلام الحزين، فعلينا أن لا نقبل لعبة التجارب الخاسرة، إنها خديعة خبيثة في حالة التآمر، وغباء مفرط في حالة سلامة النيّة.

إنّ طريقنا مع عدوّنا طويلة، وعلينا أن لا نستعجل النتائج، ويوم الظفر لا محالة قادم.

ولكنّ سبيلنا الوحيد إليه منهج محمد بن عبدالله ﷺ.

خاتمة عامّة

هذه البصائر كتبتها وأنا ممتلىء بالحزن والهمّ والغمّ من أجل أمتي التي تنكّبت سواء السبيل في معظم أشكال مسيرتها، فراجعتُ نفسي في كثير من سوابق مفاهيمي وقناعاتي، وصحّ عزمي أن أستأنف النظر بحثاً في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مستعيناً بالله، داعياً أن يفتح لي بالبصائر، لعليٍّ استبصِرُ منهاج الحق، وصراط الله للمؤمنين.

وكان قد ألحّ عليَّ إخوة مؤمنون كثيرون أن أكتب في هذا الموضوع تبصيراً وإعذاراً، وكنت أخشىٰ أن يحمل عملي هذا على غير قصده، فأحجمت ثم تتابع الإلحاح فعزمت، ثم باشرت تسجيل أفكار هذا الكتاب.

ولما انتهيت من صياغته، وسطّرت معظم مبيّضته زارني ناشر كتبي حفظه الله الاستاذ «محمد علي دولة» فأعلمته بالكتاب، فذكر لي أن كاتبين كبيرين من دعاة الإسلام المعاصرين قد كتبا حول أفكار كتابي هذا، وهما الأستاذ الكبير الداعية الشيخ محمد الغزالي، والأستاذ الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي، فرجوته أن يرسل إليَّ نسخة من كلٍّ كتاب من كتابيهما، فأرسلهما إليَّ بالبريد جزاه الله خيراً، فلما تصفحتهما وجدت نفسي متلاقياً كثيراً مع أفكارهما، مع اختلاف في منهج البحث، فاطمأنَّ قلبي، ورجوت من سَبْقِهما إلى نشر ما كتباه، أن يُحْمَلَ عملي عند جميع رجال العمل الإسلامي على سلامة القصد، وابتغاء مرضاة الله.

وأكرّر أنني أوجّه هذه البصائر لنفسي أوّلاً، ثمّ إلى إخواني في الدين، الباحثين عن الحق، والذين يبتغون رضوان الله وجنّات النعيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وأختم بمقالة شعيب عليه السلام:

﴿ إنْ أريدُ إلاّ الإصلاحَ ما استطعتُ، وما توفيقي إلاّ بالله، عليه توكلتُ، وإليه أنيبُ ﴾ (٨٨ من سورة هود).

وكان الفراغ منه في غرّة ربيع الثاني من سنة ١٤٠٣ هجرية.

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

فهرس

أمثلة :

(الباب الثاني)

الفهم الاسلامي الصحيح لقضية اتخاذ الأسباب مع التوكّل على الله

(الباب الثالث)
الدين الحقّ منهج وسط بين التفريط والغلوّ

(الباب الرابع)
الجهاد في سبيل الله

كتب للمؤلف

أ ـ سلسلة في طريق الإسلام:

١ ـ العقيدة الإسلامية وأسسها (مجلد كبير)

٢ ـ الأخلاق الإسلامية وأسسها (مجلدان كبيران)

٣ ـ أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها (مجلد)

ب ـ في سلسلة أعداء الإسلام:

٤ ـ مكايد يهودية عبر التاريخ

٥ ـ صراع مع الملاحدة حتى العظم

٦ ـ أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها (التبشير، الاستشراق، الاستعمار).

٧ ـ الكيد الأحمر

٨ ـ غزو في الصميم

٩ ـ كواشف زيوف في مذاهب فكرية المعاصرة.

ج ـ كتب متنوعة:

١٠ ـ سورة الرعد (دراسة أدبية، لغوية، فكرية)

١١ ـ روائع من أقوال الرسول ﷺ

١٢ ـ ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة

١٣ ـ الأمثال القرآنية

١٤ ـ قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل

١٥ ـ آمنت بالله (شعر)

١٦ ـ ترنيمات إسلامية (شعر)

١٧ ـ مبادىء في الأدب والدعوة

١٨ ـ الوجيزة في العقيدة الإسلامية

١٩ ـ الأمة الربانية الواحدة

٢٠ ـ الصيام ورمضان في السنة والقرآن.

٢١ ـ براهين وأدلة إيمانية.

٢٢ ـ أقباس في منهاج الدعوة وتوجيه الدعاة (شعر).